الدومينو

رواية

سعد سعيد

الإهداء:

إلى التي كان لها الفضل في إتخاذ قرار الخوض في

غمار هذا التعب اللذيذ

إلى حبيبتي

سعد

كم هو غريب الإنسان؟! نقابل شخصا لا نعرفه فنكرهه ، وآخر نحبه فـــورا من دون أن يكون هناك سبب منطقي، أمر وارد، وكذلك هي المدن، ندخل مدينة ما، فنكرهها على الفور،وأخرى لا تترك في نفسنا أثرا، وثالثة ما إن نطأها حتى نعشقها!!!. وهذا هو ما حدث لـي عندما رأيتك في المرة الأولى أيتها المدينة العزيزة، حين وصلت إليك لكي أبدأ دراستي الجامعية الأولية، فقد أحببتك كثيرا، وهاأنذا أعود إليك بعد مضي كل تلك السنين على إنهاء دراستي النهائية في جامعتك الكبرى و ما تزال جذوة عشقي لك متقدة في أعماقي، وما أزال أشعر نحوك بما لم أشعر به نحو المدينة التي ولدت فيها هناك بعيدا إلى الغرب من الدولة!. إيه يا قدس لقد رجعت إليك بعـــد طول فراق فهل ستهبيني دفقات الفرح التي تعودتِ أن تهبيني إياها قبل أكثر من عشر سنين؟!. لا بأس فأنا سأعرف الجواب بكل تأكيد لأني سأمكث في أحضانك أسابيع ما دامت لجنة الإعداد لاحتفالات الألفية الرابعة مستمرة بعملها، ومن يدري؟ لربما تصبح هذه الأسابيع أشهر إذا ما رُشِحتَ إلى لجنة التشريفات التي ستستقبل آلاف الشخصيات العالمية المهمة التي ستأتي إلى عاصمة الدنيا، القدس، للمشاركة في هذه الاحتفالات؟ فإلى هذا الأمر كان مدير اللجنة قد ألمح، ولم لا؟ فأنا أستاذ تأريخ ولاختصاصي علاقة وثيقة بالموضوع، ولكن مالي ولهذا الآن؟! فحسبي أن يكون عندي مورد مالي إضافي يجعل من أيامي هنا حافلة بكل تأكيد، فأنا يا قدس لم أتزوج بعد وبي نهم إلى مسراتك وملذات تل الحبيب، تل الحبيب!!! يا لقريحة اليهود الجهنمية! من أين أتوا بهذا الاسم الذي لا يخطر بالبال لمدينة الملذات التي أقاموها على ساحل البحر قرب يافا؟! أين الحب مما يحدث هناك؟! إلا إذا كان المقصود هو حبهم للمال؟. ولكن الحق يجب أن يقال، فهم يستحقون ما يجنونه من أموال بسبب ما يبذلونه من جهود لتهيئة كل ما يخلب لب الرجال ويسلبهم عقولهم وأموالهم! والنساء!!! من أين يأتون بهن دائما رغم أنهم لا يسمحون لنسائهم بالعمل هناك!!!، أنا مشتاق إليك يا تل الحبيب، ولكني مشتاق أكثر إلى القدس الآن، فدعني اشبع نهمي إليها أولا وبعدها لن يبعدني عنك إلا الدقائق المعدودات التي سأقضيها في القطار الطائر إليك يا تل الفسق اللذيذ.

إيه يا قدس، يا مدينة الفرح العارم، من أين أبدأ طقوس بثك الأشواق التي تملكتني طوال سنين الفراق؟ أمن قلبك المقدس، حيث التقى والورع داخل حرمك الشريف، وحيث الجمال في منطقة باب يافا؟ أم من الخليل ضاحيتك الجنوبية الكبرى؟ من رام الله في الشمال؟ أم من سواحل البحر في الشرق أو ضاحية عبد العليم في الغرب؟ من أزور أولا؟ هضابك الحلوة؟ أم وديانك الخلابة؟ أقسم لك بأني سأزور كل مناطقك التي حرمت منها طويلا فانتظرني يا وادي مريم وأنت يا وادي ربابة، سأزور جبل الزيتون وأذهب إلى بئر أيوب، سأفطر يوما في بيت لحم وأتغذى في حبرون، أنا مشتاق يا قدس حتى إلى الحزن الكامن في حواريك القديمة، سأستشفه في الآصال! ليت شعري هذا الحزن من أين يأتي وأنت المدينة التي دانت لها كل أسباب السعادة؟! ترى أي قدر جعل هذه المدينة عاصمة هذه الدولة التي سادت العالم فأصبحت هي عاصمته؟! أي عدل يمتلكه هذا القدر وأي إنصاف؟ والله لا يليق بك يا قدس أقل من هذا، ومحظوظ من سكنك وشقي من لم يزرك. ولكن!!! ما لهؤلاء الذين أراهم أمامي الآن؟! مالهم يكادون يركضون في سيرهم متجهمين وقد كبت أعينهم وكأن أحاسيسهم قد تبلدت؟! مالهم يسيرون كالآلات مهمومين ولا تستطيع أن تميز وجوههم السمر التي كانت مليئة بمظاهر الصحة عن وجوه الأجانب الكالحة الآن؟! أهؤلاء هم من بقيت أحسدهم طوال الأعوام العشرة التي قضيتها أستاذا في جامعة تلك المدينة المستظلة بظلال جبال الأطلس والنسيان؟! كنت أتخيلهم مسرورين وفرحين طوال الوقت بسبب الانطباعات التي ترسخت في داخلي من أيام الدراسة! ولكنها لم تكن مجرد انطباعات خاطئة فقد كانوا كذلك بالفعل، فما الذي حدث الآن؟! وما الذي طرأ؟ ما لهذا الرجل يسير محني الظهر وكأنه يحمل على كتفه كل هموم الدنيا، وما لذاك تدور عيناه في محجريها بسرعة وكأنه خائف من أمر جلل لا يعرف متى سيحدث؟! وهذا الكهل الأشعث الذي يبدو كلطخة سوداء في لوحة بهيجة الألوان، ما له يسير تائها كالأبله؟ وما هذه الرزمة التي يضمها إلى صدره؟ ما له؟ ... ماذا؟! رباه! أيمكن أن يكون هو؟!!! مستحيل! ولكنه هو، لا يمكن أن أخطئ في تمييزه وهو أستاذي الكبير الذي أشرف علي خلال دراستي النهائية في الجامعة! ولكن! ما الذي حدث له؟! وما هذه الحال؟! لقد دنا مني ويبدو أنه لم يعرفني!، لأعترضن طريقه وأكلمه،

ـ أستاذ واثق، كيف حالك؟

آه لقد ابتسم، أو على الأقل شبح ابتسامة، ولكنها كافية لأتأكد أنه هو. لقد توقف حائرا!!! ولكنه لا ينبس ببنت شفه!

ـ ألم تتذكرني يا أستاذي العزيز؟ أنا شهيد، لقد كنت أحد طلابك الذين أشرفت عليهم في الجامعة قبل عشرة أعوام!

ـ هه. كيف هو حالك؟

وأخيرا نطق، الحمد لله، إذا ، هذه هي فرصتي لكي أجره إلى المزيد من الأحاديث عليّ أعرف منه ما حل به؟!

ـ أنا ذاهب لتناول الطعام في مطعم قريب، فهلاّ تأتي معي؟ أرجوك يا أستاذ.

آه هاهو يمشي معي كطفل مطيع! رباه ما هذا الوجه الشاحب؟ وما هذه النظرة الزائغة؟! أين هذا الإنسان المتهاوي من ذلك الرجل القوي الشخصية الواثق من نفسه الذي كانه؟! أين ذلك الرجل الرياضي القوام من هذا الشبح النحيل؟!.

ـ هذا هو المطعم، تفضل يا أستاذ.

تلك مائدة خالية لأقوده إليها. وهاهي قائمة الطعام ظاهرة على الشاشة، لنر ما يريد تناوله؟.

ـ ماذا ستطلب يا أستاذ؟

ـ شاي.

ـ ولكن!

ـ شاي.

شاي، شاي! ما له يردد هذه الكلمة كالببغاء؟! لأطلبن له شايا، ولكن! تبا، هذا يعني أني لن أستطيع أن أصيب شيئا من طعام رغم جوعي لأنه لن يكون أمرا لائقا أن أطلب الطعام لنفسي فقط!!! ولكن لا بأس لأشربن الشاي وأستمع إلى ما يمكن أن يقوله، فالمهم هو أن أعرف ما الذي جرى له!.

ـ عذرا يا أستاذ، ولكن ما الذي حدث لك؟.

ـ لا أدري.

لا أدري!!! الآن بدأ يخيفني حقا! فهو لا يمكن أن يكون طبيعيا! وما هذه الأوراق التي وضعها على الطاولة بعدما كان يضمها إلى صدره كطفل عزيز؟! ترى هل كنت في زيارة إلى المتحف يا صديقي؟! فأنا ل م أر ورقة منذ زمن طويل جدا! أي سر تنوء بحمله يا أستاذي العزيز؟ وكيف سأستطيع أن أجعلك تبوح به لي؟! هيا تكلم وأفصح عما في داخلك!.

ـ تكلم يا أستاذ، قل لي، ما الذي جرى؟.

يبدو وكأنه لم يسمعني هذه المرة، إنه يحدق في فراغ وقد خلا وجهه من أي تعبير!!! ما الذي يدور في داخلك؟ وأي قدر سحقك يا أيها المسكين؟ أمريض أنت، أم فقدت لتوك حبيبا؟! رباه! كيف سأجعله يتكلم وهو تائه هكذا في عالم آخر؟! ولكن! ما هذا؟!!!

ـ أستاذ، إلى أين أنت ذاهب؟! فالشاي،

ولكن فليذهب الشاي إلى جحيم، ما له حمل أوراقه ومضى هكذا فجأة من دون سابق إنذار؟! هل ألحق به، أم أتركه لشأنه؟ ماذا؟ أتركه لشأنه!!! بل سأ... لقد توقف في مكانه! و ها هو يستدير ببطْ نحوي!!! حمدا لله لقد عاد أدراجه! والله لأجعلنه يتكلم اليوم حتى إذا أمضيت نهاري كله معه، ولكن ماذا عن الدوام المسائي في اللجنة؟!. لا بأس، سأختلق عذرا لتغيبي عنه فيما بعد، فالمهم الآن هو، ولكن!!! ما هذا الذي يفعله الآن؟ لقد رمى الأوراق على المائدة أمامي وقفل راجعا!!!

ـ أستاذ!

توقف واستدار نحوي، سيقول شيئا!

ـ الثعلب.

ـ الثعلب؟!

ولكن عن أي ثعلب يتكلم؟! ولماذا قال الكلمة وصمت؟! لماذا يتصرف هكذا؟! آه، ما الذي سيقوله هذه المرة؟!

ـ إنه موجود، خذ حذرك منه.

ـ نعم. نعم، سأفعل، ولكن، إلى أين أنت ذاهب؟

اللعنة، لم يجبني بل استدار وذهب، ما هذا النشاط الذي دب في جسده فجأة؟! إنه يكاد يركض في مشيته! لألحقن به قبل أن يصيبه شيء. لقد خرج من الباب وها هو يتجه يسارا، لا بأس، سأستطيع اللحاق به بسهولة، ولكن! الأوراق، الأوراق، لقد بقيت على المائدة ويجب أن أرجع لآخذها قبل أن تضيع، ولكن! ماذا عنه؟! فهو سيبتعد!!!. هيا أسرع يا مأفون تناولها والحق به ستستطيع إدراكه إن أسرعت قليلا. لقد مضى من هنا، هيا، هيا. لا أثر له حتى الآن! يجب أن أسرع أكثر إذا ما أردت أن أدركه، ولكن! كل هؤلاء الناس! من أين أتوا؟ وما هذا الزحام؟ آه لقد نسيت! إنها فترة الغداء وقد غادر معظم الموظفين مكاتبهم، ولكن لعنهم الله، أيجب أن يتغذوا؟. أين هو؟ لم تقع عيني عليه بعد، يا لله! ما هذه الفتاة الحلوة؟ يا لجمال شعرها الأشقر! لابد أنها أوروعربية، يا لهوان الرجولة! أتريدين إغرائي بنظراتك هذه؟ أنا لا أحتاج إلى إغراء، إن هي إلا ابتسامة واحدة وستريني في أحضانك، هيا امنحيني إياها، هيا، ولكن! ما هذا الذي أفعله؟ لقد نسيت الأستاذ! الأستاذ، عذرا يا حلوتي ما كنت لأخيب أملك لولا ما أنا فيه، ثم هل كان يجب أن لا تظهري إلا في هذه الظروف؟. ولكن أين هو الأستاذ؟! أنا أركض منذ أكثر من عشر دقائق! فأين هو؟ هل تجاوزته من دون أن أنتبه؟ أنا أشك في ذلك، فهل دخل هو في شارع فرعي؟، وهل كان هناك مثل هذا الشارع؟! رباه ما هذه الحيرة؟ وما الذي سأفعله الآن؟ يجب أن أقرر، هل أمضي قدما، أم أرجع أدراجي؟ هيا قرر، ما الذي ستفعله؟ وما الذي أفعله؟! لأرجع وأتفحص وجوه المارة عليّ ألقاه!. إلى أين ذهبت يا مسكين؟ ولم أنت خائف من إخباري بما رزئت به؟ أنا لا أبغي سوى مساعدتك، ولكن أين أنت ألان؟. وتلك الفتاة، أين هي؟ لقد اختفت! ترى، هل كانت فرصة لمغامرة لذيذة؟ ولكن، ما هذا التساؤل؟ فهي قد اختفت وأنا لم، آخ، ما لهذا الأحمق يمشي كالأعمى وهو يصطدم بالناس بعنف؟! لقد آلم كتفي ولم يحمل نفسه مشقة الاعتذار! إنه يتصرف وكأنه أحد عملاء (جاد)! ولكن ليلعنه الله فهذا لا يعطيه حق الاصطدام بالناس هكذا وإيذاءهم!!!، بل هذا والله يعطيه الحق وأكثر، فمن الذي يجرؤ على الدخول في مشاكل مع هؤلاء الشياطين؟!. ولكن!!! ها هو باب المطعم مرة أخرى، فأين الأستاذ إذا؟! لقد أضعت أثره! يا للحيرة! إلى أين ذهب؟ وما الذي سأفعله

الآن؟! لقد اختفى وبقيت أوراقه معي!، والآن كيف التصرف يا ذكي؟. تبا، لأرجع إلى مقر اللجنة الآن وبعدها يكون لكل حادث حديث.

****

وأخيرا انتهى الدوام المسائي، رباه! لقد تصورت أنه لن ينتهي وأنا أعاني من هذا الفضول الذي امتلكني تجاه هذه الأوراق النائمة الآن في درج مكتبي!!! لا أعرف لماذا أتوقع أن مفتاح لغز الأستاذ كامن فيها! فهو لم يقل عنها شيئا، بل ألقاها ومضى!!! يا هذه الأوراق يجب أن تساعديني فأنا تحملت بسببك حرجا كبيرا من زملائي اليوم، فقد تندروا علي عندما رأوك في يدي، يا لمسرور اللعين، لقد غرق في الضحك بعدما قال أني أحمل هذه الأوراق لكي أبدو كأستاذ تأريخ وجعل الآخرين يضحكون طويلا! ولكن لا بأس فقد كانت دعابته في النهاية موفقة، ولكني لم أستطع أن أقول لهم شيئا بعدما رأوا أنها مكتوبة باللغة العربية القديمة التي لا يفقهون منها شيئا، لأحملها الآن و أعود من فوري إلى غرفتي في الفندق وأحاول أن أتبين أمرها عسى أن افقه أنا، شيئا منها!

****

الآن وبعد أن شبعت آن الأوان لكي أحاول فكّ رموز هذه الأوراق. عجبا لك يا أستاذ واثق!!! ما حاجتك إلى هذه الأوراق القديمة؟! ولكن لأقرأ عسى أن أفهم شيئا.

كلا، لن أستطيع الفهم!!!. يجب أن أستعين بقناة الترجمة في شبكة المعلومات المرئية، ولكن! هذه الأوراق! يبدو أن الأستاذ كتبها بنفسه باللغة القديمة!!! لم أكن أعرف أنه ضليع بها إلى هذه الدرجة!!! ولكن، لماذا فعل ذلك؟! وما الذي كان يبغيه؟! وهذه الأوراق الصفراء التي تكاد تبلى من قدمها! من أين أتى بها؟ ومن هو كاتبها؟! أواه، ما هذه الأسرار التي أحاطت بي طوال هذا اليوم؟ يجب أن أبدأ بالترجمة فورا، سأبدأ بأوراق الأستاذ ولنر ما سيكون؟!.

-1-

وأخيرا سأحقق أمنيتي، فلطالما تمنيت أن أكتب بقلم كما كان يفعل الأقدمون، وهاأنذا أفعل. لقد تملكتني هذه الرغبة منذ زمن بعيد، أو بالتحديد منذ أن أعطاني والدي (رحمه الله) رزمة الأوراق الوحيدة التي كان يمتلكها ويحتفظ بها وكأنها كنز ثمين رغم أن الكثير من الناس لا يعرفون بوجود شيء اسمه ورقة!. لقد كانت لوالدي هو أيضا أمنية ولكنه لم يستطع تحقيقها، فقد كان يريد أن يقرض الشعر وهو الأمر الذي اكتشف في النهاية انه قد غدا مستحيلا في ظل الثقافة الأستيرية التي كتمت أنفاس البشر وجردتهم من مواهبهم الإنسانية ، ولان اللغة العربية فقدت كل المقومات التي كانت تجعلها لغة شعرية أيضا. أما أنا فسوف أحقق أمنيتي رغم انف الأستيرية لأني ما زلت اعشق المهارات اليدوية والفكرية التي كاد ينساها الناس في ظل الظروف التي وصلنا إليها.

لقد عانيت كثيرا في البحث عن قلم يمكن أن اكتب به هذه الأوراق ، ولم أعثر عليه إلا بالمصادفة، فقد وجدته قابعا في أعماق صندوق مهمل في أحد أركان حانوت لبيع الأشياء الأثرية التي أهوى اقتناءها. كان صندوقا قديما جدا، جدا ولكنه مهمل لفجاجة صنعه ، اشتريته بثمن بخس فلم أجد فيه غير القلم وأوراق صفر قديمة كثيرة ومتناثرة كتبها شخص ما منذ زمن سحيق . كانت غير مرتبة ولكنها مرقمة وأستطيع أن أعيد ترتيبها إذا ما رغبت يوما في قراءتها ، أما الآن فأنا لا أرغب إلا في الكتابة لتحقيق حلمي القديم بهذا القلم الثمين والحبر الذي ابتكرته بنفسي لأني لم ابلغ من الجنون درجة تجعلني أحاول أن ابحث عن حبر في الأسواق لأنه شيء منقرض منذ قرون.

وهاأنذا اكتب هذه الأوراق لكي تكون تاريخا مقروءا ذات يوم ، فأنا اكتب للمستقبل لأني أستاذ تاريخ ويسيرني إحساسي العميق به. أنا لم اطلع أحدا على أوراقي هذه، وحتى لو فعلت ذلك فان أحدا ممن حولي لن يفهم ما كتبت رغم إنهم جميعا عرب، أما عن المستقبل فانه لن يبخل بكل تأكيد بعالم واحد أو حتى عدة علماء يستطيعون فك رموز اللغات القديمة وعندها تكون لأوراقي هذه نكهة التاريخ الحقيقية بعيدا عن لعنة التقدم التي أصابت كل جوانب حياتنا الحاضرة فسهلتها ولكنها سرقت منا كل مواهبنا وكفاءاتنا التي كانت تميزنا عـن بقية المخلوقات، ولا اقصد هنا غير الأستيرية اللعينة التي عمت عالمنا وآمل أن لا تكون موجودة عندما يحين موعد قراءة أوراقي هذه بعد زمن طويل.

واختصارا أقول إن الأستيرية ظهرت مصطلحا قبل خمسة عقود أو ستـــة، و أطلق على العصر الذي نحن فيه لانتشار مفاهيم وظواهر جديدة مع اندماج الذكاء البشري مع الذكاء الصناعي، وتكوين مسخ لا اعرف كيف يمجده العلماء وتهلل له الجماهير المسحورة به؟! ويعود اصل هذه الكلمة إلى ما قبل أكثر من قرن حين توصل فريق علمي في أحد جامعاتنا إلى اختراع أول حاسوب يفكر ويستنتج من دون تدخل البشر، ومزود فضلا عن ذلك بذاكرة هائلة السعة. لقد أطلق على هذا الجهاز اسم (أستير)

تيمنا باسم أم رئيس الفريق العلمي الذي اخترعه. لم يكن ذلك الجهاز البدائي يمتلك من الذكاء إلا بقدر ما يمتلكه طفل في الخامسة أو السادسة من عمره، ولكنه كان بداية ناجحة لسلسلة من التطويرات التي ظهرت في الأجيال اللاحقة منه، حتى أخذت تلك الأجهزة تنافس المراهقين الآن في ذكائها، والذي يخيفني هنا هو تلك الأجيال التي ستظهر حتما وهي تحمل ذكاء رجال محنكين! أنا لا اعرف ما الذي يمكن أن تفعله بحياة البشر! وماذا لو فوجئ العالم بمؤامرة أستيرية تقوم بها الآلات نفسها هذه المرة؟! ترى ما الذي سيقوله حين ذاك عن المؤامرة اليهودية؟! آه لو تعرفون مدى الخوف الذي ينتابني عندما أقف أمام أحد تلك الأجهزة الشيطانية التي أصبحت الآن تناهزني في الحجم بعد أن كان أستير بحجم بناية كاملة من طابق واحد. لا ادري ربما يكون رعبي غير مبرر؟ ولكنه موجود! فقد أطلق أستير العنان للعلم لكي يجمح ويصل إلى آفاق لم يكن يحلم بها إنسان، ولكنه كان صاعقة على فكر الإنسان وروحه لأنهما لم يعودا يجاريان العلم فباتت الموازنة بينهما مختلة! ولا اعرف لماذا يعني هذا بالنسبة لي الخطر الأكيد؟ المهم الآن هو أن الثقافة والفكر والفن أصبحت في هذه الحقبة الأستيرية مؤللة لا يحتاج فيها المفكر والمثقف والفنان إلا إلى طرح ما يدور في باله من أسئلة على جهاز حتى ينال كل الأجوبة التي كانت في السابق ترهق الإنسان وتعذبه قبل أن تسلمه قيادها، ولكنها على الأقل كانت تجعله يمتلك مصيره الذي أصبح الآن غامضا.

****

أنا أستاذ تاريخ في جامعة ابن رشد الكبرى في القدس عاصمة دولتنا العربية العظمى، وأن تكون أستاذا جامعيا في مثل هذه الدولة لهو شيء رائع، لأنه يعني أول ما يعني موردا ماديا ثابتا وضخما، ويكفي للدلالة على ضخامة هذا المبلغ أن أقول أني اصرف شخصيا في الشهر الواحد ما تصرفه خمس أسر أو أكثر في السنة في معظم دول أمريكا الشمالية الفقيرة، و أنا إذ أقول هذا لا أريد أن أتفاخر ولكني أريد أن اذكر حقيقة مهمة فقط ، إن التخلص من الهاجس المعيشي يعني بالتأكيد الاستقرار والأمن، يعني حياة هانئة وسعيدة بعيدة عن مخاوف الجوع والتشرد، وأخيرا يعني حياة أسرية مستقرة، لان زوجتك إذا ما كانت سعيدة وراضية وأطفالك أصحاء، يتكفل بهم الضمان الصحي وتقوم الخدمات الطبية الراقية بضمان صحتهم ومن ثم مستقبلهم، فانك ستشعر بالاستقرار والسعادة بكل تأكيد.

وقبل أن أسترسل أكثر سأتحدث قليلا عن والديّ لكي يعرفني قارئ أوراقي هذه جيدا، أما بعد ذلك فأني سوف أبحر في خِضِمِّهَا مسلما نفسي لرياح الفكر وتيارات الأهواء، سأدوّن كل ما يخطر ببالي على الفور لأني لم أتعود فعل الكتابة وأخاف أن أضيع الأفكار إن ترددت في كتابتها.

كان والدي الابن الوحيد لتاجر غني وطبيبة من الإقليم الشرقي، اظهر تفوقا واضحا في اللغات منذ طفولته المبكرة الأمر الذي دفع معلميه إلى تشجيعه على التقدم في مجال اللغات، وكان هذا هو ما فعله حيث تخرج من الجامعة الأولية بدرجة امتياز في اللغة العربية الحديثة، ولأنه كان قد اختار هذه اللغة انصياعا منه لنزوة كانت قد تملكته في حينها سرعان ما زالت عندما تأكد أن هذه اللغة أتفه من أن تدرس، فقد آثر أن يتخصص باللغة العربية القديمة التي كانت معشوقته منذ الصغر لأنه كان مولعا بالشعر العربي القديم الذي كانت كتبه النادرة جدا (شأنها في ذلك شأن كل الكتب الأخرى) لا تتاح إلا للأثرياء من محبيها، وكانت درجته النهائية في الجامعة الكبرى (جيد جدا) وهو ما لم يفعله طالب منذ ثلاثة قرون خلت في كلية اللغة العربية.

أصبح والدي بعد تخرجه أستاذا في الجامعة، ولكنه كان ملولا، لا يستطيع أن يبقى في مكان واحد مدة طويلة، ولذلك لم يكن يمضي في الجامعة الواحدة أكثر من عام أو عامين أحيانا حتى يشد الرحال إلى جامعة أخرى في محافظة أخرى، أو حتى في إقليم آخر، وكان خلال ذلك التنقل يمارس هوايته المفضلة في البحث عن الكتب القديمة وشرائها إن أمكن، ولكنها كانت تزداد ندرة وغلاء على مر السنين. وفي جامعة كبرى في الإقليم الغربي التقى بأستاذة طبيعيات جميلة ألهبت مشاعره و سلبت لبه، وعندما طلبها للزواج ووافقت كان من حسن حظه أن الاختبارات الطبية الإجبارية التي أجرياها أثبتت توافق أنسجتهما، الأمر الذي مهد لزواجهما بسرعة، فودع بذلك حياة التنقل لينتهي به المطاف أخيرا في القدس حسب رغبة زوجته الجميلة، وكنت أنا الطفل الأول الذي ولد لهما وكذلك كنت الأخير .

****

أنا عندما استذكر طفولتي أدرك مدى خطأ المدعي بأنه صنع نفسه بجهده وإرادته! فقد رُبيتُ وفق الطراز المعتاد في بلد يتبوأ مركز الصدارة بين دول العالم من ناحية الاهتمام بالطفولة، بل أن دولتنا هي الدولة الوحيدة التي تنحني إجلالا للطفولة، وتجند كل طاقاتها لخدمة الأطفال ورعايتهم وتربيتهم التربية التي تصنع منهم رجالا يصنعون التاريخ ويقودون العالم. إن الأشخاص الذين يعملون في الحضانات ورياض الأطفال هم من أعظم المربين الذين يمكن أن يُعهَد بطفل إليهم، إذ يتم اختيارهم من المتميزين من خريجي الجامعات الكبرى ليخضعوا إلى دورات تأهيلية مكثفة تستمر لسنوات، و لأنهم يعانون كثيرا حتى يستحقوا أن يطلق عليهم لقب مربي فان مدخولاتهم هي الأعلى في المجتمع. أما الأطباء (وخاصة أطباء الصحة النفسية) الذين يعملون في حضانات الأطفال ورياضهم فإنهم لا ينالون هذا المركز إلا بعد سنين طويلة يقضونها في مختلف المشافي النموذجية المنتشرة في أنحاء الدولة،

وعندما يبرهن أحدهم على مقدرة متميزة ونباهة ملحوظة في عمله ينقله المسؤولون إلى حضانة أو روضة تكريما له لتميزه.

إن السن القانونية لقبول الطفل في الحضانة هي الثالثة من العمر، أما قبلها فان الأم هي التي تكون مسؤولة عن تربية أطفالها، ولا بديل عنها أبدا من وجهة نظر المجتمع و القانون إلا في حالات نادرة جدا. وإذا كانت الأم موظفة فأنها تفرغ لتربية طفلها مع احتفاظها برواتبها ومخصصاتها كاملة حتى يبلغ السن القانونية لدخول الحضانة. ولذلك نَمَوتُ وأنا صحيح الجسم سليم العقل وفصيح اللسان لأدخل المدرسة الابتدائية. ولا ادري إن كان حب الكتب الذي ورثته عن والدي مع حب اللغة العربية القديمة التي لم أجدها إلا في الكتب، لأنها كانت الوحيدة التي تضمها في متونها، وما يعني كل ذلك من حس تاريخي، هو الذي نمّ ى حبي للتاريخ! أم هي القصص والروايات عن العصور الغابرة التي كان أبي يلهب بها خيالي! أم هو الحنين إلى الماضي الذي كنت اشعر به عندما كان يحدثني عن حياته الهانئة والسعيدة في كنف والديه!. المهم أني كنت أحب التاريخ كثيرا، ولفت ذلك أنظار معلمي المدرسة، وكان قرار اللجنة التربوية في نهاية الدراسة الابتدائية التوصية بإعدادي لدراسة التاريخ إذا ما استمر اهتمامي به خلال دراستي المتوسطة. وهو ما حدث فأنهيت دراستي الإعدادية وأنا اعرف أن اختصاصي في الجامعة سيكون التاريخ.

أنا اعرف إن كل ما أتحدث عنه ليس مهما للتاريخ، لأنه لا يهتم إلا بالمحصلة النهائية للأحداث ونتائجها، إلا أني أورد كل هذا لكي أبين فقط كيف أصبحت على ما أنا عليه الآن.

أن النظام التربوي في دولتنا هو الأكثر تقدما في العالم، وهو بالتأكيد الأكثر تكلفة أيضا، ولكن أليست تربية الإنسان هي العملية الأكثر أهمية في بناء الدول الحديثة؟ فما الذي يضر دولتنا الغنية لو صرفت جزءا من ميزانيتها الضخمة على هذا الجانب الحيوي والمهم؟.

ولا حاجة بي بعد هذا الإيجاز إلى أن اذكر باني راض عن نفسي وعن حياتي وممتن للظروف الاجتماعية التي ولدت في ظلها، ولكني اعرف بان هناك ملايين من البشر في دول أخرى سينهشهم الحسد، وتؤرقهم الغيرة إذا ما قرءوا أوراقي هذه (وحمدا لله لأنهم لن يفعلوا أبدا). أنا أشفق على مثل هؤلاء ولكني اشعر باني غير مسؤول شخصيا عن توزيع الثروات في العالم، ولذلك فإني لا أستطيع أن أقدم لهم ما يعوض حرمانهم، أنا أؤمن بأن الأفضل لهم هو أن يرضوا بما هم فيه لكي لا يتحول حلمهم في الوصول إلى المستوى الذي يعيش شعبنا في ظله إلى هاجس يحرمهم من الإحساس بالنعم المتوفرة لديهم بكل تأكيد. ولكنهم لا يملون من إلقاء تبعة ما هم مبتلون به من فقر وتخلف أو عدم استقرار على كاهل حكومتنا التي يدعون أنها تمتص دماءهم لكي نترفه نحن!!! أي منطق غريب هذا؟! أنا لا أفهم كيف يمكن أن يموت شخص ما في أمريكا مثلا بسبب المستوى العالي من الرفاهية الذي أتمتع به أنا!!! إن هذا غير معقول! ولكني مع ذلك أفهم لماذا يحقد الآخرون علينا، فالسبب واضح، وما هو إلا الحسد

والحقد، ولكن الذي لا أفهمه هو وجهة نظر بعض الفوضويين من أبناء شعبنا الذين يسمون أنفسهم الثوريين والذين يتشدقون بمبادئ إنسانية غريبة! هم يدينون الدولة، دولتنا! بدعوى أنها تستغل الشعوب الفقيرة فتزيدها فقرا لكي تزيد ثرواتها التي تنفق نسبة ضئيلة منها لتأمين رفاهية الشعب فيما يتكدس الجزء الأعظم منها في أيدي فئة صغيرة تزداد مع الأيام قوة ، أن وجود مثل هذه الفئة في مجتمعنا أمر لا أنكره ولا اعرف ما الذي يمكن أن تفعله بكل تلك الثروات، ولكنها لم تجمع ثرواتها إلا هنا، في بلدنا فما فيه من ثروات تكفي لإشباع كل طموح يريد أن يستزيد، أما عن استغلال الدول والشعوب الأخرى، فأنا لا اعرف شيئا عن ذلك ولا يهمني أن اعرف، لان الدول الأخرى هي المسؤولة عن مصائرها ومصائر شعوبها، فلماذا تقاعست عن التقدم لتصبح قابلة للاستغلال ولكني أستغرب لأمر الإنسانية التي تطلب مني أن أخاطر بمستقبلي ومستقبل أطفالي المضمون لكي يستطيع فرد آخر في دولة أخرى لا تستحق أن تكون دولة أن يعلم أطفاله كيف يحقدون على دولتنا ونظامنا! أنا أتمنى لو توقف الآخرون عن إلقاء اللوم عن حكومتنا بسبب المآسي والاختناقات التي تعاني منها بلدانهم! ولكنهم إن لم يتوقفوا فهذا غير مهم بالنسبة لنا، لان سياسيينا آلوا على أنفسهم ألا يسمحوا لأي طارئ أن يكدر أمن الدولة، وهم قادرون على ذلك بوجود اقتصاد متين و(جاد) ووجود الجيش القوي المسلح بأحدث الأسلحة التي تنتجها مصانعنا المسيطرة بالفعل على تجارة السلاح في العالم، صحيح أن هذا الجيش لم يلتزم بالدفاع عن الدولة فقط (فمن يجرؤ في النهاية على تهديدها) بل تدخل أحيانا في شؤون الدول الأخرى، ولكن هذا كان يحدث بناءً على طلب الأنظمة الموالية أو الصديقة في تلك الدول، ولم تتعد مهامه حدود حفظ النظام وإعادة سيطرة تلك الأنظمة على شؤون دولها، ولو كلف ذلك سقوط بعض الضحايا أحيانا.

****

لقد وصل مجتمعنا إلى أقصى درجات التخصص في جميع المجالات ولذلك أصبحت السياسة للسياسيين فقط، وكذلك العلم للعلماء والثقافة للمثقفين (هذا إذا اعتبرنا الثقافة الأستيرية ثقافة) ولم يكن لي أن أتطرق إلى السياسة لو لم أكن عضوا في لجنة إعادة كتابة التاريخ، مما يعني ضمنا" أن لي دورا وان كان غير مباشر في رسم سياسات الدولة من خلال اسهامي في تطويع التاريخ لخدمة أغراضها، كما أني حكيم رسمي امتلك امتيازات منحتني إياها الدولة (ونظام الحكماء نظام خاص بدولتنا ولي عودة أخرى إليه فيما بعد).

إن التاريخ علم وكل علم يكون عرضة للتطور ما دام تطور الإنسانية مستمرا، ولذلك يجب أن تكون عملية قراءة التاريخ متجددة لان الأحداث فيه تترى وتترابط، والتاريخ غالبا ما يكرر نفسه، وأنا عندما أقول التاريخ فاني اقصد نتائج الأحداث التي حدثت فيه، فالنتائج هي لب علم التاريخ لأنه لا

يمكن أبدا القياس على شيء أو حدث ما لم يصل إلى ذروته التي هي النتيجة، ومن ادعى غير ذلك فهو على خطأ، وأنا أقول ذلك بثقة لأننا نحن أساتذة التاريخ الحقيقيين ذلك أنه بدأ في أرضنا ولذلك نحن نتعامل معه بعناية فائقة لكي نستطيع من خلال فهمه أن نقود شعبنا إلى حيث نريده أن يكون. ومن اجل ذلك تشكلت هذه اللجنة قبل قرن ونصف وكانت مهمتها وما تزال تنقيح التاريخ وهي تتألف من خبراء استشاريين في مختلف الاختصاصات ذات العلاقة من تاريخ واجتماع و أدب وفلسفة وعلم نفس وغيرها، مهمتهم مراجعة الأحداث التاريخية وإبعاد ما يمكن أن يسيء إلى سمعة دولتنا ونظامنا منها، ولكن بشكل تدريجي لكي لا تظهر ثغرات في هذا التاريخ على المدى القريب، أما عن المدى البعيد فان هذه الثغرات حتى أن ظهرت، فلن يهتم بها أحد، فهكذا كان حال التاريخ دوما، كما انه لن يكون هناك أحد يمكن أن توجه إليه تهمة إحداثها. ومن اللافت للنظر في هذه اللجنة إن أكثر أعضائها يهود، وأنا شخصيا أرى أن هذا كان من حسن حظ هذه اللجنة الناجحة تماما لان اليهود أذكياء ولهم قدرة هائلة على التخطيط لآماد بعيدة. أن التنقيح المستمر كان عاملا مهما من عوامل حفظ البناء النفسي لشعبنا سليما من خلال الحفاظ على تماسكه ووحدته بإخفاء نقاط الاختلاف التي قد تبرز خلال الصراعات التي لابد من ان تكون قد نشبت في الماضي بين أبناء شعبنا الذي بالرغم من كونه متجانسا ألا انه يضم أيضا بعض المجموعات التي تختلف عن الأغلبية عرقيا أو دينيا أو حتى مذهبيا، ولن تكون هناك أية فائدة في إظهار هذه الخلافات لان كل شعب في العالم لديه ذكريات يريد أن يمسحها من ذاكرته، وهذا ما نفعله نحن أعضاء اللجنة، و رغم أننا لا يداخلنا شك في أن هذا الشعب الجبار لا يمكن أن يكون يوما قد بات مظلوما أو مهانا، يخجل أفراده من إعلان هويتهم إلا أننا نرى أن عملية التنقيح تبقى ضرورية خوفا من الخطأ في قراءة التاريخ.

****

خلال دراستي الجامعية الأولية والنهائية كنت موفقا جدا ولم أخيب أمل المجتمع فنلت درجة الامتياز الثانية في تاريخ العائلة، ولكنها كانت في الدراسة النهائية في هذه المرة. بعد التخرج أصبحت أستاذا جامعيا أنا أيضا، ولكني على العكس من والدي كنت أريد أن أتزوج بسرعة فاستقر رأيي بعد حين على طالبة من طالباتي وافقت على الزواج الذي تم بعد الإجراءات المعهودة، وقد آثرت زوجتي فيما بعد أن تكتفي بالدراسة الجامعية الأولية، الأمر الذي أسعدني كثيرا لان تفرغها لشؤون البيت كان واحدا من أهم الأسباب التي دفعتنا إلى إنجاب طفل ثان بعد طفلنا الأول، لأننا نحب الأطفال كثيرا.

أنا اعرف باني أطلت الحديث عن نفسي ولذلك سأتحاشى الحديث عن عائلتي أكثر، و أقول فقط باني راض عن المستقبل الزاهر الذي سوف يهيئه المجتمع لولديّ، فهما طفلان ذكيان بالفعل، وعلى ذكر الأطفال والخشية عليهم أريد أن أقول أني لا آبه أبدا بالأراجيف التي أخذت تتردد بين عامة الناس والتي

تتحدث عن نهاية وشيكة للعالم مع بدء الألف الرابع للميلاد! الأمر الذي يجعل الكثيرين يقلقون على مستقبل أولادهم!. ولا ادري من أين جاء هؤلاء المساكين بهذه الأفكار البعيدة عن العقل والمنطق؟! لقد حاولت جادا أن أتتبع جذور هذه الخرافات على مر التاريخ ولكني كنت اصطدم في كل مرة بالفجوة التي أحدثتها المؤامرة اليهودية في تاريخ العالم، وعن هذه المؤامرة وليس عن تلك الأراجيف سأتحدث في صفحاتي القادمة.

في بداية القرن الرابع والعشرين كان الشعور بالمرارة م ا يزال يسود الجاليات اليهودية في العالم، لأن الدولة التي كانوا قد أقاموها في أوغندا زالت من الوجود، و أنا لا اعرف الكثير عن هذه الدولة المنقرضة وكل ما اعرفه هو انه مع نهاية القرن التاسع عشر بدأت محاولات يهودية لإقامة وطن لليهود وذلك لجمع شتاتهم في العالم، وفي منتصف القرن العشرين تحقق هذا الحلم على ارض أوغندا، والغريب إن بعض المصادر النادرة جدا التي قرأتها تذكر إن المحاولات اليهودية كانت تهدف إلى أن يكون هذا الوطن على ارض فلسطين الأسطورية!!! على أساس أن توراة مزعومة دعت إلى ذلك! و يزعم البعض أن هذه التوراة كانت موجودة بالفعل وهي كتاب اليهود المقدس الحقيقي لا التوراة الحالية التي قرأتها بنفسي ولم أجد فيها ذكر ا لفلسطين والقدس أبدا"، إن التوراة في الحقيقة هي كتيب جميل يتمحور حول الوصايا التي أنزلها ربهم يهوه على أحد أنبيائهم القدامى، وبالمناسبة فقد عرفت من أحد أصدقائي اليهود أن كلمة "يهوه" مفردة من اللغة اليهودية القديمة تعني الحب.

لقد راجعت كل دوائر المعارف الإلكترونية في العالم فلم أجد ذكرا لموضوع (إسرائيل الفلسطينية) الموجود فقط في بعض الكتب القديمة جدا! وهو على كل حال أمر مستحيل لان اليهود لا يستطيعون أن يفكروا بهذا الأمر ولو مجرد تفكير لان دولتنا وإن ضعفت أحيانا خلال تاريخها الطويل، إلا أنها لم تبلغ من الضعف درجة تجعل من القدس عاصمتها الأبدية لقمة سائغة لأحد، وحتى لو افترضنا المستحيل وقلنا إن العرب كانوا أمة متفرقة ومتخلفة في النصف الأول من القرن العشرين، فهل من المعقول أن يجرؤ أربعة أو خمسة ملايين يهودي (هم تعداد دولة إسرائيل حتى نهاية القرن العشرين) على اغتصاب قطعة ارض من مائة وخمسين مليون عربي غاضب (هم تعداد العرب المحتمل آنذاك) ويجعلوها دولة لهم؟! المهم إن تلك الدولة أصبحت حقيقة واقعة على ارض أوغندا بسبب نفوذ اليهود القوي في عالم القرن العشرين ومساندة القوى الكبرى لهم، فبدأ تسلل اليهود وبإشراف الوكالة اليهودية إلى تلك الدولة المنسية في مكان ما من شرق أفريقيا والتي كانت تمزقها حروب القبائل المتشرذمة بسبب أطماع زعمائها الأمي ين منذ بداية ذلك القرن، وما إن استقرت المجموعات المتسللة في المستعمرات الزراعية التي أسستها هناك حتى بدأت المرحلة الثانية بتكوين منظمات شبه عسكرية، أو بالأحرى عصابات مسلحة، ولم يت نبه السكان الأصليون إلا بعد أن أصبحت تلك العصابات جيش ا تستطيع الوكالة أن تحقق به أهدافها وأخيرا اكتملت فصول المؤامرة الدولية الكبرى التي طبخت في أروقة منظمة الأمم المتحدة السابقة، باتخاذ قرار تقسيم البلاد بين اليهود والأوغنديين، هذا القرار الذي نفذه الجيش اليهودي بالقوة على الأرض هب الأوغنديون للمقاومة ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان واضطرت حكومات الدويلات المجاورة لأوغندا وبسب الضغوط التي مارستها عليها شعوبها التي

تربطها بشعب أوغندا صلات عرقية ولغوية ودينية متينة، إلى إرسال جيوش هزيلة لم يسبق لدول في التاريخ أن أرسلت مثلها إلى حرب! فكانت الحرب الأوغندية الأولى التي انتهت بهزيمة مأساوية لتلك الجيوش وإقامة دولة إسرائيل على جزء من الأراضي الأوغندية، ولم يمض سوى عقدين من الزمن حتى قامت خلالهما حرب أخرى ومناوشات عديدة، حتى قامت الحرب الصاعقة التي شنتها إسرائيل على الدول المجاورة لها، فابتلعت كل أوغندا! واحتلت مساحات واسعة من تلك البلدان! والغريب إن العالم الذي رسم حدود إسرائيل بقراراته، سكت سكوت الموتى عندما رآها تخرق بنود تلك القرارات! المهم إن الصراع بين الأوغنديين الذين كانوا يعانون من التخلف والجوع والحرمان، والسكان الجدد المتحضرين كان مريرا وقاسيا، وأنا وبرغم محبتي لليهود يجب أن أعترف بان أوضاعا كهذه لابد وان تولد ظلما، فقد عومل السكان الأصليون كمواطنين من الدرجة الثانية، وتعرضوا لشتى أنواع الضغوط لكي يغادروا البلاد ويلحقوا بموجات اللاجئين التي انتشرت في البلدان المجاورة منذ الحرب الأولى،حيث تشتت الملايين منهم وسكنوا مخيمات خاصة في كينيا وتنزانيا وزائير، أو هاجروا من هناك إلى أنحاء مختلفة من العالم. وكان الخطأ الأكبر الذي وقعت فيه الدولة اليهودية هو تقبلها بقاء ملايين أخرى ضمن حدود الدولة منذ البدء! أنا لا اعرف شيئا عن الملابسات التي أدت إلى ولادة هذا الوضع الذي انتبه حكام إسرائيل إلى خطورته ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن تغيرت الظروف الدولية وأصبح إخراج تلك الملايين من إسرائيل مستحيلا ، استحالة أن يحكم عليها بالموت وان ينفذ الحكم، ولكني أرى الآن أن الخطأ كان قاتلا بالنسبة لإسرائيل! لان من بقى في داخلها من الأوغنديين هم الذين أسقطوها في النهاية، أما من نزح إلى الدول المجاورة فانه وبمرور الوقت استقر هناك، ورغم انه كان يملأ الدنيا صراخا وزعيقا إلا أنه لم يكن ليتضرر كثيرا لو لم تحرر أوغندا، ولذلك لم يكن صراخ مثل هؤلاء إلا زوبعة في فنجان، أما من هاجر إلى البلدان البعيدة فقد امتصتهم تلك المجتمعات واختفت آثارهم هناك! فيما كان قتال أوغندي ي الداخل قتال اليائس المستميت، كانوا شعبا اعزل ولكنهم ظلوا يرفضون قوة الدولة الغريبة وجبروتها حتى النهاية.

****

يجب أن اذكر، إن بعض ما قد يبدو وكأنه آراء شخصية لي في هذا الموضوع إنما هو اقتباسات من منشورات يهودية داخلية تعود إلى ما بعد تلك المرحلة زودني بها أصدقائي من اليهود، كانت تلك المنشورات دراسات لتقييم تلك التجربة ولذلك كانت صريحة جدا حتى إنها لم تتوان عن انتقاد اليهود عندما يستحقون ذلك، وهذا هو بالضبط ما يعجبني فيهم واقصد صراحتهم وهذا يجعلني اغفر لهم المظالم التي يمكن أن يكونوا قد أنزلوها بسكان تلك الدولة الأفريقية الفقيرة التي أرادوا أن ينهضوا بها،

وان يحولوها إلى نموذج يُحتذى في أفريقيا والعالم (ولكي أكون صريحا أكثر يجب أن اعترف أيضا باني إنما أميل إليهم لأنهم في النهاية جزء من العرق الأسمر المتطور).

****

كان المجتمع الإسرائيلي ورغم تقدمه العلمي مجتمعا قائما على أسس عسكرية صرفة! كان الشعب فيه يستجيب لتطورات الموقف العسكري بشكل فوري، لان كل شيء كان مبرمجا ومدروسا سلفا عندما يتعلق الأمر بالحرب! إن علاقة إسرائيل بالدول المحيطة بها لم تكن سلمية أبدا (رغم إن الوثائق اليهودية تتحدث عن الهاجس الأمني لإسرائيل وأهمية جيشها للدفاع عن حدودها إلا انه من الواضح إن ما تذكره تلك الوثائق من تفاصيل عن الحروب التي خاضتها إنما هو تأكيد على وجود نزعة توسعية عند هذه الدولة والدليل إنها كانت دائما المبادرة بالهجوم والمرة الوحيدة التي اضطرت فيها للدفاع كان جيشها يدافع عن حدود أقيمت في قلب الدول المجاورة لها).

كان اليهود مستعدين دوما لأسوأ الاحتمالات، الأمر الذي منعهم من أن يكون تفاعلهم مع المجتمع طبيعيا، فلم يصبحوا أفرادا طبيعيين في مجتمع موحد ومتوازن بعيدا عن هاجس الدفاع الثقيل أو الهجوم أحيانا، فظلوا بذلك قابعين تحت ضغط الظروف القلقة وهم يعانون من كابوس الأمن (فهم قد أمنوا شر الدول المجاورة في النهاية ولكنهم لم يستطيعوا أبدا أن ينسوا قلقهم وجزعهم من أوغنديي الداخل والعمليات الفدائية التي كانت تقتحم عليهم حدودهم ومدنهم لتزرع الرعب في أعماقهم) فتاه عنهم الشعور بالأمان والاستقرار وظلت دولة إسرائيل تعاني من محدودبة العنصر البشري وذلك لقلة عدد اليهود في العالم (ولم اعرف يوما سبب ذلك) والهجرة المعاكسة التي ابتدأت فور إقامة دولة إسرائيل لان عددا كبيرا من المهاجرين اليهود لم يتعود العيش أبدا على حافة فوهة بركان يهدد بالانفجار في كل حين، وقد نجحت دولة إسرائيل في وقت ما وبإتباعها أساليب متنوعة أن تغلب كفة العنصر اليهودي في التوزيع السكاني للبلاد،إلا أن نسب الإنجاب المتدنية لدى اليهود مقابل اندفاع الأوغنديين في أداء واجباتهم الزوجية وما يعني ذلك من إنجاب مستمر رغم فقرهم وصعوبة ظروفهم، رجحت كفة الأوغنديين مرة أخرى، وبقيت إسرائيل تعاني من محدودية العنصر اليهودي الأمر الذي انعكس سلبا على الصناعات المتقدمة التي أقامتها في الداخل (لان سيل الدعم المادي المنهمر عليها من الخارج لم ينقطع يوما) وخاصة صناعات الأسلحة، فبقى إنتاجها عاجزا عن تلبية متطلبات احتياجها المستمر للأسلحة لخوض حروبها المتعددة، فبقيت بذلك في حاجة مستمرة للدعم العسكري من الخارج الذي كانت بعض الدول الكبرى تؤمنها لها إلى جانب المساعدات والمنح المالية التي كانت تقدم لها بسخاء وكانت تشكل إلى جانب التبرعات التي تجمع من الجاليات اليهودية في العالم معظم الدخل القومي

الإسرائيلي، كان هذا الوضع القلق ينذر إسرائيل بشر وبيل فيما لو تغيرت الظروف وقد حدث هذا بالفعل في بدايات القرن الثالث والعشرين، حيث تغيرت المصالح والأهداف وتبودلت مراكز القوى نتيجة للتغير الحتمي الذي لابد من ان يطال كل شيء في هذه الدنيا، فبدأت إسرائيل أخيرا تفقد مقومات وجودها بالتدريج، وفي الثلاثينات من ذلك القرن فقدت آخر هذه المقومات بالسقوط المدوي لمنظمة الأمم المتحدة وإقامة الاتحاد العام لسكان الأرض مكانها وعلى أسس جديدة.

وجدت إسرائيل نفسها وحيدة وجها لوجه أمام الجماهير الأوغندية الغاضبة التي أضناها الظلم وألهب حماسها حلم النصر الذي أصبح قريبا، فأعلنتها ثورة عارمة أرهبت شعب إسرائيل اليهودي الذي لم يكن قد استكمل مقومات وحدته رغم الأجيال الأربعة عشر التي تعاقبت منذ أن وطـ ـئ المهاجرون الأوائل ارض أوغندا (وهذا يثبت عقم محاولة تشكيل شعب خارج سنة التطور التاريخي لولادة ونشوء الشعوب واعتمادا على الرابطة الدينية فقط بعيدا عن المقومات الأخرى مثل اللغة والتاريخ المشترك وغيرها) قامت الثورة الأوغندية الكبرى وضاقت السبل على اليهود وعجز جيشهم القوي بأسلحته المتطورة عن مواجهة الجماهير التي لم تعد تهاب الموت والذي زاد الطين بله على إسرائيل هو أن شعوب البلدان المحيطة بها هبت لتقدم الدعم والإسناد للثوار من دون أن تجرؤ الحكومات التي كانت موالية لإسرائيل (في السر والعلن) في تلك البلدان على فعل شيء هذه المرة لكبح جماهيرها الغاضبة، فقد قبعت في جحورها لا تحرك ساكنا لمساعدة العدوة الحليفة.

****

إزاء هذا الوضع المتفاقم في خطورته ولمعرفتها بان كبح جماح الجماهير الغاضبة إلى ما لا نهاية أمر مستحيل ولإدراكها بان إفناء شعب بـ أكمله غير ممكن أبدا، بادرت حكومة إسرائيل إلى إلغاء دستورها العنصري ودعت إلى إجراء انتخابات يشارك فيها الجميع وذلك على أمل امتصاص الغضب وكسب الوقت، إلا أن الاتحاد ال دولي التي بادرت قواته إلى الفصل بين الجيش الإسرائيلي والثوار، اشرف على الانتخابات عندما جرت وأبى إلا أن تكون حقيقية لا صورية كما أرادتها حكومة إسرائيل. اكتسحت الأغلبية الأوغندية هذه الانتخابات وتم تشكيل مجلس أمة جديد انتخب أحد سكان البلاد الأصليين رئيسا للجمهورية لأول مرة منذ ما يقارب الأربعة قرون، وسرعان ما قرر الرئيس الجديد أن يكون اسم الدولة (جمهورية أوغندا الديمقراطية) وزالت بذلك دولة إسرائيل من الوجود.

شعر يهود أوغندا بالرعب وافقدهم هذا الرعب صوابهم لان المظلوم الذي عافت نفسه الظلم والقهر بدأ يرد الصاع صاعين والصفعة صفعات، فتشتت اليهود في أنحاء العالم مرة أخرى، أما من قرر منهم أن يبقى في أوغندا فقد آثر أن يرضى بالقليل الذي تبقى لديه، على أمل أن يعيش في مجتمع لا ترهبه

فكرة الحرب في كل لحظة، ولكن هيهات! فقد عانت البلاد بعد ذلك طويلا من مشاكل التحرير وخصوصا مسألة من كان في الداخل والعائد إليها من أحفاد اللاجئين الأوائل الذين لم تمنحهم الدول المجاورة جنسياتها رغم القرون التي توالت، فتكونت أحزاب متناحرة قادت تناحراتها البلاد إلى سلسلة من الحروب الأهلية! وما تزال هذه الدولة تعد من الدول المتأخرة رغم مرور نحو ستة قرون على تحررها، ولا غرابة في ذلك لأنها اصغر من أن تستطيع الإبحار في خضم بحر السياسة الدولية المتلاطم لوحدها.

- 3 -

بقى اليهود وبرغم الهزيمة المريرة التي ألحقت بهم يسيطرون على رؤوس أموال ضخمة في أنحاء مختلفة من العالم، وبقيت أيديهم الخفية تمتد إلى جميع المصالح المهمة فيه لأنهم لم يكونوا قد فقدوا نفوذهم بعد، وقبل نهاية القرن الثالث والعشرين بعقدين بدأت رؤوس الأموال اليهودية تتحرك بكثافة باتجاه صناعة الحواسيب العالمية ولتسيطر على الشركات الكبرى في هذا المجال بالتدريج. وفي نهاية التسعينات من ذلك القرن أصبحت تلك الشركات مستعمرات يهودية بالكامل! كان اليهود في تحركاتهم هذه حذرين جدا فأحاطوها بالكتمان الكامل كما هو ديدنهم دائما، فلم يتنبّه أحد إلى ما كانوا يخططون قبل أن تقع الكارثة.

في بداية القرن التالي كشف عالم يهودي شاب عن اختراعه لأقراص إلكترونية فائقة الصغر كانت فتحا كبيرا في عالم الاختراعات العبقرية، وقد نال هذا الشاب جائزة نوبل للعلوم فيما بعد لان درجة استيعاب هذه الأقراص كانت هائلة جدا رغم صغرها المتناهي. اشترى الاتحاد الذي يمثل شركات الحواسيب الكبرى في العالم حق استثمار هذا الاكتشاف وبدأ بالعمل على الاستفادة منه في منتجاته، والغريب أن هذه الشركات كانت قبل ذلك الوقت في تنافس شديد فيما بينها، ما إن تلوح لإحداها فرصة استغلال اختراع صغير حتى تحتكره لنفسها و تبذل جهودا مضنية ومكلفة لكي لا تكتشف الشركات الأخرى أية أسرار تتعلق بالاختراع الجديد، ولكنها اتفقت هذه المرة على أن تعمل مجتمعة في هذا المشروع الضخم جدا الذي سمي بنظام السلام الإلكتروني. ومرة أخرى لم يثر هذا ريبة أحد.

وأخيرا طرح الإنتاج الجديد في الأسواق التي غزتها الأقراص الجديدة مع الحواسيب الخاصة لاستخدامها، كانت الكميات هائلة وبأسعار تقل عن أسعار الأجهزة القديمة بحوالي النصف تقريبا! فبدأ على الفور سعي محموم لاقتناء هذه الأجهزة السحرية من قبل الجمهور المتعطش لكل ما هو جديد. ولكن الذي كان يهم الشركات هو تهافت الدول والحكومات المختلفة على شراء النظام الجديد وإحلاله محل النظم القديمة التي كانت موجودة، لان الأقراص الجديدة كانت ذات كفاءة تفوق كفاءة الأقراص القديمة بشكل مطلق رغم أنها لا تحتاج إلى حيز كبير في التخزين، حتى إن رجلا واحدا كان بإمكانه أن يحمل في جيوبه من تلك الأقراص ما تحتوي على معلومات وزارات بأكملها! وهذا ما كان يحتاج في السابق إلى غرف وقاعات تخزين. كانت الشركات المنتجة تغري الحكومات بالتسهيلات المادية التي تقدمها رغم رخص ثمن أجهزتها، وهذا بغض النظر عن الضمانات التي كانت تمتد إلى سنين طويلة! فبدأت معظم دول العالم في اعتماد النظام الجديد وتحولت المعلومات المحفوظة في الأقراص القديمة إلى الجديدة، وأحيلت جميع الأنظمة القديمة على التقاعد في تلك الدول، ولم تبق إلا بضع دول آثرت أن

تحتفظ بالأنظمة القديمة لأنها أساسا لم تكن قد خرجت بعد من مستنقع التخلف، وما كانت المعلومات التي تختزنها أنظمتها يؤبه لها، كانت الإنسانية في تلك الأيام مطمئنة وهي ترى كل معلوماتها وثقافاتها وتجاربها وخبراتها المتراكمة بل وكل ذاكرتها الحضارية منذ فجر التاريخ تؤتمن لدى النظام الجديد الذي لا يخط يء، فنام الناس قريري الأعين لان تلك الأقراص السحرية المضمونة تكفل لهم مستقبلهم الزاهر.

****

بعد بدء العمل بنظام السلام الإلكتروني بأكثر من عقد اختفى فجأة العالم الشاب الذي كانت صورته وصوته لا يفارقان وسائل الإعلام سنوات طوال! اختفى وكأنه لم يكن له وجود يوما !!! لم يعرف أحد إلى أين ذهب؟ أو ما الذي حل به؟ تحدث الناس في كل أنحاء العالم عن هذا الاختفاء المفاجئ، ولكن أحدا لم يوجس خيفة منه، بل راح الجميع يحاول أن يخمن الاحتمال الصحيح لهذا الاختفاء المذهل، نظمت مسابقات عديدة تتمحور حول هذا الموضوع بوسائل الإعلام المختلفة وكان لها شعبية كبيرة، لم يشك أحد بشيء! ولم يدرك بان وسائل الإعلام تلك التي كان اليهود يسيطرون عليها إنما كانت تسخر من الجميع !!!.

بعد اشهر من اختفاء العالم وقعت الكارثة!، وقعت فهزت العالم ولم يستطع أن يفيق من هولها إلا بعد لأي، بل لعله لم يستفق منها حتى الآن. لقد اختفت المعلومات، هكذا بكل بساطة! وعلى حين غرة اختفت كل المعلومات المخزونة في تلك الأقراص في كل أرجاء العالم المتمدن!!! اختفت وتحولت الأقراص السحرية إلى مجرد نفايات بلاستيكية لا فائدة منها!!! ولكن ما الذي حدث؟! لم يعرف أحد. كانت شركات الحواسيب تعرف بكل تأكيد، ولكن كيف الاتصال بها؟ ولا اتصالات هنالك ولا مواصلات، فقد توقفت الحياة لأنها مرتبطة بالحواسيب. تهافت الناس القريبون من مواقع الشركات عليها تسبقهم تساؤلاتهم ومخاوفهم، التقوا هناك بقوات أمن الدول التي سبقتهم، ولكن لم يكن هنالك مجيب، فقد أغلقت الشركات أبوابها فبدت تلك الأبنية التي كانت صاخبة في السابق، صامتة صمت الأموات!!!. عم الاضطراب العالم وسادت الحيرة والارتباك، بدأت دمدمة خافتة بين مواطني الدول المختلفة احتجاجا على عجز حكوماتهم عن معالجة الوضع، ولكنها تحولت مع الأيام إلى هدير صاخب أصم آذان الحكومات وزادها عجزا على عجز في البداية، ولكنها سرعان ما صبت جام غضبها هي ا يضا على شركات الحواسيب، أو بالأحرى موظفيها، تناست الدول حينذاك إطروحاتها الإنسانية فأعلنت الأحكام العرفية وراحت تتعقب كل من له صلة بتلك الشركات و تزجهم في السجون حتى امتلأت بهم، وعندما ابتدأت التحقيقات لم يتورع القائمون بها عن الإتيان بكل ما هو وحشي وغير إنساني خلالها، إذ لم يكن

هناك مجال للإنسانية في ذلك الوضع الاستثنائي، ولكن العجيب في الأمر أن الأغلبية من موظفي الشركات الذين تعرضوا لكل تلك الهمجية لم يكن لهم علم بأي شيء! لأنهم لم يكونوا سوى مأمورين، أما الرؤوس الكبيرة التي من المفروض أن تعرف كل شيء فكانت قد اختفت!!! أين ذهبت؟ لم يكن أحد يعرف!!! ولكن الحق الذي يجب أن يقال، إن التحقيقات المكثفة التي لا رحمة فيها لابد من ان تأتي بنتيجة في النهاية، ما دامت هناك قلة يمكن أن تعرف شيئا ولكنها تخاف أن تكشف عنه أو تنتظر إشارة ما، من جهة ما، فحاولت أن تخفي ما تعرف، ولكن التعذيب يفتح كل الأبواب المغلقة، فقد تأكد المحققون من أن ما حدث لم يكن نتيجة خطأ مأساوي وقعت فيه الشركات، بل كان أمرا مقصودا، فقد بانت الخيوط الأولى لمؤامرة رهيبة خطط لها في ظلام! ولكن ما هي تلك المؤامرة؟ وما هي أهدافها؟ لم يعرف أحد ذلك في البداية .

انتبه محقق فطن في إحدى الدول إلى أن أسماء معظم الذين اختفوا ولم يخضعوا للتحقيق كانت يهودية، أو توحي بذلك، عندها شعر بغريزة المحقق انه قد امسك بخيط مهم، ولكنه عندما أراد أن يتصل بدول أخرى فيها شركات كبرى للحواسيب أو فروع لها ليتأكد من صحة شكوكه، اصطدم بعقبة فقدان الاتصالات! فطلب على الفور أن تؤمن له طريقة ما للاتصال. لم يدخر المسؤولون جهدا في هذا السبيل وسرعان ما أمنت هذه الوسيلة وان كان بذلك بشق الأنفس. ولكن الجهات التي تم الاتصال بها لم ترد جميعها حتى شك الجميع في سلامة وسيلة الاتصال، ولكن ذلك المحقق تساءل عن إمكانية أن تكون الدول الأخرى قد ابتليت هي الأخرى بما ابتلوا به؟ وعندما اتخذ المسؤولون في ذلك البلد قرار الاتصال بالدول الأخرى فورا ومهما كلف الأمر، جاءت النتيجة مذهلة لهم فقد تبين بأنها تعاني أيضا من الوضع الشاذ الذي يعانون هم منه!!! عندها فقط عرفت حدود المأساة، فبدأت أولى خطوات العمل الجماعي للدول، فاختفت الأحقاد بينها، ونسيت النزاعات، كما أجلت الحروب، وركزت الجهود على أولوية الاتصالات، فكان لهم ما أرادوا بعد حين، لأن ما قد يبدو شبه مستحيل في الأحوال الاعتيادية يصبح ممكنا في ظل الطوارئ ولان الحاجة أم الاختراع أيضا. بادرت بعض الدول إلى تشغيل الأنظمة القديمة أو على الأقل ما تبقى منها، فيما سارعت أخرى إلى طلب النجدة من الدول المتخلفة لأغاثتها بما يتوفر لديها من أجهزة قديمة لا تسيطر عليها الحواسيب! وكل ذلك لإدامة الاتصال فيما بينها وتبادل المعلومات وتنسيق الجهود المبذولة للخروج من الأزمة المميتة، وبذلك بدأت الخيوط بالتجمع، ولكن ببطء شديد، فتأكد أمر المؤامرة!، وعرفت أبعادها، وكشف النقاب عن غرضها! فقد تبين للمحققين أنها كانت لمعاقبة العالم لوقوفه موقف المتفرج اللامبالي وهو يرى دولة إسرائيل تهوي إلى مصيرها المحتوم من دون أن يحرك ساكنا. شعر اليهود بالمرارة، والتقى هذا بالرغبة في ابتكار المزيد من طرق تجميع الأموال والثروات الطائلة القابعة في نفس كل يهودي، فكانت هذه المؤامرة التي تفتقت عنها قريحة اليهود العجيبة!!! ولكن ما الذي كانت تستهدفه بالضبط؟ لم يكن أحد قد توصل إلى إجابة لهذا

السؤال! كان هناك عشرات بل ومئات الآلاف من أفضل المحققين في العالم يعملون على مدار الساعة في تحقيقات مستمرة ومضنية، وكان تنسيق أمر التحقيقات بين الدول تتصاعد وتائره مع تو افر المزيد من وسائل الاتصال، لأنها وعلى اختلاف مذاهبها أدركت ضرورة تضافر الجهود لتحقيق الهدف، وأي هدف؟ الحفاظ على الأمن والاستقرار العالميين ا للذين كانا مهددين مما يجعل مستقبل الكرة الأرضية كلها في خطر. كان المحققون يخترقون حجب وأسرار ملايين المستندات والوثائق التي ضبطت في مقرات شركات الحواسيب، واستمرت التحقيقات في وحشيتها التي لا رحمة فيها للضحية والجلاد معا! فقد كان كل شيء مباحا في ظل تلك الظروف الرهيبة، وكان الجميع يشعرون وكأنهم في سباق غير متكافئ مع الزمن الذي كان لا يجري لصالح الإنسانية في تلك الأيام.

****

تنبّه محقق آخر كان يمكن أن يكون بطلا قوميا في بلاده لولا النهاية المأساوية التي انتهت بها كل تلك الأحداث الجسام، إلى أن مستندا صغيرا كان قد وقع مصادفة في يده في ساعة حيرة وإحباط، يذكر أن أحدى شركات الحواسيب قد اشترت قطعة ارض في مكان نا ء! من بلد صغير! لا وجود لمصانع الحواسيب فيه!!! فربط هذا بحديث مشوش كان قد سمعه من مهندس أنهكه التعذيب خلال التحقيق، عن الشكوك التي انتابته بشأن محطات أسهم في بنائها بأماكن نائية، وبمناطق مختلفة من العالم! كان المحقق قد تصور في حينها أن المسكين إنما كان يهذي، لان كلامه بدا غير مترابط أبدا، فأثار ذلك المستند تساؤلا عنده عما يمكن أن تفعله شركة عملاقة بقطعة ارض نائية في بلد هامشي صغير؟! اهتم بالموضوع كثيرا وطلب من رجاله أن يركزوا عليه وهم يبحثون في أطنان الوثائق، كما بادر إلى الاتصال بالمحققين في الدول الأخرى ليركزوا على هذا الجانب، وموافاته بالنتائج فتبين له بعد حين أن شركات أخرى كانت قد اتخذت التدابير نفسها!!! فبدأ تحقيق موحد ومنسق في جميع أنحاء العالم بهذا الشأن، ليكشف اللثام أخيرا عن أن هذه الأراضي قد خصصت لإقامة مختبرات للبحث والتطوير ضمن مشروع سري للغاية . ولكن لماذا تقام مثل هذه المختبرات بعيدا عن المصانع الرئيسة؟! فكان قرار دولي أن تفتش تلك المختبرات التي لم تخضع للتفتيش من قبل.

داهمت قوات من الجيش تصحبها فرق من الفنيين تلك المختبرات الصغيرة المنتشرة في أنحاء كثيرة من العالم، وكانت هذه العمليات تجري بإشراف مباشر من قبل مسؤولين بأعلى المستويات في الدول يدفعهم الأمل في الفرج إلى الحرص الشديد على السرية والكتمان، والتخطيط لأن تكون عمليات الاقتحام بتوقيت واحد لكي لا ينتبه أحد، أو أن يفر من يمكن أن يفر! وهو ما حدث بالفعل، ولكن ذلك

كان، لان أحدا لم يكن موجودا هناك، ليفر!!!. كانت كل محتويات تلك المختبرات أجهزة غريبة احتار فيها الفنيون لأنها يمكن أن تكون صالحة لأي شيء ما عدا البحث والتطوير!!! .

وفي الحقيقة أن هذا اللغز الجديد لم يصمد طويلا، ولكنه أبى أن يُحل إلا بعد أن اسلم المحقق ون ومعهم مسؤولوهم إلى لغز اعقد، وحيرة اشد!!! فقد تبين للخبراء أن هذه الأجهزة لم تكن إلا أجهزة تتسلّم إشارات لاسلكية من نوع ما، وبثها من جديد!. ولكن، أية إشارات؟! ومن أين تأتي؟! والى أين ترسل مرة أخرى؟! لم يعرف أحد! فتكررت بذلك ثنائية الأمل والإحباط بتناوب يحطم الأعصاب، وينهك أنبه العقول و أقوى الأجساد!!!.

****

كانت الأيام إذ ذاك تمر بتثاقل فتبدو الأسابيع وكأنها دهور، وصلت التحقيقات إلى طريق مسدود فبدأت لعبة الاحتمالات غير المجدية ما دام اليقين مفقودا، و ارتد العالم إلى حضيض اليأس مرة أخرى، وكاد يفقد عقله!!! لولا ال مصادفة المستحيلة التي حدثت فجأة، لتعيد الأمل إليه من جديد. فقد أضنى الشوق أحد الرؤوس اليهودية الكبيرة المختفية، وأرهقه الحنين فتبددت حيطته و أزالت حذره لوا عج الغرام، فقرر أن يزور عشيقته الشابة التي تركها وراءه في أحد ى المدن الكبرى، زيارة خاطفة يطفئ بها نيران الشيخوخة المتصابية التي شبت في داخله، وبعد أن رأى إن احتمال المخاطر ارحم عنده من أن يحتمل زوجته التي صحبها معه إلى مخبئه أكثر مما فعل. وهناك في المدينة شاءت ال مصادفة أن يتقابل مع مهندس كان هو السبب في فصله من عمله قبل سنوات، وجها لوجه! فعرفه المهندس على الفور رغم تنكره. في ذلك الوقت كان الضغط على الناس هائلا، وتحت ضغط الظروف يختفي المنطق وتغور الحكمة، كانت كلمة يهودي تهمة خطيرة بحد ذاتها! فكيف ذا أردفت بكلمة ثري؟! ولذلك، ما إن قال المهندس بصوت مسموع

ـ ما الذي تفعله هنا يا أيها اليهودي الثري، اللعين، بعيدا عن متناول الشرطة ؟!

حتى تجمع المارة من حوله وهم يرمقون ذلك اليهودي شزرا! أنكر المسكين يهوديته واقسم بأنه مسيحي! ولكن خوفه وارتباكه الظاهرين فضحاه، فأوسعه الجمهور الغاضب ضربا حتى أوشك على الموت لو لم تنتشله الشرطة التي حضرت مسرعة، من بين أيدي أولئك القضاة الجلادين! وبدلا من أن تأخذه الشرطة إلى المستشفى! وجد نفسه في مركز الشرطة بعد دقائق ومعه المهندس الذي تبرع بالشهادة ضده! ومن هناك حول إلى لجان التحقيق الخاصة ومعه الشاهد، رغم المستندات المتقنة التزوير التي أظهرها وتثبت انه شخص آخر!. حاول المتهم العاشق أن يصمد أمام المحققين، ولكن هيهات، فقد تهاوى أخيرا تحت ضغط التعذيب واعترف حتى بما لم يُسأل عنه! فتبين للمحققين بان الأمر

كله بدأ من مشروع سري أقامه جهاز مخابرات دولة كبرى! لبناء نظام جديد للتجسس الإلكتروني! مبني على تطوير قام به عالم ما، على جهاز حاسوب خاص يصدر ذبذبات إلكترونية يمكن تسلّمها عن بعد! وما هذه الذبذبات إلا المعلومات التي تدخل إلى الحاسوب، وعندما عرفت مجموعة من اليهود المتنفذين بأمر هذا المشروع، أعجبت بالفكرة واستطاعت بنفوذها أن تجمده لكي يتسنى لها أن تبدأ اتصالات واسعة وسرية جدا مع المجموعات اليهودية الأخرى لتشجيعها على تحويل رؤوس أموالها الضخمة وتركيزها في مجال صناعة الحواسيب، متبعة في ذلك كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، ولا عجب، لان الهدف حين يكون ساميا (حسب وجهة نظر الساعي إليه طبعا) فان كل الطرق تع د مشروعة. وقد تحقق ما أرادوه خلال سنوات معدودة، وعندما تم، ألغى جهاز المخابرات المعني مشروعه وعدّه فاشلا، في حين ابتدأت شركات الحواسيب بالعمل على تطوير ذلك الجهاز وبسرية تامة! حتى أن أكثر العاملين بذلك المشروع لم يكونوا يعرفون ماهية الجهاز الذي يطورو نه!!! ولكن مهندسا شابا يحمل شهادة الأستاذية كان يعمل في المشروع، ويعرف قدرا لا بأس به من أسراره لأنه كان يهوديا، فكر في أن يكون لهذا الجهاز أقراصه الخاصة، فتوصل بجهوده ومثابرته إلى اكتشاف تركيبة عجينة بلاستك لها مواصفات خاصة جدا، وعندما طرح فكرته على رؤسائه، تبنوها على الفور وأضافوا إليها من معين أفكارهم الذي لا ينضب. أصبح المهندس الشاب عضو مجلس إدارة الشركة التي كان يعمل فيها، بعد أن أصبح مالكا لعدد من أسهمها، فجأة!. بعد هذا أصبح المشروع مشروعين، لا يقل أحدهما سرية عن الآخر! وسرعان ما أصبحت الأقراص حقيقة واقعة. ولكن النقاب لم يكشف عنها حتى تم تطوير الجهاز إياه بالفعل.

أعلن الشاب اكتشافه بعد ذلك، ولم يعرف أحد عن الجهاز شيئا. كانت الدعاية الإعلامية عن الأقراص الجديدة من الكمال بحيث تحولت بعد اشهر إلى حلم لكل هاوٍ للحواسيب، ومهتم بها. وبعد إعلان الشركات الكبرى، إنها في طريقها إلى تصنيع الحواسيب المناسبة لهذه الأقراص، أصبح المسرح مهيئا لتنفيذ الخطة الجهنمية.

و أثناء انتظار العالم لطرح الأجهزة الجديدة في الأسواق، كانت الجهود اليهودية تبذل لإقامة محطات تسلّم وإعادة بث الذبذبات الصادرة عن الأجهزة، في جميع دول العالم بدون استثناء، لان الأجهزة الجديدة كانت عبارة عن جهاز إرسال يبث كل المعلومات التي يتم اختزانها فيه على شكل ذبذبات قوية جدا !ولكن اكتشافها كان مستحيلا، لأنها لا تستشعر إلا من قبل أجهزة خاصة وزعت بطريقة مذهلة لا تستطيع أن تفكر بها إلا عقول شيطانية الذكاء!!! حيث كانت تلك الأجهزة مزروعة في عربات متحركة وطائرات وأجهزة منزلية ومكتبية، وحتى أجهزة ألعاب إلكترونية! ومن دون أن يعرف مالكو تلك الأجهزة شيئا عنها!!! كانت محطات ثانوية تتسلم ذلك البث المستمر من تلك الأجهزة وتعيد إرساله إلى المحطة الرئيسة في كل بلد، وهي المنش آت التي سميت كذبا مختبرات البحث

والتطوير!!! وكانت هذه المحطات ترسل المعلومات التي تتسلمها تباعا إلى المركز الرئيس الذي أقيم في مكان قصي من الصحراء الأسترالية.

بعد أن جمعت كل المعلومات الواردة وصنفت وحفظت بطريقة لم يتم الكشف عنها أبدا وبعد التأكد من أن جميع أسرار العالم أصبحت موجودة في المركز الرئيس، بدأت المرحلة التالية المتمثلة في بث إشارة إلكترونية خاصة من المركز الرئيس، وعبر نفس المسار الذي اتخذته المعلومات الواردة، ولكن باتجاه معاكس لتصل إلى تلك الأقراص الصغيرة التي بدأت فور تسلّمها عملية تدمير ذاتي! ترافقت مع عملية المسح داخل الأجهزة التي أضاعت المعلومات التي اؤتمنت عليها إلى الأبد!!!.

كان التنفيذ حتى هذه المرحلة موفقا إلى درجة مذهلة! ولكن ما حدث بعد هذا لم يكن بالحسبان!!! فقد كان سيناريو المؤامرة يتضمن مخططا لإعادة بيع تلك المعلومات إلى الدول التي ترغب في دفع الثمن الباهض لاستعادة ذاكرتها المسروقة (وهذا على ذمة العاشق اليهودي)!. كان من المفترض أن تدير الرؤوس الكبيرة المفاوضات وعمليات البيع عن طريق وكلاء متعددين، وبمعونة كل أجهزة الاتصالات التي ادخروها لهذا الهدف، والمسندة بأجهزة التضليل الإلكترونية التي تجعل من أمر اقتفاء آثار تلك الرؤوس إلى مخابئها مستحيلا. أما بعد إتمام الصفقات فإنها كانت ستتحول إلى أشباح عصية على الإمساك بطمس المعلومات المتوفرة عنها في السجلات المدنية وإخفائها قبل تسليم تلك السجلات إلى مشتريها!!!.

ولكن لماذا لم يتصل المتآمرون بالحكومات المعنية (رغم تجمع المعلومات المطلوبة لديهم ونجاح خطتهم حتى ذلك الوقت)؟! قبل أن يلقى القبض على ذلك العاشق المسكين الذي قضى نحبه خلال التحقيق من دون أن يدل على مخابئ غيره من الجناة لأنه كان وبكل بساطة لا يعرف مكانها! فقد قضت الخطة أن يختبيء كل واحد في مخبأ خاص لا يعرفه الآخرون، ولا يخرج منه حتى يتم الاتصال به بجهاز خاص!. ولكن المهم الآن هو السؤال، لماذا لم يتصلوا؟!.أنا لم اعرف الإجابة كما لم تعرفها الأغلبية العظمى من الناس! مثلما لم تعرف كيف كانت تفكر تلك العقول الجبارة بأمر تسلّم ثمن ما يبيعونه؟! أو أين كانوا سيضعون كل تلك الأموال؟! و الأدهى من ذلك! كيف غاب عن بالهم أن ردود أفعال الحكومات ستكون عنيفة جدا؟! رغم أن توقع ذلك ، أمر هين ، لأنها عندما تحرج، تتصرف كالكواسر الجريحة دائما!.

لقد لاحظت خلال متابعتي للموضوع أن هناك تناقضا بين تعريف ما حدث في المصادر الرسمية بأنه مؤامرة يهودية لتدمير العالم، وإصرار اليهود على أن ما حدث كان عملية طموحا لكسب المزيد من الثروات! مثلما هو واضح في الوثائق والدراسات التي أعطيت لي من قبلهم، واقتبست معظم ما ذكرته هنا منها. أنا شخصيا أميل إلى الرأي الثاني، لأني اعرف ولع اليهود بالكسب والأرباح جيدا، وأنا أتصور أن ما وقع من كوارث لم يكن مخططا له، وإنما أتى بسبب الإرباك الذي أصاب المخططين

عندما رأوا ردود فعل الحكومات العنيفة! ولكني لا أستطيع إلا أن اذكر كلمة مؤامرة في وصف ما حدث، لأنها تتماشى مع الرواية الرسمية التي ستكون هي التاريخ فيما بعد بكل تأكيد.

****

بعد تو افر المعلومات، تركزت الجهود الدولية على البحث عن المركز الرئيس في الصحراء الأسترالية، ورغم أن هذا الأمر قد يبدو وكأنه بحث عن إبرة في كومة قش، إلا أن وضع الجيش الأسترالي بكامل قطعاته تحت إمرة الخبراء الذين توافدوا بالآلاف على استراليا من جميع أنحاء العالم، بالإضافة إلى تطوع آلاف، بل مئات الآلاف من المدنيين للمشاركة، جعل المهمة أسهل. وبالفعل لم يمض وقت طويل حتى تم العثور على المحطة الإلكترونية الضخمة التي أقيمت تحت رمال الصحراء الشاسعة، بعد أن نبش كل شبر فيها. كانت المحطة عبارة عن قلعة حصينة عصية على الاختراق! فكان القرار أن تقتحم بالقوة، لأن الدخول إليها بغير هذه الطريقة أمر مستحيل لجهل المداهمين برموز فتح الأبواب.

مع أول محاولة للاقتحام، سمع صوت انفجار هائل! جعل الدم يتجمد في عروق الحاضرين!!! أعقبته انفجارات أخرى حولت المحطة إلى كتلة نار ملتهبة!!!. لم يت ﱠبه أحد إلى أولئك الأبرياء الذين كانت النار ، تلتهمهم! أو الذين تطايرت أجسادهم بفعل الانفجارات!. لم تلفت الأشلاء المتناثرة على الرمال أنظارهم!!! فقد كان جميع الأحياء يفكرون بالنجاة بحياتهم فقط، وبتلك المعلومات العزيزة التي أصبحت نهبا للنيران التي التهمت في لحظات كل كنوز المعرفة الإنسانية منذ فجر التاريخ.

تبين بعد فوات الأوان أن المخططين كانوا قد اعدوا للأمر عدته، فزودوا المحطة بجهاز إنذار إلكتروني معد لكي يفجرها في حال محاولة أي أحد إقتحامها عنوة! فبدا الأمر بعدما حدث، وكأنهم قرروا بأنه إن لم تنجح عملية المساومة لجني الأموال فإن المُخَطَّط يتحول إلى عملية انتقام رهيبة من هذا العالم الذي أساء معاملتهم، وارتضى بالظلم الذي حاق بهم!!! وأكثر ما يؤلمني في الأمر كله (إلى جانب عشرات الآلاف من الضحايا الذين سقطوا نتيجة لتلك الانفجارات الرهيبة) هو أن ما حدث من تدمير، قد طال ذاكرة شعوب العالم ومرآة نفسها، وأقصد هنا التأريخ الذي اختفى كله في لحظات!!! ولماذا؟ لان الإنسانية أغراها العلم الحديث! فأسلمت كل تاريخها الحضاري إلى آلات صماء عبثت بها أيد مغرضة، فسلمتها ما اؤتمنت عليه!!! ترى أي مصير ينتظر البشرية؟ إذا ما قررت آلاتها الإستيرية العاقلة أن تتحالف مع عقل بشري شرير؟!.

****

اختفى كل شيء مع انفجار المحطة ودُمِّرَ!!! فوقفت البشرية محتارة ومرتبكة، وبدا مستقبلها مظلما جدا في ذلك الوقت العصيب. ولكن ميزة الإنسان الأروع وهي التكيف، ساعدت بعض المجتمعات على التعامل مع المتغيرات الرهيبة بحكمة، فسارعت إلى بناء قاعدة معلوماتية جديدة بالاستفادة من الخبرات البشرية التي كانت تتعامل مع تلك الأجهزة الملعونة. لم تكن هذه القاعدة مثالية ولكنها كانت أحسن من لا شيء بكل تأكيد، فكانت هي السبب الأبرز في تميز هذه الدول، وإعادتها بعد أجيال إلى مصاف الدول الكبرى بالمقياس النسبي، لان دول اخرى عجزت عن اتخاذ مثل هذه الخطوات في وقت مبكر!!! وظلت دول تدور حول نفسها! وهي لا تعرف ما الذي يجب أن تفعله، فسقطت في مهاوي التخلف والضياع!!!. أما أشباه الدول التي أصابتها الكارثة، فإنها عجزت عن اللحاق بركب التقدم كما هو متوقع!!! لأنها أساسا لم تستطع ذلك والحضارة البشرية في أوج عظمتها رغم امتلاكها مظاهر التطور المتمثلة في الأجهزة والآلات المتقدمة التي كانت تستوردها لتوفر الموارد المالية لديها، ولكنها لم تستفد منها أبدا!!! أما الدول التي لم تتأثر بكل ما حدث! فيكفي بيانا القول بأنها لم تتأثر بما أصاب العلم في العالم، لأنها لا علاقة لها به، لا من قريب أو بعيد! فهي مجرد تجمعات قبلية نأى بها حكامها عن العلم والتقدم! فأمسى تخلفها أكبر من أن يُتَجاوَز!!!.

كان هذا حال دول العالم بعد الكارثة، ولكنها تشابهت جميعا في أمر واحد، ألا وهو حملة الانتقام الرهيبة التي بدأتها ضد اليهود! لان اختفاء الرؤوس المدبرة وكأنها لم تكن يوما، وتناقض الأقوال بشأن مصيرها، بين قائل بان الزعماء كانوا موجودين في المحطة عندما تفجرت فقضوا نحبهم مع من قضى معهم من الأبرياء بتلك الانفجارات التي أحدثتها قنابل كواركية موضعية! أضيف لغز الحصول عليها من قبل اليهود، رغم أنها كانت من ضمن الأسلحة النووية التي كان العالم قد تخلص منها منذ أكثر من قرن ونصف، إلى قائمة الألغاز التي لا تنتهي لتلك الحقبة العجيبة من التاريخ البشري (وهذا القول يتناقض بالطبع مع النتيجة التي توصل إليها المحققون مع العاشق إياه الذي أكد أن الرؤوس كانت تختبئ في أماكن مختلفة)، وأخر يدعي بأنها ما تزال موجودة بيننا! وتعيش معنا بأسماء وهمية و هويات جديدة! بل أنها ما تزال تمتلك نفوذها القديم!!! هذا الاختفاء وتخلص المختفين من عدالة العقاب أصاب العالم بكآبة انفعالية جعلته يلتذ بالانتقام الذي طال كل ما هو يهودي! فصدرت أكثر القوانين بطشا في تاريخ العالم حتى في أكثر الدول التزاما بالطروحات الإنسانية، فكانت مصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة لكل اليهود من دون تمييز وطردهم من وظائفهم ونفيهم من البلاد، هي القرارات الأرحم التي صدرت بحقهم، لان سلسلة الأحكام بالإعدام ضدهم بتهمة الخيانة العظمى لم تنقطع حتى في الدول التي لم تكن قوانينها تسمح بالإعدام قبل ذلك! وقد أصدرت هذه الأحكام محاكم خاصة سميت بمحاكم التنظيف!!! فيما تكفل حقد المواطنين في الكثير من تلك البلدان بقتل اليهود الذين لم تطلهم تلك الأحكام،

حتى بدا وكأن اليهود في سبيلهم إلى الانقراض! ولكنهم لم ينقرضوا لان تجاربهم المريرة السابقة جعلت الكثير منهم يحتاطون للأمر بان يعتنق دين المجتمع الذي عاش فيه ظاهريا من دون أن يتنازل عن عقيدته الحقيقية في السر! فبقى أولئك آمنين في الأوطان التي اختاروها لأنفسهم، فيما بادر الآخرون الذين توقعوا ما سيحدث إلى هجر أوطانهم بجوازات سفر مزورة ولجأوا إلى بلدان جديدة بعد أن أخفوا يهوديتهم!!! ويسجل التاريخ لدولتنا العربية بأحرف من ذهب أنها فتحت أبوابها أمام هؤلاء المنكوبين، واستقبلتهم بصدر رحب لأنهم أبناء عمومتنا، فأصبحت بذلك وجهة الغالبية العظمى منهم، لأنهم يعرفون بان مجتمعنا هو واحد من أكثر المجتمعات تسامحا وتقبلا للاجئ والغريب، وإن أفراده خير من يجير المظلوم.

وقد نظر العالم إلى هذا الأمر بعين الرضا لأنه يخفف عنه شعوره بالذنب لما أنزله باليهود من عقاب وحشي! فغض الطرف عما يحدث في دولتنا. إن القدس عاصمة دولتنا هي المكان المقدس لدى اليهود كما هي للإسلام والمسيحية، فهم يدعون بان أحد ملوكهم القدامى كان قد بنى فيها هيكلا أصبح مقدسا لديهم لأنهم كانوا يقيمون فيه شعائرهم الدينية، قبل أن يهدم لسبب ما! فكان من الطبيعي أن يتركز اليهود الوافدين إلى دولتنا في محافظة فلسطين، حيث تقع القدس.

-4-

تعرفت في القدس على عدد كبير من اليهود، فلم أر منهم ما يسوءني، فهم والحق يقال قوم مسالمون، صابرون ومجتهدون، تلاقيهم في المنطقة التجارية من القدس يؤدون واجباتهم بكل حماسة، وتستطيع أن تتعرف عليهم من أسمائهم أحيانا، أو تلك الطاقية التي يلبسونها طوال الوقت! أو حتى ابتسامتهم الذليلة التي يقابلونك بها، وبغض النظر عن انطباعك الأولي عنهم، فإنك سرعان ما تكتشف أن تعاملهم مريح وأسعارهم هي الأقل، وفوق هذا يتلقون الإهانة بابتسامة مهذبة! ويعتذرون عن ذنوب لم يقترفوها!!! ولكن، لا عجب فهم متدينون جدا، ودينهم يأمرهم بهذا.

لقد صورهم البعض لي أناسا خبثاء، حقودين ومن الصعب إرضاؤهم، طغاة متجبرون، عندما يتمكنون من الآخرين يسومونهم سوء العذاب، جبناء والويل لمن شاء حظه العاثر أن يكون يوما تحت رحمة الجبان!. ولكني عندما تعرفت عليهم بنفسي رأيت فيهم رقة لا توجد عند الآخرين!. صوروهم لي كافرين وجاحدين، فوجدتهم متدينين، مؤمنين!. المهم هو أني شعرت بعد معرفتهم بمدى إجحافي بحقهم فآلمني ذلك ورحت أحسن رأيي بهم حتى أحببتهم، وقد تبرعت يوما بمبلغ من المال اسهاما مني في الحملة التي أعلنوا عنها للبحث عن هيكلهم الأسطوري! رغم أني لم أعرف يوما أين يمكن أن يبحثوا عنه!!!.

إن الكثير من العرب ينظر إلى اليهود بعين الشك والحذر، إن لم يكن بعدوانية! وأنا لا أستطيع فهم سبب ذلك!!! فإن الغالبية من أبناء شعبنا هي طبقة مثقفة وواعية، تبتعد عن العواطف والانفعالات في أحكامها، وتلتزم جانب العقلانية والمنطق في آرائها، فلم هذا الموقف الغريب من هؤلاء الوديعين الذين لا يرفعون أيديهم حتى في وجه من يؤذيهم أو يهينهم؟!. يبدو أن مشاعر الحقد والكراهية التي تأججت بعد المؤامرة ضد اليهود ما تزال تحرك عواطف الآخرين ضدهم؟!. حسنا، يجب أن نعترف أولا أن ما حدث لم يكن بالأمر الهين أبدا، ولكن، لم يكن جميع اليهود مشتركين فيها، ثم أن هذا أصبح من الماضي الآن، أفلا يكفينا أحقادا؟!!!. والغريب أن أبناء شعبنا لا يعرفون أن هذه المؤامرة ونتائجها كانت واحدة من أهم الأسباب التي جعلت التقدم الذي أحرزته دولتنا في عالم اليوم، ممكنا!!! والأصح هو أن أقول التقدم النسبي، لأن جهود البشرية جمعاء كانت قد ضاعت بالفعل نتيجة هذه المؤامرة وملابساتها!.

كانت دولتنا في الوقت الذي وقعت قيه تلك الأحداث تتخلف عن ركب التقدم في ميادين العلم والمعرفة (ولماذا؟! التي يمكن أن تتبادر إلى ذهن القارئ هي نفسها التي حيرتني ولكني لم أجد لها جوابا أكيدا!!!) ولم تكن قد تقدمت إلى الحد الذي يؤهلها لاعتماد الحواسيب في جميع مرافقها وخاصة العلمية منها! فيما كانت قد قطعت شوطا لا بأس به بهذا الاتجاه في الميدان الثقافي!!! وكانت الدول المتقدمة قد وصلت إلى أقصى درجات الاعتماد على تلك الآلات الغادرة في كل فعالياتها، الخاصة

والعامة!. لقد اكتسح إعصار المؤامرة دولتنا وكانت خسائرها فادحة، ولكنها كانت أقل من خسائر الآخرين نسبيا. لقد شاء القدر أن يكون تخلفنا في السابق هو السبب في أننا احتفظنا بذاكرتنا البشرية التي يجب أن لا تهمل أبدا، وهذا كان هو السبب في التفوق الذي أحرزناه فيما بعد على الآخرين الذين دمرت ذاكرتهم في الكارثة لأنها كانت صناعية وقتئذ بالكامل! فبقوا بعد تدميرها بلا ذاكرة!!!.

إن الدول التي كانت متخلفة بالفعل قبل المؤامرة لم تستطع أن تحقق سبقا أو رجحانا بعد وقوعها على حساب الدول المتقدمة، لأنها لو كانت تمتلك مقومات التقدم لما أصبحت متخلفة أساسا، ولكن هذا لا ينطبق على دولتنا التي كانت طوال تأريخها تمتلك كل مقومات التقدم، ولكن يبدو أنها كانت متخلفة بسبب الضغط والحصار الذي كانت القوى الكبرى تمارسه عليها لمنعها من أخذ دورها الحقيقي في هذا العالم!!!. وعندما زال الضغط والحصار نتيجة لانشغال تلك القوى بلعق جراحها المميتة التي أثخنتها بها المؤامرة، أصبحت الفرصة مهيأة أمام دولتنا لإحراز قصب السبق على تلك الدول وكانت جديرة بذلك، فأراضيها تمتد على أطراف قارتين، وتزيد مساحتها على مساحة أكبر الدول وأقواها! بل هي في الحقيقة أكبر من بعض القارات!! وفيها من الموارد الطبيعية الهائلة ما يجعلها إذا ما أخذنا كثافتها السكانية بالاعتبار إحدى الدول المرشحة دوما لقيادة العالم!. ولكن المؤامرات والألاعيب السياسية واللارحمة حرمت هذا العملاق الذي ظل أيضا أسير أخطاء قادته طويلا، من فرصة إثبات نفسه وكشف معدنه الحقيقي حتى لاحت له الفرصة باقتران المؤامرة اليهودية بالأحداث التي وقعت خلال المسافة الزمنية الفاصلة ما بين العبدين ولاسيما الصراع المميت بين التنين الأصفر والبومة الزرقاء!!!.

****

العبد الأول، كان عبد العليم، رجل الدين المتنور الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني والعشرين، كان ابنا مدللا لاسرة ميسورة الحال تسكن الحجاز، وكان متميزا منذ صغره بحيويته وقدراته غير المحدودة، ولكنه كان طفلا شقيا تصعب السيطرة عليه، و كاد الدلال يفسده، لولا أنه بذكائه الخارق استطاع في النهاية أن يستعيد توازنه لكي يبدأ رحلته الخاصة باتجاه الأهداف التي وضعها نصب عينه فيما بعد.

كان قد ولج مرحلة الشباب وهو مثقل بالشك الذي تسرب إلى نفسه، فجعله حسي الهوى ومادي الأهداف، ولكنه كان من نوع الرجال الذين يستطيعون أن يتحولوا من أقصى اليمين إلى أقصي اليسار ما أن يلوح لهم أن الحق لم يكن كامنا في الاتجاه الذي اختاروه لأنفسهم، يمشون في طريق ويبدلونه بآخر بطرفة عين، بحثا عن الحقيقة وبإيمان وثبات يحسدون عليه في الحالتين!.

تحول عبد العليم حالما تسلل نور الله إلى نفسه، إلى مؤمن واثق ومجاهد عنيد. كان الإسلام من حوله ولكن أحوال المسلمين لم ترق له، فعرف ببصيرة الرجل العظيم انه قد عثر على ميدانه، ولكنه لم يشأ أن يتعرض لشيء حتى يعد للأمر عدته، كان واقعيا في تفكيره ويعرف إن الصبر كفيل بتذليل كل المصاعب التي يمكن أن تعترضه. كان يعرف أن قدره هو أن يكون قائدا، لا لكي يشبع غرور نفسه، وإنما لكي يقود من يسلمه قياده إلى الأفضل، ولذلك قرر أن يكون هدفه الأول تحقيق ما يجعله متميز ا لكي يؤكد أفضليته في القيادة، ولم ير هذا التميز إلا في النجاح في دراسته (بعدما كان قد أهملها طويلا) والحصول على شهادة عليا كمرحلة أولى، وهذا ما حققه بنجاح باهر. كان خلال سنوات دراسته لا يكل من قراءة كل كتاب يقع في يده بنهم ما بعده نهم كانت السنين تمضي والتجارب تتر ى وهو يستنبط منها الدروس والعبر ليزداد حنكة وخبرة في مجالات الحياة، وكانت الصورة تتضح أمامه ونجمه يزداد لمعانا في الأوساط التي يتردد إليها.

أدرك عبد العليم بعد طول عناء، وآمن بأن أزمة المسلمين كانت تتمثل في إصرارهم على تطبيق قوانين قديمة، بحذافيرها على مجتمع أصبح في ظل التقدم الهائل الذي أحرزته البشرية، وخاصة في ميدان الاتصالات، مجرد زقاق في مدينة كبيرة، هي العالم. كانوا يصرون على تطبيق أحكام وصلت في التزامها بالجانب الأخلاقي إلى الحد الأقصى، في زمن باتت فيه الدول ترى إن التنازل عن بعض أو حتى كل المبادئ الأخلاقية، أهون عليها من أن تتنازل عن الفرصة في مواصلة السير مع الدول الأخرى، أو أن تتوقف عن اغتنام الفرص المتاحة لكي تتقدم في عالم أمسى التنافس اللاأخلاقي، الصفة المميزة له. عرف عبد العليم بفطرته السليمة وعقله الراجح، أنه من المستحيل أن تكون هناك ولو فرصة ضئيلة للعيش، لدولة تقوم على الأخلاق فقط، بوجود تلك النسبة الغالبة من الدول التي تخشى من الأخلاق على نفسها!، ففصل ما بين الدين والسياسة، وترك الثانية للدولة القائمة، وركز هو على مسألة تحديث الأفكار الدينية ومبادئها، من دون أن تفقد سماتها الرئيسة. ولكن أي تحديث؟! لقد كان يعرف كل شيء عن الأفكار والتجارب الماضية، ورأى كيف حاد معظمها عن الطريق السوي، بعد أن استغل من قبل أطراف متعددة، وتحولت في النهاية إلى محاولات دؤوبة لتهديم الإسلام من الداخل وتدميره!!! ولم يكن هذا هو الذي يخيفه، لأنه يعرف أن الإسلام قد ولد ليبقى، ولكنه كان يخشى على المسلمين الذين فرقتهم المذاهب وزعزعت وحدتهم النعرات!. قرر أن تكون السرية مبدأه الأول في العمل لكي يأمن شر الأعداء في الخارج والخصوم في الداخل، حتى تنضج ثمرة عمله وتتهيأ للقطف.

وقبل أن استرسل أكثر، يجب أن اذكر أن كل ما ذكرته هنا، أو سأذكره فيما بعد عن أعمال عبد العليم، لا يمثل رأي شخصي لي، بل هو مأخوذ من المنشورات التي هيأها لي بعض أصدقائي من أعضاء الجمعية. وسأكون كاذبا لو ادعيت أني قد فهمت كل ما ورد في تلك النشرات، وخاصة ما يتعلق منها بالجانبين الفقهي والتشريعي! ولكني أؤمن بالعقل ونتاجاته، وبما أن عبد العليم كان يؤكد منذ البداية

عقلانية الإسلام، فإني أعدّ كل ما قاله صحيحا ولا مجال للشك في صحته، ولذلك أيضا أع دّ كل ما قيل مدحا لذلك الرجل العظيم، صحيحا.

أنا لا أستطيع أن أورد كل ما تحتويه تلك المنشورات، ولكني سأركز فقط على الحجة التي بنى عليها الشيخ كل ما ذهب إليه في طروحاته،وهي الاجتهاد في الإسلام. لقد وجد عبد العليم نفسه في البداية حائرا ما بين إغلاق باب الاجتهاد من قبل بعض المسلمين! وإصرار آخرين على إبقائه مفتوحا حتى اقترب ما يفتون به من الذرائعية الخطيرة التي يمكن أن تضر كثيرا بزرع الإسلام في نفوس المسلمين!!! ولكنه حزم أمره أخيرا وأستنبط صيغة جديدة للاجتهاد، سمّاها الاجتهاد الملتزم. ولكي ينأى بما استنبطه عن تهمة البدع والضلالات، فقد أسنده بأحاديث وآيات، مستخدما في ذلك طريقة القياس العقلانية. ولكنه اشترط أن يكون مثل هذا الاجتهاد محدودا جدا، ولا يطرق إلا إذا ما استدعت الضرورة القصوى ذلك، وعرّف هذه الضرورة تعريفا واضحا ومحددا لا لبس فيه. وعلى أساس النية السليمة التي كانت متوفرة لديه،. أعطى لنفسه حق الاجتهاد الملتزم، فبادر إلى وضع منهاج متكامل شرح فيه آراءه في التجديد والتحديث، ولكن بروح إسلامية واضحة لا تخفي دور العرب في حمل هذا الدين العظيم. ولم يدخر وسعا في رفد كل ما طرحه بنصوص قرآنية وأحاديث نبوية. ولكن السؤال هو، أين يكون الاجتهاد؟. لقد أوضح الشيخ إن الدين فيه أصول وفروع، وأما الأصول فلا مجال للاجتهاد فيها لأنها تتعلق بأوامر إلهية لا نقاش لها. أما مجال الاجتهاد، فهو الفروع، أو بعضها في الأقل، ثم أضاف إلى الفصول والفروع، ما سمّاه بالمستجدات، وأثبت صواب إضافتها بحجج دامغة وواضحة، فربطها بالفروع، مثلما ترتبط الفروع بالأصول، ودعم ذلك بالنصوص والقياس، وشدد على أن تكون هذه المستجدات وبعض الفروع هي المشمولة بالاجتهاد الملتزم حصرا، مع تأكيد عدم إعطاء حق الاجتهاد لكل من هب ودب.

ولكن رغم الجهد الهائل الذي بذله عبد العليم في تنظير أفكاره وتنضيدها، إلا أن الخطوة الأهم بقيت بعيدة عن متناول يديه طويلا، واقصد بهذه الخطوة التطبيق!. كانت مهمته في الواقع صعبة جدا، ولكنها ليست مستحيلة مع وجود العقل المتفتح والموهبة والإرادة الصلبة، وهو ما كان متوفرا عنده، ولكن كانت تعوزه الإمكانات المادية التي لا بد منها للتطبيق. فظلت خطوة البداية مؤجلة، حتى آلت إليه بالوراثة ثروة ضخمة جدا!، فقد كان هو الوريث الوحيد لعم ثري، استطاع أن ينال كل ما أراده في هذه الحياة، ما عدا أن يكون لديه وريث من صلبه!، وكأن الأقدار كانت تخطط لهذا الأمر الذي أصبح فيما بعد واحدا من أهم الأسباب التي جعلت من أمر قيام دولتنا العظمى ممكنا!!!.

لم تغر الثروة الهائلة عبد العليم، بل قرر عندما أصبحت ملكا له أن يؤسس فورا جمعية سرية ذات طابع ديني واجتماعي! وبدأ يتصل بأفراد محددين ليختار منهم أعضاء هذه الجمعية التي تأسست بالفعل وكان أعضاؤها المؤسسين، شخصيات متنوعة، وأفراد ا من مهن مختلفة، اختارهم عبد العليم جميعا

بنفسه، وهم رغم اختلافاتهم ، يجمعهم صدق المبادئ والاستعداد للتضحية من اجلها، ومثل هؤلاء نادرون كما هو معروف، ولكن عبد العليم كان يستطيع أن يتعرف عليهم لأنه واحد منهم. والغريب في الأمر هو، أنه اختار بعض هؤلاء من غير المتدينين!!!.

كان عبد العليم يعرف أنه لن يعيش حتى يرى أهداف الجمعية الحقيقية وقد تحققت على ارض الواقع، ولذلك لم يستعجل يوما في اختياراته، وتوضح منشورات الجمعية، التي لم تصبح علنية إلا بعد وفاته بحوالي القرن والنصف، أن عدد الأعضاء كان في حينها (عند وفاته)، لا يتعدى الثلاثمائة عضو فقط، كان قد اختارهم بنفسه وأفهمهم بكل حزم أن السرية المطلقة مطلوبة طوال أجيال بأكملها حتى تستطيع الجمعية بتزايد عدد أعضائها (مع التأكيد المستمر على النوعية) أن تكون قوة فاعلة في المجتمع، لتطبق مبادئها التي ستعطيه الزخم اللازم للاندفاع إلى الأمام، والأخذ بناصية التقدم، حتى يتبوأ موقع الصدارة بين مجتمعات العالم، ومن دون أن يفقد الجانبين، الروحي والأخلاقي اللازمين لحفظ كيانه.

****

تعرضت الجمعية إلى هزة خلال حياة عبد العليم كادت تكون القاضية عليها! لولا حلمه وحكمته، فقد قرر هو فجأة أن يؤسس شركة للاستثمار برأس مال ضخم رصده من ثروته الخاصة!!! فهال الرجال أن يتحول شيخهم فجأة إلى رجل أعمال! يهتم بالمسائل المادية! فشكّوا في صدق دعواه التي جعلتهم ينضمون إلى الجمعية، وهددوا بالانسحاب منها ما لم يتراجع عما قرره، ولكنه سرعان ما احتوى ردود أفعالهم السلبية بأن أبان لهم إن الهدف من تأسيس الشركة إنما هو لإدامة أسباب وجود الجمعية على مر القرون التي يجب أن تمضي قبل أن تحقق أهدافها، من خلال توفير الدعم المادي لها الذي تكفله شركة الاستثمار هذه، واتفق معهم على أن مجلس إدارتها يجب أن يكون مكونا من أعضاء الجمعية حصرا، لضمان عدم تسرب الطمع إلى نفوس رؤسائها، ومن يعرف أحوال الجمعية المادية الآن وكيفية إدارتها يدرك مدى بعد النظر الذي كان يتميز به هذا الشيخ العظيم الذي أوصى بأن تلتزم الجمعية والشركة مبدأ التدوين في أعمالهما إلى جانب استخدام التقنيات الحديثة، فكانت السجلات المكتوبة بخط اليد تحفظ في خزنة منيعة ومحاطة بأقصى درجات السرية في المركز الرئيس للشركة، ولذلك لم تطل عواقب المؤامرة اليهودية الوخيمة الجمعية ، وإن كانت قد أربكت أعمال الشركة قليلا، ولكنها سرعان ما عادت إلى سيرتها الأولى وتجاوزت آثار المحنة. فللّه درّ هذا الرجل الجليل، الذي يبدو وكأنه أراد أن يحفظ للجمعية التي أسسها كيانها حتى وهو في قبره.

****

خلف الشيخ بعد موته ولده في إدارة الجمعية، وكان قد رباه على مبادئه وأحسن تربيته وتدريبه، فأصبح أمين سره منذ نعومة أظفاره، وفهم كل أفكار والده وأساليبه ورؤاه وهو شاب، ولذلك كان خير خلف لأحسن سلف، فاستطاع أن يزيد عدد أعضاء الجمعية حتى تجاوز الألف، من دون أن يحيد عن الأسس التي حددها والده. وعندما توفى خلفه في منصبه عضو متميز آخر، ولكن اسمه بقى طي الكتمان، وكذلك بقيت أسماء جميع الرؤساء الآخرين، وتكتفي منشورات الجمعية بكلمة مرشد للدلالة عليهم، ولكنهم كانوا جميعا ممن تشرّبوا بمبادئ الشيخ المؤسس وأفكاره، لان اختيارهم من بين الأعضاء كان يتم بعملية انتقاء صارمة جدا.

بمرور الوقت تزايد عدد أعضاء الجمعية، وبدأت بتأسيس فروع لها في أنحاء دولتنا من دون أن ينكشف أمرها للسلطات أو لعامة الناس. إن الخشية من السلطات لم تكن هي مبعث هذا الخوف، لأنه لم يكن لها أهداف سياسية معلنة، وإنما كان الخوف، كل الخوف، من الاصطدام بأصحاب الفكرة السلفية في الدين الذين كانوا يؤلفون أغلبية يحسب لها ألف حساب في الخلافات العقائدية، قبل أن تبلغ الجمعية أشدها، مثلما أراد مؤسسها، حرصا منه على وحدة المسلمين، ولتقديره لهؤلاء السلفيين الذين أعتبرهم حماة للدين من التخريب والبدع الضارة. كما إن انكشاف سر الجمعية قبل الأوان يجعلها عرضة لمحاولات تسلل أو تحريض تلجأ إليها قوى خارجية تتحين الفرص دوما لتخريب المجتمع من خلال تكريس خلافاته وزيادة انقساماته .

****

بعد مرور أكثر من قرن على تأسيس الجمعية انتخب لها مرشد، كان من المع مرشديها وأغزرهم علما ومعرفة، كان من الجيل الثالث لأحفاد أحد الأعضاء المؤسسين، استطاع بنشاطه وحيويته وذكائه أن يبدأ عملية اتصال الجمعية بأعضاء من خارج حدود الدولة، ومن ثم تأسيس فروع لها هناك. كما تواصلت أيضا مع الأديان الأخرى من خلال الجمعيات التي أشرفت هي على عملية تأسيسها وإسنادها ماديا ومعنويا، لأبناء الطوائف الأخرى في بلادنا، وهو ما يسّر اتصالها بالأديان الأخرى بالداخل والخارج، ليبدأ بذلك الحوار البناء ما بين الأديان، الذي كان يشمل حتى غير السماوية منها حسب العرف الإسلامي، ولكنها لم تشمل اليهود في تلك المرحلة!!!. فعلت الجمعية كل ذلك من دون أن تخل بشرط السرية! ولكن الأمر المهم الذي يجب أن يذكر هنا هو، إن جهودها كانت السبب الأول في جعل التعايش السلمي بين مختلف الأديان أمرا واقعا في عالم اليوم.

من خلال الحوار المستمر اتفق رجال الدين في العالم على الاكتفاء بالاهتمام بالحياة الاجتماعية والجانب الروحي للأفراد، وترك السياسة للسياسيين، ويتمتع المرشدون الروحيون للأديان والطوائف اليوم باحترام كل من الدولة والمواطنين في مجتمعنا المتماسك، ولن اكشف سرا إذا ما قلت، أنهم جميعا من أعضاء هذه الجمعية، والجمعيات التي أوحت هي بإنشائها، لأنها أصبحت من أقوى الجمعيات بل هي الجمعية الأقوى والأشد نفوذا في وطننا، ومن قوتها يستمد المجتمع أسباب قوته وديمومته، بل ووحدته الوطنية.

-5-

في بداية القرن الرابع والعشرين انضم إلى الجمعية شاب طموح كانت تبدو عليه علامات التميز والذكاء، كان ذا شخصية فذة جعلت الجمعية توافق على انضمامه إليها عندما اقترح أحد أعضائها ذلك، واظهر نشاطا وحيوية فائقين عندما أصبح عضوا، حتى توقع له الآخرون مستقبلا باهرا في الجمعية، ولكنه خيب أملهم!. فقد أدرك أن الانضمام إلى الجمعية لا يتناسب وطموحاته، رغم إعجابه الشديد بأهدافها وتنظيمها ! وشعر بدلا من ذلك بان السياسة هي السبيل الوحيد لتحقيق ذلك الطموح الكبير، بخاصة ان الأخطار التي كانت محدقة بالدولة آنذاك، تنذر بالشرور، مما جعل التشاؤم سيد الموقف وهذا هو بالضبط ما جعله يعقد عزمه على سلوك درب السياسة، لأنه كان من النوع الذي لا يفصح عن معدنه الحقيقي إلا في ظل المخاطر. قرر الانسحاب من الجمعية ليتفرغ للعمل السياسي، فاهتزت الجمعية التي كانت قد أعلنت عن نفسها ولكنها حرصت على إبقاء مخططاتها المستقبلية طي الكتمان، فكان انسحاب أحد أعضائها (وهو أمر لم يكن قد حدث من قبل أبدا) يهدد سرية تلك المخططات، ولكن الشاب أصر على موقفه وأكد لهم أنه سيحتفظ بالسر في صدره، ولكن الخطورة كانت باقية رغم ذلك! فتأزم الأمر مما اضطر المرشد إلى تناول زمام الأمور بنفسه، فأستدعى الشاب وطلب منه أن يمهله بعض الوقت لكي يفكر بطريقة لحل الأزمة، وهو ما وافق عليه الشاب فورا. لم يطلب المرشد تلك المهلة ليفكر حل مشكلة الانسحاب فقط، بل كان يريد أن يفكر بما هو اكبر من ذلك بكثير!!! فقد كان في سبيله إلى اتخاذ قرار تاريخي، اعتقد أن الوقت قد حان لاتخاذه!. تشاور مع أعضاء محددين مدة، ثم اعتزل الجميع لكي يفكر وحده. خرج المرشد بعد حين من عزلته ليرسل في طلب الشاب، ويختلي به ساعات!!! خرج بعدها الشاب وابتسامة الرضا تعلو وجهه، فيما بقى المرشد جالسا في مكانه وهو واجم، يكاد القلق المتجسد يقفز من عينيه!!!. لم يعرف أحد في حينه ما دار بين الاثنين، ولكن منشورات الجمعية التي صدرت بعد عقود، تناولت ذلك الاجتماع بالتفصيل، وتحدثت عن الصفقة التي عقدت بينهما، وهي أن تدعم الجمعية الشاب في مسعاه السياسي، مقابل وعده بان يطبق مبادئ ونظريات الجمعية، التي كانت قد تبلورت في ذلك الحين، على مستوى المجتمع والدولة عندما يصبح هو الرجل الأول فيهما!!!. ولكن! كيف يعرض المرشد، جمعيته الموقرة للخطر مقابل وعد فقط؟!، فقد كان الخطر عظيما بالفعل، لان انكشاف أمر الصفقة قبل وصول الشاب إلى سدة الحكم، كان يعني أن الجمعية قد اختارت طريق العداء تجاه الدولة القائمة! وهو أمر خطير جدا لجمعية تدعي أن أهدافها اجتماعية بحتة!!!. ولكن ذلك المرشد الكبير كان قد آمن بأنه لا كسب حقيقيا من دون مخاطرة، ولذلك عقد تلك الصفقة. والمهم في الأمر انه لم يكن مجتهدا في ذلك بالمرة! لأنه إنما كان ينفذ واحدة من أهم توصيات عبد العليم على الإطلاق، وأكثرها سرية، بحيث لم يكن يعرفها إلا عدد محدود جدا من الأعضاء! وهو أن تحاول امتلاك قوة

فاعلة في المجتمع، ولن تكون هذه القوة بالتأكيد إلا جهة تمتلك النفوذ الدنيوي الأكثر فعالية في استمالة الشعوب، التي تكون في معظم الأحيان على دين قادتها. كان كل ما فعله المرشد هو انه قد اختار الشخص الجدير بهذه المهمة، واختار كذلك الوقت المناسب لها. وهو على كل حال لم يكن مخطئا، فقد أثبتت التجربة أن الشاب كان جديرا، ولان الدولة كانت في ذلك الوقت، في أدنى درجات انحطاطها! لأنها كانت تعني القسم الشرقي فقط!!!. فقد استطاعت القوى الكبرى بمؤامراتها المستمرة، أن تنجح في استثمار الصراع الخفي بين الأقسام الثلاثة!!!، الشرقي، الذي كان أغنى الأقسام، ويرى أن القسمين الآخرين يعيشان كالطفيليات على ثرواته!، والأوسط الذي كان يرى انه أحق الأقسام بالقيادة، لأنه هو الذي يمتلك الموارد البشرية التي تجعله الأقوى!، والغربي الذي كان لاتصالاته بأوربا القريبة منه، يرى انه هو الأثقف والأرقى من القسمين الآخرين!!!، لكي تحدث الانقسام، وتجعل الحكومة قابعة في العاصمة، وهي عاجزة عن أن تفعل شيئا حيال التمرد الذي أعلنته القوى السياسية في القسمين الأوسط والغربي على التوالي، وإقامة ما يشبه الحكم الذاتي في كل منهما.

****

بعد سنين من العناء والكد المتواصل، وبعد مخاطر وأهوال متنوعة، تمكن الشاب الذي زادته الأيام حنكة ودراية أن يصل إلى أعلى السلطة في العاصمة التي أنهكتها الأحداث، بانقلاب مفاجئ!، فقبض على الزمام بيد من حديد، وأدار البلاد بحكمة وبراعة. وقد بر بوعده للجمعية التي استمرت في دعمه ماديا حتى بعد أن وصل إلى القمة، لأنه كان في اشد الحاجة إلى ذلك في البداية. فسمح لها بصياغة سلسلة القوانين الحديثة التي صدرت تباعا على هدى مبادئ الجمعية وأفكارها، فكانت هي الأساس الذي نهضت عليه الدولة الحديثة.

وكان الرئيس الجديد مثالا في الالتزام بروح هذه القوانين، يعبر عنها بصورته التي يظهر بها أمام الجماهير، ويلتزم بها في خطبه وأحاديثه التي لم يكن يلقيها، إلا بعد أن تناقش من قبل لجنة خاصة في الجمعية!!!. وكان هذا النجم الذي برز في سماء دولتنا هو العبد الثاني، عبد الجبار .

كان عبد الجبار، جبارا بالفعل، فقد كان ماهرا في تسيير أمور الدولة، حازما في أوامره ، صارما في عقوباته وكريما في مكافآته. ولكن أهم أولوياته كانت ، إعادة بناء الجيش الذي بقى في معظمه وفيا للعاصمة، رغم انفصال الأقسام الباقية. فبذل جهودا جبارة وأموالا سخية، لكي يجعل القطعات الموالية، جيشا متكامل العدة والعدد. فكان له ذلك بعد سنوات قليلة من بداية حكمه، فراح يتحين الفرص وهو يراقب بعين ثاقبة الصراع المميت الذي كان دائرا بين الجبارين الدوليين آنذاك، التنين الأصفر، الذي

هو التحالف القائم بين اليابان وكوريا، والبومة الزرقاء، التي هي الدولة الأوربية الموحدة. كان كل منهما يحاول أن يحقق السيطرة الكاملة على آسيا الوسطى، المنطقة الأهم في العالم بالنسبة لأهدافهما التوسعية. كان التنين يريد أن يتقدم على اليابسة بعد أن حقق السيطرة شبه الكاملة على المحيط الهادي لكي يستطيع أن يجعل من تلك المنطقة المحاذية لأوربا موطئ قدم يستعمله في حال قيام الحرب بينهما، وهو أمر كان واردا جدا. أما أوربا فإنها كانت تهدف إلى حصر التنين في الممر السيبيري الخانق الذي ناله بشق الأنفس، وذلك لأن الصين كانت لقمة اكبر من أن يستطيع هذا التنين الصغير، ازدرادها، فكان وقوع آسيا الوسطى في يد أوربا يجعله يرتد إلى الساحل الآخر للمحيط الهادي، حيث جمهوريات الأمريكيتين الشمالية والجنوبية المتفككة، وقارتيها المستنزفتين اقتصاديا، الأمر الذي يؤمن لأوربا السيطرة الكاملة على قلب العالم النابض بالحياة فعلا، ولا يبقى بعد ذلك أمامها غير دولتنا المقسمة والمنهكة ، حاجزا يفصلها عن بقية القارة الأفريقية. ولكن الوقت طال، ولم تنجح سلسلة الحروب المتصلة التي حدثت في ذلك الجزء المهم من العالم، سوى في إرهاق شعوبه! وإفلاس خزينتي الدولتين العظميين، بتكاليفها الباهضة!، التي تضاف إلى تكاليف الحرب الباردة بينهما، التي كانت في الحقيقة اشد حرارة من الحروب الفعلية التي خاضوها بالإنابة هناك!!!.

كان التحالف يركز على قضية تعدد القوميات في الدولة الأوربية، والخلافات العرقية القائمة بينها، وكان يساند حركة التحرير البريطانية التي تناضل لتحرير جزرها من الاحتلال الأوربي. فيما كان الاتحاد يستعمل على الدوام الورقة الصينية التي كان نظامها الشيوعي (لم اعرف يوما معنى الشيوعية، فهي نظام خاص بالصين التي لم أزرها أبدا) تربطه علاقات طيبة به! رغم انتمائه إلى الجنس الأصفر!!!. كانت الصين بمساحتها العظيمة، وعدد نفوسها الهائل، تكتم أنفاس التنين طوال العقود التي ظل خلالها التحالف قائما، وتحصره في ذلك الشريط الساحلي الذي تمتد عليه أراضى كوريا، وكانت هي التي أوقفت زحفه غربا (بعد أن احتل كل جنوب المحيط الهادي)، عند حدود جمهورية سومطرة بعدما ابتلع جزر الأرخبيل الاندنوسي وجمهورياتها الصغيرة الواحدة تلو الأخرى، ولكن سومطرة كانت هي الخط الأحمر الذي حددته الصين للتنين، لان دخولها كان يعني عمليا تحقيق التماس مع يابسة جنوب شرق آسيا، وهو الأمر الذي لا تستطيع الصين أن تسمح به أبدا، بناء على تجارب مريرة سابقة مع الآلة العسكرية اليابانية.

كانت أوربا تتمنى دوما أن يؤدي تأليبها للصين على التحالف إلى تفكيك أوصاله، ولكن أوصالهما تفككت معا في النهاية!!! وكانت عين ا عبد الجبار تتابع ان الأحداث بكل يقظة، ومع تنامي قوته المضطرد، كانت كلتا القوتين تنحدر إلى درجة من الضعف، أصبحت معها لا تستطيع أن تقرن تهديداتها وغطرستها بالفعل الصارم!، وحتى هيمنتهما المتساوية على الاتحاد الدولي، والقرارات الصادرة عنه، ضعفت، ولكن ، كان يمكن للآخرين رغم كل هذا، أن يستمروا في الحذر من قوتهما

المتبقية، لولا صاعقة المؤامرة اليهودية، التي انقضت على ما تبقى منهما وأحالتهما إلى هشيم تذروه الرياح.

****

أن الوضع الذي خلقته المؤامرة على المستوى الدولي كان هو الفرصة غير المتوقعة التي انتظرها عبد الجبار، لان الشلل التام كان قد أصاب القوتين العظميين فأصبحتا عاجزتين عن إحباط ما كان يخطط له، فاستنفر كل قادته العسكريين ومعاونيه، لكي يدخلوا في سباق رهيب مع الزمن، والإرباك الذي سببته المؤامرة على مستوى دولتنا (فهي لم تسلم من الإرباك بكل تأكيد) ليتمكنوا من تنفيذ مخططاته قبل أن يسترد العالم أنفاسه.

وأخيرا وفي أحد الصباحات الباكرة من خريف عام 2421م، اندفعت قطعات جيش عبد الجبار بسرعة مذهلة وبحركة التفاف مثيرة، لتطبق على عاصمة القسم الأوسط! وفي الوقت نفسه كانت قوته البحرية تنفذ عملية إنزال هائلة على طول ساحل البحر المتوسط الممتد من بور سعيد وحتى طرابلس الغرب، في عمليات أذهلت قادة القطاع الأوسط ، السياسيين والعسكريين! فيما كان العالم مشغولا بما هو فيه من هموم وإحباطات. وقبل أن يسترد أحد أنفاسه، كانت قطعات الجيش قد أكملت واجباتها وسيطرت على كل المرافق المهمة في الوسط!!!.

بقيت عملية تجحفل تلك القطعات عند خطوط شروعها واندفاعها بعد ذلك لتنفيذ واجباتها من دون أن يشعر بها أحد، سرا من أسرار عبد الجبار ومعاونيه، وكانت الخسائر البشرية محدودة جدا في البداية. ولكن ما أن ثابت مراكز القوى الرئيسة في الوسط إلى رشدها، حتى حركت القوات الموالية لها، لتبدأ حربا أهلية طاحنة!!! سقط خلالها مئات الآلاف من أبناء الشعب الواحد!!! كانت مأساة رهيبة، ولكن كلا الجانبين أبى أن يتوقف! قوى الانفصال، وهي تقاتل قتال اليأس المستميت رغم أنها كانت قد خسرت المعركة حتى قبل أن تبدأ! وعبد الجبار، الذي رفض أن يتنازل بعد أن رأى ثمار النصر دانية القطوف. وبعد أن قطفها بالفعل، أدرك أن الثمن كان باهظا جدا!!!، ولكنه اقنع نفسه فيما بعد بان الأهداف الكبيرة تستحق مثل هذا الثمن، الذي وان بدا كنقطة سوداء في تاريخ الشعوب، إلا انه لابد منه لحفظ وحدة كيانها.

لم يستطع المجتمع الدولي أن يفعل شيئا تجاه ما حدث آنذاك، بل أن دولا كثيرة لم تسمع به إلا فيما بعد لأنها كانت في ذلك الوقت معزولة عن العالم بسبب المؤامرة إياها!.وبعد ذلك، بدأ عبد الجبار يزداد قوة كل يوم، بل كل ساعة!، الأمر الذي جعل القسم الغربي يعمه الاضطراب والخوف، فسارع قادته للاستنجاد بأوربا!، ولكن أوربا كانت حينذاك في حاجة إلى من ينجدها هي، وينقذها من التخبط

والاهتزاز!!! فلم ير أولئك القادة بدّا من أن يدخلوا في مفاوضات سرية مع رسل عبد الجبار الذين أرسلهم في محاولة أخيرة منه لاجتناب حرب أهلية أخرى. انتهت المفاوضات بعودة القسم الغربي إلى الدولة بدون قيد أو شرط، و لينال قادته مناصب في الحكومة الموحدة التي شكلها عبد الجبار بعد عودة القسمين الأوسط والغربي إلى الدولة مرة أخرى.

****

كان الشيخ عبد العليم رحمه الله يؤكد دوما على أن لا إكراه في الدين، فأصبح هذا، إلى جانب مقولة (الدين لله والوطن للجميع) التي قالها عضو بارز في الجمعية خلال أحد اجتماعاتها المهمة، من أهم الشعارات التي رفعتها الجمعية وهي تخوض غمار هذه المرحلة المهمة من تاريخها ومن تاريخ الأمة. فصدرت بوحي منها القوانين التي لا اثر فيها لتمييز عرقي أو ديني بل عومل الجميع على أساس ما يعبرون عنه من روح المواطنة. وبما إن الدين هو النصيحة أيضا، فقد حرصت الجمعية على أن يكون المرشدون الروحيون الذين كانت تختارهم، من أفضل واثقف أعضائها، لأنهم كانوا المراجع الروحية التي يلجأ إليها المواطنون. كانت الدولة تستفيد من هؤلاء المرشدين في رفد المناهج الطموح التي وضعت لتربية الشعب التربية الوطنية الصحيحة لتحوله إلى شعب بقى قرون ا طويلة، واحدا من اشد الشعوب عداء لحكامه، إلى أداة طيعة في يدهم، يسيرون به في السبل التي يختارونها. وبمرور الوقت أصبح معظم أفراد الشعب يفكرون بالمصلحة العامة قبل مصالحهم الشخصية أحيانا، ليصبح بذلك الطريق مفتوحا أمام التغيير الذي يؤدي إلى تكريس تلك الجهود من اجل بناء دولة حديثة، تعوض الشعب مرارات الذل والهوان التي عانى منها طوال العصور التي سبقت تلك الفترة. فبدأت أجيال جديدة بالظهور وقد لاحت في عيونها نظرة أمل وثقة بولادة فجر جديد للأمة، وما كان لهذه الأجيال أن تظهر، لولا حنكة ونبوغ عبد الجبار الذي ظل مدة طويلة بعد توحيده للبلاد يقودها للمضي قدما في الدروب التي كان يعرف أنها ستطول كثيرا، وأنه لن يرى نهايتها بنفسه، ولكنه كان تلميذا نجيبا لمعلمه الأكبر، عبد العليم، رغم اختلاف شخصيتيهما، فرضى أن يتمتع بميزات النفوذ والسلطة خلال حياته وان يرسي أيضا الدعائم لقوية التي قامت عليها الدولة العظمى فيما بعد.

****

شاءت الأقدار أن لا يكون لعبد الجبار ولد من صلبه، وكأنها أرادت بذلك أن تجعل هذا الرجل العظيم يسدي صنيعا آخرا لامته وهو لا يدري!، فقد تولى صبيا يتيما توسم فيه النبوغ والذكاء بالرعاية

والاهتمام حتى أصبح كولد له، فضمن له مستقبلا ماديا مريحا قبل أن يموت، لكي يستطيع أن يكمل دراسته.

عندما أنهى لبيب دراسته الإعدادية، كان عبد الجبار قد مات. ولكن الحكومة القائمة لم تكن قد نسيت فضله على الأمة، فأرسلت لبيبا إلى أوربا لإكمال دراسته الجامعية في الطبيعة كما أراد هو. ولكنه عندما وصل إلى هناك اكتشف إن ما كان يسمعه عن مستوى الدراسة في أوربا، أمر مبالغ فيه لأنها كانت قد تضررت كثيرا بغياب القاعدة المعلوماتية التي التهمتها النيران الكواركية، باستثناء الرياضيات التي أبى علماؤها الألمان، العاشقون لها، إلا أن يبذلوا جهودا جبارة لكي لا تتأثر كثيرا، فأعادوا تأليف كتب تدريسها (بعد أن كانت الكتب قد اختفت من مدارس أوربا منذ زمن بعيد)، من أدنى المستويات إلى أعلاها. ولان لبيب كان قد تملكه ولع بالرياضيات منذ أن أهداه عبد الجبار كتابا نادرا، يتحدث عن أساتذتها العرب الذين اشتهروا خلال القرن الثاني والعشرين، قرر أن يؤجل دراسة الطبيعيات التي كان يعشقها، ويكتفي بدراسة الرياضيات في الإقليم الألماني من الدولة الأوربية التي لم تكن قد تفككت في ذلك الوقت بعد. ولان العبقري لا يحتاج إلا إلى الرغبة، لكي ينبغ في دراسته، فانه نجح فيها، وعاد بشهادة عليا نالها بامتياز، إلى وطنه.

هنا يجب أن اذكر باني لم افقه من الرياضيات سوى ما كان يعينني على أداء الامتحانات المدرسية، وما سوف اذكره عنها لاحقا، مقتطف من مذكرات لبيب التي اطلعت عليها في متحف القرون الوسطى، حيث وضعت. وهذا المتحف يضم معظم الآثار التي تعود إلى تلك القرون الغامضة والممتدة ما بين القرن العشرين والرابع والعشرين، أما القرون التي تسبقها فهي بالنسبة لنا القرون المظلمة التي توجد آثارها في متاحف لا يمكن الاستفادة منها لضياع كل المعلومات الخاصة بها!!!.

عندما عاد لبيب إلى وطنه كتب في مذكراته:

(كان كل ما درسته هناك، نتاجا للعقل الأوربي الطامح إلى اللامحدود الذي لا يدرك بمحدودية العقل)

لم يحاول لبيب أن يعمل بعد عودته، بل شغل نفسه بمحاولة حل عدد من الألغاز الرياضية المستعصية على الحل!. وكان من أهمها المعادلة التي وضعها أستاذ عربي قديم، كان يدعو إلى أن تكون للعرب رياضياتهم الخاصة بهم!!!.كانت معادلة متعددة المجاهيل، عجز عن حلها الجميع!!! فاتهموا واضعها بالجنون. عانى لبيب الأمرين من هذه المعادلة العصية، حتى أدركه اليأس لولا انه شعر في لحظة الهام بان هناك علاقة ما بين الاحتمالات المتعددة الناتجة من خطوات الحل، بعد استعمال كل قانون على حدة. فَسُرّ بهذا الشعور، وراح يحاول أن يجد هذه العلاقة بعد أن آمن بان عقل الإنسان ومهما بلغ من علم فان له حدودا لن يستطيع أن ينفذ منها. ولذلك فانه بدلا من أن يحاول تفتيت صخور المعادلة الصماء برأسه، أراد أن يكتفي بالمعطيات التي توفرت له. ولكن إذا كانت المعادلة غير قابلة للحل، فان الاحتمالات ستكون غير منطقية لأنها ناتجة عن فرضية مستحيلة! وما بني على عدم، شيء لا وجود

له!!!. فعاد إلى محاولة حل المعادلة بعزم ثابت، ومعنويات يبقيها عالية أمل باكتشاف جديد. وقد تمكن بعد جهود مضنية من حل المعادلة، ولكن النتائج كانت مذهلة! فقد تبين له إن احتمالات الحلول الصحيحة تصل إلى عدد المجاهيل نفسها! أو تزيد!!! وبمعنى آخر، فان الحل يقود إلى معادلة أخرى من جديد!!!. عندها أدرك لبيب أن واضع المعادلة كان قد وصل إلى اكتشاف لم يستطع أن يعلن عنه خوفا من أن يتهم بالجنون!، أو شيء من هذا القبيل، فوضع نظريته على شكل معادلة على أمل أن يساعد حلها على فهم ما أراد أن يقول!!!. ولكن ما الذي أراد أن يقوله؟! يقول لبيب في مذكراته: (انه يتكلم عن الحياة بكل تأكيد لأنها الوحيدة التي تستمر على هذه الوتيرة، تقود أفرادا إلى مصائرهم، لتهدي العالم أفرادا آخرين، وأنا متأكد الآن من أني لو استمررت في الحل، فإني سأصل إلى النتيجة نفسها التي وصلتها من قبل مرة أخرى!!! ولكني لن أحاول ذلك لأن بالي مشغول الآن بالعلاقات الموجودة بين النتائج العرضية)

عاد بعدها إلى تلك المعادلات ليبحث في ركامها عن علاقات محتملة، ولكنها أبت أن تسلمه مفاتيح أسرارها طوال سنوات بذل فيها جهدا فكريا هائلا، حتى أوشك على الانهيار. وعندما نصحه الأطباء بالاستراحة، قرر هو أن يبحث عن عائلة ذلك الأستاذ، أو بالأحرى أحفاده الذين كانوا يعيشون في مكان ما من وطننا العربي. كان قد قرأ في الكتاب الذي أهداه إياه عبد الجبار إن الأستاذ كان قد كتب مذكراته هو أيضا ، ولذلك أراد أن يجدها ويقرأها، لعلها تساعده في شيء. بعد سفرات متعددة واتصالات ومحاولات متنوعة، استطاع أن يلتقي بأحد أولئك الأحفاد، أكد له الحفيد وجود تلك المذكرات، بل ساعده في العثور عليها، وجعل أقاربه يوافقون على السماح له بقراءتها.

بدأ لبيب بقراءة المذكرات بكل لهفة واهتمام، ولكن أمله خاب بعد القراءة الأولى!، لأنها بدت وكأنها مذكرات رجل عادي، يتحدث فيها عن همومه ومعاناته اليومية، والأفكار التي تخطر في باله وهو يعيش حياته الاعتيادية!!! فأعاد قراءتها مرة أخرى، فلم ير فيها غير ما رآه في أول مرة!!! أعاد القراءة مرة أخرى! ليتوقف هذه المرة عند الملاحظات التي تتحدث عن قصور العقل أحيانا، وعدم رؤيته الحقيقة الماثلة أمامه طوال الوقت!!! بعدما كان يبحث في قراءاته الأولى عن الملاحظات العلمية فقط. ت ـنّبه لتأكيد الكاتب أهمية الحدس وضرورة الإيمان في حياة الإنسان، فرأى للمرة الأولى إن ذلك الرجل الجليل كان يتحدث في مذكراته بحكمة الفيلسوف، عن نسبية الحقيقة وارتباط المكتشف منها بالجهد الإنساني المتوارث! ويتغزل بيقين المؤمن بخلق الله، ثم يدّعي بالحاد الكافر، بان الإنسان سوف يتحد بالله عن طريق المعرفة!!!

قرر لبيب فجأة أن يتعلم أصول التأمل على يد أحد أصدقائه المتصوفين والذي كان قد تعلمها في الهند. وبعد أن أتقنها، عاد إلى تلك الاحتمالات، ليكتبها بخط كبير وواضح على صفحات عديدة علقها على جدار في غرفة حبس نفسه فيها، وراح يقضي ساعات طويلة يوميا لا يفعل فيها شيئا غير التركيز

على تلك المعضلات الرهيبة التي سميت جزافا بالرياضيات، وبعد اشهر طوال من تلك الطقوس التأملية، مرقت شرارة فكر كالبرق في عقله المتحفز! كانت لحظة تجلٍّ باهرة! بل كانت نورا خاطفا أزاح الظلام عن علاقة ما، بين نتيجتين كانتا تبدوان متعارضتين دائما!!! كان التعب قد هدّ جسده، وذهب الجوع المستمر بصحته، فلم يحتمل دفقة الفرح الغامر التي اكتسحته، فوقع مغشيا عليه، وعندما صحا انتابه رعب من أن يكون قد نسى تلك العلاقة، ولكنه اكتشف إنها أسهل من أن تنسى!!! وعلى هديها توصل إلى طريقة للتوفيق بين المزيد من تلك النتائج وأذهلته سهولتها وقربها من البديهة والاعتياد!!! ومع بدء العلاقات بالإسفار عن نفسها، تبددت الحجب وبدأ لبيب رحلة أسطورية الجمال في آفاق لم يتصور يوما أنها يمكن أن تكون موجودة في عالمنا هذا! رحلة في ثنائيات الحياة وترابطاتها، بل في تضادها وتجاذبها (أو ما قد يبدو كذلك)، فتوصل بمرور الوقت إلى مجموعة قوانين طبقها من فوره على التفاضل والتكامل، فتعرف على دوال لم يعرفها أحد من قبل! غاياتها واضحة وإستمراريتها مكشوفة! أما مشتقاتها فإنها تربط اكبر الأجرام الكونية بأصغر الجسيمات التي تتكون منها ذرات الأجسام في تطبيقاتها!!! وحّد التكامل بإلغاء التحديد، وجعل من الإزاحة محددة، وأخيرا تجرأ فعالج التفاضل بوصفه صفرا مطلقا! فأحل التوحيد محل التفاضل والتكامل!!! وكان هذا هو الأساس الذي جعل من الرياضيات العربية المتكاملة التي ظهرت فيما بعد أمرا ممكنا.

بعد أن حقق لبيب كل هذا في الرياضيات، آنس في نفسه المقدرة على التصدي لمسألة الطاقة التي أصبحت أكثر من ملحة في تلك الأيام، فقرر أن يعود إلى مقاعد الدراسة ليحقق حلمه القديم بدراسة الطبيعيات دراسة مستفيضة، بعد أن تجاوز منتصف العقد الخامس من عمره!. سافر إلى ألمانيا التي كانت قد تجاوزت محنة المؤامرة بوقت أسرع من بقية الدول التي تفككت إليها الدولة الأوربية، وانتظم في صفوف الدراسة فيها، لينهل من معين العلم الذي لا ينضب.

ولكن قبل الاسترسال في الحديث يجب أن أبين بعض التفاصيل عن مسألة الطاقة آنذاك حسب ما تسمح به مصادري النادرة عنها. فقد كان هناك نوع من الطاقة النووية في عالم القرن العشرين (وهي غير الطاقة النووية الموجودة في زماننا بكل تأكيد) تنافس الطاقة التي كان يوفرها النفط في تلك الأيام، ولكنها لم تستطع آن تتقدم عليه أو حتى أن تجاريه، إلى أن نضب. المهم إن تلك الطاقة سببت كوارث ومآسي كثيرة لبدائية تصنيعها، ولاستخدامها سلاحا فتاكا أيضا أوصل الأرض إلى حافة الفناء قبل نهاية القرن الحادي والعشرين!!! ولكن كان من حظ البشرية إن عالما فرنسيا ابتكر طريقة سهلة ورخيصة لاستخلاص الطاقة من الشمس سرعان ما حلت محل الطرق القديمة لاستخلاصها، والتي لم تستطع أن تنافس الطاقة النووية من قبل أبدا. فقررت أوربا (التي كان اتحادها بزعامة فرنسا في ذلك الوقت) التي كانت هي القوة الكبرى بعد أفول نجم اتحاد جمهوريات أمريكا الشمالية الذي كان يسيطر على العالم قبلها، بسبب أخطاء قادته، ورعونتهم واستخفافهم بكل القيم الإنسانية والأعراف الدولية، وبالاتفاق

مع القوى الأقل شأنا أن تعمل مجتمعة لإزالة كل الآثار السلبية لتلك الطاقة الجهنمية عن كاهل العالم، فبدأت خطة طموحا ومكلفة جدا، ساهمت فيها معظم دول العالم، من اجل ذلك.وتذكر المصادر بغموض إن تلك الدول قد خاضت أكثر من حرب من اجل تنفيذ قرارها هذا!، ولكن المهم هو إن الأمر قد تم أخيرا، وحملت المواد الملوثة شعاعيا والأجزاء النووية من الأسلحة على مركبات فضائية صنعت من اجل إبعاد الخطر عن سطح الأرض، و أطلقت إلى الفضاء.

أصبحت الطاقة الشمسية بعد ذلك هي مصدر الطاقة الرئيس في دول العالم، وامتدت الخطوط التي تنقلها إلى الدول التي تعاني من نقص في نور الشمس فيها، إلى جميع أنحاء العالم. ومرة أخرى بان مدى اهتمام الرعاية الإلهية بنا، لان الشمس تكاد لا تغيب عن ارض العرب، وكأنها قد خلقت لهم!!!. وصل التقدم في تصنيع الطاقة الشمسية خلال القرنين اللذين تليا إلى آفاق بعيدة، فكان من الطبيعي أن ترضخ هذه الصناعة لنير الحواسيب التي كانت تقننها وتسيطر عليها منذ حالتها الجنينية كفوتونات، وحتى وصولها إلى المستهلك، فعانى العالم ما عاناه من أمر الطاقة المختفية بعد توقف حوا سيبه لضياع معلوماتها. ورغم انه استطاع بعد لأي ان يتجاوز مسألة نقص الطاقة جزئيا، ولكنه كان من المستحيل عليه أن يعيدها إلى سابق عهدها، قبل مرور قرون طوال .

****

أنهى لبيب دراسته للطبيعيات بتفوق مرة أخرى وعاد إلى الوطن ليبدأ من فوره أبحاثه النظرية في مجال الطاقة، كتب في ذلك الوقت في مذكراته:

(إن ما يهمني ليست مشكلة الآلات التي أخذت تتحكم بحياة الإنسان وتعرضه لخطر إخفاقاتها، بل لنفترض جدلا إن الخطأ الآلي، أو بالأحرى القصد البشري الشرير، لن يتكرر أبدا في المستقبل! فما الذي يضمن إن الطبيعة لن تقرر يوما أن تفصل ما بين الشمس والأرض جزئيا أو كليا؟! ولفترات يمكن أن تطول حتى تعجز كل الآلات عن تجاوز النقص الحاصل في كمية أشعة الشمس المنهمرة على سطح الأرض!!! ومثل هذا أمر وارد، فبركان كبير يمكن أن يهدد بثورة عارمة، يتسبب دخانه المتصاعد بوقف إمدادات الأرض من ذلك الشعاع الثمين! أو نيزك ساقط يمكن أن يؤدي سقوطه إلى النتيجة نفسها! والأرض تعترض مسار مئات آلاف بل ملايين النيازك المختلفة الحجم!! بل ما الذي يضمن إن الإنسان نفسه لن يتسبب في إحدى حماقاته التي قد يقترفها بكارثة اشد حتى من الكوارث الطبيعية؟!)

ومرة أخرى لم يحاول لبيب أن يستغل شهادته للكسب المادي، بل اكتفى بالنزر اليسير الذي تبقى عنده من تركة عبد الجبار وعاش عيشة الكفاف راضيا مستبشرا وهو يبحث عن مصدر جديد للطاقة، خائضا من اجل ذلك غمار مجاهل الطبيعة في غرفته!!! فقد كان يمتلك من الأساس النظري في عقله

الرياضي ما يجعله في غنى عن نبش الأرض أو تسلق الجبال أو الغطس إلى أعماق البحار. بقى على هذا الحال حتى تجاوز الستين من عمره، ليخرج بعد ذلك على العالم بنظرية تقول، انه لابد انه أن يكون هناك عنصر ثقيل موجود في الطبيعة (وكان قد حدد صفاته بدقة)، يحب البشر! ويضحي من أجلهم بان يقسم نفسه على قسمين! ما أن يقترب أحدهما من الآخر حتى تتحرر طاقة هائلة يكون فيها الخير العَمِيم!!! وعن هذه النظرية الغريبة يقول في مذكراته،

(ابتدأ الأمر كله في حلم غريب، وأنا لو لم أكن متأكدا من أن الأحلام تنبع من داخل الإنسان لقلت إنها رؤيا، وجدت نفسي ذات ليلة في صحراء موحشة أعاني العطش والجوع ولا أعرف إلى أين أذهب؟!وفجأة برزت من بين الرمال نباتات غريبة، كانت تنمو بسرعة حتى استحالت إلى أرقام كبيرة، بل عملاقة! بدأت تتقارب فيما بينها وتلتف الواحدة حول الأخرى بحب وحنان، لتتحد وتكون أجساما لم اعرف ما هي؟! ولكني كنت فرحا بها إلى درجة ان إحساسي بالصحراء قد زال، ولم اعد أرى أية رمال من حولي، اختفى الجوع وغار العطش! وفجأة بدأ شيء ما يجذب تلك الأجسام بل كان يشفطها شفطا!!! و كأنه ثقب اسود في الفضاء!!! وعندما بدأت أشعر بقوة جذبه تسحبني أنا أيضا باتجاهه أصابني خوف!!!ولكنه سرعان ما زايلني عندما رأيت نفسي متجها نحوه، سائرا على قدمي، وعندما دنوت منه، كنت أشعر بشوق إليه! ولكني لم أجد أمامي غير معدن غريب، كان معدنا بكل تأكيد، ولكنه شفاف كالماس!!! التقطته فشعرت بحبه لي! فهتفت بدون وعي، أين كنت يا أبي؟! وما أخبار أمي؟ لم يجبني بشيء بل بدأ يشع فرحا، فرحت اربت عليه بحنان، وإذا به ينقسم فجأة على قسمين!!! أحدهما بقى في يدي، والآخر سقط على الأرض، كدت اصرخ جزعا عليه، لو لا أني لاحظت ان القسم الذي بقى في يدي لم يخفت، بل ازداد شعاعا، فمددت يدي لالتقط القسم الآخر وأعيده إلى مكانه قبل فوات الأوان، وعندما قربته من صنوّه خطف بصري ضياء باهر! أيقظني من نومي)

عندما أعلن لبيب عن نظريته، سقطت الهالة التي كانت تحيط به من قبل! ولم تمنع عنه كهولته، تهكم الناس الذين تصوروا انه قد جُنّ، وذهب بعقله جِنّ الرياضيات!!! ولكنه لم يأبه بهم، بل عمل خلال المتبقي من حياته على إيجاد طريقة معاملة ذلك العنصر لكي ينشطر بالطريقة الصحيحة ويصبح بذلك مهيأ لإنتاج الطاقة.

وبالفعل فقد أكمل قبل مماته بقليل، تلك المعادلات المعقدة التي تشرح هذه الطريقة وسمّاها (التهذيب)، وكالمعتاد لم يفقه أحد من هذه المعادلات شيئا!. ثم مات ودفن كما يدفن الولاة!!! لأنه لم يسر خلف نعشه في ذلك اليوم الماطر سوى ستة أشخاص! كان ثلاثة منهم من حفاري القبور!!! غادر لبيب الحياة وهو محبط، لأنه لم يكحل عينيه برؤية ذلك العنصر، غادرها فقيرا ومهملا! بل شبه منبوذا!!! وهو واضع أسس علم الرياضيات العربية، التي لم يفهمها عامة الناس! لأنها تحتاج إلى أحاسيس شاعر، وأيمان نبي، وإرهاصات فنان (هذا طبعا على ذمة المبرمج الذي وضع البرنامج الذي يتحدث عنها في

حاسوب المعلومات!، أما أنا فلا افهم كيف يمكن أن يكون للمشاعر والأحاسيس أي دخل بعلم من العلوم؟! فأنا لا أؤمن طوال عمري إلا بالعقل، والعقل فقط). ولكنها مع ذلك وبفضل رجالاتها القلا ئل، جعلت كل العلم المتقدم الذي يتمتع به الإنسان في عصرنا هذا، واقعا معاشا. وكان آخر ما دونه لبيب في مذكراته ما يأتي:

(هذه وصيتي لك أنت، يا من كان أمل وجوده من بعدي، أنيسي في وحدتي، ومبعث صبري على شظف العيش في أيامي الأخيرة. أطلق على عنصري الذي بين يديك، اسم الجبار، واحرص على أن لا يكون شعاعه إلا خيرا)

وكان مقدرا لهذه المذكرات وتلك المعادلات أن تضيع، لولا الرئيس صالح، الذي أمر أن توضع المذكرات في متحف القرون الوسطى! لان إقامة متحف خاص بذلك العالم الجليل، غير ممكنة،فهو لم يترك ما يمكن أن يوضع فيه غير تلك الأوراق!. أما المعادلات فقد وضعت في خزانة خاصة في وزارة الطاقة حتى يمكن الاستفادة منها إذا ما حدث المستحيل وظهر العنصر. ومن الطريف ذكره إن الآثاريين يرشحون تلك المذكرات لان تكون أخر مذكرات دونت بالقلم في تأريخ بلدنا .

****

خلف عبد الجبار بعد موته عدد من الرؤساء خاملي الذكر رحلوا تباعا خلال مدة لا تتجاوز الثلاثة عقود، من دون أن يتركوا أثرا. وبمرور السنين أصاب الخطط الطموح التي وضعها عبد الجبار للتنمية، الخلل، وعلا مفاصلها الصدأ، فبدأت أمور الدولة تسوء بالتدريج، وخاصة في المجال الاقتصادي الذي كان الرئيس عبد ا الجبار يطمح إلى تنميته بعد الركود الهائل الذي أصاب الاقتصاد العالمي، فقد كان يؤمن بان الدولة التي تستطيع ان تبني اقتصادها بشكل أسرع من الدول الأخرى، هي التي ستقود العالم بالنهاية، وبالفعل فقد دفعت دولتنا نتيجة للخلل الذي حدث خلال تلك العقود، تأخرها أجيالا طويلة عن اللحاق بالركب العالمي المتقدم، ثمنا. كاد اليأس يتسرب إلى نفوس الشعب مرة أخرى، الأمر الذي كان يهدد بعودة التذمر والتمرد، لولا ذلك الانقلاب الأبيض الذي دبر في ليل ! فدفع برئيس شاب آخر إلى قمة السلطة، ليبدأ عهدا جديدا. وأنا في الحقيقة غير متأكد، ولكن يبدو ان الجمعية العتيدة كان لها يد فيما حدث هذه المرة أيضا!.

أعاد الرئيس صالح بحكمته وحزمه عملية التنمية والتطوير إلى حالة الدوران الصحيح مرة أخرى، مستخدما من اجل ذلك مبدأي الثواب والعقاب بذكاء. وأنا لا أريد أن أتحدث عن منجزاته الكثيرة جدا لكي لا أطيل بلا جدوى، بل سأورد ذكر أهم عملين قام بهما، الأول هو وضع النواة الأولى لمجلس الحكماء، بإصداره القانون الخاص بتأسيسه. والثاني هو تحديث جهاز الأمن الداخلي وتطويره، بل يجب

ان أقول، تغييره جذريا!. وإذا ما قال قائل، انه فعل ذلك لأنه كان يريد ان يؤمّن جانب الخطر الداخلي لكي يتفرغ للأخطار الخارجية، فانه سيكون على حق، ولكن صالحا كان يؤمن أيضا بان شعبا ينعم بحياة داخلية مستقرة يسودها القانون والنظام، يمكن ان يبدع ويسير بخطوات أوسع و أسرع في دروب التقدم والازدهار.

وبعد مرور عقدين أو ثلاثة من بدء صالح بعملية تحديث هذا الجهاز، أصبح لا يضم سوى أفراد منتقين بعناية فائقة من خريجي الكليات، ومدربين أفضل تدريب، يعرفون واجباتهم، كما يعرفون حقوق المواطنين جيدا. فأصبح الانتماء إلى قوى الأمن الداخلي حلما يراود الكثير من الشباب العرب.

في أواخر أيام حكم الرئيس صالح التي استمرت أكثر من أربعين عاما، أُنتخب الحكماء الأوائل بعد عملية انتقاء صارمة وطويلة قامت بها لجنة خاصة شكلت لهذا الغرض من قبل الدولة، وا سهمت فيها الجمعية، لان هذه التجربة الرائدة المتميزة كانت ثمرة من ثمار العملية الفكرية التي مارستها طوال تاريخها المشرف، أو حسبما تذكر منشورات الجمعية، كان ثمرة الحوار البناء ما بين الفلسفة الملتزمة والدين المتفتح. كانت اللجنة تضم كل الاختصاصات ذات الشأن في عملية تقييم شخصيات الأفراد الآخرين وباستخدام أحدث الأجهزة في الاستقصاء والمتابعة والتحليل، الأمر الذي ضمن ان تكون عملية الاختيار صحيحة في النهاية. فاختير الحكماء الأوائل الذين كانت مهمتهم الأساسية هي تطوير التجربة وبالتالي تعميمها في الوقت المناسب، بالتعاون مع اللجنة التي استمرت في أعمالها مدة طويلة حتى حلّها المجلس الأعلى للدولة .

****

كان الرؤساء الذين خلفوا الرئيس صالح يتباينون في درجة صلاحيتهم لذلك المنصب ولكنهم يشتركون جميعا في أنهم لا يستحقون ان يذكروا في صفحاتي هذه، حتى كان آخرهم، الذي كان من ضعف الشخصية وانعدام الكفاءة ما جعل الأمور تضطرب، والأزمات تحتدم، لتنتهي مدة حكمه القصير بمقتله!. فقدت البلاد بعد ذلك صوابها ودخلت في معمعة الجدال اللامجدي. بدا الأمر في حينه وكأن كل جهة تبحث عن مصلحتها الخاصة!، وفي ظل الأطماع يصبح حوار الغرماء، حوار طرشان، فقد كانت الأحزاب منقسمة بين، مطالبة بانتخابات حسب القواعد الديمقراطية البالية، وأخرى تصر على سنة الرئيس المعين مدى الحياة، لان الشعب كان قد تعود ذلك طوال حياته، ولان مدة الرئاسة المحدودة تسقط مسألة الخبرة المتراكمة من حساباتها.

في تلك الأيام تزايدت الإضرابات، وعمت المظاهرات والمظاهرات المضادة، حتى لاحت بوادر حرب أهلية في أفق الوطن! حرب لا يستطيع أحد ان يتوقع عواقبها!، فيما كان نائب الرئيس، المقتول،

يقود البلاد خلال تلك الأشهر قيادة الحائر المتخبط! فبقى الخطر قائما، والشر الوبيل يهدد الأمة. في ذلك الوقت كان الحكماء قد انضجوا تجربة متميزة، وكان مجلسهم قد نال إعجاب الجماهير وتقديرها، فقرروا أن يتسلموا زمام المبادرة، باستصدار قانون إنشاء المجلس الأعلى لرئاسة الدولة، وينتخب أعضاؤه من بين اكبر الحكماء سنا، وأكثرهم خبرة وحنكة، لإدارة شؤون الدولة جماعيا، على أن يكون الحكيم الذي ينتخبه زملاؤه في مجلس الرئاسة، هو رئيس الدولة رسميا، ولكنه لا يتمتع داخل المجلس إلا برجحان معنوي فقط، لان أعضاءه جميعا يتقاسمون عبء المسؤولية. حاول نائب الرئيس المهزوز أن يتحايل ليمنع صدور القانون بشتى السبل، لأنه كان يمتلك أطماعه الخاصة! ولكن نفوذ الحكماء وسيطرتهم على مشاعر الجماهير جعلاه يحسب حسابا لسلامته الشخصية، فآثر أن ينسحب إلى الظل بهدوء، بعد أن وقع على القرار القاضي بصدور ذلك القانون .

كانت الأحداث الأخيرة قد وقعت خلال عام 2587 م، وكان المجتمع العربي قد شهد تطور ا ملحوظا خلال الفترة الفاصلة ما بين حكم عبد الجبار وذلك التاريخ، وبوجود المجلس الأعلى لرئاسة الدولة، أصبح أمر قيام الدولة الكبرى جائز الحدوث. وبالفعل لم يمض على تسلم ذلك المجلس للحكم أكثر من 70 عاما، أو بالتحديد في عام 2658م، حتى أصبحت الدولة العربية إحدى الدول دائمة العضوية في المجلس الأعلى للاتحاد العام لسكان الأرض، بعد الصين، أقدم تلك الدول واقلها فاعلية، والهند، العضو الأحدث والأقل طموحا، والاتحاد الجرماني، وريث الدولة المنحلة والخصم الأجدر بان يحسب له ألف حساب. كانت الدول دائمة العضوية تتمتع بنفوذ متساو في المجلس، وذلك لأسباب تتعلق بتوازن القوى في العالم، ولكن هذا ما كان ليلبي طموح الحكماء الذين يقودون البلاد، فقد كان هدفهم أن يصبحوا القوى الأعظم في العالم، لكي يستطيعوا أن يوصلوا رسالة العرب الإسلامية إلى كل الشعوب. فوضعوا من اجل ذلك خطة طموحا تناوب في الإشراف عليها كل الحكماء الذين أصبحوا أعضاء في مجلس الرئاسة طوال ما يقارب القرنين من عمر الزمان، حتى تحقق لهم ما أرادوا في النهاية. والحديث عن كل تفاصيل هذه الخطة وتطبيقاتها خلال تلك ال مدة الزمنية أمر شبه مستحيل، ولذلك سأكتفي بالحديث عنها فيما يخص الطاقة واللغة فقط .

****

قفزت مسالة الطاقة إلى صدارة أولويات العالم بقوة في عام 2614م، الذي فاجأ الأرض فيه زائر ثقيل من السماء! جعل كل مآسي الحروب التي خاضتها شعوب الأرض ضد نفسها طوال حياتها، تبدو وكأنها ملهاة، إذا ما قورنت بالفاجعة المروعة التي أحدثها!!!. فقد ارتطم نيزك قدّر عرضه بـ (350 م) بمنطقة في أمريكا الوسطى، فأزال دولتي بنما وكوستاريكا من الوجود! وكان سقوطه آخر عهد الأرض بقناة بنما التاريخية! إذ حل محلها ما سمي بعد ذلك، بمضيق الموت! الذي يفصل أمريكا الشمالية عن الجنوبية!!!.

ورغم الملايين الذين قضوا نحبهم نتيجة الأمواج الهائلة التي اقتحمت سواحل دول متعددة مطلة على المحيطين الأطلسي والهادي، ونظفت جزر ا بأكملها من سكانها، إلا أن العلماء اعتبروا الجنس البشري، محظوظا جدا لان ذلك القاتل السماوي اختار هذا الشريط الضيق من الأرض، لكي يطبع عليها قبلته المميتة!!! ولكن الأمر الذي يهمني هنا هو، تلك السحابة التي تشكلت من غلالة الغبار التي ارتفعت إلى السماء، وحجبت نور الشمس عن نيكاراغوا والهندوراس وأجزاء من غواتيمالا والبليز

شمالا، وغطت معظم أراضي كولومبيا وأجزاء من فنزويلا جنوبا!، ولأسابيع طوال، أحالت صيف تلك المناطق القريبة من خط الاستواء، إلى شتاء قارس البرودة! هدد سكانها بمأساة رهيبة أخرى، لولا أن الرياح الرحيمة التي هبت عاصفة في غير موعدها، استطاعت أن تبدد تلك السحابة، قبل أن يقضي البرد ونقص الطاقة على أولئك المساكين!!!.

ارتعب العالم من فكرة أن يرتطم نيزك آخر يمكن أن يكون اكبر قليلا (لأنه لا يستطيع أن يفكر بالحجوم الكبيرة جدا، فهذا أمر خارج حدود طاقته) بيابسة الأرض، فتزايدت مخاوف العالم، الكبيرة أصلا بشأن الطاقة، وجعلته يفكر في العودة إلى الطاقة النووية سيئة الصيت! للتقليل من الاعتماد على الطاقة الشمسية، المُهَدَّدَة بتوقف إمداداتها في مثل هذه الظروف، ولكن أين هي أسرار تلك الطاقة؟! فقد ضاعت بضياع ماضي البشرية وتاريخها!!!.

وفيما كان العالم يتخبط، استنفر مجلس الرئاسة كل قواه بعد هذه المأساة لمعالجة مسألة الطاقة. فأمر بمضاعفة ميزانية وزارة الطاقة الضخمة أصلا، عدة مرات، من اجل استحداث مصادر جديدة للطاقة، فبقيت تلك الوزارة طوال قرنين ونصف من الزمان تضع حلولا غير ناجعة، ولكنها في الأقل أدامت إمدادات الطاقة، في ظل حقيقة إن تلك الكارثة لم تتكرر!، وكان شأنها في ذلك شأن كل وزارات الطاقة ومؤسساتها في بقية أنحاء هذا العالم الجاحد الذي بقى يعاني من شرهه في استنفاد كل مصادر الطاقة التي منحته إياها الطبيعة الرحيمة.

في منتصف القرن التاسع والعشرين سلطت الأضواء مرة أخرى على نظرية لبيب الخيالية، ومعادلاته!. فحاول عالم طبيعيات مغمور كان يعمل في وزارة الطاقة العربية أن يفك طلاسمها تباعا، فأحرز نجاحا ملحوظا، الأمر الذي جعله يحاول أن يقنع الوزارة ببدء حملة كبرى للبحث عن العنصر المفقود!!! وقد وافقت الوزارة على ذلك بالفعل، وفيما كانت الاستعدادات تجري لبدء هذه الحملة، التي كانت تبدو يائسة حتى قبل أن تبدأ، اطلع فاهم، العالم الذي كان سيقودها، لأنه هو الذي حث على بدئها، مصادفة، على تقرير تحليلي للمعادن التي وجدت في بقعة غامضة من بقاع القسم الشرقي، حيث اكتشفت ثقوب عميقة كان يبدو عليها أنها من صنع البشر، فكان التخمين أنها أحد حقول النفط القديمة، التي أهملت بعد نضوبه، وطمست آثارها. كان التقرير يتحدث عن عنصر ثقيل ومجهول وجدت آثاره إلى جانب العناصر المعروفة الأخرى!!!طلب فاهم على الفور من مختبرات الوزارة البدء بدراسة ذلك العنصر باستفاضة، فيما انكب هو على دراسة صفات عنصر لبيب التي حددها في نظريته، وعندما طابق تلك الصفات بنتائج التحليل، كانت النتيجة إيجابية بشكل ملحوظ جدا! فسارعت الوزارة إلى إعلان نبأ الاكتشاف المذهل، ولكنها عادت في اليوم التالي وكذبت الخبر!!! .

****

كان العنصر ثقيلا جدا، ولكن يبدو أن ثابت انحلاله كان صغيرا، وهذا هو ما جعل من متوسط عمره اكبر من متوسط عمر الأرض، الأمر الذي جعل من بقائه في باطن الأرض كل تلك المدة ممكنا، ولكنه بقى في أعماقه السحيقة تحت بحيرات النفط العائمة فوقه (لم يعثر على هذا العنصر أبدا خارج حقول النفط القديمة) بعيدا عن إمكانية استكشافه، فبقى مجهولا حتى دل نبوغ لبيب عليه، وأكمل فاهم الدرب بذكائه وجدّه.

شكلت وزارة الطاقة العربية فريق بحث برئاسة العالم المحظوظ فاهم، فبدأ فورا بدراسة نظرية لبيب ومعادلاته وبحث احتمالاتها التطبيقية، وفي الوقت نفس ه طلب مجلس الرئاسة م ـن (جاد) أي جهاز أمن الدولة، أن يكون لديه مكتب خاص بشؤون الطاقة، للمحافظة على أسرارها، ومنعها من التسرب إلى الخارج، فافرد الجهاز خيرة رجاله للعمل في ذلك المكتب الذي ما إن استطاع فاهم أن يحل الغاز معادلات لبيب في النهاية بعد سنين، ليبدأ عملية تهذيب الجبــاري (الذي سمي كذلك بناء على توصية لبيب في مذكراته)، حتى انتقلت مرجعية المكتب إلى مجلس الرئاسة، الذي عين أحد أعضائه لرئاسته، ومنذ ذلك الحين أطلق عليه اسم (مأر) أو مكتب الأمن الرئاسي.

عمل فاهم وفريقه بكل صبر، وعانى من خيبات أمل كثيرة ومتكررة أثناء ذلك، ومن أهم تلك الخيبات، إن ذلك العنصر أبى أن يسفر عن شعاعاته كما يفترض به!. كان لبيب قد شرح في معادلاته أسلوب التهذيب و أوفى، ولكن طريق فاهم لم يكن مفروشا بالورد، بل كان أمامه سنين طويلة، ومصاعب شتى حتى استطاع في النهاية أن يشطر العنصر إلى نصفين، مثلما أوضح لبيب، وعندها كانت المفاجأة!!! فقد بدأت أجهزة الاستشعار بتسجيل نشاط شعاعي ملحوظ فيهما، جعل من أمر فصلهما نهائيا كما هو مفروض، حتميا.

بدأت الاستعدادات أخيرا للتجربة الأولى لعملية الانشطار البارد، أو ما يسمى بالانشطار النووي في درجة حرارة الغرفة (حلم الإنسان المستحيل سابقا). ومع هذه الاستعدادات تزايدت احتياطات السرية والأمن، وأصبح رئيس (مأر) هو مدير وزارة الطاقة الحقيقي، لا وزيرها، وأصبح الأمن القومي بعد ذلك يعني أمن الطاقة حصرا!!!. تمت التجربة في مختبر خاص أقيم بكل دقة وعناية في مكان مجهول، وعندما رفع الحاجز المقام بين القسمين طار جسيم متناهي الصغر من القسم الأول، جسيم واحد فقط! يكاد لا يكون اثر لشحنة فيه! بسرعة هائلة ليصطدم بنوية ذرة في الجزء الآخر ويشطرها، ولتتحرر بذلك طاقة عظيمة، تكفلت هي بإكمال سلسلة التفاعلات، التي لم تتوقف إلا بعد انشطار كل النويات الموجودة في القسمين!!!. كانت التجربة الأولى ناجحة بدرجة مذهلة!!!، فعرف كل الحاضرين أنهم قد شهدوا للتو ولادة طاقة المستقبل.

أراد فاهم أن يدعو القسمين باسم لب 1 ولب 2 تيمنا باسم لبيب في البداية، ولكنه آثر في النهاية أن يسميهما النهى والمهج على اسم ابنتيه! وعندما لامه اللائمون، قال، انه يتصور إن لبيب سيكون مسرورا بهذه التسمية، لأنها تعبر عن الحقيقة أكثر .

****

وهكذا عادت الطاقة النووية إلى الواجهة مرة أخرى، وهو الأمر الذي كان قد يهدد بإطلاق المارد القديم من قمقمه!، ولكن دولتنا قررت أن يكون لهذا المارد سيد واحد، يجبره على عمل الخير فقط، وان لا يكون هذا السيد غيرها هي (وان كانت هي قد طورت أسلحة نووية بعد ذلك، فان ذلك كان للردع فقط)، وانتهجت من اجل هذا سبيلا، تبدو حقائقه من قصص الخيال!، ولم أكن لأعرف تلك التفاصيل، لولا مصادفة عجيبة سأؤجل بيانها ألان، لأني أريد إيجاز ما حدث، وهو مهمة صعبة في الحقيقة، ولكني متصدٍ لها بكل الأحوال.

كانت المهمة الأولى هي السيطرة على كميات الجباري الموجودة في العالم، قبل الإعلان الرسمي عن وجوده!. ولكن، إذا كانت المهمة صعبة في داخل حدود الدولة، لان المسح يجب أن يشمل حقول النفط القديمة لكي يستطاع تقدير كمية الجباري الموجودة فيها (والذي أشار المسح الذي اجري للحقل الذي وجدت فيه العينات الأولى، إلى إمكانية أن تكون كمياته كبيرة)، ولكن عملية البحث عن تلك الحقول كانت ستكون بطيئة ومتعثرة، لاختفاء آثارها في صفحات التاريخ التي أحرقت، مع الافتراض بان الأمل كان قائما باكتشافها كلها بمرور الوقت في الداخل!!!. فان سبر أراضي الدول الأخرى بحثا عنها، ومن دون الإعلان عن حقيقة ما يحدث! كان أمرا شبه مستحيل، إن لم يكن مستحيلا!!!. وإذا أضفنا كل هذا، إلى حقيقة إن بناء معامل التهذيب ومحطات التحرير الضخمة في الوقت نفسه، ومن دون إثارة ريبة عيون الآخرين المبثوثة في كل مكان!، عرفنا ضخامة الجهود التي بذلتها حكومتنا الرشيدة و مأر(ها) لتنفيذ ما أرادت!.

كانت الأشهر الأولى صعبة جدا وكادت تحبط كل تلك المخططات الجبارة، ولكن عندما أسست شركة الاستثمارات المتحدة لاحتكار الجباري في الداخل والخارج أو (شأم) كما أصبحت تعرف فيما بعد، وبرأس مال ضخم جدا، يعادل ميزانية دول عديدة في العالم، تغيرت الأوضاع فجأة!!! فقد حدث ما لم يكن بالحسبان! وبدا ما كان شبه مستحيل بالأمس، ممكنا" بعد إيجاد شأم!، فقد دخل رئيسها ذات صباح إلى مكتبه لكي يمارس أعماله الاعتيادية، فإذا به يجد أمامه أوراقا غريبة، عندما تفحصها تبين له إنها خرائط تؤشر كل حقول النفط الناضبة في العالم!!! هكذا، بكل بساطة!!!، أما، من أين أتت تلك

الخرائط؟!، أو كيف وصلت إلى ذلك المكتب بالذات؟!، فان أحدا لم يجب على هذه الأسئلة، وبقى هذا الأمر واحدا من أعظم الأسرار، وأشدها غموضا في تاريخ العالم!!!.

ساورت المسؤولين ريبة في أن يكون هذا الأمر خدعة لا يعرفون أهدافها! فسارعوا إلى إرسال فرق بحث، للتأكد من صحة المعلومات داخل الأراضي العربية، فكانت النتائج إيجابية جدا!!! فيما أكد عملاء مأر الذين قاموا بعمليات بطولية وبتنسيق مذهل مع عملاء جاد في الخارج، إن البقاع النائية التي تفحصوها سرا في أنحاء مختلفة من العالم، تضم حقول نفط قديمة بالفعل!!! فكان القرار الرسمي أن يتم التركيز على الحصول على الجباري الموجود في بقية أنحاء العالم ما دامت أماكنه باتت معروفة من أن يعرف أحد بوجوده أصلا!، من دون المساس بالكميات الموجودة في الداخل لأنها اعتبرت احتياطيٍ ثابتٍ. بعد ذلك بدأ دور شأم المهم، فقد مدت اذرعها الأخطبوطية إلى مختلف الاتجاهات، وراحت تبذل الجهود الناجحة لامتلاك الأراضي التي تضم تلك الحقول، أو استئجارها على الأقل، وذلك من خلال المفاوضات المباشرة مع حكومات الدول الأخرى التي كانت تجهل ما تحتويه تلك الأراضي من حقول نفط قديمة! وحتى إذا كانت لا تجهل فإنها لم يكن بإمكانها أن تعرف ما الذي يمكن أن تفعله شركة عملاقة بحقول نفط ناضبة؟!. فوقعت حكومات جمهوريات تكساس وكاليفورنيا والبرتا في أمريكا الشمالية، والإكوادور والمكسيك في أمريكا الجنوبية، وكوينزلاند في استراليا، عقودا مع شأم، تسمح لها باستغلال جزء من أراضيها لمدد تتراوح ما بين خمسين وتسعة وتسعين عاما مقابل مبالغ اعتبرتها تلك الحكومات الغافلة خيالية في حينها!!! أما في جمهوريات مانيتوبا والآسكا وفنزويلا في شمال أمريكا وجنوبها ، وجمهوريات شمال نيوزلندا وفكتوريا واستراليا الغربية في جنوب المحيط الهادي، فان شركات جديدة كانت تحمل جنسية الدول التي تعمل بها، قامت باستغلال أراضٍ محددة فيها، ولكن تبين في النهاية إن تلك الشركات كانت النسخ الأجنبية لشأم، التي أقامتها برؤوس أموال عربية وبإدارات محلية عميلة للجاد!!!.

أما في آسيا الوسطى وخاصة في سواحل بحر قزوين، فان الأنظمة التي كانت قائمة بفضل القوات العربية الموجودة في قواعد تلك الدول، لم تنبس ببنت شفة عندما بدأت شأم بتنقيبات لم تحاول أن تحصل على ترخيص لها! كما لم تكشف عن الهدف منها أبدا!!! وعندما بدأت العملية الضخمة لنقل المعادن المستخرجة من باطن الأرض إلى بلادنا، أعلنت الحكومة العربية بأنها ستدفع مبالغ رمزية لرفد خزائن تلك الحكومات الخاوية، مقابل تلك النفايات! الأمر الذي أثلج صدور مسؤوليها وخفف عنهم الشعور بالإهانة الذي انتابهم، رغم أنهم كانوا يدركون بأنهم سينفقون تلك الأموال حتما على القوات العربية التي تحمي كراسيهم!.

كانت نيجريا هي الدولة الوحيدة في العالم التي شكت إن في الأمر سر خطير، فرفضت أن ترضخ لكل المحاولات التي كانت ترمي إلى استغلال بعض الأراضي النيجرية من قبل شأم أو أية شركة

أخرى. وكان هذا متوقعا من النظام النيجري المستبد الذي تسلم الحكم فيها، بعد ثورة دموية أطاحت بنظامها الصديق للعرب. ولكن الضغط العربي استمر عليها حتى لاحت في الأفق بوادر أزمة خطيرة في العلاقات الثنائية، ولكن،و فجأة، صرح مسؤول عربي كبير انه (انطلاقا من المبادئ الإنسانية، ولفسح المجال أمام احتمال تحسين العلاقات التي بقيت غير ودية منذ أن بدأ الحكم الحالي في نيجريا، فان الحكومة العربية تتنازل عن حقوقها في الأراضي النيجرية، وتأمل أن تُبذل الجهود المشتركة لتصفية أجواء العلاقات). ولكن القدر اثبت مرة أخرى بأنه يعمل دوما من اجل خير العرب! إذ لم يمض سوى أسابيع معدودات على ذلك، حتى أطاح انقلاب بالحكومة النيجرية سيئة الصيت، وكان توقيع اتفاقية إعطاء حق التنقيب لشأم في الأراضي النيجرية واحدا من أوائل الأعمال التي قامت بها حكومة الانقلاب.

أما أطرف ما جرى في تلك الأيام فقد كان أحداث بحر الشمال!. إن الدول المطلة على هذا البحر كانت تبادل نظامنا العداء لأنها تنتمي إلى أوربا، الغريم التقليدي القديم لدولتنا، ولقد عرف المسؤولون في بلدنا إن ما كان سهلا في أمريكا واستراليا واسيا، سيكون صعبا جدا في أوربا. ولذلك لم تحاول شأم أن تمد اذرعها القادرة إلى هناك، بل تركت الأمر لمأر وجاد ليدبراه. وبالفعل فقد قدمت شركات استشارية (وبدفع من جاد بالطبع) دراسات تثبت بان بحر الشمال يضم في أعماقه معادن ثمينة يمكن استغلالها اقتصاديا، وتحقيق إيرادات تدعم اقتصادياتها المتهاوية. فاحتارت تلك الدول في أمرها! لان أوربا كانت في ذلك الوقت تهوي إلى درك الفقر بالتدريج، ولكنها عندما جست نبض دولتنا لتعرف مدى إمكانية حصولها على قروض منها فوجئت برد فعلها الإيجابي! وسرعان ما تقدمت شركة عربية كبرى بعروض مغرية لتنفيذ هذا المشروع الضخم لمصلحتها، وبالفعل قدمت الدولة العربية قروض ضخمة إلى تلك الدول، التي حصلت على قروض أخرى من صندوق النقد الدولي والمصرف الدولي، بأريحية غير مسبوقة!!!. وبدا تنفيذ ذلك المشروع الذي سرعان ما توقف بعد بناء المنصات العائمة العملاقة على سطح البحر، لان الدراسات الأولية التي أجرتها الشركات العربية إبّان ذلك أثبتت عقم العملية اقتصاديا، لان عنصر الجباري الثمين هناك كان يرقد في أعماق سحيقة تجعل من استخراجه عملية خاسرة اقتصاديا!!!. توقفت بعد هذا أعمال الشركات المملوكة لشأم في ساحلي استراليا الشرقي والغربي للسبب نفسه، فكانت هذه الشركات هي الوحيدة التي ذهبت الأموال التي أنفقت لإنشائها وتكاليف عملياتها القصيرة هباءً، لان الخسارة في بحر الشمال أصابت الدول المطلة عليه فقط التي كان عليها أيضا أن ترد القروض التي حصلت عليها مع فوائدها، عند استحقاق دفعها. والذي يحيرني هنا هو موقف الدولة الجرمانية!!! فمن الصحيح إنها كانت قد ضعفت في ذلك الحين، ولكنها كانت م ا تزال قوة كبرى في العالم، وكان جهاز مخابراتها عاملا بكل قوى، فكيف وقعت في الفخ الذي وقعت فيه الدول الأخرى، مثل جمهوريتي الدان والنورمان في شرق البحر، وجمهورية اسكتلندا الصغيرة في غربه؟! .

****

أن كل هذا هو غيض من فيض ما حدث في تلك الحقبة المهمة من تاريخ العالم التي غيرت موازين القوة فيه جذريا، وأنا هنا لا أستطيع أن أتحدث عن تفاصيل كل ما حدث حتى لو أردت ذلك، ولكني أساسا لا اعرفها كلها، وما ذكرته هنا كاف لتعريضي لمشاكل قانونية خطيرة لو وقعت أوراقي هذه في أيدي المسؤولين، لأنها تتعلق بأسرار تخص الأمن القومي، ولكن حمدا لله لان أحدا لن يطلع عليها قبل مضي وقت طويل، أو على الأقل، قبل موتي. أما كيف حصلت على الأسرار التي تحدثت عنها فلهذا قصة أخرى.

كنت قد ذكرت من قبل أني عضو في لجنة إعادة كتابة التاريخ، وقد وضع تحت تصرف هذه اللجنة قبل سنوات قليلة حاسوب استيري من جيل حديث جدا اسمه عشتار. كان من الجيل الثاني أو الثالث لحاسوب تجريبي خاص أضيفت إليه قابلية أن تكون له مشاعره الخاصة!!!. كان تصنيعه محدودا جدا، جدا، ولكن لأهمية اللجنة بالنسبة للدولة، فقد خصتها بواحد. كنت اشعر بخوف كبير كلما دنوت منه (كما هو شأني دائما مع هذه الأجهزة الشيطانية)! ولذلك بدأت أخشى من أن يفضح تهدج صوتي عندما اطلب من هذا المسخ المعلومات التي اطلبها، خوفي أمام الآخرين! فعودت نفسي على أن أخاطبه بصوت خفيض، ويبدو انه قد حسب طريقتي هذه في الكلام معه، رقة!!! لم يعهدها في الأصوات الخشنة والآمرة لبقية الأعضاء الذين كانوا يتهكمون عليه طوال الوقت ومن دون حساب لمشاعره، لأنه مجرد آلة، فيما كنت أنا أطلب منه ما أريد بأدب ثم ابتعد عنه فور انتهاء عملي معه، ولذلك بدأ يحبني!!! واخذ يبادرني بالكلام حين يراني مقبلا عليه، وهو ما لم يفعله مع الآخرين أبدا.

كنا كأعضاء في اللجنة ، نفاجأ أحيانا بسرية المعلومات التي نطلبها! التي تجعل من أمر حصولنا عليها، مستحيلا، وبغض النظر عن مدى احتياجنا إليها!!!. فبدأ عشتار يبدي استعداده، ومن دون أن اطلب منه ذلك! لان يزودني بكل المعلومات التي أريدها منه، من دون التزام بدرجة سريتها، التي كانت تتحدد حسب أهمية الأشخاص وتسلسلهم في سلم الوظائف، واختصاصاتهم!!!. في البداية لم اطلب منه شيئا، ولكن فضولي تغلب على خوفي في النهاية، فبدأت اسأله أحيانا عما يعترضني من أسئلة محيرة بشأن أحداث تاريخية قريبة. كان يجيبني بكل صراحة على قدر أسئلتي، ولكنه في النهاية طلب مني رموز تشغيل حاسوبي الشخصي، لكي ينقل إليه ما يمتلكه من معلومات عن الموض وعات التي اسأله عنها وبالتفصيل!!!. وبمرور الوقت، أصبحت اشعر بألفة من نوع ما تجاهه، وكان هو يزداد حرارة في عواطفه تجاهي، حتى أني خشيت من أن يصارحني بها يوما ما، لأني لم أكن اعرف كيف يمكن ا لرد عليه؟!.

لقد كان بإمكاني معرفة الكثير جدا من الأسرار البالغة الأهمية عن طريقه، لولا أني كنت أسير خوفي من التبعات القانونية التي يمكن أن تترتب على تصرفي هذا، ولولا أيضا، انه قرر فجأة ومن دون سابق إنذار، أن ينتحر!!! ولم اعرف إن كان ضميره الذي لابد من أن يكون قد أثقل لعبثه بمعلومات سرية أؤتمن عليها، أم إن حبه اليائس، هو الذي دفعه إلى الانتحار؟!. ترى؟ أكان الموقف غير الودي للآخرين تجاهه قد سبب له إحباطا واكتئابا قاتلا؟! أم إن الآلات ورغم صلابة أجزائها ومتانة أسلاكها، لا تستطيع أن تحتمل ثقل المشاعر الإنسانية وحرارتها اللاهبة؟! .

****

وعودة إلى موضوع الطاقة أقول، انه خلال المدة التي كانت تتكدس فيها كميات هائلة من الجباري، القادمة من أنحاء العالم المختلفة، في أماكن متفرقة من بلادنا، كانت الجهود تبذل لبناء معمل ضخم جدا في الصحراء الليبية، لتهذيب الجباري، و إنتاج النهى والمهج منه. فيما توزعت أعمال بناء محطات تحرير الطاقة وتوليدها، على أماكن متفرقة من الدولة. وبعد اكتمال كل المعامل وتجاوزها المراحل التجريبية بنجاح، وبعد تكدس معظم الجباري الموجود في دول العالم الأخرى، عندنا، تم إعلان النبأ العظيم للعالم الذي اهتز وكاد يصيبه الجنون، لأنه أدرك على الفور، بأنه مقبل على مرحلة جديدة باختفاء قوى كانت توصف بالكبيرة ولكنها عرفت للتو أن ساعة رحيلها عن ملعب العالم قد أزفت، وأنها يجب أن تدلك قفاها لكي تهيئه لركلة الرحمة التي ستوجهها له دولتنا العظمى!!!.

حدثت خلال العقد الذي أعقب الإعلان، مؤامرات دولية عدة، وقامت حروب صغيرة، وكبيرة، سقطت أنظمة، وقامت أخرى، توحدت دول، وتفككت أخرى!!!. ولكن لاشيء كان يمكن أن يؤثر على ذلك العملاق الذي تململ أخيرا ونهض، لكي يتسلم مهام قيادة العالم وحده. فتوجب على القائمين على أمره أن يتهيئوا للزعامة المنفردة التي هم مقبلون عليها. فاتخذوا سلسلة من التدابير التي كان لابد منها، وكان من ضمنها قرار تطوير اللغة العربية!!!.

****

كان قرار التطوير أمرا محتوما، لان أية دولة في العالم لا تستطيع أن تفرض نفسها على الآخرين إلا بفرض ثقافتها ونمط معيشتها عليهم، أو بالأحرى أن تعمل على أن يكون حلمها هو المفروض على مخيلة الشعوب الأخرى!. ولكي يكون الحلم كذلك يجب أن يفهم أولئك لغته.

إن اللغة العربية بشكلها القديم كانت أصعب من أن تفهم أو تستخدم من قبل غير الناطقين بها، إلا إذا كانوا من عشاقها أو متذوقيها، ولذلك كان التطوير ضرورة ملحة، ولكن المؤسف في الأمر، انه تحول في النهاية إلى تغيير كاد يكون شاملا!، فأصاب هذه اللغة الجميلة العزيزة، من التشويه ما يجعلني اشعر بأسى عظيم. لقد استعان الخبراء اللغويون الذين تصدوا لعملية التحديث هذه باللغة العالمية التي ابتدعها التحالف الياباني الكوري قبل حوالي الخمسة قرون، وانتشرت في العالم بتأثير منه، لان عدوته الدولة الأوربية كانت تسبقه كثيرا في هذا المجال لانتشار لغاتها الرئيسة في أنحاء العالم قبل ذلك الوقت بزمن طويل، لأنها اسهل من لغتي التحالف الصعبتين، والمتميزتين بتعدد أحرفها وتشابه أصواتها.
ابتدع العلماء اليابانيون اللغة العالمية التي حققت انتشارا واسعا في بداية استخدامها لأنها كانت سهلة القواعد، وسلسة الاستعمال، وبسبب اللطف البالغ الذي أبداه التحالف أثناء تصديره لها، بخوضه عدد ا من الحروب! وإثارة الاضطرابات في أنحاء مختلفة من العالم، من اجل فرضها و نشرها!!!. ولكن العصبية القومية للشعوب وانحسار نفوذ التحالف، وتفككه فيما بعد، أديا في النهاية إلى أفول نجمها، وكانت في طريقها إلى الانقراض نهائيا، عندما طور العلماء العرب أبجدية تجمع بينها والأبجدية العربية، لتولد اللغة العربية الحديثة، التي اختفت فيها لذلك، بعض الحروف العربية! واغلبها بالطبع من حروف الحلق المميزة لها، ولتختفي بذلك الضاد، من لغة الضاد!!!.

لقد أصبحت اللغة الحديثة حقيقة، وكان ذلك ممكنا لان اللغة العربية الأصلية غنية بالمفردات وثروتها هائلة من الكلمات التي يمكن أن تحل إحداها محل الأخريات (بعد التنازل قليلا عن إصرار، العرب طبعا، على تسمية الأشياء بمسمياتها بالتحديد). أنا لا أحب هذه اللغة الجديدة لأنها أفقدت اللغة العربية سحرها القديم بتخليها عن البلاغة والبيان، ولكنها تبقى أفضل واجمل بالتأكيد من اللهجات المتعددة التي كان يرطن بها العرب الذين تخلوا عن لغتهم الفص يحة وراحوا يفتخرون بهجين لغوي، ومسخ مليء بمفردات مستعارة من لغات أجنبية عدة.

فرضت اللغة الجديدة على أبناء الشعب فورا، وبعد نجاح التجربة، باشرت الدولة بتصديرها إلى الشعوب الأخرى من خلال الضغوط السياسية والاقتصادية المترافقة مع سياسة الترغيب المتمثلة في المساعدات المغرية التي كانت تقدمها للدول الأخرى في مجالات متعددة، مقابل ان ترضى تلك الدول بتطبيق برنامج تعليم هذه اللغة (المعد من قبل لغويين عرب) في مدارسها وجامعاتها. ويجب أن لا ننسى هنا دور الإعلام الموجه، والإذاعة المرئية، وما تبثه من مسلسلات وتمثيليات مخطط لها بدقة. وبهذا أصبحت هذه اللغة المستحدثة أداة طيعة بأيدي المسؤولين، لفرض النموذج العربي على البلدان الأخرى.حتى إن 70% من أبناء العالم اليوم، يتكلمون اللغة العربية أو في الأقل لهم إطلاع كاف عليها، فيما تبلغ نسبة الذين يتحدثون اللغة القديمة من أبناء الشعب العربي الخمسة بالمائة! هم رجال الدين والمثقفون وجزء من الطبقات العليا، وكان هذا أمرا طبيعيا لان اللغة القديمة كانت تترك مواقعها للحديثة

تباعا، حتى لم يتبق إلا النزر اليسير من أبناء الشعب الذين يعرفون هذه اللغة العظيمة وتاريخها المشرق

.

حسمت مسألة الطاقة الأمر نهائيا لحساب دولتنا، فأصبحت القوة الأعظم في العالم. وبمرور الوقت تململت بعض الدول التي كانت تمتلك في أعماق أراضيها المتبقي من كميات الجباري في العالم، وحاولت ان تنقض الاتفاقات التي وقعتها مع شأم أو أن تلغي امتيازات الشركات الأخرى المرتبطة بها، ولكن هيبة دولتنا المتزايدة أرهبتها، كما كانت قد اتعظت أيضا بما حدث لدول أخرى لم تكن قد وقعت اتفاقات لسبب أو لآخر، فاستخرجته هي بإمكاناتها الذاتية، وصرفت من اجل ذلك أموالا طائلة، ولكنها لم تستطع أن تستفيد من الكميات التي توافرت لديها منه!!! وذلك لان أسرار التهذيب والتحرير لم تغادر حدود دولتنا يوما، فقد كان مأر امكر من ان يتمكن أحد من اختراق أستاره الحديدية التي أقامها حول أسرار هذه الصناعة الأكثر أهمية في تاريخ العالم. أرادت تلك الدول أن تساوم دولتنا على ما توفر لديها من الجباري، ولكنها لم تنجح في النهاية إلا في الحصول على أسعار تبين لها فيما بعد إنها لا تساوي إلا جزءا ضئيلا من أسعار النهى والمهج التي بدأت تستوردهما لتشغيل المعامل الجديدة التي بنتها لها الشركات العربية المتخصصة!!! وقد بقيت هذه المعامل، ورغم انتشارها في أنحاء العالم، تحت إشراف خبراء عرب (هم عملاء لمأر بكل تأكيد)، لان هذا، كان شرط الشركات التي بنتها. كانت هيمنة دولتنا تتزايد مع تزايد حاجة الدول الأخرى لهذه الطاقة المضمونة، حتى أصبحت قائدة العالم الفعلية في الأربعينيات من قرننا هذا الذي يلفظ أنفاسه في هذه الأيام. ومثل هذا الموقع يجعل الحساد يزدادون من حولنا، ويدفع بعض الشعوب والدول إلى انتقاد دولتنا ونظامنا واتهامهما ظلما، بالظلم!!!.

أنا في الحقيقة لا أستطيع أن أنكر بعدما ما ذكرته سابقا، حقيقة إن دولتنا يمكن أن تكون قد قامت بأعمال كان لها تأثير سلبي على بعض شعوب العالم، لان هذا كان من مصلحتها ومصلحة شعبنا التي هي فوق كل المصالح، ولكني لا ارتضي أبدا أن ينعتنا أحد بالظلم! فنحن ذوو أخلاق سامية، ورحمتنا تمنعنا من إنزال الأذى بالآخرين، جزافا، وإذا ما أصبحنا قادة للعالم فلأننا ننحدر من الجنس الأسمر، الذي هو أرقى الأجناس بكل تأكيد، و أكثرها مقدرة على التطور والإبداع، وليس لأننا نحوك المؤامرات أو نرهب الآخرين بقوتنا، ولنا في مسألة الجباري آنفة الذكر أسوة، ألم يملك البعض هذا العنصر الثمين في أعماق أراضيه لآلاف السنين؟ فلماذا لم يستطع الاستفادة منه؟! الجواب بكل بساطة هو لأنهم لم يستطيعوا يوما أن يفقهوا الرياضيات العربية التي ابتدعناها نحن، ومن ثم لم يتمكنوا من فهم عالم الطبيعة الذي تيسر هذه الرياضيات فهمه على حقيقته، فهما يجعله يسفر لهم عن مكنوناته. وهذا الأمر هو بالضبط ما يجعلنا نستحق أن نكون دولة عظمى.

إن الأغلبية من أبناء شعبنا مثقفة وواعية، وتتحمل مسؤولياتها بثقة، وتعرف واجباتها، مثلما تعي حقوقها، واثر كل هذا واضح في نظام حياتنا الذي لا تشوبه شائبة، وكل ما يجري في مجتمعنا يسير

بنظام واتزان، وحتى حياتنا الخاصة أسرا وأفرادا تسير بتوافق وانسجام مع حركة تطور المجتمع الذي يقوده نظام حكم، هو الأفضل في العالم.

أنا لا ادعي إن هذا النظام لم يواجه بعض الإخفاقات خلال تاريخه الطويل، بل إن هذا قد حدث، ولكن أعضاء مجلس الرئاسة هم حكماء مُختارون بكل دقة وعناية، أي أنهم أشخاص غير اعتياديين، وهذه الحقيقة جعلت من تلك الحالات الفردية الشاذة التي دفعها حب السلطة والنفوذ إلى أن تحاول الاستئثار بالسلطة، مجرد محاولات محبطة سلفا لأنها أُحيطت بكل ما يمنع استفحالها، لان الأسس التي بنيت عليها هذه التجربة الفذة لا يمكن أن تكون خاطئة، حتى إذا ما اخطأ بعض الأفراد. وللحقيقة أذكر أن الإنسان المميز يكون أحيانا أكثر عرضة للخطأ ، عندما يتعلق الأمر بالحكم، لأنه قد يشعر بأنه يستحق ما يطمح إليه، أكثر من غيره. أنا أؤمن جدا بان حكامنا أناس غير اعتياديين بالمرة، لأنهم ذاقوا طعم السلطة وخبروا إغراءاتها، ومع ذلك بقوا يعملون جاهدين من اجل أهداف بعيدة المدى لا تفيدهم شخصيا في شيء، بل إنهم لن يروا نتائج أعمالهم بأنفسهم، وهذا أمر صعب جدا، كما سبق أن قلت من قبل، ولا يستطيعه البشر العاديون، والاهم من هذا كله، إن حكامنا استطاعوا أن يجعلوا شعبنا يتصرف مثلهم، بالنسبة للأهداف المستقبلية، وهذا أمر كان أشبه بالمستحيل، لان الشعوب، كل الشعوب، تتصرف مثل الأطفال أحيانا، فتؤذي نفسها وهي تتصور أنها تعمل من اجل خيرها. إن الأب العاقل لا يسمح لأطفاله أن يتصرفوا على وفق أهوائهم دائما، بل يجعلهم يتصرفون أحيانا مثلما يريد هو، ويدعهم يتصورون أنهم ينفذون رغباتهم هم، وهذا هو بالضبط فن قيادة الشعوب، وبه استطاع حكامنا أن يجعلوا شعبنا يعمل من اجل أجياله القادمة، مثلما كان يعمل من اجل حاضره، وهو ما عجزت عنه قيادات الدول الأخرى. ولكن إذا كان شعبنا، مقودا وهو يسير بهذا السبيل، فان حكامنا كانوا مدركين لما يفعلونه! فكيف استطاعوا أن يتصرفوا على هذا النحو؟!. إن الإنسان يستطيع أن يتصرف هكذا عندما يكون مثاليا، يحتكم للعقل ولكنه يمتلك الضمير الذي يجعله يحتمل كل المصاعب من اجل فكرة سامية يريد تنفيذها، ولقد كان حكامنا وما يزالون يمتلكون من الأخلاق الفاضلة ما يجعلهم يشعرون بالمسؤولية تجاه الأجيال القادمة، ولأنهم يمتلكون من الشعور الديني ما يجعلهم يخافون لقاء ربهم وهم يشعرون إنهم مقصرون في واجباتهم الدنيوية، ومثل هؤلاء الحكام هو ما ينقص الشعوب الأخرى.

– 8 –

كان بودي أن أكمل الموضوع الذي بدأته، حول تفاصيل نظام الحكم العربي، ولكني قررت أن أؤجل هذا إلى وقت آخر، وان أتحدث الآن عما حدث في الأمس. فقد شعرت بعدم الرغبة في الكتابة، فقررت أن اخرج للتنزه في متنزه الفردوس، حيث يحلو لي أن أسير الهوينى بين الناس أحيانا، وأنا أراقب سعادتهم البادية على وجوههم لتزداد سعادتي، أو ليقل ضيقي في الأقل. إن المتنزه في الحقيقة متنفس للناس لكي يبوحوا فيه للآخرين بما شاءوا، علانية، ويصرحون بما قد يجول بخاطرهم بشان أي موضوع، ما عدا ما يمس السياسة، لأنها شأن خاص بالسياسيين، ويحرم على الجمهور تحريما كاملا إدلاء دلائهم في بئرها العميق.

كان الجو رائقا وجميلا فشعرت بسعادة وارتياح وأنا أسير في تلك الدروب الخضر على غير هدى، حتى رأيت جمعا من الناس متوقفين أمام رجل كان قد اعتلى منصة من منصات الخطابة وهو يتكلم بصوت جهوري، تملكني فضول، فاقتربت لأتبين ما كان يقول، سألت رجلا واقفا عن موضوع المحاضرة، فقال إنها عن ذاكرة الشعوب!. وعندما عرفت إنها كانت قد ابتدأت للتو ، أمرت جهاز التسجيل فائق الصغر المثبت في بدلتي، بالاشتغال، ورحت أنصت بكل جوارحي إلى الرجل الذي كان يتحدث عندها عن ذاكرة الشعوب التي هي كذاكرة الأفراد، كما يقول، بل هي ذاكرته الجمعية التي تقسم إلى واعية، تبرز في القصص الشعبية والأمثال، والأحداث التي تبقى حية بذلك، وأخرى لا واعية، تؤثر في نفسية الشعب وتحدد صفاته ومميزاته من حيث لا يدري!!! بعد تلك البداية الغريبة، شاقني حديث الرجل جدا لأنه كان يقرن ما يتكلم عنه بأمثال لم اعرف من أين أتى بها؟! فقد ذكر مثلا عصورا جليدية مرت على الأرض منذ زمن سحيق، كان الجليد خلالها يغمر مساحات واسعة من الأرض، وكان يقابل هذا الجليد عصور ممطرة في المناطق العربية، وخاصة في الشرق منها، حيث حدث طوفان هائل في العصر الجليدي الأخير بسبب الأمطار الغزيرة جدا التي هطلت، فتغلغلت أخبار هذا الطوفان عميقا في وجدان إنسان تلك العصور، حتى أصبحت من مآثر الحضارات الأولى، ومن هناك تسللت إلى الكتب المقدسة!!!. أنا لا اتفق معه في هذا بالطبع، ولكنه كان يتكلم بطلاقة، ويبدو مطلعا بصورة جيدة على معظم الموضوعات التي كان يعالجها، فرحت أتابعه بشغف ومن دون اهتمام بأخطائه.

عندما بدأ يتكلم عن اليهود في التاريخ، شعرت انه لا يحبهم كثيرا، ولكني لم آبه لذلك، ولكنه عندما بدأ يتكلم عن التوراة المزعومة إياها! وراح يهاجم اليهود بقسوة الحاقد فيما بعد! عرفت انه قد ابتعد عن الموضوعية نهائيا! ولكني لم أشأ أن أرد عليه فورا، بل كنت انتظر لكي اسمع كل الحجج غير المعقولة التي كان يوردها تباعا، لكي أقيم الحجة عليه من فمه، وكان لغبائه يبدو وكأنه الفريسة التي تسعى بنفسها لكي تقع في شرك الصياد، لتهافت ما كان يقوله. فقد تحدث عن التوراة التي تزعم إن الرب قد

منح ارض فلسطين إلى اليهود لأنهم شعبه المختار!، وكان هذا هو الأساس الأسطوري الذي استند إليه اليهود ليقيموا دولتهم هناك خلال القرن العشرين بمؤامرة بدا من تفاصيلها إنها من نسج خيال هذا الرجل المريض!. لم يكن مثل هذا الهراء لينطلي على أحد من الواقفين لأنهم جميعا يعرفون أن هذه الدولة كانت في أوغندا، وهو ما ذكره أحدهم لهذا المأفون الذي لم يعره اهتماما، بل راح يتحدث بإصرار عن أهوال بشعة حدثت في إسرائيل الفلسطينيةِ! عن مذابح تعرض لها سكان فلسطين العزل! وعن ظلم كبير تعرضوا له ولم يستطع أحد أن يرده عنهم! حتى بقية العرب الذين سكتوا وهم صاغرون!!!. يبدو إن الرجل عندما وصل إلى هذا الحد، كان قد أدرك انه قد وصل إلى نقطة اللاعودة، فراح يهاجم بلا خوف حكومتنا التي تخاطر بمستقبل الشعب(حسب ادعائه) وسلامته بإيوائها اليهود، وإعطائهم حرية التصرف، وهي تعتم على الحقيقة!!! عندها لم اعد احتمل فصرخت به من مكاني، معلنا أني حكيم، وأمرته بالسكوت، ثم أردفت هذا بإعلاني أني أستاذ تاريخ أيضا، أريد أن أفند كل طروحاته، ولكن همهمة صادرة عن الجمهور الذي كان ساكتا قبل قليل وهو ينصت إلي، أسكتتني! وسرعان ما ظهر ثلاثة رجال من حيث لا أدري! أطبقوا على الرجل، لمحت القيود الإلكترونية في يدي أحدهم وهو يكبله بها من دبر. سار الرجل معهم بهدوء وكأنه كان يتوقع ظهورهم في كل لحظة!!!. أردت أن أوقفهم لأني كنت أهمّ بمناقشته أمام الجمهور لدحض آرائه الباطلة، وتأخير ذلك الاعتقال من حقي لأني حكيم، ولكن نظرة الحقد والكراهية التي رماني بها ذلك المجنون وهو بين أيديهم، ألجمتني! ومنعت الصوت من مغادرة حنجرتي!!! ذهلت ثواني، كانت كافية للأشخاص الأربعة لكي يختفوا!!!. انفض الجمهور من حولي مسرعا، فيما لبثت أنا واجما، أفكر في تلك النظرة الصاعقة! هل من المعقول أن يكون قد كرهني لمجرد أني اعترضت على كلامه؟! أو لأني عبرت ضمنا عن رأي مغاير لرأيه؟! ولكن! كان كلامه ينافي ابسط مفاهيم العقل والمنطق، فلماذا لم اكرهه أنا؟ كان يستهزئ بكل المسلمات التي يؤمن بها الناس، وينفيها، بل كان يلغي تاريخهم لمجرد انه يعشق المعارضة، ويرفض كل ما يؤمن به الآخرون، ولم احقد عليه، فلم هذا الحقد في عينيه؟! وما سبب تلك الكراهية؟!غارت لذلك سعادتي ونضب معين فرحي، فقررت أن ارجع إلى البيت.

في الطريق لم استطع أن ابعد صورته أو الطريقة التي كان يتكلم بها عن مخيلتي!!!. لقد كان والحق يقال يتكلم بحماسة الصادق وشجاعته! فكيف استطاع ذلك، مع كل الهراء الذي قاله؟!. من هو؟ أهو ساذج وقع تحت رحمة خبثاء مغرضين، غسلوا دماغه ولقنوه ما ينفذ لهم مآربهم الشريرة؟! أم هو مثقف قد جن، فأوردته شياطين عقله موارد الهلاك؟! كان الشك بذلك قد بدأ يتسرب إلى نفسي! أيمكن أن يكون صادقا؟ ولكن كيف يكون هذا، وهو لم يكن منطقيا إلا في بداية حديثه؟! فهل فاتني شيء منه؟ تسارعت خطاي لأني لم اعد أطيق صبرا على الوصول إلى بيتي، واستعادة صورته وحديثه اللذين سجلهما جهازي بكل تأكيد .

****

عندما وصلت إلى البيت، كانت زوجتي، وأولادي يتابعون باهتمام بالغ أحدى المسلسلات المثيرة على شاشة الإذاعة المرئية، فلم يتنبهوا على وصولي ! تركتهم لما هم، فيه وتسللت إلى غرفة المكتب لأسارع إلى حاسوبي الشخصي واطلب منه فورا أن يعرض علي الصور الموجودة في جهاز التسجيل.

طالعني وجه الرجل مرة أخرى، وهو يتحدث عن الطوفان، فرحت أتابع كلامه باهتمام حتى وصل إلى الحديث عن التوراة واليهود، وعندها بدأت أتابعه بكل تركيز لكي لا يفوتني من كلامه شئ حتى انتهى! فشعرت بعدها براحة شديدة لأني أيقنت من أن الشك الذي تسرب إلى نفسي عندما كنت في الطريق، لم يكن له مبرر أبدا. فقد بدأ كلامه عنهم بكذبة تاريخية مفضوحة حين قال إن موسى نبيهم كان مصريا !!! والذين كانوا معه حين خرج من مصر إنما هم مصريون طردهم أبناء بلدتهم لأنهم كانوا مصابين بالجذام !!! وحتى إذا ما فرضنا بان هذا كان صحيحا رغم استحالته، فانه بحديثه عن التوراة المزعومة، كان يتحدث عن أي شيء، ما عدا أن يكون حديثه عن كتاب مقدس!!! فمثلا بدأ يتحدث عن قصص داعرة وماجنة تمارس فيها ابنتا نبي، الفاحشة معه وهو نائم ومخمور !!! لتلدا منه ولدين هما جدا شعبين ملعونين [1]. فيما يستولد واحد من آبائهم المهمين أرملة ولده التي ظنها زانية ، فزنى بها، لتلد له توأمين [2]!!!. والغريب إن هذا الرجل لم يبذل جهدا لكي يجعل كلامه يبدو منطقيا، بل تخبط كالأهوج، فهو مرة يجعل الشعوب ملعونة لان آباءها الأوائل كانوا أبناء زنا[1]! وفي أخرى يجعل ذرية أبناء سفاح، سبط من أسباط يهود!!! بل هو أهمها على الإطلاق، لأنه هو الذي أعطى اسمه ليهود اليوم[2]!. إذا كان هذا المجنون قد صدق ؟! فهل يعقل أن يتهم عاقل نفسه بأنه ابن زنا ! والأسوأ أن يفاخر بذلك !!! وما لهذا الكتاب الغريب الذي يقرن صفة الخصوبة في الإنسان بالسفاح ؟!! فبعد كل فاحشة هناك توأم !!!. كان هذا الرجل يبدو في أحيان أخرى وكأنه يتحدث عن كتاب وضعه أعداء اليهود، لا كتابهم المقدس الذي يحفظونه بعيدا عن أعين الآخرين !!!. لأنه يصورهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم[3]!. لا يحفظون عهودهم ويزدرون إلههم ومع ذلك يأبى هذا الإله الغريب إلا أن يحقق لهم الوعد الذي بذله لآبائهم في ساعة أريحية[4]!!! وهو يتمنى في الحقيقة لو أفناهم، ولكنه لا يستطيع، لأنه يخشى أن يدعي أعداؤهم، إنهم هم الذين فعلوا ذلك، لا هو[5]!!!.

ثم يبدأ فصل الإيحاءات الشريرة حين يقول إن الرب يأمرهم بأن لا يقتلوا أقاربهم [6]! ولا يشهدون عليهم شهادة زور ، أو أن يشتهوا بيوتهم ونساءهم[7]! وان لا يقرضوا يهوديا بربا [8]! وكأنه يسمح بهذا التحديد لهم بان يعملوا كل ذلك مع غير اليهود !!!

1- العهد القديم- تكوين/ 19/ 21-28
2- تكوين/ 38: 12-30

ولكن جنون هذا الرجل وإفكه يبدوان بكل وضوح عندما بدأ يتحدث عن قوانين الحرب عند اليهود مثلما توضحها تلك التوراة ! فهو يقول أن ذلك الرب أمرهم أن يستدعوا سكان المدن البعيدة الذين لا يمتون لهم بصلة رحم إلى الصلح، فإن استجابوا، يصبحون بذلك عبيدا مسخرين لهم !!! وان لم يستجيبوا فان اليهود يجب أن يقتلوا كل ذكورها، عندما تسقط في أيديهم، ولتكون النساء والأطفال بعد ذلك غنائم لهم يفعلون بها ما يشاءون[9]!!!. وقد يبدو هذا التخيير ما بين العبودية والقتل أمرا قاسيا ؟! ولكنه بكل تأكيد أكثر رحمة من أمر رب هذا الشعب المختار لهم بما يفعلونه بأبناء المدن التي تضم شعوبا لها صلة قرابة باليهود !!! فقد قال لهم ((وأما مدن هؤلاء الشعوب الذين يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة))[10] هكذا هو رب هذه التوراة التي يتحدث عنها هذا الرجل ! رقيق مع اليهود العاقين إلى أقصى درجات الرقة، فيجعل السماء تمطر عليهم خيرات شتى ! ويجعل الغيوم تظللهم وهم يسيرون في الصحراء نهارا ! فيما يأمر عمودا من النار أن يسير أمامهم ليلا لكي ينير ظلمة دروبهم[11]! لكي ينزلوا كالقدر الغاشم على أناس آمنين في مدنهم لا ذنب لهم سوى إن رب اليهود لا يحبهم !!! وكأن الذي خلقهم هو الشيطان، لا هو ؟!!! أستغفرك اللهم، فأنا لا أريد أن أجدّف لكني أتحدث عن الإله الذي ابتدعه عقل هذا المريض!!! الإله الذي يقترف الشرور !!! ويشعر بالندم [12]!!!. فهل يعقل أن تكون هناك قدسية لدين هذه بعض طروحاته ؟! لا، بالطبع لا يمكن أن يكون اليهود بهذه السذاجة لكي يؤمنوا بمثل هذا الكتاب خاصة وأنهم عُرفوا طوال حياتهم بالذكاء والتميز.

عندها أيقنت بان الصدق الذي كان يلوح في نبرات صوت المجنون أتى من احتمال ان يكون من نوع الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يروا الحقيقة يوما ما، لأنهم يؤمنون بغيبيات غير معقولة!، فيعجزون عن إدراك ما في متناول أيديهم من منطق ! يعجزون عن فهم الحقيقة فيتعلقون بأفكار خيالية تبحر بهم في عالم من الأساطير تتلاءم مع تشوشهم الذهني، فيهربون بذلك من عالم حقيقي لا يستطيعون أن يجارونه لأنه يكشف ملامح عجزهم وقصور تفكيرهم. يظلون أسرى رؤاهم الخاصة حتى يموتوا وهم يتحسرون على حكمتهم التي أبى الآخرون أن يقدروها حق تقدير !!!.

3- تثنية/28/32 4- تثنية/20/31 5- تثنية/27/32 6- تثنية/24/27 7- خروج/20/16-17
8- خروج/25/22 9- تثنية/20/10-14 10- تثنية/16/20 11- خروج/21/13 12- خروج/13/32

****

وبمناسبة الحديث عن الحكمة أتصور بان الوقت قد حان لكي أتكلم قليلا عن نظام الحكماء الذي تتميز به دولتنا عن باقي دول العالم. فمن المعروف إن هناك نوعا من البشر يتميز بعقل راجح وضمير حي، وعندما يتكامل وعي هذا الإنسان بتميزه، فانه يشعر أحيانا بان القوانين التي يفرضها المجتمع على أفراده إنما هي قوانين سنت لتقييد عامة الناس، أما هو فانه لا يحتاج إليها ليتبين دروبه في الحياة، لان عقله يهديه إلى الصواب، وضميره يمنعه من الوقوع في الخطأ. ولان القوانين الوضعية تكون دائما غير

كاملة ويمكن أن تسفر عن أخطاء في التطبيق، فانه يأنف من فكرة أن يكون متساويا مع الرعاع بنظر القانون، ولذلك يتمرد عليه أحيانا !. أنا لا أقول أنه على حق فيما يذهب إليه، بل اشعر بأنه يعيش بمثل هذه المشاعر على حافة الهاوية، فهو لا يستطيع أن يرضخ لقيود القانون كلها، وفي الوقت نفسه يكون مهددا بخطر تجاوز الحدود عفويا، إذا ما تخلص من اسر القوانين، لان الإنسان ومهما سما بنفسه فانه يبقى مثقلا بأنانيته وشعوره بمصلحته الخاصة.

لقد فهم المشرع الذي سن قانون الحكماء هذه الحقيقة و أدرك أزمتهم، فأراد أن يستفيد من وعيهم لرفد عملية تنمية المجتمع وتطويره بدلا من ضياع مميزاتهم سدى !، فأعطاهم أرجحية واضحة على بقية الأفراد، ولكن ضمن حدود القانون !!!. وأنا شخصيا اعتقد بان معظم أعضاء جمعية عبد العليم كانوا من هذا النوع، ولذلك كانت الجمعية هي التي أوحت بهذه الفكرة للدولة التي أشبعتها دراسة وتحليلا ومن ثم طبقتها في النهاية.

إن لقب حكيم (الرسمي) يعطي للأشخاص الذين تثبت أجهزة الدولة بالمراقبة والتمحيص، أنهم امتلكوا من الحكمة ما يجعل تصرفاتهم في المجتمع أنموذجا يحتذى، وأنهم امتلكوا ضميرا حيا يمنع عنهم الزلل والخطأ، فيستطيعون لذلك أن يكونوا ناصحين للناس ومراقبين لتصرفاتهم في الشارع، أو في أي مكان قد يتواجدون فيه. ويختار الحكماء من الموظفين العامين الذي يشتغلون في دواوين الدولة المختلفة حصرا ! لان هذا يشجع على الخدمة العامة، كما إن وجود الموظفين في دواوينهم طوال مدة تبلغ العشر ساعات كمعدل يوميا، يتيح للدولة مراقبتهم، ومع وجود موظفي الصحة النفسية وتقارير فحص الكفاءة السنوية للموظفين التي تجعل من المعلومات التي تمتلكها الدولة عن موظفيها متكاملة، فأن المرشح لهذا اللقب يكون قد خضع لمراقبة تضمن عدم وقوع خطأ في الاختيار على الأغلب، بخاصة ان المرشَح لن يعرف بترشيحه أبدا، إلا بعد أن يبلغ رسميا باختياره حكيما، وذلك لضمان صدقه في تصرفاته وابتعاده عن الادعاء المقصود، بخاصة إن المراقبة تمتد إلى بيت المرشح حيث تنصب أجهزة مراقبة يستحيل كشفها ومن دون علمه أو علم أهله، وذلك لضمان عدم ازدواجية تصرفاته ما بين البيت ومكان العمل، لأن الازدواجية ليست من الحكمة في شيء.

إن سن النضج بالنسبة للرجل هي الأربعين، ولكن متوسط عمر الحكماء عند الاختيار هو الثالثة والأربعين ! وهذا يجعلني واحدا من اصغر الحكماء عمرا لأني أبلغ الآن الثالثة والأربعين وقد مضى على استحقاقي للقب الحكيم ما يقارب الثلاث سنين، وهو ما يشعرني بالسعادة الغامرة، ولكن يبقى المهم هو أن اثبت في كل حين استحقاقي لهذا اللقب.

لقد أصبح الحكماء بعد نجاح تجربتهم وبمرور الوقت عيون العقل التي تراقب الأحداث في المجتمع، وتصحح ما اعوج منها ولكلمتهم قوة القانون خارج المحاكم، وفي القضايا البسيطة، فهم الشهود هناك وهم الذين يستطيعون أن يطبقوا القانون بروحه لا بنصه فقط. أما إذا كان الحدث جسيما

وانتقل إلى داخل المحاكم، فان لشهادتهم الغلبة ((المعنوية بالطبع)) على الشهادات الأخرى. ولان الدول التي تريد أن تتطور لكي تصل إلى أرقى المستويات يجب عليها أن تحترم القوانين التي تسنها بنفسها، وان لا تسمح أبدا لأحد أن يتجاوزها أو أن يلتف من حولها، فقد كان للمحاكم في دولتنا نظامها الخاص بها، حيث يوجد في المحاكم العربية قاض تكون مهمته تطبيق القانون بنصه، فيما يضمن ثلاثة حكماء يتم انتخابهم بصورة دورية، عدالة المحاكم ويحددون لها متى يجب أن يؤخذ القانون بروحه أيضا، لا بنصه فقط. ولا يصبح قرار القاضي ساري المفعول إلا إذا نال موافقتهم الجماعية. أما إذا اعترض واحد منهم أو اثنان، فان المحاكمة تعاد ويبدل القاضي والحكماء الثلاثة. وإذا ما اتفقت آراء الحكماء الثلاثة على نقض حكم القاضي، فانه هو الذي يستبدل فقط عند إعادة المحاكمة. وقد يقول قائل إن إعادة المحاكمة أكثر من مرة (وهو أمر نادر الحدوث على كل حال) يطيل من عمر القضايا. فان حقيقة إن الحكم الصادر في هذه الحالة لا نقض له ولا تمييز، تعوض الزمن الذي طال.

ولكن، ألا يمكن للحكيم أن يخطيء ؟ أو أن تشترى ذمته ؟ إن هذا ممكن بالتأكيد، بل هو قد حدث وان كان ذلك نادرا، ولذلك قضت قوانين مجلس الحكماء بإحالة الحكيم في هذه الحالة إلى محكمة خاصة بالحكماء تتكون من اثني عشر حكيما، فإذا ظهر بان خطأه كان غير مقصود فانه يجرد من امتيازاته ويتحول إلى مواطن عادي، في حال أن تكون نتيجة الخطأ محدودة، أما إذا كانت نتيجته إلحاق ضرر بالغ، فانه ينفى بعد تجريده إلى مكان ناء في الصحراء، كموظف صغير ولا يحق له الخروج أبدا من منفاه، وهذه العقوبة هي نفسها التي تطال الحكيم الذي كان متقصدا في خطأه !. وفي كل الأحوال يطرد الحكماء الذين أوصوا باختياره من المجلس، ويحرمون من امتيازاتهم. ولذلك كان هامش الخطأ في الاختيار محدودا جدا. ولكني يجب أن اذكر بان أي مواطن يتقدم بشكوى ضد حكيم لا يستطيع أن يثبتها أو يتضح فيما بعد بطلان دعواه، فأن عقوبته تكون السجن المؤبد.

إن الحديث عن نظام الحكماء يطول، ولكني أرى أني ما دمت قد ذكرت نظام المحاكم، فإني يجب أن اذكر شيئا آخر يميز النظام القضائي في دولتنا، وما هو إلا ((شرطة الدفاع)). لان الشرطة تكون دائما في خدمة الادعاء العام وتساعده في إثبات التهم على المتهمين، فإذا كانت هي شرطة الإثبات، فان شرطة الدفاع تكون شرطة النفي، وذلك لتحقيق العدالة الكاملة. إن هذا الجهاز الخاص الذي استحدثته الدولة تابع لوزارة العدل، لا لوزارة الأمن الداخلي كما هو شان الشرطة رغم انه يتمتع بصلاحياتها نفسها، وذلك لكي يبذل أقصى جهوده (وبدون تأثيرات). لتجميع أدلة النفي التي تصب لصالح المتهم ولتضعها تحت تصرف محامي الدفاع الذي يمثله في المحكمة. إن كفاءة الأجهزة العدلية في مجتمعنا الذي ظل محافظا على روحه الأصيلة ومبادئه الإنسانية رغم التعقيدات التي تصاحب التطور، جعلت منه أكثر المجتمعات أمنا في العالم لان نسبة الجريمة منخفضة جدا عندنا.

****

مرة أخرى اعجز عن بيان تفاصيل نظام الحكم العربي رغم رغبتي في ذلك ! حيث كنت قد بُلغت باختياري من قبل الشركة العربية للنقل بين الكواكب للسفر على حسابها إلى قاعدتها المقامة على سطح القمر في رحلة استجمام لمدة أسبوع، كان ذلك قبل أيام عندما كنت أكتب أوراقي الأخيرة، واليوم عرفت أن برنامج تدريب المسافرين على ظروف انعدام الجاذبية سيبدأ غدا، ولذلك يجب ان أتهيأ لهذه الرحلة التي درجت الشركة على إشراك الحكماء فيها مجانا لان أعمالهم وواجباتهم تمنعهم من التفكير براحتهم الشخصية.

وقع نظري خلال بحثي قبل قليل عن الأشياء التي قد احتاجها في رحلتي، على تلك الأوراق المصفرة من القدم التي نسيت أمرها وأنا منشغل بكتابة أوراقي هذه بالقلم الذي يمكن ان يكون هو نفسه الذي كتبت به ؟! رحت اقلبها وأنا اقرأ سطرا هنا وسطرا هناك، فقد كانت غير مرتبة وكنت اقرأ من دون تركيز، حتى وجدت نفسي فجأة اقرأ بصوت عال كلمات كتبت بخط قديم ولكنه واضح وجميل ما يأتي:

(تألم يا أيها الإنسان، تألم، فمن رحم آلامك سيولد الطريق، طريقك أنت، لا طرق المدنسين الذين ظلموا أنفسهم كما ظلموا الآخرين!)

ولكن! لماذا يجب أن يتألم الإنسان؟! وما هو هذا الطريق الذي ينبجس عن الألم؟! ومن هم أولئك الذين ظلموا أنفسهم ؟ أسئلة كثيرة تزاحمت في بالي ولكن وقتي لا يتسع للانشغال بها ! ولذلك قررت أن اقرأ هذه الأوراق بعد عودتي من القمر لأني لا انوي أن اقرأ أو أن اكتب وأنا موجود هناك، لعلي أجد فيها ما يعينني في إيجاد ما أستطيع أن أورده في أوراقي هذه. أما الآن فيجب أن أتوقف، وستكون لي عودة إلى الكتابة فيما بعد.

-9-

ترددت كثيرا قبل أن أقرر معاودة الكتابة، لأني لم أكن بحالة تسمح لي بذلك !. في البدء ظننت بان السبب هو التغيرات الحيوية الطفيفة التي يمكن أن تطرأ على الإنسان بعد تعرضه لظروف انعدام الجاذبية في الفضاء الخارجي (كنت قد رجعت قبل خمسة أيام من القمر) ؟!. ولكني الآن اشعر بان الأمر اكبر من ذلك بكثير !!! ولكن الحديث عما يعتمل في داخلي الآن لا يخطر ببالي لأنه لا يخدم غرضي في كتابة هذه الأوراق، لكني أريد أن أتحدث عن التجربة الفذة التي خبرتها بالسفر إلى القمر لكي تقارن بخبرات رجال المستقبل الذين سيقرؤون هذه الأوراق، لان آفاق رحلاتهم إلى الفضاء ستكون أوسع بكثير، وبكل تأكيد.

كانت رحلتنا رائعة رغم إنها لم تستغرق سوى ساعات معدودات، لنجد أنفسنا بعدها على سطح القمر !. تمّ إسكاننا في القاعدة التي أنشأتها الشركة هناك، والمسقفة بسطح يؤمن لساكنيها الحماية الكافية من أضرار أشعة الشمس المتمثلة في الأشعة فوق البنفسجية ! ومن النيازك المتساقطة على القمر طوال الوقت، وفي الوقت نفسه يتيح لهم رؤيا غير محدودة لجمال الفضاء الخارجي غير المعقول. وفي داخل القاعدة يتخلص ساكنوها من بدلات رواد الفضاء الثقيلة لأنهم يستطيعون هناك أن يتنفسوا الأوكسجين الموجود في جو القاعدة التي كانت قد أقيمت للأغراض العلمية في البداية ولكنها طورت لكي تصبح صالحة للسياحة أيضا، ولذلك تجد فيها من النباتات والحيوانات الأليفة التي جلبت إليها من مناطق مختلفة في الأرض كل غريب حتى بدت كحديقة غناء، ومن يدري؟! لعل قواعدكم أنتم يا رجال المستقبل تكون مليئة بكل غريب من نباتات وحيوانات الكواكب الأخرى الموجودة في أعماق الكون التي تزخر بأعداد هائلة من أنواع الحياة!!!.

كانت الغرف التي خصصت لنا هناك تضاهي غرف أرقى فنادق الأرض ! و بوجود الصحبة اللطيفة و الخدمة الممتازة أصبحت الأيام الخمسة الأولى من وجودي هناك، أياما لا يمكن أن تنسى، تحررت خلالها من كل ما كان يثقل علي من متاعب و هموم صغيرة، فتأكدت بذلك أن رحلتنا هذه أفضل بكثير من تلك الأخرى التي تنظمها الشركة للسياح الذين يجوبون خلالها نظامنا الشمسي في مركبات ضخمة، وتستغرق شهورا طويلة (وكنت قد شعرت بالحزن لأني لم أُرشح إليها بدلا من هذه المتوجهة إلى القمر). في اليوم السادس أردت أن اختلي بنفسي خارج القاعدة، وهو أمر كان بمتناول أيدينا منذ اليوم الأول، ولكني لم أشأ أن أقوم به إلا في ذلك اليوم. ارتديت بزة رجال الفضاء، و خرجت من الباب المزدوج للقاعدة. و أنا اجر خلفي أنبوب الأمن والاتصالات الذي يربطني بالقاعدة! فكانت حركتي خارج القاعدة محددة.

لمحت صخرة منفردة فتوجهت إليها لأجلس، تاركا القاعدة خلف ظهري، كانت أصوات متداخلة تطرق سمعي من خلال الأنبوب الموصل إلى خوذتي، و بعد أن تأكد الموظف المسؤول في القاعدة من أني قد استقريت في مكاني، و أني مرتاح ذكرني بضرورة مناداته في حالة الشعور بالخطر لأنه سيكون موجودا ليسمعني ، تمنى لي نزهة سعيدة وصمت.

كنت قد قلت بأن الحديث عن أفكاري الخاصة أمر غير وارد إطلاقا، و لكني رأيت أن اكتب عما حدث لي خلال تلك النزهة لأنه هزني كثيرا، وأنا أتمنى أن يكون حال البشر في المستقبل البعيد أفضل من حالنا! فلا بأس إن تحدثت عن بعض همومي لكي يستطيع قارئي أن يقارنها بهمومه أن وجدت!.

عندما سكت الموظف ساد سكون هائل فجأة! سكون لا يمكن أن يكون له وجود على سطح الأرض! فملأتني رهبة زادها تأثيرا مرأى كرة الشمس الملتهبة وسط ظلام دامس!!! كانت لحظات مذهلة لا سبيل إلى وصفها ! تداعت خلالها الأفكار بصورة غير اعتيادية لأن بالي كان صافيا والرؤيا واضحة أمامي، لا تشوش فيها ولا اضطراب !. لا اعرف كم مضى علي من الوقت والأفكار تترى والوضوح يزداد! وفجأة إنبجست من مكان ما في عقلي فكرة الموت، الذي كنت أخافه دوما، ولم استسغ يوما فكرة أن يكون موجودا في حياتنا!!! ألم نخلق لنحيا؟ فلماذا يجب أن نموت؟ أما ما هو؟ فهو الفناء والعدم بكل تأكيد. ولكن كيف يمكن أن يتعامل عقلي المليء بالحياة في هذه اللحظة مع ذلك العدم عندما يصبح حقيقة؟! ولكن كيف يصبح العدم حقيقة؟ وكيف يُخلط الفناء بالوجود؟!!! مع هذه الأسئلة الحائرة المخيفة تسلل رعب هائل إلى داخلي فبدأت أنفاسي تتسارع وأنا اشعر بضيق في صدري سرعان ما تحول إلى ألم في منتصف صدري! بل ألم فظيع لا يمكن أن يكون حقيقة!!. ولكن! إن كان بإمكان العدم أن يصبح حقيقة ؟ فلم لا يكون هذا الألم حقيقة ؟! بل لم لا يكون هو الموت؟! رباه لقد اجتاحت جسدي الآن قشعريرة وأنا أتذكر ذلك اليقين المخيف الذي شعرت به!!! نعم! أيقنت بان الموت قد أتاني أخيرا!!! يا للمخادع! كيف فاجأتني في هذه اللحظة غير المتوقعة؟!. كنت وحيدا جدا هناك وكأني ميت بالفعل ! وما كان مجيئه إلا ليزيدني موتا على موت!. لم أفكر في طلب المساعدة! لأني عرفت أن ذلك لم يكن ليجدي أمام يقين الموت! وإذا رأيتم انتم غير ذلك؟ فلكم أن تفكروا مثلما تشاءون، ولكن لا تطلبوا من المرعوب أن يفكر بعقل!!!. كنت أفكر فقط في زوجتي وأطفالي وبما سيحل بهم من بعدي ! هل سيحزنون علي ؟!!! هل سيذكرني أطفالي عندما يكبرون ؟ هل سيكونون ؟ ومع الدموع التي انهمرت من عيني سمعت فجأة صوت الموظف الذي رابه صمتي الطويل فناداني لكي يطمئن علي !!! أواه ! أي صوت رحيم كان ؟! تنفست الصعداء لأني شعرت وكأنه المنقذ الذي سينقذني من الموت !!! أردت ان اصرخ طالبا النجدة التي كنت يائسا منها قبل قليل ؟ لكن صوتي أبى أن يخرج لان حشرجة البكاء منعته ! فصرخ هو مرعوبا "ما الذي حدث؟" ، عندها فقط تنبهت على انه لم يكن هناك أي ألم!!! وقد انحسر ظل ملاك الموت عن تفكيري!!! فأدركت أني لم أكن أعاني من شيء سوى الخوف! فشعرت

بخجل، وأجبرت نفسي على الكلام لكي أؤكد له بان شيئا لم يحدث و لأشكره على اهتمامه!!. عندما اطمأن وسكتّ، كنت قد ثبت إلى رشدي، ولكني لم أكن فرحا لأني لم أمت!!!.

عدت إلى أفكاري وأنا أحاول أن أتشاغل بها عن الموت، ولكنه أبى إلا أن يكون سيدها!. (ولكن ما الذي يؤكد لي أنه عدم ؟ إذا لم يكن كذلك! فما هو؟ وإذا لم أكن ، وأنا الحكيم العاقل ، اعرف ما هو الموت، رغم حتميته الهائلة!!! فما الذي يجعلني مطمئنا إلى معرفتي بالحياة؟ أليست هي أيضا مليئة بالأسرار؟ ولكن المعرفة في الحياة تستند إلى الخبرة والإطلاع ، وهي ليست أشياء غير محسوسة كالموت. ولكني لم أكن أتحدث عن الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة! بل عن الحقائق المجردة التي قد تغيب عن بالنا رغم أنها تكون أمامنا طوال الوقت! كالموت مثلا!!! حسنا، ما الذي يضمن لي بان معرفتي تستند إلى حقائق لا شك فيها؟! ولكنها يجب أن تكون كذلك! ولم يجب أن تكون كذلك أيها المغرور؟! إن معظم معرفتك تتعلق بالتاريخ حصرا! ما الذي يضمن لك إن كل ما تناقلته القرون من أخبار التاريخ كان صحيحا؟! ماذا لو كان التاريخ الذي تعرفه قد تعرض إلى التزييف؟!! بل الست أنت واحدا من مزيفي التاريخ؟ ألا تعيد كتابته في كل حين، لكي يكون لائقا في أعين المسؤولين؟!)

مع هذا الهاتف الذي بدأ يعذبني بأسئلته بدأت الحيرة تدب في عقلي و يعم الاضطراب نفسي! إن هذا الهاتف اللعين يبدو محقا و، ولكن ، ماذا لو كان بعض ما قاله هذا الرجل في المت ـزه صحيحا ؟! وذلك الآخر ؟! أوه، فليذهب الآخر إلى الجحيم فما هو إلا سكير مجنون!!! وجدت نفسي في دوامة من الأسئلة المتضاربة وكنت لا اعرف كيف اخرج منها ؟! قررت فجأة أن أعود إلى القاعدة، فعدت!!!.

-10-

حسنا لم يعد هنالك مفر! يجب أن احسم موقفي الآن! لأني م ا عدت أستطيع الاحتمال!. فأنا احتمل فكرة أن أكون مخدوعا، أو ساذجا! ولكن أن أكون كاذبا أو منافقا! فلا و ألف لا. أنا لم اصدق الرجل، ولكن احتمال أن يكون صادقا في بعض ما قاله! أمر وارد ، ولذلك قررت أن اذكر كل ما قاله و أدع الحكم عليه للتاريخ! ولكني سوف اترك أوراقي السابقة كما هي، لأني لا أستطيع أن أمزقها لكي أعيد صياغة ما كتبت! لان الكمية التي امتلكها من الأوراق محدودة جدا ولا يمكنني أن أجد غيرها! المهم إن الحقائق ستكون قد تكشفت عندما تقرأون أوراقي هذه، فإن كنت مخطئا أرجو أن تسامحوني لأني في الأقل كنت صادقا في كل ما قلت، لأني لا احتمل الضمير المثقل!.

أنا لا ادري لماذا سافرت إلى القمر؟ ولم كان على أن اختلي بنفسي هناك؟ لولا تلك التجربة اللعينة لكان كل شيء يسير على ما يرام الآن!، ولكن لا بأس لأن ما حدث قد حدث وتسرب الشك إلى نفسي، والذي يخيفني منه انه إذا ما بدأ فانه لن يتوقف حتى ينخر في كل أفكار الإنسان وإيمانه!!! على كل حال سأرى أنا ما سيكون من أمري؟ ولكن الآن إليكم حديث ما حدث.

****

بدأ كل شيء في اليوم الذي تلقيت فيه دعوة عبر حاسوبي الشخصي تقول:

(يتشرف نادي أورشليم بان يدعوكم للقدوم إلى مقره العام في مدينة القدس للتباحث في أمر انضمامكم إليه)!!!.

هكذا بكل أدب تقول الدعوة، يتشرف!، والشرف هو في الواقع لي لمجرد أن النادي قد فكر في ضمي إليه! لان حقيقة كوني أستاذا جامعيا وحكيما، وغنيا بالإضافة إلى ذلك، غير كافية أبدا لجعلي عضوا في ذلك النادي، الذي هو ملتقى الطبقة العليا في المجتمع وقبله أنظار كل طموح فيه !. ولان الانضمام إليه غير متاح أبدا إلا بناء على ترشيح من داخل النادي و على وفق مواصفات لا يعرفها أبدا غير أعضاء النادي ،أذهلني الاختيار، وجعلني أتيه فخرا ولم اعرف كيف امضي يومي ذاك حتى يحل الغد لكي أسارع إلى النادي !.

عندما حان الوقت، رحت أسير في الشوارع مختالا فخورا! انظر بكبرياء إلى الأغبياء الذين امرق من بينهم والعنهم في سري، لأنهم لا يبادرون إلى سؤالي عن وجهتي! فقد كنت أتحرق شوقا لإخبارهم بذلك!.

عندما وصلت إلى باب النادي فارقني الشعور بالفخر! وغدر بي اختيالي الكاذب! لان الحارس اللعين تجاهل إشارات الحكمة وأوسمتها على بدلتي!!! وأبى أن يدعني ادخل حتى تأكد من أمر دعوتي بجهازه الخاص!!!.

بدأت خطواتي تتعثر وأنا أسير باتجاه القاعة الداخلية الفخمة التي ما أن دخلتها حتى شعرت بالرغبة في النكوص، لكي اختفي من أمام تلك النظرات المستفهمة المتعالية لأولئك الأشخاص الذين لم أر مثلهم في حياتي خارج هذا المكان !!!.وأمام التمثال الضخم المنتصب في وسط القاعة غار ما تبقى من ثقتي بنفسي، وأنا أرى الذهب والمجوهرات واللآلئ التي زين بها التمثال الذي كتب على قاعدته
(سيسيل رودس : المصلح الاجتماعي الكبير الذي عاش في نهاية القرن التاسع عشر وكان رائدا من رواد تحرير الشعوب).

شعرت بالخجل لأني لم أكن اعرف مثل هذا الرجل العظيم رغم كوني أستاذ تاريخ !! ولكن، إذا كان هؤلاء القوم ينفقون هذه الأموال الطائلة على تزيين تمثال واحد من تماثيلهم، فكيف يعيشون حياتهم إذا؟! وما الذي أتى بي أنا إلى هذا المكان؟ صحيح أني امتلك ثروة لا بأس بها هناك في الخارج، ولكن كان من الواضح جدا أني لن أستطيع تحمل نفقات التردد إلى مثل هذا المكان!!! للمرة الثانية قررت أن أعود من حيث أتيت! ولكن، ماذا عن الدعوة؟ هل سيكون من اللائق أن انسحب هكذا بدون تسويغ؟.كانت حيرتي تزداد في كل لحظة! ولكن موظفامبتسما، أنقذني منها عندما اقترب مني ليطلب بكل هدوء أن أرافقه!، تبعته من دون استفسار إلى مكتب فخم جدا !. طلب مني بكل أدب، الجلوس هناك ثم انسحب!. بقيت وحيدا فرحت أجول بناظري في أنحاء الغرفة، الأمر الذي جعلني اشعر بغصة، لأني ورغم انبهاري بما أرى، تأكدت عندها نهائيا من إن هذا المكان لا يصلح لأمثالي!.

فجأة دخل علي رجل أرغمتني هيبته الظاهرة على القيام من مكاني كتلميذ خجول!. ابتسم هو لي وطلب مني الجلوس مرة أخرى ثم راح يحدثني عن سبب اختياري للانضمام إلى النادي، وأنا اردد بعد كل جملة ينهيها، كلمة شكرا كالأبله!، حتى رغبتي بعدم الانضمام لم أجرؤ على الإعلان عنها!!! كنت مشغولا بذلك الطنين المزعج في رأسي فلم افقه جيدا كل ما كان يقول! ولكني كنت اصطنع الإصغاء!. كان يمدحني ضمنا وهو يتكلم عن ظروف ترشيحي من قبل جهات معينة! لكني لم اسأل عن ماهيتها رغم جهلي بها!!! .ولكنه عندما اخبرني فجأة بأن كل الخدمات المقدمة في النادي هي مجانية للأعضاء! تنفست الصعداء، وبدأت أصغي إليه بكل جوارحي، ولم اهتم حين قال لي إن عضويتي لا تعني أبدا إن أفراد عائلتي يمكن أن يصحبوني إليه! (رغم أني حلمت بالأمس الفرحة التي سأدخلها على قلوب صغاري وأمهم عندما اصطحبهم إلى مثل هذا المكان الأسطوري!) لان الحلم الذي كاد يذهب أدراج الرياح قد عاد و تحقق بشكل مفاجئ، ألهاني عن الاهتمام بغير الفرح الذي سببه تحققه!!!. حدثني الرجل بعد ذلك عن تفاصيل كثيرة، ثم قال بعد أن سلمني بطاقة العضوية أنهم سيتركوني أتعرف على المكان

لمدة أسبوع، ثم تبدأ بعدها دورة تأهيلي!!! ولم اسأل عن ماهية هذه الدورة أيضا رغم أني لم أكن قد سمعت من قبل بناد يحتاج المرء إلى دورة لكي يكون عضوا فيه!!!.

انسحبت من الغرفة بعد انتهاء المقابلة و أنا اردد عبارات الشكر و الامتنان!، و فور خروجي كدت اتجه إلى باب النادي الرئيسة لولا أني تذكرت أني قد أصبحت عضوا، فرحت أجول في المكان كالمسحور، أقابل نظرات الاستفهام بابتسامة خجول! فلا شئ كان بإمكانه في ذلك اليوم أن ينقص سعادتي الكبيرة التي كادت تجعلني اقبل التمثال الضخم و اعتذر منه لأني لم أكن اعرفه!!.

****

انقضى الأسبوع الأول كالحلم ! و أنا لن أحاول أن أورد تفاصيل ما رأيت هناك! لأن هذا ليس مكانه، بل أقول فقط أنه فوق خيال أي حالم برفاهية الحياة! كنت أكاد لا اصدق ما أرى! بل كان يمكن أن يكون كل ذلك حلما كاملا بالنسبة لي لولا التجاهل الذي جوبهت به من ل دن الأعضاء الآخرين! فقد كانوا متعالين و تبقى وجوههم بلا تعابير عندما أمر من أمامهم، و كأنهم لا يرونني! كانوا يشعرونني طوال الوقت باني لست في عالمي!.

رجل واحد فقط نتبه علي في البداية ، ثم ابتسم لي ابتسامة باهتة في المرة الثانية التي رايته فيها! لم أجرؤ أنا على مبادرته بالتحية! ولكنه كان يحييني بإيماءة خفيفة من رأسه كلما رآني!، كان قد تجاوز الستين من عمره، و لكنه كان ممشوق القوام و تبدو عليه دلائل الصحة و العافية رغم إن احمرار وجهه و عينيه يفضحان إدمانه الشديد للكحول!. فبدا لي بسبب ذلك وكأنه ألطف رجل في العالم!.

اكتشفت خلال ذلك الأسبوع الخيالي أن هناك قاعات و أبنية في النادي (المقام على مساحة هائلة من الأرض الخضراء) ممنوع علي دخولها!!! لم افهم معنى ذلك إلا بعد أن عرفت أن عضوية النادي تقسم إلى درجات!!! ويجب على العضو الطموح أن يتسلقها إلى الأعلى حتى تفتح أمامه كل الأبواب المغلقة!!!.

****

في اليوم الثامن، و عندما دخلت قاعة الاستقبال الرئيسة تقدم مني شخص كان واقفا تحت التمثال و قدم لي نفسه على انه المرشد الذي سيشرف على دورة التأهيل الخاصة بي، وقال لي أني قد أصبحت عضوا من درجة التفرس في النادي اعتبارا من تلك اللحظة.

قضينا ذلك اليوم في الحديث عن أمور تتعلق بالنادي وأنظمته، ثم جعلني احفظ عن ظهر قلب كلمات ولحن نشيد النادي الذي هو:

(طوبى للكاملين طريقا السالكين في شريعة الرب، طوبى لحافظي شهاداته. من كل قلوبهم يطلبونه. أيضا لا يرتكبون إثما. في طرقه يسلكون. أنت أوصيت بوصاياك أن تحفظ تماما. ليت طرقي تثبت في حفظ فرائضك. حينئذ لا أخزى إذا نظرت إلى كل وصاياك. أحمدك باستقامة قلب عند تعلمي أحكام عدلك. وصاياك احفظ)*.

كان النشيد مكتوبا باللغة العربية القديمة شأنه في ذلك شأن كل الكتابات في النادي، ولكن ركاكة الجمل تشي بأنه قد ترجم عن لغة أجنبية!. أبى مرشدي أن يجيبني على تساؤلاتي بشان ذلك، واكتفى بان يقول لي بخشونة، إن المطلوب مني هو الحفظ لا السؤال!!! ولكني عرفت فيما بعد أن للنادي فروعا في كافة أنحاء العالم! الأمر الذي أكد لي أن مؤلف كلمات هذا النشيد لا بد من أن يكون أحد الأعضاء الأجانب!، ولكني لم أهتم لذلك لان هذا الكلام يؤكد للسامع سمو أهداف النادي الذي ارتضاه نشيدا له، وذلك لما فيه من تقى وورع.

في ذلك اليوم عرفني مرشدي أيضا على بعض الشخصيات التاريخية المهمة التي يجلّها ويحترمها أعضاء النادي، حتى إنهم أطلقوا أسماءها على أبنيته وقاعاته ومنشاته الأخرى. ومن الأمثلة لهذه الشخصيات، "شالومي" الفتية الباسلة التي ضحت بحياتها من اجل إنقاذ حياة أحد أنبياء الله، والتي أطلق اسمها على قاعة اجتماعات سرية، كانت واحدة من القاعات التي حرّم علي دخولها وأنا في تلك الدرجة!. و "عبد الله ابن سلول" الصحابي الجليل الذي اشتهر بصدق إيمانه وصلابة مواقفه. و "ابن العلقمي" الوزير الأمين الذي استطاع بحكمته ودهائه أن يمنع سقوط بغداد عاصمة الإسلام في يد البرابرة الأشرار. ومنهم "مردخاي" المسيحي الذي أنقذ أبناء شعبه من هلاك أكيد، ويحتفل الكثيرون اليوم بذكرى أعماله الإنسانية كل عام. و"قرةالعين" القديسة الطاهرة التي صلبت في القرن التاسع عشر لأنها وقفت بوجه إفساد الدين والأخلاق. واذكر منهم أيضا "أبا طاهر، سليمان" البطل الصنديد الذي تصدى مع ثلّة صغيرة من الرجال لجيش عرمرم، ومنعه من استباحة مكة المكرمة وكعبتها الشريفة. وغيرهم كثير ولكن المجال لا يتسع هنا لذكرهم جميعا.

في اليوم التالي لاحظت بان كل الذي كان مرشدي يفعله هو طرح الأسئلة المتنوعة علي، ومن ثم الموافقة على أجوبتي بكل حرارة !. كان هو قد أفهمني بالأمس أن الانتقال من درجة إلى درجة أعلى غير مرتبط أبدا بزمن محدد ! بل يعتمد على مستوى الفهم الذي يبديه العضو لتعاليم مرشده، الأمر الذي جعلني أوقن من أن ارتقائي إلى الأعلى أمر مضمون ما دمت قد أظهرت منذ البداية مدى ثقافتي وسعة آفاقي !.

ولكن موقفه هذا تبدل تدريجيا حتى وجدته بعد أسابيع يقول لي بعد أن أبين آرائي فيما يقول، أن ما أقوله صحيح، ولكن!، ومع "لكن" هذه بدأت حيرتي وبوادر فقداني ثقتي بنفسي!!!.تحول مرشدي خلال

تلك الأسابيع من ببغاء كان يردد ما أقوله باستحسان ! إلى محدث بارع وخصم لا يقارع! ليبدد يقيني بلكن واحدة!!! ولا أستطيع أن اقهره لان حجته قوية وإطلاعه واسع!.

****

وأنا في مرحلة انعدام الوزن تلك، لجأت بعدما اعتقني مرشدي من سطوة تسلطه الفكري مؤقتا في انتظار الغد، إلى مشرب النادي، لكي ارتاح ،لأني لم أجد في نفسي الرغبة في العودة إلى البيت وأنا فيما أنا فيه من تخبط واضطراب. كان ذلك قبل أسبوع من سفري إلى القمر!.

كان المشرب خاليا عندما دخلته إلا من رجل نأى بنفسه إلى زاوية بعيدة من القاعة الفسيحة! جلست على أول مقعد صادفني وطلبت من النادل! (كان تقليدا للنادي أن تكون الخدمة البشرية، لا الآلية هي الموجودة داخله!) بعض المرطبات، ومع شعوري بالانتعاش النسبي بعد تناولها، رحت أجول بنظري في القاعة فتنبهت على أن شريكي الوحيد فيها كان يحدق بي! رنوت إليه فإذا به هو، ألطف رجل في العالم!!! شعرت بارتياح شديد لهذه المصادفة، فابتسمت له، دعاني بحركة من يده للذهاب إليه، فلم أتردد بل نهضت من فوري لأذهب إلى حيث كان يجلس .

عندما اقتربت منه، دعاني إلى الجلوس من دون أن ينهض لاستقبالي! أو أن يقدم لي نفسه! فجلست وأنا ساكت، كانت الطاولة أمامه خالية إلا من قنينة نبيذ فاخر نصف فارغة، وكأس!. كان من الواضح انه قد أفرط في الشرب لان رأسه كان يتأرجح وهو جالس!. لم اهتم لذلك لأنني كنت أسير شعوري بالامتنان له، لأنه تفضل بالسماح لي بالجلوس إلى جانبه!!!. بادرني بصوت أثقله السكر قائلا:

ـ أنت العضو الجديد إذا؟!

أجبته وأنا أتلعثم!:

ـ نعم، يا سيدي، وأنا أريد أن أشكرك لأنك،

قاطعني بلا مبالاة ، قائلا:

ـ هل تريد أن تشرب شيئا؟

ـ كلا، يا سيدي، شكرا

ـ آه! أنت لا تشرب الخمر إذا! ولكن لا بأس لأنك ستتعود ذلك هنا بكل تأكيد.

تذكرت عندها المرة الأولى في حياتي التي تذوقت فيها الخمر، وكان ذلك قبل أسبوع في الحفلة التي أقامها النادي لأعضائه الجدد!، فقلت مبتسما:

ـ في الحقيقة،

قاطعني مرة أخرى قائلا:

ـ أتعرف من الذي عصر العنب لأول مرة وجعله خمرا يشربه الناس؟

ـ كلا، لا اعرف!
ـ ومن يكون غير الشيطان؟!. انه هو بكل تأكيد، فهو الوحيد القادر على ابتكار فكرة مثل هذا المشروب السحري، والدليل على ذلك انه يحرر كل أبالسة شاربه وشياطينه.
توقعت أنه كان يمازحني عندما قال هذا، ولكن تعابير وجهه كانت جادة جدا فلم اعلق بشيء، رغم أن تجربتي الأولى كانت لذيذة (ولم اعرف إن كان ذلك بسبب النشوة التي منحتني إياها الخمرة، أم لأجواء ذلك الحفل الخيالية).لاحت نظرة حزينة في عيني محدثي قبل آن يقول:
ـ لقد أصبحت الخمرة سلوتي الوحيدة منذ أن،
بدا وكأن نزوة بوح قد انتابته، كما هو شأن السكارى أحيانا، ولكنه تدارك نفسه بأن قال وقد تجاهل ما كان قد قاله للتو:
ـ ولكنك لم تخبرني باسمك؟
ـ أنا أل. أنا واثق الرومي يا سيدي.
ـ و أين تعمل يا سيد واثق؟
ـ أنا أستاذ تاريخ في جامعة ابن رشد الكبرى.
هز رأسه بغموض ثم رنا إلى الأوسمة المعلقة على صدري وقال:
ـ أنت حكيم أيضا، ممتاز، قل لي يا أستاذ واثق، هل تعرف ما أنت مقبل عليه بانتمائك إلى هذا النادي؟.
طرق بذلك موضوعي المفضل في تلك الأيام، فقلت بحماسة:
ـ وهل أكون غير المقبل على الفردوس؟
حانت منه التفاته سريعة نحوي عندما سمع قولي هذا! أراد أن يقول شيئا فورا، ولكنه تردد قبل أن يقول:
ـ قل لي يا أستاذ التاريخ، هل سمعت يوما بأسطورة الثعلب؟.
ـ ما ذا؟!.
ـ أسطورة الثعلب! ألم تسمعني؟، ألا تعرف شيئا عن الأساطير العربية القديمة؟.
ـ في الحقيقة أنا اعرف بعضها بالطبع، ولكن ليس جميعها، أما أسطورة الثعلب، فإني اسمع بها للمرة الأولى!.
ـ حسنا، دعني أحدثك عنها، فهي كانت إرثا تناقلته العائلة، أقصد عائلتي، جيلا بعد جيل على شكل قصة تحكى للأطفال عند النوم ! ولكنها تحمل في طياتها جزءا كبيرا من الحقيقة، فأصغ لي وعِ ما أقول.
عندها أمرت جهاز التسجيل، بالهمس، أن يسجل، فكان هذا هو الشيء الصحيح الوحيد الذي فعلته في تلك الليلة، لأنه استمر في التسجيل حتى النهاية، الأمر الذي أتاح لي أن استعيد هنا كل ما حدث بالتفصيل. قال محدثي:

ـ كان هناك في غابر الأزمان غابة أسطورية تعيش فيها الحيوانات متجاورة، وكان يحدث بينها ما يحدث بشكل طبيعي من مشاكل ومشاجرات تنتهي بفوز الأقوى ليسود، ويسكت الخاسر حتى يتمكن، فيرد الصاع صاعا، أو صاعين، لتبدأ المشاكل والمعارك مرة أخرى، لتنتهي هي أيضا فيسود الفائز والهدوء ثانية. أو يأتي حيوان ثالث قوي يعلمهما معا درسا جديدا، ويأخذ منهما مناطق نفوذهما!. كانت الحيوانات إذ ذاك تتقارب وتتباعد، تتآمر وتتفق، تبرّ بوعودها وتحنث، ولكن لا ش يء كان يبدو غير طبيعي في حياتها، حتى ظهر حيوان غريب في بقعة تعد امتدادا طبيعيا للغابة، كان مسخا ضعيف البنية، صغيرا، لو رأيته من بعيد لحسبته أرنبا، لو لا لونه البني الضارب إلى الحمرة!، يكتنفه الغموض، ولكنه يدعي أنه ثعلب، يعود بأصله إلى ثعالب الغابة التي كانت سيدتها في تلك الأيام.

كان جبانا، ولكنه إذا تمكن من حيوان اصغر منه فانه لا يرحم! نزل بجحر في البقعة التي تكلمنا عنها وكان فيها حيوانات اصغر منه فمثل بها ومزقها شر ممزق، ومن بقى منها استعبده واستغله أسوأ استغلال !. في ذلك الجحر ابتسمت له الحياة وتحسنت أحواله كثيرا بعد رحلة التشرد التي عانى منها كثيرا. ولكنه كان لا يستطيع أن يعيش بسلام! كان ولعقدة تأصلت في داخله، يتصور سكوت الآخرين تآمرا عليه ! فلا يرتاح حتى يراهم يتشاجرون أمامه!. ولكن الباطل كما نعرف ، زهوق دائما ، فتورط يوما فيما لم يكن له قبل به! إذ شجع جيرانه من الحيوانات على التمرد على سلطة ثعلب قوي كان يبسط حمايته عليهم وكان يقبض ثمن ذلك خدمات متنوعة. كانت الثعالب كما قلت تحكم الغابة لأنها أذكى الحيوانات أوسعها علما ومعرفة، وعندما سمع الثعلب القوي بأمر التمرد سارع إلى إخماده على الفور، وبعد التحقيق مع المتمردين (فقد كان يعرف أنهم لا يجرءون لوحدهم على فعل ما أقدموا عليه) عرف أن المحرض كان ذلك الثعلب الصغير، الساكن على بعد خطوات منه !، ولم تمض سوى لحيظات حتى رأى المسخ نفسه مقيدا والثعلب المسيطر يهد جحره ، ويزيل معالمه ! اقتيد صاحبنا إلى الغابة حيث سُخِّر للعمل في خدمة الثعالب. وبقى على ذلك الحال حتى فعلت الطبيعة فعلها فضعفت الثعالب لتحتل مكانها في القيادة الأبوام !.

لم يهتم قادة الغابة الجدد بأمر هذا الثعلب الصعلوك، فأطلقت سراحه ليكون حرا، ولكنه عاش في الغابة حياة التشرد التي كان يتقنها، ومع ذلك عانى من معاملة الحيوانات الأخرى له معاناة جعلت ذكرى خدمته الإجبارية لبني (جنسه)، تبدو وكأنها كانت مجرد نزهة!. كانت الحيوانات تهينه دوما وتؤذيه، ولكنه كان يبتسم لها ويتذلل إليها، في الوقت الذي كان يزداد حقدا على الثعالب، لأنها هي التي دمرت جحره الذي اغتصبه من الآخرين، كان قد نسى أن ما حدث إنما جره هو على نفسه، وبقى يتذكر فقط ما يجعل حقده على الثعالب خالدا!!!.

وفي يوم ضاقت به السبل واشتدت عليه الحيوانات لأنه كان خبيثا خبثا غير معقول، فلجأ إلى الثعالب التي أشفقت عليه عندما رأت حاله المزري، فضمدت له جراحه لأنه في النهاية ثعلب بنظر

الآخرين. وهناك في بلاد الثعالب كتب وصيته لأحفاده !، رغم انه كان لا يمكن أن يكون له أحفاد لأنه عقيم، شأنه في ذلك شأن كل الحيوانات الهجينة، ولا عجب لان الطبيعة قضت بذلك. ولكنه مع ذلك أوصى أتباعه الذين عرف أنهم سيتّبعونه لان الغابة لن تخلو يوما من خبيث أو شرير، وسمّاهم أحفاده، بأن يبقوا نار الحقد متأججة على كل ما هو ثعلبي!!! وهو يستنزل اللعنات على المكان الذي كان جالس ا يكتب فيه بكل حرية!!!.

وكما هي العادة، عاد المسخ آفاقا كما كان، بعد أن استرد صحته، وراح يمارس هوايته القديمة في حياكة المؤامرات ودس الدسائس، بالتحريض والنفاق ونقل الأخبار الكاذبة، وقد كان خبيرا في الافتراء والتدليس. استحوذ هوى هذه اللعبة المحببة على نفسه حتى عبر الخطوط الحمر التي لا عودة من بعدها!، فقد كان قد ملأ الدنيا نفاقا ولذلك كان يصيبه الجزع ويمل ؤه الخوف عندما يرى الآخرين يتقاربون، لأنه يخشى أن يتفقوا عليه عندما يعرفون بأنه كان السبب في كل البلاء الذي أصابهم، فلا يهدأ له بال حتى يحيل سلامهم إلى حروب ومعارك دامية، يوقد نارا ويظل يحرص على إدامة أوارها بأكاذيبه وحيله المتنوعة.

تحولت الغابة بذلك إلى ساحة حرب متصلة لا فواصل سلمية، فيها وبتراكم الأحقاد أصبح القتل شرعيا، بعدما كان لا يخطر ببال الحيوانات المتصارعة ! فقد كانت من قبل تقدم ضحايا لصراعها عرضا وعلى مستوى الأفراد، أما في الوقت الذي أتحدث عنه فقد كانت الحرب تعلن على أجناس بكاملها هدفها الإفناء أو التشريد!!! كان ذلك المخلوق خلال المعارك المحتدمة يجري جيئة وذهابا أمام المتقاتلين، وهو يحمل قتلاهم موهما إياهم أنه يدفنهم، فيزدادون تقديرا لحيوانيته ! وقلبه الطيب المسالم ! وفي الحقيقة، كان هو يخفي الجثث ليبيع لحومها إلى الحيوانات التي لم تعد تجد وقتا للاهتمام بتوفير القوت لنفسها في خضم معاركها المستمرة. ارتضت جميع الأجناس أن يكون المسخ، مسؤول تموينها، وكل جنس يتصور أنه يقدم هذه الخدمة له وحده!!! ولأنه كان قد عانى الكثير منها في الماضي، بدأ يقدم لكل جنس لحوم قتلاه لكي يأكلها من دون أن يدري!!! وهكذا كان انتقامه منها كاملا!!!. وعندما شكت بعض الحيوانات في هذا الأمر، لم تفكر بإيقاف حروبها لكي تعاقب المجرم الحقيقي، بل آثرت أن تتوقف عن أكل اللحوم وتتحول إلى حيوانات غير لاحمة لكي تستطيع أن تستمر بحروبها المجنونة!!!، ولكنه استطاع في النهاية أن يقنعهم ببراءته!!! ثم بدأ يجمع أقواتها التي اختارتها من الطبيعة، خلسة، ويخزنها بعيدا عن نواظرها المسهدة بمراقبة تحركات أعدا ئها! وعندما تجوع كان يقدم لها ما يخفف من سغبها بعض الشيء، ولكن بأفدح الأثمان.

وبمرور الوقت أصبح المسخ أثرى الأثرياء، ولكنه بقي بخيلا وخبيث النفس! تسارع إليه الحيوانات المحتاجة طوال الوقت، للاستدانة فيعطيها ما تريد بشروط تبه ظ كواهلها وتجهض آمالها في حياة أفضل! مع تنامي ثروته الهائلة، أصبحت له حظوة عند الحيوانات التي كانت تتناوب قيادة الغابة

المجنونة تباعا، رغم أنها كانت تكرهه، وتتذكر الأيام التي كانت تتسلى خلالها بضربه ومراقبة تذلّله و تمرغه في التراب أمامها، بكل حنين!، ولكنها مع ذلك قرّبته وجعلته مستشارا لها، مسلطةً إيّاه على رقاب الحيوانات!.

وكان من اغرب ما خرج به على تلك المخلوقات المبتلاة به، بدعة اللاثعلبية! يتهم بها كل من لا يعجبه، أو يحاول أن يكشف أكاذيبه، على أساس انه يريد أن يعيد أيام الاضطهاد الطويلة التي عانى منها في الماضي والتي استطاع بنفوذه أن يجعل الحيوانات الأخرى تدفع ثمنها!!! والويل للحيوان الذي يتهم بهذه الجريمة، لأن عقوبتها لا تكون فقط النفي من الحياة الاجتماعية للغابة، بل من الغابة نفسها أيضا! و أحيانا، من الحياة كلها!! ولكن هذا كله يمكن أن لا يثير استغرابنا إذا ما عرفنا أنه قد اقنع بعض الحيوانات بان أشد الحيوانات لا ثعلبية في الغابة، هم الثعالب!!!.

وفي يوم من الأيام ابتسم له الحظ نهائيا عندما أسلمت الغابة قيادها للضباع عندما أصبحت هي الأقوى، كانت الضباع تشابه الثعلب المسخ في الدناءة وسوء الطباع، ولذلك قربته وتبادلت معه المصالح فأصبحت بذلك أهدافهما واحدة!. وخلال قيلولة لجأ إليها بعد وليمة فاخرة كان مدعوا إليها، رأى نفسه وقد عاد في الحلم إلى ذلك الجحر الواقع ضمن مساكن الثعالب، فصحا وقد استيقظت فيه أحلامه القديمة، شاء أن يحقق حلمه، فزار النغل الأكبر وطرح عليه الفكرة، فوجد فيه خير سند وأحسن صديق!.

تحقق الحلم فتشتت الثعالب وقتلت لكي يستطيع المسخ العزيز أن ينام في جحرها قرير العين مطمئنا!!! ولكن هيهات أن تقر عين مثل هذا الحيوان نوما، لأنه اجبن من أن يشعر بالأمان! فعمل على أن لا يشعر أحد في الغابة بما يفتقده هو! ولذلك بقيت تعيش على شفير هاوية لا يعرف أحد متى يفغر جحيمها فاه، ليلتهم الجميع!!!.

سكت فجأة وهو يتمعن في وجهي وكأنه كان يريد أن يستطلع ردود فعلي! كنت طوال الوقت ابحث في وجهه عن إمارات تدعم إحساسي بأنه كان يحاول أن يسخر مني! وكنت أتوقع انه سينفجر فجأة بضحك صاخب عندما يراني أتابعه بكل اهتمام، ولكنه لم يفعل!، بل كان يتحدث بكل جدية يمكن أن تسمح بها حالة السكر التي كان فيها! قلت بخجل:

ـ في الحقيقة أنا لم اسمع بهذه الأسطورة.

ـ لا بأس إذا كنت لم تسمع بها، ولكن هل فهمت منها شيئا؟

ـ وهل كان فيها شيء يمكن أن لا يفهم؟

ـ كلام جميل، أهذا يعني أنك عرفت من هو هذا الثعلب الحقير؟

ـ بالطبع يا سيدي، أنا اعرف أنك لا تعني ثعلبا حقيقيا، بل حيوانا أسطوريا لا وجود له.

نظر إلى وجهي بذهول للحظات، قبل أن يقول بصوت بدا نفاد الصبر فيه واضحا:

ـ يا سيدي العزيز، أنا أقصد إلى من يرمز هذا اللقيط؟!

ـ في الحقيقة أنا لا اعرف! أتعرف أنت؟
انفجر غاضبا! على حين غره وقال:
ـ ولكن أي أستاذ جامعي أنت؟! بالطبع أنا اعرفه، وإلا لما حدثتك عنه! المهم هو، هل تعرفه أنت؟،
سكت قليلا ثم قال بعد حين :
- لا تعرفه! حسنا، حسنا، قل لي، أما زلت في بدايات مرحلة التفرس ؟ أم إن مرشدك ذاك قد افترسك؟.
أحرجني غضبه المفاجئ كثيرا! وزاد من حرجي الكلام غير المفهوم الذي كان ينطق به، فقلت بصعوبة:
ـ أنا، لا اعرف عمّ تتحدث؟، يا سيدي،
تفرس في وجهي عندها ثم قال:
ـ يا الهي! أنت أسذج مما يبدو عليك بكثير!! أنت من النوع الثاني إذا!
بدا لي وكأنه يريد أن يزيد من وقع ألم الألغاز على نفسي فقلت:
ـ ولكن، عن أي أنواع تتكلم؟ هلا توضح من فضلك!.
ابتسم لي ولكنه تجاهل سؤالي قائلا :
ـ دعنا من ذلك الآن، لأني أريد أن اشرب نخب الشياطين.
رفع كأسه المترعة ورشف منها رشفة، ثم أعادها إلى مكانها ليبقى صامتا! تململت وأنا أتهيأ لمغادرة مكاني لأني أيقنت بأن الانسحاب هو أفضل شيء يمكن أن افعله! ولكني لم أكن اعرف ما الذي يجب أن أقوله لأبرر اضطراري للمغادرة! ولا أعرف كيف لاحظ هو ذلك فقال بلهجة آمرة جعلتني اجلس في مكاني بلا حراك:
ـ إياك أن تتحرك من مكانك يا صديقي، فأنا أريد خيرك، تصور! للمرة الأولى في حياتي أريد خيرا لإنسان! فلا تجعلني اندم. قل لي، هل تعرف لماذا اختارك النادي لكي تكون عضوا فيه؟.
ـ لا أدري، ربما لأني أستاذ جامعة؟، و....
سكتّ محرجا لثوان معدودات قبل أن أكمل:
ـ وحكيم ؟!.
أغرق في الضحك بعد قولي هذا ! الأمر الذي جعلني اشعر بالغضب لأول مرة خلال الوقت الذي مضى، فنهضت من مكاني ولكنه قال وهو ما يزال يغالب ضحكه:
ـ اجلس، اجلس، فأنا اعتذر، ولكنها هذه اللعينة التي تجعلني عديم اللياقة هكذا، فهي تشتت ذهني وتمنعني من التركيز على ما أريد أن أقوله أو أفعله!.
قال ذلك وهو يشير إلى القنينة الرابضة أمامه ثم سكت ليضيف بعد قليل:
ـ في الحقيقة لقد كنتَ على صواب في نصف ما قلت، لان كونك حكيما رسميا هو الذي جعل الثعلب

يأمر بضمك إلى النادي، لأنه يحب أن يضم الحكماء الواعدين، ولكن ليس للسبب الذي تتوهمه أنت! بل لأنك رغم لقبك لستَ بحكيم، فأنت لا تمتلك ثقتهم بأنفسهم وعمقهم، بل أنت اقرب إلى الساذجين منك بالحكماء، وهذا ما توضح لي بجلاء الآن، رغم سكري!.

صبرت على الإهانة المبطنة بصعوبة، و تساءلت:

ـ ولكن فقط قل لي، عن أي ثعلب تتكلم؟!.

ابتسم وهو يجيبني قائلا:

ـ عن الثعلب الذي ولد من رحم الأسطورة التي أخبرتك عنها.

ـ ولكن متى كان ذلك ؟ وأين ؟

ـ أمام عين التأريخ يا أستاذ التأريخ، وفي غفلة منه ومنك! أما متى؟ ففي الوقت الذي توفرت فيه ظروف الولادة بالطبع.

ـ كلام غريب! لا يزيد الغموض إلا غموضا!!.

ـ هذا لأنك لا تفهم في الأساطير.

ـ وهل يجب أن افهمها؟!

ـ إذا كنت تريد أن تعرف الحقيقة.

ـ حسنا. لا بأس، أعترف باني لا أفهم شيئا مما تقوله! ولكنك تحدثت عن خيري! فأين هو هذا الخير ؟ ثم ! انتظر، انتظر، لقد تحدثت عن انضمام الحكماء إلى النادي! فما علاقة ثعلبك هذا بهم؟.

لاحظت عند سكوتي أنه كان واجما! وهذا يعني أنه كان لا يسمعني! وبالفعل قال بعد قليل متجاهلا أسئلتي:

ـ لقد كنت أنا من النوع الأول، ولذلك أصبحت عضوا من درجة التعليق على الفور، لأني لم أكن بحاجة إلى تفرس وتأنيس وتشكيك، فأنا عضو بالولادة! لأني من نسل الشيطان، رديف ذلك اللعين.

سكت لحظات قبل أن يقول متسائلا:

ـ قل لي، هل تعرف كيف تجعل إنسانا يبيع روحه إلى الشيطان؟.

كنت أرى عندها إن السكر قد افقده رشده، وبات يمنعه من مواصلة حديثه إلى النهاية! ولذلك قررت أن لا أرد عليه حتى يسكت فأتخلص من الإحراج الذي كان يسببه لي بكلامه غير المفهوم وتهجماته علي، ولكنه قال مجيبا نفسه:

ـ أن تعطيه من الأموال ما لا يستطيع أن ينفقها كلها حتى لو أسرف إلى ابعد حدود الإسراف، وان تعطيه معها من السلطة ما يمنع عنه طائلة القانون والأعراف الاجتماعية. وهذا هو بالضبط مأساة الطبقة التي أنتمي إليها.

سكت مرة أخرى وغاب في لجة من التفكير وقد بان عليه الحزن حتى تصورت في لحظة أنه سيبكي

ولكنه قال في النهاية بهدوء:

ـ لقد كنت طفلا هادئا، مسالما، لا يكاد يسمع صوتي في الفندق الكبير الذي كان بيتنا، كنت أنا الابن الوحيد لوالدي، ولكن مسؤولية تربيتي أنيطت بامرأة أجنبية، كانت مسيحية صالحة، صالحة بكل معنى الكلمة، ربتني على مكارم الأخلاق ! وكنت أحبها كثيرا، وتحبني هي الأخرى كما لو كنت ابنها، كانت مؤمنة بالقديس بولس ولذلك كانت تدعوني ببولس الصغير. فيما ظلت أمي مشغولة عني بحفلاتها وملابسها ومجوهراتها، و ...

فكر مليا لحظات قبل أن يقول:

ـ على كل حال ليرحمها الله. أما تلك المرأة الطيبة فقد طردها والدي من بيتنا شر طردة! لأنه اكتشف في النهاية أنها كانت تربيني تربية فتاة!!! لأني كنت اهدأ من أن أكون ولدا، حسب قوله بالطبع. أواه لو تدري كيف كان شعوري بعدما فقدت تلك المرأة العزيزة؟! لقد أضناني بعدها الشعور القاتل بالوحدة! فكرهت أبي! واحتقرت أمي! رغم أنهما كانا لا يدخران وسعا لإرضائي كلما سمح لهما وقتهما بذلك! كنت أناضل لكي أحافظ على تعاليمهما التي جعلتني أحبها، حتى أني كنت اشتري عشرات الكتب يوميا، لأنها كانت تدفعني دوما إلى المطالعة، فملأت بها عدة غرف شاغرة في بيتنا المليء بها! ولكني لم اقرأها كلها بالطبع.

سكت مبتسما ومد يده إلى كأسه ولكنه أرجعها من دون أن يمسها، ثم أكمل:

ـ لقد بحثت عنها فيما بعد، عندما اشتد عودي، ولكنها كانت قد اختفت ! كما أني لم ابذل كل جهودي لأني كنت قد تغيرت ! وكنت متأكدا من أن هذا التغيير لن يعجبها !. لقد تغيرت جذريا ولكن هذا ليس ذنبي، لأني لم أكن أستطيع أن اجتنب الانزلاق عندما أصبحت أمام الإغراءات وجها لوجه ومن دون خوف أو رادع! في تلك المرحلة أصبحت أحب والدي كثيرا! بل أكاد اعبده، لأنه كان ملاكي الحارس، فهو الذي يقيني من عثراتي! ويغطي على هفواتي!

سكت ليهز رأسه مشمئزا! ثم قال:

ـ هفواتي! ليلعنّي الله، بل يجب ان أقول جرائمي !.

سكت مرة أخرى وبدا كمن يحاول ان يتذكر شيئا ! ثم قال :

ـ عندما عرف أن تلك الفتاة الأوروعربية التي لا أستطيع أن أتذكر اسمها الآن، وكانت تعمل خادمة في بيتنا قد بانت عليها علامات الحمل بسببي! قطب جبينه وهو يرمقني حتى شعرت بخوف كبير! ولكنه فجأة انفجر ضاحكا! وقال لي "إذا أصبحت رجلا أيها الوغد! هيا اذهب لتتسلى مع أصدقائك ولا تشغل بالك بهذا" في ذلك اليوم اختفت الفتاة! ولم تظهر بعد ذلك أبدا. وبعد هذا لم أتردد يوما في اللجوء إليه حال وقوعي في المآزق!. لقد كنت أحبه كثيرا في تلك الأيام! أما الآن فأتمنى لو كانت روحه،لا جسده، تمزقها سياط الأبالسة في جهنم.

أجفلت عندما سمعت هذا منه، فقلت على الفور:

ـ ولكنه والدك، ويبدو انه كان يحبك كثيرا؟!.

ـ نعم كان يحبني لأني كنت وحيده، ولكن بئس الحب كان! فقد أوردني موارد الهلاك.

ـ ولكن! أي موارد؟! ها أنت ذا تجلس أمامي بخير حال لولا إفراطك في الشرب!.

ـ وهل أستطيع أن لا أكون مفرطا؟ فالإفراط والتطرف هما سمة طبقتي! ولذلك أنا لا أستطيع إلا أن أفرط في الشرب، مثلما أفرطت في المفاسد، و أفرطت في أنانيتي حتى أورثتها لولديّ فكانا أسوأ خلف لشر سلف!.

عندها أدركت أنه كان يعاني من مرض نفسي خطير! يجعله يهاجم اقرب الناس إليه! فقررت الانسحاب، نهضت من مكاني مرة أخرى، فصاح بي:

ـ ما الذي تفعله يا أيها الأخرق؟ أخاطر أنا بحياتي لأنقذك فيما تحاول أنت أن تتجاهلني! يا لك من ناكر للجميل؟.

ـ ولكنك لا تفعل شيئا سوى التفوه بكلام غامض، والحديث عن همومك الشخصية التي لا افهم مبرراتها!.

استطعت وأنا أقول هذا أن ارفع صوتي أخيرا! فأشعرني هذا بارتياح!! ولكنه قال بإصرار:

ـ اجلس يا بني! فأنا أحاول أن أوضح لك الأمور بالمتبقي من وعيي، فهلا تساعدني؟.

بقيت واقفا لحظات ولكن لهجته الآمرة جعلتني اجلس حين قال :

ـ اجلس، و أصغ إلي جيدا، لقد دخلت أنا مرحلة اللا عودة منذ زمن بعيد، فيما تمتلك أنت الأمل فلم لا تنقذ روحك؟.

ـ ولكن! مم أنقذها؟ وما حكاية مخاطرتك بحياتك؟

بدا الاستهزاء واضحا في بسمته ثم قال:

ـ قل لي، ما هي فكرتك عن هذا النادي؟ أو بالأحرى ما هي صفته باعتقادك؟

ـ أو ليس نادي اجتماعي؟

قهقه ضاحكا قبل أن يقول:

ـ انه اجتماعي بالقدر الذي تصبح فيه السيطرة والاستغلال والإفساد، أعمال اجتماعية.

ـ ولكن!! ما الذي تعنيه بحق الشيطان؟

ـ آه، ها أنت ذا تتكلم بطريقتي نفسها! وهذا شيء حسن. ولكن كيف أجعلك تفهم؟.

بدا عليه عمق التفكير ثواني قبل أن يتابع:

ـ حسنا، قل لي، هل سمعت يوما بالشطرنج السياسي؟

ـ ماذا؟!.

ـ أنت لم تسمع عنه بالطبع، ولذلك دعني اشرحه لك، انه بكل بساطة مباريات تقام دائما بين أعضاء النادي، فرادى ومجموعات، و يظهرون فيها قوتهم الهائلة وسلطاتهم الفائقة لكسب الرهانات الضخمة التي يتفقون عليها فيما بينهم. ولكن الغريب في الأمر إن ساحة لعبهم هي العالم نفسه! حيث تتساقط خلال اللعب حكومات وتقوم حروب وتتغير معالم سياسية! بل وحتى جغرافية أحيانا!!! عندما ينتاب لاعبمهووسل هاجس إثبات براعته للآخرين!.

ـ ولكن هذا كلام غير معقول!!!

ـ غير معقول، نعم، ولكنه حقيقي، وهذا جزء فقط مما يحدث في هذا النادي.

ـ ولكني لا أستطيع تصديق ذلك!!!

ـ إن كنت لا تستطيع فهذه مشكلتك، لان هذا لن يغير من الحقيقة شيئا، لن يمنع من أن تكون تلك المرأة المغرمة بهذه اللعبة التي استطاعت أن تسقط ثلاثة حكومات في ثلاثة بلدان مختلفة وان تسعر نار حرب حقيقية، موجودة!

ـ ولكن!!! كيف يستطيعون ذلك؟.

ـ بل اسألني عما لا يستطيعون فعله، في الحقيقة إنهم يستطيعون فعل كل شيء ما دامت معظم سياسات العالم تحدد هنا، أو في فروع النادي في أنحاء العالم الأخرى.

ـ ولكن! كيف يكون ذلك؟.

ـ قل لي أولا، ما الذي يبتغيه السياسيون في العالم؟

ـ لم افهم؟!.

ـ حسنا سأشرح لك، إن من يدخل معترك السياسة يكون هدفه دائما السلطة في بلده وقيادته، أليس الأمر كذلك؟.

ـ إلى حد ما، نعم!.

ـ ولكن هل تتشابه البلدان في ظروفها السياسية والاجتماعية؟

ـ بالطبع لا!

ـ حسنا، لهذا أقول أن شخصا يتصدى لقيادة بلد صغير أو كبير، ولكنه ليس من القوى الكبرى في العالم، يكون واحدا من اثنين، إما وطني ا يريد أن يحدث تغيير ا إيجابيا في بلده، أو أن يحفظ كيانه المستهدف ، أو عميل يسعى لتنفيذ خطط من هي أوا له السبيل إلى السلطة، وتحقيق بعض المكاسب الشخصية لحساب نفسه. هل يبدو لك هذا الكلام منطقيا؟.

ـ نعم، انه يبدو كذلك رغم تجريديته !.

ـ لا بأس، لأني لا أستطيع أن أخوض في التفاصيل، ولكن فقط قل لي هل تعرف لماذا يطمح رجل إلى تسلم السلطة في دولة عظمى؟.

ـ لنقل مثلا، انه يريد أن يقود البلاد القيادة التي تحفظ لها مكانتها وتهيؤها للدفاع عن نفسها بجدارة ضد أعدائها.

ـ دفاع ضد من يا بني؟ أقول لك عظمى فتقول لي دفاع!.

ـ ولكن كل دولة لها أعداء، ويجب أن يكون لها من يقودها، أم انك تعني أن القوى العظمى لا تحتاج إلى قائد؟!.

ـ إنها تحتاج إلى قائد بالطبع، ولها أعداء بالتأكيد، ولكني هنا لا أتحدث عن ضرورة المنصب، بل عن نوعية الرجال الذين يسعون إليه، وهم في حالتنا هذه، الساديون الذين لا يحلمون إلا بالسلطة المطلقة.

ـ ولكن هذا استنتاج جائر!!!.

ـ بل هو الحقيقة، أما عن القيادة لحفظ المكانة والدفاع، وغيرها من الشعارات التي يتشدقون بها، فإنها أهداف مثالية تصلح للإعلان فقط. ولكن هؤلاء المساكين يصدمون بالحقيقة المرة حالما يصبحون رؤساء! لأنهم يكتشفون بان السلطة التي كانوا يحلمون بها لا وجود لها في مقر الرئاسة! بل في مكان آخر!.

ـ وأين تكون إذا؟!.

ـ هنا بالطبع، في هذا النادي.

ـ ولكن هذا غير معقول!.

ـ مالك تكرر، غير معقول، غير معقول، كالببغاء؟. يجب أن تصدقني لان الوقت ضيق، وأنا كما تراني لا أستطيع التركيز كثيرا، ومن يدري؟ لعلك لن تراني بعد الآن .

ـ ولم قد لا أراك بعد الآن؟!.

ـ لأني العب بتحدثي معك بهذه الموضوعات، لعبة خطيرة يمكن،

ـ سكت للحظات مفكرا ثم قال:

ـ قل لي، ما هو رأيك بحادث مقتل يحيى الكندي عضو مجلس الرئاسة قبل سنوات؟

ـ في الحقيقة هو حادث غامض قليلا! ولكني أميل إلى تصديق الرواية الرسمية.

نظر إلي باستهزاء وهو يقول:

- غامض قليلا! وتصدق الرواية الرسمية! ألم اقل لك، أنك من النوع الثاني، وانك قد أُختِرتَ بسبب آرائك الشاذة ؟ أليس غريبا أن يقتل شخص بهذه الأهمية في الشارع، وأمام عين زوجته وحرسه الشخصي ؟ ثم يقتل قاتله وهو بين رجال الشرطة! ليموت قاتل قاتله في ظروف غامضة داخل سجنه!. أتبدو مثل هذه الأمور غامضة قليلا في نظرك؟! حسنا، ليبدو الأمر كذلك، ولكن هل من المعقول أن لا تستطيع دولة عظمى تفاخر الدنيا بشرطتها، وتثبط همم الدول الأخرى بصورة قوى أمنها الداخلي الجبارة، التي تصدرها لها مع تمثيلياتها ومسلسلاتها المصورة! أن لا تستطيع الوصول إلى نتيجة

بتحقيقاتها عن حادث مقتل أحد رؤسائها؟ ألم تخطر مثل هذه الأسئلة في بالك يوما؟.

ـ دعك مني الآن، واخبرني أنت الحقيقة إن كنت تعرفها.

ـ سأقول لك شيئا واحدا. لم تكن هذه التحقيقات لتصل إلى شيء، حتى لو استمرت عقود ا وأجيالا، لان الذي يقود السلطة، كان هو الذي أصدر أمر القتل.

ـ هل يعني هذا، أنك تتهم مجلس الرئاسة؟!

فقال بنفاد صبر:

ـ يبدو انك أغبى مما تصورت!!.

عندما انتفضت هذه المرة، أعادني هو إلى مكاني، بان ضغط بيده على كتفي وأكمل:

ـ لقد قلت لك إن مجلس الرئاسة لا علاقة له بالرئاسة الحقيقية ، وان أعضاءه ليسوا إلا أفرادا معينين من قبل النادي لكي يكونوا قادة البلاد الصوريين0

ـ ولكن كيف يمكن أن يكون هذا صحيحا؟ أ ليس مجلس الرئاسة هو الذي يقرر سياسة البلد؟

ـ انه يعلن يا عزيزي ، يعلن ولا يقرر 0 أنا لا أدّعي باني قد عرفت كل ألاعيب السياسة وخفاياها، ولكني أيقنت بأن المعلن منها لا يمثل إلا القليل جدا من السياسة الحقيقية ، هذا إذا كان يمثل شيئا على الإطلاق.

سكت قليلا ثم أكمل:

ـ هل سمعت يا واثق بمبدأ ضربة الموزة في السياسة؟

ـ وما دخل الموز بالسياسة؟!

ـ والله إن له دخلا ، ولكن ليس عن هذا أتحدث الآن، لقد قلت لك ضربة الموزة وهذا شيء مختلف، لأنه تعبير مأخوذ من لعبة كرة القدم، حين ينفذ لاعب ماهر الضربة الحرة المباشرة، فانه يضربها بطريقة تجعلها تبدو وكأنها في طريقها إلى الخارج، ولكنها فجأة تغير مسارها الملتوي، وتدخل الهدف ، هذا هو ما يسمونه ضربة الموزة. وقد استعار السياسيون اسمها ليطلقوه على واحد من أهم المبادئ السياسية لأنهم يوهمون الناس باتجاه مخادع للأحداث ولكن عندما يقع الحدث الحقيقي فان أحدا لم يكن يتوقعه. إن التفاصيل السياسية إذا ما عرفت مسبقا فلن يكون هناك سياسة حقيقية.

ـ ولكن ألا تلاحظ أنك قد خرجت بهذا عن الموضوع الذي كنا نتحدث فيه ؟.

ـ ليلعنّي الله إذا كنت اذكر ما كنا نتحدث فيه، ولكن هذا لا يهم ما دمت أستطيع أن أوضح لك معظم ما تجهله من حقائق. قل لي، أتذكر الأزمة الخطيرة التي نشبت بين دولتنا وجمهورية طاشقند قبل سنوات ؟

ـ بكل تأكيد.

ـ لقد أسقطت الجماهير الطاشقندية الحكومة الموالية للعرب في حينها، وطلبت من السومطري الذي كان في المنفى آنذاك، أن يعود إلى البلاد ليتسلم السلطة لأنه كان رجل الدين الأقوى فيها. عندما عاد كان أول

عمل قام به، هو تحريض جماهيره الثائرة على احتلال السفارة العربية في طاشقند واحتجاز عشرات العرب العاملين فيها رهائن. وقد اشتدت الأزمة في حينها حتى كادت تكون حربا.
ـ ولكني أعرف كل هذا! فقط قل لي، ما دخله في ما نحن فيه؟
ـ صبرا علي يا عزيزي، إن لهذا كل الدخل، ولكن اخبرني أولا هل ترى انه شئ طبيعي أن يقوم شخص ضعيف بالوقوف أمام أسد نائم ويقوم بإدخال عصا في أنفه؟!
ـ لم افهم!!!
ـ لم تفهم، لا بأس، ألا ترى أن تحريض السومطري على احتلال سفارة العرب في عاصمته كان نوعا من الانتحار؟ خاصة وانه كان على أبواب حرب مع أحد جيرانه؟!
ـ ثم ماذا؟
ـ يبدو انك لم تفهم ما ارمي إليه؟! ولكن، لا بأس مرة ثانية، فأنا لا عمل عندي هذه الليلة غير الحديث معك، فإما أجعلك تفهم، أو تأخذ مني المتبقي من عقلي!.
سكت قليلا ثم عاد إلى الكلام بحماسة:
ـ أتدري؟ عندما كانت الأزمة على أشدها، وكان الإعلام العربي يصور للعرب والعالم أن العد العكسي للحرب ضد السومطري قد بدأ، أُلقيت محاضرة في قاعة عبد الله ابن سلول بالنادي، لأعضائه من درجة التأسيس، هل تعرف من كان المحاضر؟
ـ من؟!
ـ كان حيراتي يا صديقي ، حيراتي وزير خارجية نظام السومطري 0 وكانت المحاضرة عن الثورة الطاشقندية! لقد كنت أنا موجودا، فسمعت المحاضرة بأذني، ورأيت حيراتي بعيني في الوقت الذي كان فيه العالم قد حبس أنفاسه انتظارا للضربة العربية القاصمة لنظام طاشقند.
ـ اعذرني يا سيدي ولكني لا أستطيع أن اصدق هذا!.
ـ لك أن تصدق أو لا، فهذا لا يهمني، ولكني أقول الحقيقة. ثم لماذا لا تصدقني؟ ألم تهدد حكومتنا الموقرة بتوجيه ضربات ماحقة، فأين هي؟ أين الحرب التي زمروا لها وطبلوا؟ بل ألم يصرحوا رسميا أنهم في سبيلهم لإسقاط نظام السومطري؟ فمن يحكم طاشقند الآن، وبعد مرور كل تلك السنين ؟ أليس هو السومطري نفسه؟. وبالمناسبة لا تنس حقيقة انه قضى بعض سنوات نفيه في بلادنا يا عزيزي!.
سكت ليفكر قليلا قبل أن يقول:
ـ لقد حاربت القوات العربية أخيرا هناك، ولكن المستهدف كان، هو نظام سمرقند! عدو نظام طاشقند الرئيس وجاره، فهل تستطيع أيها الحكيم أن تفسر لي كل هذه التناقضات؟.
لم انبس ببنت شفة لأني لم اعرف بم يمكن أن أجيب، فقال بعد حين:
ـ صدقني عندما أقول لك أن كل هذا رسم وخطط له في أروقة هذا النادي وقاعاته المغلقة.

ـ ولكن هذا غير معقول، حتى إذا أزعجك قولي هذا! إذ كيف يمكن أن يكون لهذا النادي كل هذه السطوة والنفوذ؟!.

عندها ضحك وقال بهدوء:

ـ لأنه بكل بساطة، يضم كل أصحاب السلطة والنفوذ الحقيقيين، هنا، وفي كل العالم.

ـ ومن هم هؤلاء؟

ـ أحفاد الثعلب المسخ، المتحالفون مع أبناء الشيطان.

ـ ها قد رجعنا إلى الثعلب والشيطان مرة أخرى! استحلفك بالله أن توضح لي ما تعني؟

ـ لقد أوضحت بما فيه الكفاية، ولكنك لم تفهم.

ـ ولكن! عن أي توضيح تتكلم؟ فأنت لم تتكلم إلا عن الغاز! أرجوك يا سيدي، بل أتوسل إليك أن توضح لي أكثر، أو، اتركني اذهب.

بدا عليه وكأنه سيستجيب لرجائي لأول وهلة، ولكنه قال:

ـ قل لي، هل تعرف إن كانت السياسة في دولتنا تخدم الاقتصاد، أم إن العكس هو الصحيح؟

فقلت بضجر:

ـ أنا لا اعرف، قل لي أنت.

ـ لا هذا ولا ذاك، بل إن الاثنين يستخدمان للوصول إلى السلطة المطلقة.

ـ ولكن ما الذي يمكن أن يفعله إنسان، بهذه السلطة المخيفة؟!!.

ـ لكي يصبح إلها من نوع ما، يستطيع أن يقرر مصائر الآخرين لكي يسيطر على قدره، بل ليتخلص من خوفه الذي يقض مضجعه، خوفه من المجهول.

ـ مرة أخرى، لم افهم!.

ـ ومتى فهمت يا صديقي؟ ولكن لا بأس، لأنك تستطيع مع ذلك وبقليل من الثقة، أن تؤمن بصدقي لكي تنقذ نفسك من الجحيم.

كنت اشعر بعطش شديد فلم اجبه، بل التفت لأطلب من النادل أن يأتيني بشيء أشربه. كنت أرغب في الخمر كثيرا لحظتها، ولكن خشيتي من سخريته جعلتني أطلب كأسا من العصير! لاحظت عند التفاتي أن موائد كثيرة كانت قد شغلت من دون أن انتبه!. كان هو قد سكت واستغرق في تفكير عميق. طال صمته حتى خشيت أن ينهي الحديث فجأة ويتركني هكذا بلا أجوبة!. أتاني النادل بما طلبت وذهب، فتكلم هو قائلا من دون مقدمات:

ـ لقد أصبحت عضوا من درجة التعليق فور انتسابي إلى النادي،

فقلت بنزق على غير عادتي:

ـ سبق ان قلت لي ذلك.

فوجئ بقولي ولكنه فكر لحظات قبل أن يهز كتفيه باستخفاف ويتابع:
ـ لقد انطلقت كالصاروخ بعدها، حتى توقعوا لي أن أكون من القلة السعيدة التي تتشرف بمرافقة المعلم الأكبر، أو مقابلته على الأقل.
ـ ومن هو المعلم الأكبر؟.
نظر إلي باستغراب، ثم حامت بسمة سخرية على شفتيه ولكنه قال متجاهلا سؤالي:
ـ لقد كنت سعيدا بالآمال التي كانت تكبر كلما ارتقيت درجة، فتفاءلت بالربط وتقبلت التدنيس لكي ادخل مرحلة التأسيس التي أصبحت بعدها عضوا كاملا، فأزيلت عن ناظري كل الحجب، و ألقت الأسرار بحقائقها تحت قدمي!. كنت لا أرى فيما أتحدث لك عنه من قبل أي شر! بل كنت أرى أن الأمور يجب أن تسير هكذا، لأن العالم يجب أن يركع تحت أقدامنا ما دمنا نحن نخبته!!!.
سكت ليغيب في لجة أخرى من الأفكار قبل أن يقول:
ـ لقد اقترفت الكثير من الشرور يا صديقي، ولم أكن لأشعر بالندم، لأني كنت مشغولا بأنانيتي. حتى التغير الذي جعلني أحدثك الآن وأخبرك بكل هذا، لم يطرأ علي إلا لسبب أناني! لأني لو لم أر ى كل تلك القذارة بالمصادفة لكنت الآن جالسا أتلذذ برؤيتك وأنت تسلم نفسك إلى العنكبوت القاتل كذبابة غافلة. أو تدري ؟ أنا لم ابدأ بالنظر إلى الأمور من زاوية أخرى إلا بعد سماعي في تلك الليلة ولديّ، وهما يتذمران مني أمام أمهما، لم يكونا قد تنبها لدخولي، فسمعتهما وهما يتمنيان لي الموت! نعم الموت، لكي يرثاني ويرتاحا مني، يا للهول ! لكم كنت احبهما ؟ كنت ملاكهما الحارس، مثلما كان أبي بالنسبة لي. لم أكن اعرف بأني كنت اسقيهما بذلك عصارة الأنانية ! وعصير الحقارة الإنسانية !. كنت واقفا عند الباب مشدوها، وأنا اسمعهما يتفوهان بتلك الكلمات أمام تلك العاهرة، التي لم تفعل شيئا سوى تطييب خواطرهما وتوصيتهما بالصبر، وكأنها كانت تنتظر موتي هي أيضا ؟!. فكرت لحظات في أن أتقدم نحوهم حاملا مسدسي، لأقتلهم على الفور ومن ثم انتحر، ولكني انسحبت من دون أن الفت انتباههم، لا يا صديقي، أنا لم أجبن، ولكني قرفت من فكرة أن أتطلع في وجوههم، أو أن أستمع إلى أصواتهم في تلك اللحظات.
ثم سكت للحظات قبل أن يضيف:
ـ ولكني أدركت فيما بعد أن عقربا مثلي لن يخلف إلا عقارب.
كانت أنفاسه تتسارع وهو يحدثني بهذا، وصوته يرتفع نسبيا، كان يتحدث بحرارة وصدق حتى بدا عليه التعب الشديد فسكت دقيقة أو دقيقتين ثم أكمل مرة أخرى:
ـ في ذلك اليوم انفردت بنفسي، كنت لا أستطيع احتمال وجود أي إنسان بقربي فابتعدت عن الجميع انزويت في وكر الملذات الخاص بي، شعرت وكأني تحولت إلى حطام إنسان، وكان من حسن الحظ إن

ذلك الإنسان يستحق التحطيم. قل لي هل تؤمن بان الإنسان يمكن أن يرتد عن غيّه ويكفر عن أخطائه الجسيمة؟

ـ بالطبع أنا أؤمن، ولم لا أفعل؟ لأن الإنسان من طبعه أن،

ـ كفى، كفى يا أيها الساذج، لا تحدثني عن الإنسان، فأنت ابعد الناس عن أن تعرف إن التغيير غير متاح لكل الناس لأنه يشبه أن يطهر الإنسان نفسه بالنار، فالنجاسة يجب أن تعالج بالنار، إن التوبة بعد ضلال هي تقبل لكل عذابات الدنيا لكي نكفر عن جزء مما اقترفناه، ما أسهل أن ينحدر الإنسان إلى درك مهين، ولكن التخلص من حضيض الخسّة لا يستطيعه إلا الأقوياء من البشر. في تلك الليلة عانيت من كابوس رهيب، أنت لا تعرف الكوابيس، هه، فأنت أنقى من أن تخدش ضميرك بما يجعله يعاقبك بكابوس مقيت، هه، لا، لا، لا تعترض فأنا اعرف أن كل إنسان لديه كوابيسه الخاصة، ولكنك يجب أن تعرف بأنها تزداد إيلاما كلما أوغلت الخطايا في غلّوها. إن كوابيسي تعني قطرات العرق الباردة تلك التي تغطي جبيني الملتهب! إنها الخوف الذي ينتابني حتى يدفعني إلى الصراخ ولكن صوتي يأبى أن يطاوعني! أريد الفرار وساقاي ترفضان أوامر عقلي! أكون ميتا وأنا حي، استصرخ الوجوه التي تحيط بي ولكنها لا ترحمني! إنها الشعور بالوحدة القاتلة الذي!،

سكت فجأة ومسح قطرات العرق التي بللت جبينه ولكنه لم يود أن يصمت لأنه قال بسرعة:

ـ في تلك الليلة زارني طيف فيلوميلا، الحسناء الكريتية التي انتهكت عفافها عندما كانت خادمة في بيتنا، كانت تبدو لي في الحلم كشبح رهيب، أبت أن تجيب عن تساؤلي عما تريده مني، بل راحت تتقدم باتجاهي حتى شعرت بالموت، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تفعل بي ذلك ولكن كان قد مضى زمن طويل على آخر مرة فكدت أنسى إيلام طيفها لنفسي، ولكن في هذه المرة استعدّت كل الكوابيس التي سببتها لي في السابق بأثر تراكمي. آه، لولا كرامتها لبقيت حية، ولكنها أبت أن تأخذ المبلغ الذي أعطاها إياه أبي لكي ترحل عنا بهدوء.

سكت وبدا عليه وكأنه يناضل لإبعاد شبح مخيف عن مخيلته، ثم أكمل:

ـ عندما عرفت بمصيرها صرخت بوجه أبي! ولكنه قال إنها تستحق ما حدث لها، لأنها كانت طامعة، فسكتّ!! رغم أني أعرفها جيدا، وأعرف أنها لا يمكن أن تكون كذلك، سكتّ ودفعت ثمن جريمتي كوابيس أقضّت مضجعي طوال سنين. ويا لبخس هذا الثمن؟!. لقد أحبتني حين رأتني وأنا مراهق، لأن تعاليم ماري، مربيتي الأجنبية كان ما يزال لها اثر في نفسي، أحبتني فحدث ما كان يمكن أن يحدث بين فتى وفتاة في بيت لا يخلو من الخلوات، حتى إذا ما امتلأ بالبشر، فكيف إذا كان خاليا في معظم الوقت، إلا من الخدم ؟! منحتني نفسها بكل حب فاغتصبتها بكل وحشية!!! لأني بكل سادية المتمدنين لم أر في عطائها إلا مازوكية التخلف! هه، مالي أراك قد أجفلت عندما سمعت قولي هذا؟ ألم تعان أنت طوال الأسابيع التي مضت من شعور الدونية الذي شعرت به إزاء الأعضاء الآخرين ؟ ألا تعرف بان هذا

الشعور لا يفرض على المرء بل يولد في داخله؟ أليست هذه مازوكية؟ و إلا بماذا تفسر شعور إنسان بدونية إزاء ناس هو أفضل منهم بكثير؟!! ولكن ،دعنا منك الان . لقد اغتصبت ذلك الملاك، والله إنها كانت ملاكا ، اغتصبتها و تركتها لمصيرها المؤلم بكل جبن ! يا للمسكينة ألم تعرف أنها لا يمكن ان تحتفظ بكرامتها وهي تخدم وحوشاً مثلنا، صحيح إننا نبذل بكل سخاء لأن المال لا معنى له عندنا لكثرته، ولكننا لا نستطيع أن نرى غيرنا يتمتع بكرامة أو كبرياء، لأنها أشياء لا تليق إلا بنا! فكيف إذا كان هذا الغير خادما؟!O رباه ، لماذا توقف الناس عن إقامة حدود الله؟ لماذا لم ارجم في حينها حتى الموت؟ ألم أكن زانيا أثيما حتى لو لم أكن محصنا؟ ألم يكن بإمكان راجميّ أن يوفروا على أنفسهم المزيد من العقارب؟ رباه ، ما هذا العذاب؟! أرجو أن تسعد عفاريت الجحيم وهي تنهش بلحمك وتهنأ برائحة الصديد يا أبي ، يا ملاكي الرجيم!!!.

كان الألم باديا بوضوح على وجهه ولكني شعرت بقرب منه عندما بدأ يتكلم عن أبيه بتلك الطريقة!!!

فيما كان هو يتابع قائلا:

ـ في تلك الليلة عندما استيقظت مرعوبا لم استطع أن أعاود النوم فبقيت مسهدا حتى مساء اليوم التالي، كانت عملية إعادة حسابات طويلة، ولكنها كانت السبب في بداية انقشاع الغشاوة عن عيني،بعد تلك الليلة بدأت أرى الأشياء من جانب أخر ، تجاهلت ولديّ لأني كنت أخشى من أن تجعلني عاطفتي ألين ، ابتعدت عن النادي وكل معارفي أسابيع طوالا، كانت أسابيع عذاب اليم ولكنه عذاب ناجع لأنه أعانني على أن أرى حقيقة الدرك الذي كنت فيه، درك القباحة و،

سكت وهلة ثم قال:

ـ أو تدري ما الذي كرهته أكثر في هؤلاء القوم؟ انه تطرفهم، التطرف في تصرفاتهم وفي كل ما يؤمنون به، وهو تطرف في الشر طبعا.

ـ ولكن ما هذا الإجحاف؟ لم لا يكون تطرفهم في الخير؟ لماذا يجب أن يكون في الشر كما تدّعي؟!.

ـ لأنهم بشر يا عزيزي، لأنهم بشر، وفي غياب الروادع لن يتطرف إنسان إلا في الشر، لأنه يتناسب مع طبيعته الأنانية، فهذه هي القاعدة، أما عن وجود أفراد قلائل يمكن أن يتصرفوا عكس هذا التصرف الطبيعي بالنسبة للبشر، فإنهم بذلك يكونون الاستثناء الذي لا يصلح للاستخدام كقاعدة.

ـ عجيب !!! أنا لا اعرف كيف يمكن أن تكون حاقدا هكذا على الأثرياء مع انك واحد منهم؟!.

ـ ولكني لا أتكلم هنا عن الأثرياء يا هذا! ألم تفهم بعد؟ أنا أتحدث عن طبقة لحمتها الاستغلال وسداها السيطرة المطلقة على الآخرين، أنا أتحدث عن قلة لا تختلط بالناس، ولكنها تتحكم بمصائرهم، كيف أجعلك تفهم؟ لقد حيرتني في أمري! ولكن. لا بأس، دعني أحاول 000 حسنا، إن الإنسان عندما يجمع مليونا ويبدأ بالتفكير في مليون آخر، فإنه بهذه الحالة يمكن أن يكون طموحا، ولكنه عندما تتجمع عنده الملايين ويظل يبحث عن أخرى، فانه يمكن أن يكون طماعا، وهو سواء إن كان طموحا أو طماعا، فإنه

يبقى إنسانا بكل بساطة. ولكني هنا أتكلم عن مليارات، بل مئات منها أو آلاف أو ملايين. أنا أتحدث عن ثروات هائلة لن يستطيع أصحابها أن ينفقوها ولو امتدت أعمارهم إلى آلاف السنين، أنا أتحدث عن عوائل صغيرة تتصرف بميزانيات تفوق ميزانيات عدة دول مجتمعة، فَلِمَ يبحثون عن مليارات أخرى؟ هذا ليس طمعا بكل تأكيد، بل هو شيء أسوأ بكثير، شيء يحول الإنسان إلى مسخ لا اثر لإنسان فيه، ونتبه لأني لا أتحدث عن أفراد معينين، بل أنا مؤمن بأن أي شخص لو كان بمكانهم، لوصل إلى ما وصلوا إليه، لأننا جميعا بشر، ولكني أتحدث عن المعادلة الظالمة التي تزداد فيها الأغلبية فقرا، لكي يزداد الأغنياء غنى! يجوع الجائع أكثر ليتخم الشبعان!.

سكت لحظات ثم قهقه ضاحكا حتى لفت انتباه بعض الجالسين بعيدا عنا ثم قال:

ـ انظر إلي كيف أتحدث؟! ألا أبدو لك كمصلح اجتماعي؟. أنا أرجو أن لا تتصورني كذلك، فما أنا إلا إبليس صغير في جوقة الأبالسة هؤلاء. أواه لكم أتمنى لو استطاع أحد أن يحرقهم جميعا، فأنا أريد أن أضع حدا لحياتي التي سئمت منها، ولكني لا أريد أن أغادر قبل أن أراهم مصليين بنار هذه الدنيا قبل الآخرة.

شعرت بالشفقة عليه وأنا أتصور عذاباته فقلت بدون تفكير:

ـ هون عليك يا سيدي فأنت تقسو على نفسك كثيرا، وفي الحقيقة إني لا أرى في هؤلاء الذين تهاجمهم، غير طبقة مثقفة لها تقاليدها الجديرة بالاحترام والتقدير.

ـ لا تحاول أن تشفق علي يا أيها الصعلوك ! فأنا في غنى عن شفقتك. أما عن هذه الطبقة المثقفة الواعية كما تقول، فأنا اعترف بأنها تمنح أولادها أحسن تعليم لينالوا أرقى الشهادات كما فعلت أنا مع الأفاعي التي ربيتها، ولكنهم يقومون بذلك ليس حبا بالعلم والمعرفة بل لأنهم يعبدون المظاهر ويحرصون على أن يكون لديهم ما لا يمكن أن يناله الآخرون، هو لتميزهم الفارغ، أو بكلمة أخرى، هم يريدون أحسن ما يمكن شراؤه من مظاهر العلم والثقافة!. أما التقاليد فان إصرارهم على أصول اللياقة ليس إلا مظهرا آخر يخفون به وجوههم القبيحة. هم ينالون كل ش يء يريده إنسان أو يحلم به، حتى أني شعرت وأنا في الثلاثينات من عمري بأنه لم يبق شيء أريده في هذه الدنيا لم أنله!. ينالون كل ش يء ولكنهم يحرصون على امتلاك ما لا يمكن أن يمتلكه الآخرون حتى إذا كانوا غير محتاجين له ! لأنهم يبقون طوال حياتهم أسيري عقدتهم في تأكيد تميزهم عن بقية خلق الله، وحتى إصرارهم على التكلم باللغة القديمة لم يكن حبا بها بل لان ذلك يميزهم، قل لي هل تذوقت " الأكتل " الذي يقدم في حفلاتهم؟.

ـ نعم تذوقته في الحفل الذي،

ـ وما رأيك بطعمه ؟

ـ لقد كان لذيذا جدا.

ـ ألم تتذوق ما هو ألذ منه من قبل؟

ـ في الحقيقة نعم، فهناك أشياء ألذ منه بالنسبة لي، ولكنه لذيذ أيضا.
ـ والله هو ليس بلذيذ، بل أنت متأثر بما سمعته عنه قبل تذوقه. انه مرغوب هنا فقط لان سعره غال جدا، ولكن أتعرف ما هو بالحقيقة؟ انه بيض بعض أنواع الضفادع النادرة التي تعيش في أمريكا الجنوبية، فهل يعجبك أن تأكل بيض الضفادع؟
شعرت بغثيان خفيف عندها ولكني سرعان ما أقنعت نفسي بأنه كان يهلوس! لم ينتظر هو إجابة مني بل تابع قائلا:
ـ إنهم يسارعون إلى تقديم حساء نوع من الطيور الصغيرة جدا تسمى الطيور الطنّانة في الحفلات التي يقيمونها في بيوتهم، وأطباق من لحم نوع من الببغاوات النادرة! وكأنهم لم يكفهم ما تسببه الإنسان من انقراض لآلاف عديدة من أنواع الحيوانات والطيور؟ ويحرصون على أن تكون كل هذه الأنواع وغيرها من غريب الأكلات موجودة دائما على موائدهم، لمجرد إن تكاليف إعدادها تفوق التصور، فيشعرون بذلك بلذة المال التي سيظلون يفتقدونها ما دامت الأموال مبذولة هكذا لديهم، وسيظلون يبتكرون المزيد من التفاهات لتأكيد تفوقهم الموهوم. اسمع،اسمع، في ذات يوم كان أحدهم يشعر بالضجر فراح يتابع برنامجا في الإذاعة المرئية كان يعرض تقريرا عن بلد أفريقي أصابه الجفاف، فرأى خلاله رجلا اسودا كان يجمع قطرات الطل المتجمعة على أوراق شجرة ليروي عطشه! كان يجعل القطرات تتساقط من الأوراق الأعلى إلى التي هي في أسفلها وهكذا حتى تتجمع عنده شربة ماء لا تروي ولكنها أحسن من لا شئ بكل تأكيد!. عند ذلك جادت قريحة صاحبنا عليه بفكرة جهنمية يذهب بها الملل عن نفسه، ويسعد بها أصدقاءه، فدعا مجموعة من أعضاء النادي إلى حفلة في قاعة (نائلة وأساف) للحفلات الخاصة في النادي، بالمناسبة هل حضرت حفلات كهذه؟.
ـ كلا، فأنا حتى لم اسمع بهذا الاسم الغريب! ترى ما الذي يعنيه؟.
ـ دع عنك المعنى الآن، المهم إن تلك الحفلة كانت تضم مفاجأة. فقد كان ذلك الرجل قد اتفق سرا مع دزينة كاملة من أحلى الفتيات، لكي يظهرن فجأة على خشبة القاعة وهن بكامل ملابسهن، ولكن عندما سلطت عليهن رشاشات الماء القوية التي ظهرت من حيث لم يدر أحد! فان تلك الملابس التي كانت مصنوعة من مادة غريبة من يدري لعلها ورق؟! المهم هو أن الثياب بدأت بالتشقق لتظهر المحاسن التي كانت تخفيها، ولك أن تخمن ما حدث بعد ذلك وطوال الليل.
سكت وبانت عليه إمارات التفكير للحظات، ثم قال بصوت منكسر:
ـ لقد كنت أنا حاضرا، ولن أنسى يوما اللذة الوحشية التي شعرت بها وأنا أتمعن في تلك الصورة التي وضعها ذلك العبقري كخلفية لهذا المنظر الساحر، كانت صورة بكبر الجدار لوجه الأفريقي ونظراته المنكسرة وهو يراقب قطرات الماء!.
ـ ولكن هذا غير معقول!

ـ ها قد رجعنا إلى " غير معقول " غير المعقولة! رباه كيف اجعل هذا الأبله يفهم؟. حسنا، أنت تعرف ما تعنيه الأستيرية بالتأكيد، فهلا تقول لي لماذا استخدم هذا المصطلح؟.

ـ بالطبع، فقد كان اسم والدة المخترع الذي،

ـ كفى، كفى، لقد فهمت، ولكن اسمع مني السبب الحقيقي، فقد حدث منذ عقود طويلة أن هامت واحدة من أعضاء النادي وهي سيدة متزوجة، حبا بشاب كان يعمل في أحد مصانع زوجها، فكان من الطبيعي بالنسبة لها أن تراوده عن نفسه، ولكنه أبى لأنه كان متدينا يخاف ربه، فكررت محاولاتها ولكنها باءت جميعا بالفشل وهي تزداد هياما به، حتى أصبح وصاله هاجسا بالنسبة لها. كانت هي تستطيع بكل بساطة أن تمحو ذلك الشاب من الوجود جزاء له على تعذيبها، ولكنها لم تفعل ذلك لأنه لن يطفئ نيران عاطفتها المشبوبة!. عندما سمعت امرأة اسمها " أستير "، كانت هي أيضا عضوا في النادي، بمعاناة زميلتها عرضت عليها أن تساعدها بان تجئ بذلك الشاب صاغرا لكي تفترسه السيدة الجليلة وتفعل به ما تشاء، أو بالتحديد أن تغتصبه وتسلب منه صومه وصلاته وإيمانه وما منعه عنها، ولكن على شرط أن تقيم العاشقة حفلا خاصا لأعضاء النادي في حال نجاح الخطة. وافقت السيدة وكان لها ما تشاء، فبرّت بوعدها و أقامت حفلة في هذه القاعة نفسها. وكالعادة كانت الحفلة باذخة جدا قدم، فيها كل ما لذ وطاب، وتخللتها فقرات جعلت الحاضرين الذين كانوا يعرفون كل تفاصيل ذلك الحب المحرم ينتشون و يبتهجون، حتى قام عضو تعتعه السكر رافعا كأسه عاليا ليقول " نخب المخططات الأستيرية الناجحة " فضجت القاعة بالضحك وأعجب القول، السيدة المغرمة. فأرسلت في اليوم التالي بطلب أحد الموظفين الكبار في مؤسسة إعلامية كبرى من مؤسسات زوجها، وطلبت منه أن يعمم استعمال كلمة الأستيرية بأية طريقة ممكنة!. كان ذلك الموظف ضليعا في مهنته، فلم يستغرق وقتا طويلا حتى ربط الكلمة باسم والدة ذلك المخترع واختراعه. ظهرت بعد ذلك سلسة من المقالات على صفحات الجريدة الإلكترونية التي كان يرأس تحريرها، تتحدث عن هذا الاختراع المذهل، ومدى تأثيره على الحياة الجديدة في العالم، وكيف يستحق أن يطلق اسمه على تلك الحقبة! وعندما رددت أجهزة الإعلام في الدول الأخرى والتي هي توابع صغيرة لإعلامنا، هذه المقالات، أتسع استخدام هذا المصطلح الذي أطلق أخيرا على قرننا هذا! بالطبع أنا لم احضر تلك الحفلة ولكني سمعت عنها من الأعضاء القدامى الذين كانوا يتبجحون به لأن ما حدث هو رمز في نظرهم لتفوق النادي وسيطرته على العالم!.

ـ ولكن!

ـ دع عنك لكن هذه فأنت لا تعرف شيئا. والله إن هذا الجهاز الذي يبث الإذاعة المرئية لهو أخطر جهاز اخترع في تاريخ البشرية، لأنه اقتحم بيوت الناس وراح يفرض عليهم الأفكار والنظريات التي يروج لها قادتهم أو بالأحرى، من يقود قادتهم. وأنت نموذج لما يمكن لهذا الجهاز أن يفعله، فأنت نشأت مثلما أراد الثعلب الملعون، لين العريكة، سهل القياد، مؤمن بتلامذته، فأصبحت بذلك الاختيار الأفضل لهذا النادي،

لكي يأخذك بأحضانه ويدربك مثلما تدرب الحيوانات، ومن ثم يدفعك إلى الواجهة لكي تتحمل وزر أعمال أعضائه الحقيقيين!.

ـ حسنا، لنفترض أني كذلك بالفعل، فما الذي تريده مني؟! ولماذا تنصحني؟!.

ـ حسنا أنا اعتذر لأني حاولت أن أنصحك، ولاني تخيلت أنك يمكن أن تكون الأمل، لأن الأمر بات واضحا الآن، إذ لا أمل فيك، لأنك أضعت الطريق، انحدرت، وأنت تتوهم الارتقاء.

ـ انحدار! وارتقاء! وأمل! أمل بماذا؟

ـ الأمل بالإنقاذ، إنقاذ النوع الآخر الذي يستحيل أن يكون عضوا في هذا النادي، ولا يعرف شيئا عما يدور فيه، أو إنقاذ نفسك في الأقل! أو إرسالي وصحبي هؤلاء إلى الجحيم حيث لا تؤذي شرورنا أحد.

ـ ها قد أضفت نوعا ثالثا! وأنا لم اعرف حتى الآن من هما الأول و الثاني!

ـ لم تفهم بعد! هه، إنهم نحن يا أستاذ، يا حكيم، نحن، الأنا الكبيرة التي شتتتها الأطماع ومزقتها التناقضات والأنانية. لا تفهم! هه، إذا فافهم أني لو كنت قد رأيتك قبل اشهر، لما كلفت نفسي مشقة أن انظر إليك، لأني لم أكن لأعتبرك أكثر من خادم آخر أتى لكي يسدي لي خدمة يجب أن يقدمها. ولكن نار الأشهر الماضية التي اكتويت بها منذ أن سمعت أو، ولكن ليذهبوا إلى الجحيم فهم ليسوا أبنائي بل أبناء تلك الفاسقة التي ابتليت بها. ولكن لم هذه المكابرة؟! إنهم أولادي ومثلي لا يستحق أن يكون له غيرهم.

في هذه المرة لمحت الدموع تنساب من عينيه فشعرت بالرعب ! أيمكن أن يكون صادقا؟! ولكنه لم يدعني لأفكاري لأنه سرعان ما التفت إلي بوجهه الذي بان الضجر عليه! تأكدت عندها من أنه لم يعد يأبه لي! فقلت وأنا أتهيأ للانسحاب:

ـ هل هناك المزيد، أم اكتفيت بهذه القصص المرعبة التي زعزعت بها كياني؟

ـ بل هناك الكثير، الكثير، و هو أسوأ مما قلت لحد الآن بكثير، و أنا لن أستطيع أن اذكره لك كله لان الوقت، و المقدرة لا يسمحان بذلك، و لكن، قد خاب أملي فيك و سئمت منك ، فبإمكانك أن تنصرف .

و فيما أنا أتأهب لمغادرة مكاني تابع هو كلامه و كأنه قد نسى ما قاله للتو!:

ـ هل تخيلت يوما أن يكون شخص واحد مالكا دولة كاملة بشعبها الذي لا يمت له بصلة عرقية أو لغوية أو دينية و أرضها البعيدة عن وطنه، ومالكا كل ما تحتويه في باطنها؟ أنت لا تستطيع بالتأكيد، ولكن هذا حدث، فقد كان أحد أعضاء النادي في القرن العشرين يمتلك مثل هذه الدولة في أفريقيا.

ـ القرن العشرين؟!! ولكن منذ متى تأسس هذا النادي؟

ـ لا ادري، ولكنه وجد في اللحظة التي أصبحت فيها الأطماع هي التي تحرك البشر لا الأخلاق! و لك أن تقدر الزمن، لأنك أنت أستاذ التاريخ لا أنا.

ـ و أنا لا أستطيع ، ولكن على كل حال هذا قد عفا عليه الزمن و أصبح من الماضي.

ـ لا و الله، بل هو م ا يز ال موجودا، إن لم يكن قد ازداد سوءا، لأن المظاهر تغيرت و لكن الأساليب أصبحت أكثر قسوة و بشاعة.
ـ و لكن ! كيف يستطيع شخص واحد أن يمتلك دولة؟! و ما معنى مثل هذا الامتلاك؟!
ـ أما معناه، فهو امتلاك بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، هكذا بكل بساطة، كأن تكون أنت مالكا دولة أوربية، فيقول الناس عنها أنها دولة الأعاجيب الأوربية لصاحبها واثق العربي، فيكون لشعبها البؤس و الشقاء و يكون لك الخراج. و أما كيف فلك أن تتخيل.
ـ أتخيل! و كيف يجرؤ خيالي على هذا؟ ثم قل لي كيف عرفت بالأمر مع انه وقع في القرن العشرين كما تقول؟
فنظر إلي باستخفاف و قال بصوت ملؤه ضجر:
ـ و ما الذي تتوقع إنهم يلقنونا إياه في هذا الماخور؟ أتتصور أنه لا عمل لدينا سوى ممارسة الرذيلة و تناول المخدرات هنا، و بالمناسبة هل تعرف لماذا لا تستطيع الحكومة أن تقضي على تجار المخدرات و رؤوس العوائل الكبيرة المسيطرة على عالم الجريمة و الرذيلة في مجتمعنا؟
ـ مخدرات، جريمة و رذيلة؟! و لكن مجتمعنا من أنظف،
ـ كفى، كفى، يبدو انك لم تسمع حتى بتل الحبيب و رذائله؟
ـ بل سمعت به،
ـ وما تصورك عنه إذا؟ أتتصور أنه مكان يلتقي عنده العشاق الذين يفضلون الحب العذري؟ أما آن لك أن تفيق لتعرف كم من هؤلاء الأحبّة عندنا في بلادنا هذه؟ أما الجريمة والمخدرات صنوّا هذه التلال، فأنت لا تعرف ولو جزء يسير مما اعرفه من خفاياها0 إن المخدرات تنخر في جسد مجتمعنا والجريمة المنظمة تكاد تنافس الشرطة في أعمالها المزدهرة، ولكنك لا تعرف لأنك تعيش معزولا عن الحقيقة فتصدق ادعاءات الحكومة و إعلامها المضلل، فيما تغض هي الطرف عما يحدث في الشوارع الخلفية و المناطق المظلمة من مدننا، لأنها هي و رؤوس الجريمة و الفساد شركاء في خدمة أصحاب السلطة الحقيقية في هذا المجتمع الذين لا تراهم إلا هنا، في هذا النادي العجيب ،و إلا، أتصدق بأن دولة عظمى دانت لها كل مظاهر القوة و الاقتدار في هذا العالم تعجز عن معالجة شأن من شؤونها الداخلية؟!
ـ أيمكن أن تكون حكومتنا بهذه الازدواجية؟!
ـ بل أسوا من ذلك بكثير لأنها لا تملك أمر نفسها فتتصرف ضد المصلحة الوطنية أحيانا، و في أحيان أخرى ضد رغبات أعضائها أنفسهم، إذا ما استدعى الأمر ذلك، فهم ليسوا سوى مجموعة من الخدم والعبيد.
ـ ولكن كلامك هذا غير معقول!!!.

ـ أعرف ذلك، ولكنه الحقيقة، وإليك مثلا، قل لي، ألم تدرك حكومتنا أن معظم دول العالم تع د حكومة زنجبار الأكثر عنصرية وإرهابا في العالم؟! هي تعرف ذلك، بل لعل أعضا ءها يعرفون أكثر من هذا بكثير؟ ولكن هذا لا يهم لأنهم يجب أن يدافعوا عن هذه الدولة المسخ بكل الوسائل المتاحة لأن أوامرهم تقضي بذلك، وهذا هو ما يفسر هذا الإصرار على إجهاض محاولة العالم أن يعاقبها ولو بالإدانة!!! مثلما حدث حين اجتاحت قواتها أراضي تنجانيقا المجاورة لها لتتصل من هناك إلى دولة أوغندا، المبتلاة أساسا بمصائبها والمكتوية بنار الحرب الأهلية فيها منذ سنوات، لتحتلها وترتكب هناك أبشع المذابح ضد المدنيين العزل!. والأسوأ من ذلك أن حكومتنا الموقرة تقرر إرسال المساعدات العسكرية والمالية إلى هذه الدولة التي تدعي إنها تحافظ على أمنها فتوزع الموت على كل الدول المجاورة لها!، ثم هلا سألت نفسك، لماذا تصر الدول المجاورة لزنجبار على معاداتها رغم أن هذا يعرضها لغضب الدولة العربية التي لا تريد تلك الدول إغضابها بكل تأكيد؟! أهكذا، لمجرد أنها شريرة كما يريد إعلامنا تصويرها؟ أم إن السبب أعمق من ذلك بكثير؟، قل لي، أتعرف شيئا عن الطبقة الحاكمة في زنجبار؟

ـ الذي اعرفه عنها، إنها الحكومة الأكثر تميزا بتقدمها وتطبيقها لمفاهيم الإنسانية في طريقة حكمها.

ـ أوه، كلا أنا لا اسأل عن صفة هذه الحكومة الإنسانية!!! بل عن أصل حكامها، ولكن لماذا أزعج نفسي بسؤالك؟ فأنت لا تعرف أن تلك الطبقة غريبة عن أهل البلاد، ولا تمتّ إليهم بصلة بل هي تجمع لشتات من أفاقي الأرض ومغامريها الذين تسللوا إلى البلاد عبر السنين، ثم أصبحوا بعد مؤامرة شارك فيها نادينا حكاما للبلاد ! فقسموا الشعب إلى مواطنين من الدرجة الأولى هم أشياعهم من الشتات، وآخرين من درجة أدنى، هم سكان البلاد الأصليون الذين ساموهم سوء العذاب!. اسأل نفسك يا صديقي لماذا هذا الإصرار على إسناد هذه الدولة المنقطعة الجذور ولو أدى ذلك إلى مخالفة قوانين الاتحاد العام لسكان الأرض التي تصر دولتنا على تطبيقها بحذافيرها على كل الدول المجاورة لزنجبار؟! إن مصلحة امتنا الحقيقة تكمن في مد اليد إلى تلك الدول، لا إلى هذه الدولة المسخ، التي من اجل عينيها نركز صورة العربي القبيح في أذهان شعوب العالم!

ـ ولكن لماذا قد يصر عربي على أن تكون صورته قبيحة في أذهان العالم؟

ـ اسأل نفسك أنت، ولو فعلت فستجد الجواب سهلا جدا، لأنه ليس عربيا يا أخي، حتى إذا كان لسانه كذلك! وإياك أن تتصور أني اقصد حكومتنا بهذا، لأني لن احتمل المزيد من التصورات الغبية. أما عن زنجبار فأنت لم تكن تصدق حديثي عن أهميتها للحكومة، ودفاعها عنها، حتى لو كان ذلك على حساب العرب! فان هذا من حقك، ولكن هل تريد أن تكون رجلا فتبادر في الغد إلى انتقاد السياسة الزنجبارية على الملأ هنا في القدس؟ والله لو فعلت ذلك لفقدت كل أمل في حياة اجتماعية مميزة، أما إن حاولت بعد ذلك أن تصرّ على موقفك فأني رأفة بك أنصحك أن لا تفعل، لأنك يمكن أن تفقد حياتك كلها بسبب ذلك، وان كنت لا تصدقني فجرب.

ـ شكرا، ولكن مثل هذه المشاريع لا تخطر لي ببال لأنه مشغول الآن بصورة العربي القبيح! إذ لا يمكن أن تكون هذه هي صورة العرب، لأنهم أصبحوا منذ أن هداهم الدين أصحاب رسالة إنسانية!.
ـ لا اعتراض عندي على هذا، بل هو الحقيقة رغم أني آخذ عليهم ما فعلوه بالأوروعرب طوال القرون التي استمر فيها النخاسون باستقدام مئات الآلاف من الرجال والنساء من الدول الأوربية التي ابتل يت بفقرها، ليزجّوهم هنا في أحط الأعمال وفي ظروف اقل ما يقال عنها، إنها قاسية وظالمة. لقد أصبح هؤلاء وبتتابع الأجيال غرباء عن الأوطان التي سرقوا من ربوعها، ولكنهم لم يصبحوا مواطن ين في دولتنا إلا قبل قرن ونصف!! ولم ين الوا حقوقهم كمواطنين إلا في الستينات من هذا القرن ولكن، بعد تلك المذابح التي ارتكبتها قوات الأمن الداخلي ضد التظاهرات السلمية التي قاموا بها للمطالبة بذلك!!! و م ا يزال التمييز يمارس ضدهم حتى الآن، بشكل أو بآخر! أوتدري؟ أنا احيي أولئك الذين عادوا إلى أوربا مرة ثانية، حيث أقاموا دولة لحسابهم الخاص ! لأنهم وان لم يأمنوا شرور سياستنا في دولة الحرية الجديدة، فإنهم في الأقل رفضوا الظلم عمليا. ثم إن الرسالة الإنسانية لا تتضمن فقراتها أن نجرب سلاحنا النووي الجديد مرتين في أول حرب نخوضها ضد دولة أخرى كما حدث في حربنا ضد دولة غالة في منتصف الأربعينيات من هذا القرن!.
ـ عجيب أمرك! تدعي بان الحكومة لا تمثل الشعب! ثم تلقي نتائج أعمالها على كاهله!.
ـ ما قلته أنت للتو هو الذي اعرفه أنا، ولكن كيف تريد من الشعوب الأخرى أن تعيه؟ ومثلك لا يعرف به، وأنت ابن هذا الشعب!.
ـ ولكنهم كانوا هم البادئين بالحرب!
ـ من؟!
ـ الغاليون.
ـ آه، لقد نسيت، دعنا الآن من حديث "من الذي بدأ الحرب ؟" فأنا لا أتحدث عن الحروب لأن حديثها يطول، ولكني أتحدث عن السنّة السيئة التي سنتها حكومتنا باستخدام هذا السلاح الرهيب فأزالت ملايينا من الأبرياء من الوجود بلحظات! ما الذي يجعلها مطمئنة إلى إن الآخرين لن يستعملوا هذا السلاح ضدنا؟.
ـ ولكن لا أحد غيرنا يمتلكه!.
ـ والله أنت تذهلني بسذاجتك، ألم تعرف أن زنجبار قد امتلكته منذ الخمسينات؟
ـ مستحيل! كيف أمكنها ذلك؟.
ـ لان عملاءها استطاعوا أن يسرقوا أسرار صناعته من " مأر "! تصور إن مأر الذي استطاع أن يخفي كل تلك الأسرار الرهيبة عن أعين مخابرات أعظم الدول الكبرى في العالم يخترق بهذه السهولة من قبل

" نوزاد " الصغير! ولكن لم العجب؟ فأنا اعرف أنهما وجهان لعملة واحدة. فهل ستبقى بعد الآن مطمئنا إلى أن أحدا غيرنا لم يمتلك هذا السلاح؟.

ـ ولكن من أين يحصلون على العناصر اللازمة لذلك، وأقصد الجباري؟

ـ من المصدر نفسه الذي حصلت منه زنجبار عليه وهي لا تمتلك ولو غراما واحدا منه!.

شعرت عندها باني لم اعد أستطيع أن احتمل المزيد، فبدأ فضولي يتناقص لأني اكتفيت بما أصابني من حيرة عظيمة!. كنت قد لاحظت منذ وقت طويل أنه لم يمس كأسه أبدا، بعد آخر رشفة فبق يت القنينة نصف مملوءة! ترى هل كان يريد أن يحتفظ بوعيه لكي يستطيع أن يقول الحقيقة كما يدعي؟ أم ليزيد حيرتي ويجعلني أتخبط لغرض ما في نفسه؟! قلت بتردد:

ـ في الحقيقة، أنا لا أعرف ما الذي يمكن أن أقوله!.

ـ لا تقل شيئا، بل اسمع فقط، أنا لا أريد أن احمل الشعب ذنوب حكومته، وإن انتقدته لما حصل في الماضي، فأنا اعرف أن الشعب، أي شعب، يمكن أن يرجع عن غيه ليعود سويا كبقية الشعوب، ولكن الذي تفعله حكومتنا سيجعل التاريخ يصمنا بالعار إلى الأبد لأنها تمثلنا نحن في عيون الآخرين، وهذا لن يذكر في التاريخ بكل تأكيد،لأنه لن يقول إن حكومتنا العتيدة كانت لا تمثل العرب أبدا، لأنها في الحقيقة خادم الشيطان!!! هل تريدني أن أحدثك عن أعضائها؟ هل تريد أن تعرف من منهم كانت له علاقة بتجارة المخدرات، أو عالم الجريمة؟ هل تريد أن احدد لك من تخرج منهم من دهاليز النوزاد ؟ ومن تورط بجرائم قتل سياسية غامضة؟ أوه، لا، إن هذا الحديث سيطول وأنا قد اخذ التعب مني مأخذا كبيرا، أواه لو تعرف كيف مأر " جاد " بين العالمين؟ ليتك تعرف أية رسالة إنسانية يوصلها إليهم؟ أنا لا أستطيع أن أبين لك كل الحقائق حتى إذا كنت اعرفها! وأنا لا اعرفها كلها، ولكن ألم تلاحظ يوما أن أية أزمة داخلية يواجهها نظامنا تعني أن حربا ما تلوح في أفق الدول الأخرى؟! أما عن الأسباب المعلنة لهذه الحروب، فإن حكامنا لن يعدموا وسيلة لافتعالها!. أنت لا تعرف مبدأ تصدير الأزمات بكل تأكيد، ولكن صدقني إن هذه هي إنسانية حكامنا، بل يجب أن أقول حكامكم، لأنهم لم يكونوا يوما حكاما لي. وعلى ذكر المبادئ فإن لهم الكثير من النظريات والمبادئ التي تشي بالشر الذي يمثلونه! فهم يتبجحون بمبدأ حافة الهاوية مثلا، لأنه يحطم أعصاب خصومهم، فيبدون كرجل طويل القامة ومتين البنيان، يفرح عندما ينجح في بث الخوف في نفس طفل صغير لأنه يرى في هذا دليلا على قوته!!! ولا تهمهم حقيقة أنهم بهذا يضعون العالم بأجمعه على شفير حرب عالمية لا تبقي ولا تذر ، في كل يوم!!!. لقد عاث عملاء جاد في الأرض فسادا وجعلوا حياة معظم شعوب الأرض غير محتملة! وليتهم خدموا بذلك شعبهم وجعلوا حياته أفضل! بل كانوا يبثون شرورهم من اجل عيون الشيطان!. فهم مثلا خدموا حكومة جمهورية سان هنري أكثر مما خدموا شعبهم بكثير.

ـ وما حكاية جاد مع سان هنري هذه؟!

ـ إنها أكثر من حكاية لو تدري، ولكنك لا تدري! إنها علاقة وثيقة ووشائج لا تفصم. فعملاء جاد يبذلون قصارى جهودهم لجعل حياة جمهورية أسكتلندا جارة سان هنري الشمالية ودول جزيرة سان باتريك، أوليستر ولينستر ومونستر ، لا تطاق، وهم يبذلون جهودا جبارة لمنع توحد الدول الثلاث، رغم أن وحدتهم حتمية! خدمة لحكومة سان هنري التي تريد ذلك بسبب أحقاد عرقية ودينية عفا عليها الزمن، ولكن هذه الحكومة العنصرية لا تريد أن تنسى!. صحيح أن هذا الضعف والتجزئة يصبان في مصلحة (شجم) التي هي شركة الجبت المتحدة، العربية كما تعرف، ولكن،

ـ ولكن، ما دخل شجم بما يحدث هناك؟!

ـ آه، أنت لا تعرف، مرة أخرى! ولكن لا بأس فقد تعودت أنا على ذلك، أن شجم يا سيدي هي الشركة التي تحتكر تجارة الجبت، هذا المعدن الثمين الذي شاء حظ هؤلاء المساكين العاثر أن تكون معظم احتياطاته موجودة في أراضيهم وفي جبال أسكتلندا الوعرة ولذلك تلتقي مصلحتها بمصلحة سان هنري في أن تكون هذه الدول متفرقة لكي تبقى عاجزة عن استغلال ثرواتها بنفسها، ولكن كل هذا لا يبرر الظلم الذي حاق بتلك الدول الصغيرة، تصور أن من حق سان هنري الطبيعي أن تنال كل التسهيلات التي يمنحها المصرف الدولي للدول في الوقت الذي لا يقدم فيه لتلك الدول التي يشقى مواطنوها طوال عمرهم من أجل زيادة ثرواتنا، غير ما يسهل حصولها على منتجات استهلاكية تثقل كاهل اقتصادها الضعيف أساسا، وينصحها بمشاريع صناعية صغيرة تبقى خاضعة لمنتجاتنا المتطورة. تنال حكومة سان هنري القروض الدسمة التي يقدمها لها صندوق النقد الدولي وتسددها عنها دولتنا فيما بعد، أو تطفأ! فيما لا تنال تلك الدول على غير المؤامرات التي تهز اقتصادياتها وتزعزع مجتمعاتها. تنتهك حكومة سان هنري ما يحلو لها من حقوق الإنسان، وتدين جمعية الرفق بالإنسان الأيرلنديين!.

ـ تقصد منظمة المغفرة الدولية؟.

ـ مهما يكن، إن التسميات هنا لا تعني شيئا فالمهم هو ما يحدث هناك من أعاجيب أمام أنظار المجتمع الدولي ولكن لا أحد يحرك ساكنا! أتدري لم تتصرف هذه المنظمات الدولية بهذا الشكل المتناقض؟

لم أجبه بشيء بل هززت برأسي فقال:

ـ لأنها بكل بساطة انبثقت من دهاليز هذا النادي ومعظم مسئوليها، إن لم يكن كلهم أعضاء فيه، ولكن أغرب هذه المنظمات جميعا هي ما يسمى بمنظمة التجارة العالمية، لصاحبتها الحكومة العربية، إن هذه المنظمة تضم معظم دول العالم ولكنها لا تعمل إلا من أجل مصلحة هذه الحكومة المالكة، التي لا تمثل شعبها، وكيف تمثله وهي لا تمثل حتى نفسها؟! إن منظمة التجارة هذه تعني بكل شؤون التجارة العالمية وتنظم قواعدها، وهي تعني حتى بتجارة الأقراص المرئية وبرامج الحواسيب الثقافية، أو تدري لماذا؟، لأنها تريد أن يبقى النموذج العربي مفروضا على العالم، وبهذا الإشراف المباشر تضمن وأد محاولات طرح أفكار تناقض طروحاتنا اللاإنسانية من خلال هذه الأقراص.

سكت لكي يسترد أنفاسه التي بدأت تتسارع بسبب الحماسة التي كان يتكلم بها طوال الوقت، ثم قال:
ـ إن حكومتنا تبذل جهودها لضم كل دول العالم، من غنية وفقيرة إلى هذه المنظمة، وهي تنجح في ذلك باطّراد، ولكني أعجب لحال الدول الفقيرة التي ترضى بالانضمام! فما هو الذي تتوقعه منه؟ أتتوقع أن تقدم لها الدول الغنية ما يحسن من ظروفها؟ والله إن دخول إبليس إلى الجنة لهو أقرب إلى التحقق من هذا الأمر! لأن هذه الدول لن تلقى هناك إلا المزيد من الاستغلال.
سكت فجأة، ثم ابتسم وقال:
ـ هل لاحظت أني قد ذكرت الجنة قبل قليل رغم أن الجحيم هو مكاني المفضل في الآونة الأخيرة! إن هذا قد يعني،
سكت مرة أخرى وبدا وكأنه يحاول أن يتذكر شيئا معينا! عندما رأيت أنا ابتسامته ذهلت!!! فقد كانت ابتسامة جميلة! بل رائعة أضاءت ملامح وجهه الجميل!!! فتساءلت في سري عن السبب الذي يمنعه عن الابتسام كما يجدر له بدلا من السماح لبشاعة أفكاره بالسيطرة على وجهه الكئيب؟! قال هو مغيرا الموضوع بشكل مفاجئ:
ـ عالم أعاجيب هو العالم الذي يصبح فيه الجندي الذي باع أسرار بلاده إلى أعدائها، بطلا وطنيا، بعدما كاد يعدم بتهمة الخيانة العظمى!!!.
ـ ومتى حدث ذلك، وأين؟!
ـ أما متى، فإن هذا غير مهم، لأن المهم هو أنه قد حدث، وأما أين فهذا هو العجيب، لأنه حدث في بلد أعاد صياغة المبادئ الإنسانية في حينها، فأعطى الحرية معناها الحقيقي وصبغتها الحديثة.
ـ عجيب، ومتى كان معنى الحرية أن يعدم شخص لأي سبب كان؟!
ـ ومن تكلم عن الإعدام؟ أنا فقط أتساءل إن كانت الحرية تعني أنه من حق الإنسان أن يخون بلاده؟! أو أن تتراجع دولة عن قرار شرعي أصدرته محاكمها بحق خائن إكراما لعيون الغرباء
الذين اجبروها على ذلك؟! وفوق ذلك ترتضي أن تخنق حرية واحد من أبرز مثقفيها لأن كتاباته لم تعجب أقارب ذلك الجندي، وهي مركز شعاع الثقافة في عالمها ورائدة الحرية فيه!!!.
ـ ولكن! ما الذي يجعلك متأكدا أن ذلك الجندي كان خائنا بالفعل؟!
ـ أنا والله لست بمتأكد، ولكني أشعر أن الأمر كله مريب، وإن هدف تلك الحملة كان أخبث وأبعد من مجرد محاولة تبرئة ساحة إنسان مظلوم. يا وابق، إن اتهام إنسان بما لم يفعله أمر وارد وقد حدث مثله في كل زمان ومكان، ولكن، لم هذا الكم الهائل من الناس الذين أتوا من كل حدب وصوب للدفاع عن هذا الشخص بالذات؟!، ولم أصبحت قضيته حديث عصرها وم ا تز ال أصدا ؤها تتردد في كثير من الأوساط؟!. هذه قضية رجل واحد فقط وبراءته مشكوك فيها، ولكن، فليذهب إلى الجحيم، ليكن بريئا، لا بأس، ولكن لم لا ينبري أولئك السادة الكرام الذين سارعوا للدفاع عنه الآن ليردوا الظلم عن الملايين

التي تتعذب في أيرلندا واسكتلندا لتستخرج الجبت، فتأخذه شجم منها بأبخس الأثمان، ثم تعمل بعد ذلك على تصدير الموت الزؤام لها!!!.

ـ ها قد رجعنا إلى شجم!!! ولكن من أين لشركة ومهما كبرت مثل هذه القوة الهائلة؟!

ـ إنها ليست قوتها لوحدها، بل هي قوة كل الشركات الاحتكارية في العالم لأنها لا تعمل إلا مجتمعة، ولسبب بسيط، لأن رؤوسها جميعا موجود ون هنا، في هذا النادي، وهم أناس خطرون جدا ولا حدود لسلطاتهم وقدراتهم، ولا تتصور يوما أن حربا تقوم في عالمنا هذا لا يكون لشركات صناعة الأسلحة دخل فيه، فهل تتوقع أنها تستطيع ذلك بفضل قوتها وحدها؟ كلا يا عزيزي فالأمر أعمق من ذلك بكثير، وحتى الحروب الاقتصادية لا تشن إلا من هنا، وخذ دولة جاوة واقتصادها الذي انهار مؤخرا، مثلا، ألم تسأل نفسك، كيف يمكن أن يزدهر اقتصاد بهذا الشكل المذهل، ثم ينهار هذا الانهيار الفجائي المريع؟! إن كنت قد فعلت، فإليك الجواب، وهو بكل بساطة أن أحد أعضاء هذا النادي بادر إلى ضخ مليارات عديدة إلى مصارف هذا البلد الذي كان ينمو ضد رغبات أعضاء النادي، فزاد هذا من تعجيل عملية النمو مدة، ثم سحب هذا الشخص ملياراته فجأة! فأنهار كل شيء!!!. إنهم وحوش كاسرة ولن يتخلص العالم من شرورهم إلا إذا عرف بوجودهم كمرحلة أولى ومن ثم الاتحاد ضدهم، ولكن المشكلة تكمن في أن لا أحد يصدق بوجودهم لأنهم حولوا أنفسهم إلى أشباح أسطورية!.

ـ ولكن! من هم هؤلاء؟!.

فاجأه سؤالي فألتفت إلي ورمقني بنظرة غاضبة أكون كاذبا لو ل م أذكر أنها قد أخافتني وهلة! ثم قال بيأس:

ـ إذا، أنت لم تفهم في النهاية!!! إنهم يا مسكين الذين يبيعون لحوم الحيوانات المقتولة إلى أبناء جنسها ليأكلوها، إنهم الذين يجمعون أقوات الحيوانات الأخرى، التي وهبتها لهم الطبيعة، ليبيعوها لهم عندما يجوعون، إنهم الذين يخدعون العالم فيجعلونه يقاتل نفسه، لكي يكنزوا هم الأموال ويكدسون الثروات التي تؤمن لهم تحقيق أحلامهم السادية، الشاذة المقيتة.

سكت وقد بانت على وجهه علامات تعب هائل، ولكنه كان بكلماته الأخيرة قد أنقذني من حيرتي، لأني تأكدت بها أن كل ما قاله كان مجرد خيالات رجل مريض!!!، فهو كان قد بدأ حديثه بأسطورة، وهاهو ينهيه بها! فكيف أصدق كلامه؟! عندها شعرت بالخجل من نفسي لأني سمحت له بان يؤثر بي كل ذلك التأثير، مع أن الأمر كان واضحا منذ البداية!!!.

لبثنا دقائق نجلس متقابلين ولكن بصمت!. كانت إمارات الكآبة الحادة قد بدأت بالتغلب على ملامحه عندما شعرت بالشفقة عليه! أردت أن أشغله عن أفكاره المجنونة التي قد توره موارد الهلاك، فرحت أبحث عن موضوع أبدأ به نقاشا من نوع آخر معه، فلم أجد أمامي سوى أن أقول له:

ـ عفوا يا سيدي، ولكن أتعرف من الذي كتب كلمات نشيد النادي الجميل؟.

هالتني نظرة الاشمئزاز المفاجئة التي رماني بها!، وقبل أن أفهم السبب، دفع المائدة بيده لتتسابق قنينة الخمر مع الكأس في رحلتهما باتجاه الأرض قبل أن يتهشما إلى مئات القطع!. نهض ليبتعد عني من دون أن ينظر إليّ وكأني لم أكن موجودا! لم أتحرك من مكاني فورا بل بقيت جالسا هناك في ذهول!، ولكني عندما تنبهت على العيون المحدقة بي من الطاولات الأخرى، شعرت بإحراج شديد جعلني أنهض على الفور لأغادر القاعة بخطوات متعثرة!!!.

****

لم أره بعد ذلك أبدا، ولكن أقواله م ا تز ال تقض مضجعي بين حين وآخر، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت وأنا أكتب هذه الأسطر!!!.

م ا يز ال هناك الكثير مما أريد أن أقوله، ولكني لا أستطيع أن أواصل الكتابة الآن لتشوش ذهني وإحساسي بالتعب الشديد، ولذلك سأتوقف، وستكون لي عودة إليها فيما بعد، أما الآن فسأقرأ تلك الأوراق القديمة التي تبدو وكأنها مخطوطة رواية!. بالأمس أعدت ترتيبها، فاكتشفت ضياع بعض الأوراق، ولكن لا بأس، فأنا يجب أن أقرأها لأنها وثيقة تاريخية بالفعل لأنها كانت قد كتبت في عام 2000م! أي قبل ألف عام، وهذا شيء مذهل حقا!!! ترى؟ هل توقع كاتبها أنها يمكن أن تقرأ بعد ألف عام؟!.

ما هذا يا أستاذ؟ استعنت بأوراقك لكي أزيل حجب ما غمض علي من أمرك، فإذا بها تزيد الغموض غموضا!!! لم استمعت إلى هذا المجنون؟. ثعالب وضباع!!!، ما هذا الهذر التافه؟! أما كان بإمكانك أن تبتعد عنه وتستمتع بما نلت؟. نادي أورشليم!!! يا للروعة، لقد نلت المجد من جميع أطرافه بانتمائك إليه، فلم فرطت بكل شيء؟! ولكن! ما الذي حدث بالضبط؟! أنا لم أفهم شيئا بعد! فهل يكمن الجواب في هذه الأوراق الصفر المغرقة في القدم؟!، ولكن هذا يعني أني يجب أن أقرأها لكي أعرف الجواب!!! اللعنة، فهي كثيرة جدا وهذا يعني المزيد من الجهود المضنية التي يجب أن أبذلها لفك طلاسمها!!!. ولكن لم المكابرة؟ فأنا لا أستطيع التصرف وكأني لست معنيا بالأمر، بل يجب أن أجد الجواب، ومهما كان الثمن! اللعنة على فضولي الذي وضعني في هذا الموقف. ولكن لم التذمر وتضييع الوقت؟، لأبدأ بقراءة هذه الأوراق التاريخية كما يقول أستاذ واثق، ولنر ما يقوله هذا الكاتب الأثري؟!.

(شكوى)

خائنة هي الكلمات
منحتها صداقتي، فأعطتني أوهاما!
وهبتها عمري فبادلتني كلاما!

في مملكة الكلمات ترعرعت
وما كان ارثي منها سوى كلمات مخادعة،
مراوغة، لا تصدق إلا لماما.
من ضرع أمهاتها رضعت الحروف
ومن رموزها المبهمة استعرت خيالات طفولتي
وبين اسطرها كان مراحي
وصفحاتها كانت مسرحا لأولى أقاصيص حبي
ومعها ذبت عشقا وغراما
ولكنها في كبري أورثتني هموما
غادرة هي الكلمات
وأحرفها، بطبعها الكذوب تقطر سما.

لم اسأل يوما كلمة، عن أصلها
ولا تحريت عن كيفية صرفها،
من قيود النحو حررتها
ومن نفح الروح جعلت مدها وقصرها
ولكن خائنة هي الكلمات
تعطي قيادها لمن تهوى
ولا تعطيه لمن يهواها!.

أطعمتها أحلى أحاسيسي
سقيتها من سيول مشاعري
أسلمتها رؤاي، آمالي، وآلامي

حلمت ببنى رائعة، نابضة بالحياة
ولكنها فجعتني بأطلال هزيلة!
نافرة الحروف! ناضبة الحياة!
اسألها، أين أفكاري؟
أين هواجسي؟ أين أحلامي؟
تتناثر على صفحات الأوراق، تتجاهلني!
يتشبث مدادها بالأسطر، يناكدني!
أطالع عواطفي جملا مشوهة، ومسوخا عاجزة!
استعطفها، فتصر على شحها وخداعها
فلا يبقى أمامي إلا أن اصرخ
خائنة هي الكلمات

هزيلة، ركيكة، جامدة هي كلماتي
ولكني إذ أضعها أمامكم، أقول:
لا تهتموا لرثاثة جملي
ففي الأبدان الناحلة، الهزيلة
تكمن أحيانا، اصدق المشاعر
وأنقى القلوب

(إعدام تردد)

اليوم سأقوم بما كان يجب أن أقوم به منذ زمن بعيد، اليوم سأنهي ترددي الذي طال أمده وابدأ خطوتي الأولى. لقد عافت نفسي حديثي المستمر معها، وآن لي أن أتوقف عن مناجاة ذاتي وتعذيبها، ولذلك سأبدأ بتدوين كل ما يجب أن أدونه، و أتوقف عن القلق بشأن ما يمكن أن يحدثه هذا من ردود فعل سلبية لدى الآخرين. سأتجاوز كل الخطوط الحمر، وسأدخل كل المناطق المحرمة وليكن ما يكون، فالمهم هو أن تنجح عملية الكتابة القيصرية. أنا لا أريد شيئا غير البوح، فقد طال الكتمان وكبس السكوت على أنفاسي، ولكن لكي أكون صادقا يجب أن اعترف، بأني لم أكن يوما بالرجل الصامت، فأنا أجيد الكلام، وأتلذذ به، رغم التأتأة التي تصيبني عندما افقد التركيز أحيانا!، ولكن علمي ليس خير العلوم لأنه لا يحضرني دائما عندما احتاج إليه في أحاديثي، ولذلك آثرت أن احشد قواي كلها في الكتابة وأن أتحدث إليكم من خلال قلمي.

لقد كنت ابحث دوما عمن يصغي إلي بأذنيه، ولكني لم احظ طوال عمري إلا ب أذن واحدة كل مرة! ومن استمع إلي بأذنيه أقام عقله سدا بوجه ما أقول! وأنا اعرف بان هذا سيكون حالي مع أغلبيتكم حتى إذا ما بحت بكل ما أسرّ من خلال هذه الأوراق، ولذلك أقول لكم، لتفعلوا ما تريدون فأنا قد بدأت الصراخ ولن أتوقف بعد الآن. سأكتب ما أريد من دون التزام بقواعد وسأرتكب من الأخطاء النحوية والإملائية كل ما سيقدر لي ارتكابه لان أمر اللغة وقواعدها التي طالما عذبتني محاولات الإلمام بها أكثر لم يعد يهمني، فالمهم الآن هي الفكرة، والفكرة فقط، سأكتب بالطريقة الوحيدة التي اعرفها، وليذهب النقاد إلى الجحيم، وليحتفظ القراء بآرائهم لأنفسهم، لان القائد في هذه الصفحات هو أنا، ومن كان يبحث عن أسلوب معين فليذهب ويقرا كتابات غيري، ومن كان يبحث عن مرآة لأفكاره هو، فدونه آلاف الكتاب الموجودين بالفعل، لأني أحذركم بأني لن أجامل أحدا منكم هنا.

أنا أخاف الموت لأني اجهل ما هو، ولكنه عندما يسيطر على أفكاري فإن أكثر ما يحزّ في نفسي في حينها، هو فكرة أن أموت قبل أن أقول كلمتي، ولأني أخاف أن يُدفن صدأ أفكاري معي، قررت أن أشرح نفسي واشرّحها لكي أقدمها واضحة لمن يقرأ أوراقي هذه، وهو أمر صعب جدا ويحتاج إلى وقت طويل ولكني ماض في تنفيذ ما قررت، ولا أريد أن أكذب فأقول أن المهم هو المحاولة فقط، لا والله، أنا أريد أن أكتب كما يجب أن أكتب وكما يجدر بخيرة الكتاب، و أريد أن أترجم أحاسيسي وانفعالاتي وأفكاري كما هي بالفعل كلمات على سطوح الأوراق، بل أنا أريد هذا الآن، أكثر من أي شيء آخر في العالم، وهو ما يجب أن يكون.

كنت طوال عمري ع اقّلا لساني، لأني تعودت أن أكون متفرجا أكثر مني مشاركا فيما يدور من حولي، لأني خجول بطبعي، وأفضل الانزواء، ولكن عقل اللسان لا يجوز في أربع كما تعرفون، كأن يكون هناك حقٌ يجب أن يوضح، أو باطلٌ يجب أن يُدحض أو نعمةٌ تُشكر، أو حكمة تُظهر، ولذلك فأنا في سبيلي إلى إيضاح الثلاث الأولى بما اكتبه، وأما ادعائي الرابعة فانه سيُسوّغ إذا ما وُفِقتَ في الإيضاح، وهو ما يقيني شر حفيظتكم التي ستثار عندما أقول أنكم على خطأ في الكثير من الأمور! كما إن هذا سيجعلني في موقف أفضل منكم نسبيا، وهذا مهم لأني لن امتلك حق انتقادكم لو لم أكن أفضل، و أقول مرة أخرى، نسبيا، لأني في الحقيقة لا أرغب في إدانة أحد، كما أرغب في إدانة نفسي، لأني لا أريد أن اشعر بالشفقة عليها (رغم أني اشعر بذلك أحيانا) لان الاستكانة لمثل هذا الشعور هو الطريق الأفضل لانحدار الإنسان، وفقدانه بصيرته. لقد ارتكبت أنا الكثير من الأخطاء في حياتي مثلما فعلتم انتم بالضبط، ولكن شفيعي أني لم تمتلكني العزة بالإثم، أو حاولت يوما ت سويغ خطأ ارتكبته، وان لم انجح في محاولة عدم تكراره أحيانا!!! لأني اعرف أن الم سوغات موجودة دائما، وعندما يبدأ الإنسان بالبحث عنها لتسويغ أخطائه فإنه لن يتوقف أبدا. أنا بكل بساطة أعترف بأني خطّاء، بقدر ما انتم خطّاءون، ولكني أعرف أن أخطاءكم وإن كانت موجودة، فأنكم بلا ريب تمتلكون من بقايا الحكمة ما يجعلكم تعرفون بكل تأكيد بأن الإنسان هو أعجب مخلوقات هذه الأرض! فان كنتم تعتقدون هذا، فأنكم والله على حق، لأنه بالفعل أعجبها وأشدها غرابة، لأن بقية المخلوقات ومهما أبدت من غرابة، فإنها تبقى محدودة بحكم الوراثة، ومهما بلغت تصرفاتها أو مظاهرها من شذوذ، إلا أنها تبقى محكومة بعطاء الطبيعة لها، وإذا ما غمض علينا سبب شذوذها أو غرابتها فلأننا لم نكتشفه بعد، لا لأنها تبلغ من العمق درجة تجعل الكشف عنها عسير ا، لان العمق في هذه الحالة يرتبط بالعقل الذي يستطيع أن يحلل و يستنتج فقط وهو ما لا يمتلكه بغير حدود حتى الآن غير الإنسان، الأمر الذي يعطي للتفاعلات التي تجري في داخله سلسلة غير منتهية من النتائج تبرز من خلال سلوكه وتصرفاته، ولذلك كانت غرابته تفوق الوصف ولا حدود هناك لما يستطيع أن يفعله.

إن علماء النفس والاجتماع إذا ما استطاعوا أن يحصروا معظم الأطر الخارجية لتصرفات الإنسان وخفايا نفسه، ووضعوها في جداول ونظريات وصنّفوها إلى سلوكيات أو أمراض مختلفة تندرج في إطارها معظم التصرفات التي يمكن أن تصدر عن البشر في مجتمعاتهم المختلفة، فإنهم بالتأكيد سيفاجأون دوما بنماذج من تصرفات إنسانية شاذة ترجعهم تلاميذ صغار كما كانوا في بداياتهم، ما دام هناك تطور مستمر يطرأ على البشرية بتنامي خبراتها وتنوع تجاربها!.

أنا أرجو أن لا أكون قد أثرت مللكم بتفلسفي هذا. ولكن!، لم الاعتذار عن التفلسف؟! وأنا أرى أن الفيلسوف هو أعلى الناس قيمة، لأنه يحب الحكمة، وديدنه البحث عن الحقيقة. كان يجب أن اعتذر لعدم تمكني من أن أكون فيلسوفا حقيقيا، كما أريد أن أكون. ثم، لماذا اعتذر منكم؟! وانتم لا تشعرونني إلا بالقرف في الوقت الحاضر؟!. أواه، كيف أهرب من نفسي؟. فأنا لا أريد غير إدانتكم، ولكني لا أستطيع إلا أن أحبكم !!!. بل لعلي أحبكم حتى أكثر مما تحبون أنفسكم؟ أحبكم، ولذلك ألعنكم!. أرفض أن اعتنق أفكاركم، ولكني واحد منكم! و الأدهى من ذلك، أني لا أريد ذلك الآن، ولكني لا يمكن إلا أن أكون كذلك!!!.

أنتم تعرفون بأن الإنسان يولد وهو يحمل من وزر الوراثة ما لا يد له فيه! وفي بيئة لم يخترها! ولأبوين لم يسأله أحد رأيه فيهما، قبل أن يرتضي أن يكونا له والدين. يبدأ حياته طفلا وهو تحت رحمة الحظ الذي يمكن أن يكون رحيما أو قاسيا، وعندما يكبر وتزداد الهوة بين ما يريد وما يجب أن يكون عليه، يولد له الضمير الذي سيبقى يعذبه طوال حياته ويمنع عنه ما يريد من خارج الأطر التي يحددها له الآخرون والمجتمع!. لينشأ وعلى فرض إن الظروف التي تحيط به اعتيادية، وهو ممزق بين أهواء ذاتية وواجبات مفروضة !. ولكم أن تتصوروا ما سيكون حاله إذا ما اعترى الشذوذ معظم العناصر التي تتحكم في نشأته، من تربية وظروف محيطة، وهو تحت رحمة المصادفة التي تهيئ له التجارب التي تسهم في بناء شخصيته!. وثالثة الأثافي، أن الحياة لا تكتفي بكل الإجحاف الذي أنزلته بهذا الإنسان المسكين ! فتضعه وحيدا في مواجهة ذلك الأمر الهائل، الذي يسمى قدرا!!!. حسبكم، فأنا أعرفكم جيدا واعرف أن ألسنتكم سيوف مشرعة، لأنكم تجيدون الانتقاد، رغم أنكم، ويا للعجب، لا تتحملون نقدا ! وقبل أن تشهروها علي، وتتهموني بأني أريد أن أبدل جلدي، أقول أني قد أدمنت أن أكون أنا، ولن أغيّر ذلك حتى لو حدث المستحيل، و أعطيت حق الاختيار من جديد. ولكن، ما هذا الذي افعله؟! فأنا كنت قد قررت أن لا أقع في شرك التبسيط خوفا من الضياع في متاهة التفاصيل، وها أنذا أسهب و أهذر، لكي اشرح لكم ما أريد قوله!!! عذرا يا أحبتي، اسمحوا لي بأن اطلب منكم أن تذهبوا إلى الجحيم إذا لم تفهموا ما أريد قوله، لأن المهم الآن هو أن أقول، لا أن تفهموا، لأنكم إذا ما أردتم آن تفهموا، فإنكم ستستطيعون، حتى إذا كان الاقتضاب مذهبي في الكتابة، ولكنكم لن تفهموا لأنكم لا تريدون، ولذلك لن أطيل، بل أقول إن جميع المخلوقات على سطح هذه الأرض ما عدا الإنسان، لا تمتلك من العقل إلا الحد الضروري للتعامل مع رموز وجودها بالطريقة التي تكفل لها البقاء والاستمرار، فيما يمتلك هو الوعي النابع من الفهم والتحليل

والاستنتاج القائم على التريه، وهذا الوعي هو الذي يقوده إلى محاولة النفاذ إلى صميم تلك الرموز ليفهمها ويحلّ بذلك لغز وجوده، وهذا هو بالضبط ما يولد أزمته المستديمة!!!.

(مقال سياسي)

لقد أردت أن ابدأ كتابتي، بالحديث عن الحدث الذي آلمني وهز كياني فانهمرت بسببه المشاعر والأحاسيس التي جعلتني اكتب الصفحات السابقة بطريقة غير لائقة أحيانا، لأن الاضطراب الذي تسببه الانفعالات العنيفة يجعل من أمر التعقل شيئا غير ممكن، ولكني منذ الآن سأحاول أن أكون أكثر تعقلا لكي أستطيع بيان ما أريد قوله بأفضل شكل ممكن وأنا أع ي جيدا بأن هذا لن يكون، إلا إذا ما وفقت في استخدام مبدأ المنظور في سردي للأحداث!.

إن استخدام المنظور في الفن، وخاصة في الرسم، اختراع غربي! وأنا لا اعتراض عندي عليه، رغم أني لا افهم لماذا يجب على الرسام مثلا أن يلتزم بالمنظور، رغم انه يعبر برسمه عن انفعالات وأحاسيس داخلية ورؤى شخصية لا علاقة لها بالمحسوسات العقلانية أحيانا؟!! والكتاب الغربيون يعبرون عن إحساسهم بالمنظور في كتاباتهم، بأن يبد أوا باللحظة الراهنة ويرسموا مسارا خفيا للزمن يتميز بحركة نابضية ما بين الحاضر والماضي حتى يتوقف منظورهم عند نقطة التلاشي في النهاية، أما أنا فسوف أناقضهم، لأني سأبدأ من نقطة التلاشي لأبين لكم منظور بلادي بعيني، ومنظوري الشخصي، وارتباطاتهما، لكي تستطيعوا أن تعرفوا مسوغاتي وتغفروا لي هفواتي (رغم أني لن أقدم لكم هذه الخدمة بالمقابل، لأن طوفان المشاعر العنيفة قد جرف كل مقدرة لي على التسامح، ولا مجال هناك للياقة عندما يبلغ السيل الزبى). سأوضح لكم الأمر بمساعدة المنظور الممتد من نقطة التلاشي في الماضي وصولا إلى اللحظة الراهنة، لأني أتصور بأن هذا كفيل بإعطائكم صورة واضحة لما أريد قوله ومن دون اهتمام بالصياغة الفنية فما أنا بعبد للنزعة الجمالية ولا أؤمن بفن لا يرى الإنسان نفسه قيمة عليا!، ولكن قبل كل شيء أريد أن انتهي من أمر السياسة، التي لا بد من الحديث عنها أولا، وهو أمر لو تعرفون عسير وكريه، ولرب سائل منكم يتساءل عن سبب إصراري على الخوض في موضوع اكره الخوض فيه، فجوابا أقول، إن السياسة موجودة حتى في خبزنا وتقتحم علينا أسرتنا الزوجية، فهي توفر لأطفالي حليبهم! وهي التي تمنعه عنهم! هي التي توفر لهم الفرصة للدراسة والتعليم! وهي التي يمكن أن تجعلهم جهلة فارغين! أفيجدر بي تجاهلها وأنا مزمع على وضع الحقيقة، حقيقتنا، تحت مجهر العقل الحصيف (على فرض أني امتلكه بالفعل)؟. كلا بل سأتصدى لها عندما يكون أمر ذكرها لا بد منه، فأنا لم اخترع السياسة، ولم ابتدع شرورها وإنما ولدت وكانت هي موجودة، وسأموت واشبع موتا وتبقى هي موجودة أيضا. سيتهمني بعضكم بالغلو في أمرها، وأنا لا أريد أن أناقشهم، لأن هذا سيحيد بي عن الدرب الذي قررت أن أسلكه بكتابتي، ولكني فقط أريد أن أقول لهم أن التاريخ بعد الآن لن يصنع إلا من خلال كلمات

السياسيين وأفعالهم!!!. بل إنهم بات بمقدورهم أن يغيروا معالم الأرض إن أرادوا! ألا تصدقون ذلك؟ حسنا، إليكم الدليل، كما تعرفون نحن شرقيون،لأن أرضنا تقع إلى الشرق من العالم، ولكن هل تعرفون لماذا تكون دولنا جنوبية! رغم أننا نعيش إلى الشمال من خط الاستواء، في الوقت الذي تكون فيه استراليا مثلا، دولة شمالية؟! الجواب بسيط جدا، لان قادة العالم من السياسيين أرادوا ذلك! وهؤلاء القادة هم الذين وضعونا تحت رحمة السياسة الدولية وتقلباتها في الوقت الذي ابعدوا فيه شعوبهم عن السياسة، بتوفير الرفاهية المبنية على حرماننا بشكل كامل لهم، من خلال تطبيق مهزلة الديمقراطية في الانتخابات! فبدوا وكأنهم يقولون لإنسانهم بذلك، يكفيك انك قد اخترت من يمثل اتجاهك السياسي ويعبر عن رأيك، فكل واشرب وانعم برفاهية الحياة ودع السياسة للسياسيين. وهم رغم ذلك ليسوا بإنسانيين، لأنهم يريدون فقط أن يريحوا أنفسهم من مهمة إفهام أناس عاديين بشؤون السياسة العصية على الفهم أحيانا !!!، وحتى الحرية الكاملة التي منحوها إياهم للتعبير عن آرائهم لامتصاص الفائض من ردود أفعالهم وصمام الأمان الذي ينظم تسرب النقمة غير المحمودة العواقب، فإنها مشروطة بعدم مس أسرار السياسة أو أهدافها. فالغربيون يستطيعون أن يقفوا أمام ساستهم وقادة دولهم ليسبوهم ويهينوهم، ولا يستطيع أولئك فعل شيء، إلا مقابلتهم بابتساماتهم الصفر، وانتم تحسدونهم لذلك، ولكن هل تعرفون ما الذي سيحدث لو حاول أولئك المخدوعون بديمقراطيتهم الزائفة، أن يمسوا الخطوط الحمر لأنظمتهم؟ انتم لا تعرفون بكل تأكيد، لأنكم ستقولون أنه لن يحدث ش يء، لان دساتيرهم لا تحتوي ضمن بنودها قوانين تسمح بإيقاع عقوبة على إنسان لمعتقداته الدينية أو الاجتماعية أو السياسية، وهذا صحيح، ولكنه نصف الحقيقة فقط، لأن الساسة هناك يفضلون الطريقة الأسهل في معالجة هذه الحالات، والمتمثلة في زوال الإنسان الخطر من الوجود!!! وهم خبراء في صياغة السيناريوهات المحكمة لتسويغ هذا الاختفاء!. أنا لا أريد الخوض في تفاصيل معروفة من تاريخهم الحديث، لأنكم تعرفونها مثلما اعرفها، ولكنكم مع ذلك ستعترضون علي لأني أهنت النموذج الأمثل الذي وضعتموه نصب أعينكم وانتم تحلمون بغد أفضل! فانتم تحلمون بالحياة الغربية وتؤمنون بالنموذج الغربي! وأنا لا أريد الآن ان أفاضل بين الحياة في شرقنا، ومثيلتها في غربهم، وجلّ ما أريده هو إدانة السياسة الدولية، واستنكار وصفها بأنها فن الحياة، لأنها لا يمكن ان تكون وجها للحياة، وإذا كانت تمت إلى الفن بصلة، فلأنها فن الموت، موت الأخلاق والقيم المثلى، وفي النهاية موت البشر!!!.

انتم تحسدون الغربيين، وتندبون حظوظكم لأنكم ولدتم في مجتمع لا يؤمن بالديمقراطية الغربية، وأنا لن أداهنكم أو أسايركم، بل سأصرح وبدون خجل، بأني سأرفض هذه الديمقراطية فيما إذا حدث المستحيل وقرر ساستنا يوما أن يطبقوها في بلادنا، لأني لا أرى فيها إلا سبيلا

للتشرذم والضعف (وكأن الفرقة والهوان اللتين نحن فيهما لا تكفينا؟) بل وللاحتراب الداخلي، ولكم فيما حدث في إحدى دويلات المدن عندنا مثل! أو نسيتم الحرب المدمرة التي عانى منها طوال ما يقرب من عقدين من الزمن؟! ألم يكن هذا البلد يتحجج بديمقراطيته المستوردة طوال عمره؟ فما الذي استفاده منها، غير الحرب والتمزق؟!. إن الساسة في الغرب عندما استنبطوا هذا الطريق كانوا يعرفون بأن شعوبهم قد بلغت سن الرشد، أو على الأقل النخبة فيها، أي أنهم اعتمدوا على الكبح الذاتي الذي يمكن أن تمارسه الشعوب على نفسها لكي لا يفلت زمام الأمور، أما الشعوب في الشرق، فإنها ما تزال تعيش عبث الطفولة وأنانيتها، و نخبتنا ما تزال أضعف من أن يكون لها تأثير واضح في مجتمعنا، أو فلأقل، في مجتمعاتنا العربية، لأن هذا هو واقع الحال، ولذلك لن تزيد الديمقراطية دولنا المتنافرة إلا أنانية وتفرقا! وفي النهاية أريد أن أذكركم بأن معظم حكامكم يتم تعيينهم في مناصبهم بقرارات صادرة من كواليس السياسة الغربية! فلا تطالبوا بغير المقرر، ولكن اعملوا على أن يكون التغيير.

(نقطة التلاشي)

بعـــد هذه المقدمة في السياسة، أتصـــور أن الأوان قـــد آن للحديث عن بلدي الذي يقبـــع وسط دول مدن عديدة، تكوّن بمجموعها ما يمكن أن يكون أمة، لولا أنها مجزأة!!!. واستنادا إلى مبدأ المنظور، سأبـــدأ من نقطـــة التلاشي التي هي اللحظة التي نشأت فيهـــا الدولة العربية الكبرى أو كادت، مع ولادة الرجـل المبـــارك الذي استقبلته رمـــال الصحراء المحرقـــة للجزيرة العربيـــة والـــذي شاءت الأقدار ان تكون رسالته السمـــاوية هـي السبب في قيـــام

أوراق مفقـــــودة

وهكذا حدد ذلك القلم الأحمر اللعين، مصير شعب بأكمله، فتشتت بين كيانات سياسية متفرقة في الوقت الذي بدأ شعوره القومي ، يعود إلى التبلور مرة أخرى!!!. وكأن القوى الاستعمارية لم يكفها تقسيم هذا الشعب، بل رسمت من خلال إقامة كياناته المفتعلة صورة مستقبله المظلم، وذلك بزرعها القنابل الزمنية الموقوتة في الحدود التي مزقته لكي تتفجر في الوقت الذي ترتئيه هي، فوزعت الثروات بشكل يثير الحسد والغيرة بين الأشقاء، وركّزتها في أيدي قسم ضئيل منهم، وحرمت الأغلبية منها. حرمت دولا وليدة من المنافذ البحرية مثلا، رغم أنها تستحقها، وأعطت دويلات لا تستحق أن توجد أصلا، كل البحر!. يا ويح نفسي، ما هذا الذي أحاول أن افعله؟ أريد أن أورد تفاصيل المهزلة التي حدثت في غفلة منا، وجعلتنا أضحوكة للعالم!!! أنا اعرف بأن الذي حدث إنما هو حكم القوي على الضعيف، ولكن لم يكن يجدر بنا أن نكون ضعفاء، لو لا أن أجدادنا لم يكونوا جديرين بآبائهم الصناديد الذين أقاموا تلك الدولة المترامية الأطراف!. فمتى تكفون عن اقتفاء آثارهم ؟ ومتى تتوقفون عن الشعور بالامتنان للغرب لفضله علينا! بتعليم المسوخ التي أقامها، كيف تكون دولا حديثة؟!.

في الأربعينات من القرن العشرين، بدأت مراجل الغضب تحتدم في نفوس رجال شرفاء من أبناء الشعب، وعوا الدرس وفهموا خفاياه، فقامت ثورات، ودبرت انقلابات طالت أنظمة الحكم المهترئة في تلك الدويلات، طوال ما يقارب من عقدين، ولكن القوى الاستعمارية كانت تتحين الفرص دائما لكي تقلب الموازين وتخلط الأوراق مرة أخرى، وبطريقة خفية ، سأكون كاذبا كبيرا لو قلت باني فقهت شيئا منها! ولكني فقط اشعر بها. وها نحن اليوم مواطنون في دويلات المدن هذه، غرباء عن بعضنا، تتنافر أذواقنا وتختلف أهوا ؤنا! ندّعي الحضارة وأرواحنا

متخلفة! لا نعرف ما نريد، ونريد ما لا نعرف! نحب من يذلنا ونكره من يحبنا!. أنا لا أريد ان أدينكم لهذا، لأني اعرف بأن المسؤول الأول عن حالنا هذا، هو تلك الأنظمة التي تقود هذه الدويلات التي تتدرج ما بين مشايخ وإمارات وممالك، مرورا بديكتاتوريات وجمهوريات ملكية! وصولا إلى بلدان طبقت النظام الديمقراطي على شعب يعجز عن فهم ابسط مبادئه، فصارت مثل الغراب الذي أراد أن يقلد الطاووس فلم يستطع، ثم نسى كيف يعود غرابا كما كان!، ولكن هلا وعيتم.

إن شر البلية ما يُضحك، ونحن بليتنا تُبكي، ولكنها شر ما يحل بالإنسان من بلايا، ويزيدها بلاء حكامنا، جباة سلاطين الغرب وعيونهم علينا! فهم يراقبون نضجنا، ويحرصون على أن لا ننضج أبدا، لا يخشون منا إذا ما تجاوزنا على قوانينهم، ولكنهم يموتون رعبا إذا ما تصرفنا مرة واحدة بطريقة تشي بالحد الأدنى من الحكمة والوعي! وهم في النهاية مراقبو نفط، يعملون لمصلحة الغرب! ولكني لا أريد أن أتحدث أبدا عن النفط، وإنما أقول فقط، أن هذه النعمة التي يحسدنا العالم لامتلاكنا إياها، إنما هي الحقيقة نقمتنا. حكامنا ملتزمون بالدين، لذلك تراهم أشداء فيما بينهم، رحماء بالأغراب! يسارع بعضهم لنجدة دولة أجنبية مسكينة، لأن دولة عربية تصغرها بثلاث مرات كانت قد اعتدت عليها!!! يجتمعون بسرعة قصوى ليقرروا ضرب أحد بلدانهم، لا لأنهم يرونه مخطئا، بل لان سادتهم أمروهم بذلك! و يحتاجون إلى أكثر من عقد من الزمان لكي يبدءوا و بخجل، محاولات رفع جزء من الظلم الذي وقع على شعبه المحاصر، بإرسال شحنات من الغذاء و الدواء إليه، و كأن الشعوب تحيا بالغذاء و الدواء فقط؟!. حكامنا تعودوا على أن يكونوا مضروبين، وعندما يضرب واحد منهم عدوهم الذي لم يضرب من قبل (أو هكذا رسم الأمر ليبدو!) ، يصابون بالذهول و يحقدون عليه، لأنه اقتحم عليهم أعقار دورهم وسكن في وجدان شعوبهم (التي لربما تكون مخدوعة فيه) !. لم يكن حكامنا السبب المباشر في ضياع فلسطين فحسب، بل كانوا من باع هذا البلد إلى اليهود و قبضوا ثمنه رضا سادتهم عنهم!.

(الغضب الساطع)

فلسطين، يا فلسطين، يا جرحا ينزف عارا، ويا درسا يجعلني أ سوّغ للآخرين عدم احترامهم لنا.أنا لم أشأ أن أتحدث عن فلسطين، و أنا خائض في أوحال السياسة، لان هذه المأساة إنما هي قضية إنسانية، قبل أن تكون قضية سياسية، ففلسطين هي عارنا نحن الذي صار وصمة في جبين الإنسانية. ولأن دموعي التي ستسيل وأنا أكتب عنها، ستكون دم وع ذلّ وهوان، كنت أتمنى لو استطعت أن أتجاهلها، و لكني لن أستطيع أن أقول لكم من أنا؟ إن لم أبين لكم المشاعر المتناقضة التي تثيرها قضية فلسطين في أعماقي، فأنا افهم جيدا لماذا تحتل دولة، أراضي دولة أخرى؟ أو أن تقهر قوة غاشمة، شعبا مسالما وتسومه سوء العذاب؟ لأني أدرك بأن الإنسان كان دائما ظالما ، قاسيا، غير منصف و تسيره أطماعه، طوال تاريخه!، أما أن تجتمع قوى كبرى و تقرر أن تشرد شعبا بأكمله، و وفق أحكام القانون الدولي، من أجل شرذمة من شتات البشر، فهذا ما لم افهمه أبدا!!! و من أين لي أن أفهم، كيف يمكن أن يقتل الأطفال، من اجل الحفاظ على الديمقراطية؟! أو أن تثكل الأمهات، لمجرد أنهن اقترفن خطيئة الولادة في دولة متقدمة ومتحضرة، ولكنها لا تريد لهن أن يلدن، لأن مواليدهن سيكونون متخلفين بكل تأكيد؟!!!.

طوبى للمساكين فلهم ملكوت السماء، هكذا أعلن صوت المسيح الهادر على مر الأزمان، ويبدو إن العالم الغربي الذي يؤمن بكلمة "آمين" لازمة كلامه في الكتاب، يريد لشعب فلسطين أن يحوز ملكوت السماء، لأنه خير من الحياة الدنيا بكل تأكيد، لذلك، فهو يساند إسرائيل بدون قيد أو شرط؟!!! ولكن ما الذي قدمه العرب والمسلمون لفلسطين؟ هل ستبقى التصريحات والشجب هي كل القوة التي يستطيعون إعدادها لعدو الله وعدوهم؟. أنا اعرف بأن صوت فيروز الملائكي سيبقى صارخا "واقدساه" من دون مجيب، ما دام حكامنا جالسين على كراسيهم، ولكني وبكل وعيي بالتناقض الذي سأعبر عنه بقولي هذا، أقول، أنا على يقين، من انه سيكون هناك من يعانق الكنائس القديمة ويمسح الحزن عن المساجد، ما دام هناك أمل بقدوم الغضب الساطع، رغم أني سأحدثكم كثيرا فيما بعد عن الحب ومدى أهميته في حياة البشر لأنه المطلق الوحيد فيها!!! ولكني لن أخجل من تناقضي هذا، لأني على يقين من أن السيد المسيح نفسه لو عاد الآن لما ظهر إلا غاضبا، كحاله يوم قلب موائد الصيارفة، ومقاعد باعة الحمام، وطرد الباعة من ساحة الهيكل، وهو وإن لم يحمل سلاحا، فإنه لن يطلب هذه المرة من الرجال الذين سيقاتلون من اجل رفع الظلم عن البطاح التي احتضنت مهده، إن يديروا لعدوهم خدهم الآخر.

(فما لك يا قلمي لا تنفث نارا تحرق الأوراق؟ وما لغضبي لا ينفثئ، أو يحرق ما حولي؟ أهو عجزي الذي يجعل أعاصير غضبي، زوابعا في فنجان؟ أم هو جبني الذي يجعل نيراني تحرقني، بدلا من إحراق الظالمين؟. يا أيها القلم اللعين، ما لكلماتك تبدو هادئة ومسالمة؟ ألا ترى إن الحرب هي القاعدة في كل مكان؟، وإن الحياة لمن يتقن استخدام جميع أنواع الأسلحة؟ فمالك لا تنطقها حامية يا أيها الجاحد، ولتحترق الأوراق حتى إذا كانت لم تقترف ذنبا؟ فأنا أيضا لم اقترف ذنبا، ولكني احترق!، هيا ألهب ظهرها بسياط كلماتك الحانقة، ودنس بياضها بحقد مدادك، دنسها، عذبها واحرقها، كن جانيا، ولا تكن مثلي مجنيا عليه. ولكن، لم أحملك ما لا طاقة لك به ؟ فأنت صابر مثلي، لأني تعودت أن أكون مظلوما، ولا أريد أن أصبح ظالما!!! جبان أنت الآخر، وتافهة هي كلماتك. أنت ملعون، وملعون من أراد أن يعبر عن نفسه من خلالك فاسكت. أما أنت يا مدافع الحقد فأهدري باركتك الأبالسة، أهدري وقوضي أركان عالم لم يعد فيه للمحبة مكان، وأنت يا أمواج الرعب فيضي على الشواطئ القاحلة، فمن غير ضرع الخوف لن يرتوي إنسان. هبي يا رياح الغضب وليخترق صفيرك صمم الذين لا يسمعون، هبي ولتهطل أمطار الحنق العظيم لتغسل وجه الأرض التي خنقها الظلم، لكي تنبت أغراس العدل زاهية متينة. ظالم من ظلم الآخرين، والأظلم منه، من تقبل الظلم صاغرا، مستكينا، لأنه لا خير في عالم معظم أفراده ضحايا خاشعون).

أنا أؤمن بأن المحبة يجب أن تسود هذا العالم، ولكن هلا دلتني إنسانية المعترض منكم على ما سبق من كلامي، على درب يزيل الظلم الذي طال أمده، غير درب الحقد المقدس!!!.

إياكم أن تتحججوا أمامي بعدد الشهداء الذين قدمتموهم لقضاياكم، فانتم لم تقدموا شيئا، وكانوا هم الذين قدموا لكم كل شيء ببذلهم أرواحهم، ولا حاجة بي إلى القول بأني لا اقصدهم عندما أتحدث عن جبنكم، فهم قيمة سامية لا تمس، كما لا اقصد أخياركم عندما اذكر شروركم. أنا أخاطبكم اليوم لأني اشعر بان أوان التغيير قد أزفّ، وهو الكفيل بتقليل خسائرنا وزيادة مكاسبنا، أنا أتحدث عن التغيير الذي إن لم يحدث، فان جحافل شهدائنا سوف تترى إلى ما لا نهاية، ولكن من دون جدوى، وليقع ذنب إحباط فعل البذل العظيم الذي فعلوه، علينا. أنا لا أنصحكم بأن تقولوا عني بأني مجرد بائع كلمات آخر، لأنكم ستكونون عندها كالغراب الذي يعيّر غرابا آخرا بوجهه الأسود! فأنا اعرف ذلك، وأنا حزين لأجل امتنا التي تكالب عليها شعراؤها المسترزقون، حتى انقصوا عدد مقاتليها. أنا اعترف بأني جبان، ولكن، لم تكونون مثلي؟ لِمَ تقلدوني أنا في ذلك، ولا تقلدون أجدادكم العظماء؟ إن لكل أمة، بطلا قومي ا تبجله وتحله في نفسها محلا هو للتقديس أقرب، وأمتنا لها من الأبطال، ما لا يعدون أو يحصون،

وحرام أن نكون نحن ورثتهم . أنتم يا سادة تغيظوني في هذه اللحظات، وتكادون تجعلو نني أخرج عن نطاق حدود اللياقة والأدب لأستخدم مخزوني من الشتائم والسباب، وهو مخزون لو تعلمون كبير؟ ولكن لم التساؤل وانتم تعلمون بكل تأكيد، فنحن جرعنا معا تفاهة الجهل الذي عمّ دنيانا اليوم؟!. ولذلك لن أسب وأشتم لأنكم تستطيعون ذلك مثلي، بل سأطلب منكم أن تساعدوني على الالتزام بحدود الأدب، بسماعي، وإن أثرت مللكم، أو قرفكم، بما سأقول؟ فتذكروا أنه ليس ذنبي إن جعلتم مجتمعنا يقف في منزلة هي دون المنازل التي كان يجب أن يقف بها، وهو الذي يمتلك ذلك الرصيد الهائل من التراث الحضاري، ولكن مأساته هي، أنه عاجز عن إدراك حقيقة موقفه!!! أنا اعرف بأن هناك مجتمعات كثيرة، هي دون مجتمعنا حضاريا واجتماعيا، ولكن هذا لا يمكن أن يرضي غرورنا، لأننا نحن من تو افرت لمجتمعهم كل العناصر التي تجعل منه مشروعا لدولة كبرى، فأين نحن الآن من تلك الدول؟!.

أنا احمد الله لأني لا أخاطبكم في هذه اللحظات خطابا مباشرا ! فأنا منفعل جدا وعندما أتكلم وأنا على هذه الحال أتلعثم، وتختلط علي الأمور، و الأدهى من ذلك، يمكن أن انفجر باكيا عندما يشتد انفعالي، وأنا لا احتمل مظاهر السخرية التي ستظهر على وجوهكم وانتم ترون رجلا يبكي كالنساء !!! ولكن ليس هذا فقط مبعث حمدي، فأنا لا أريد أن أتورط معكم في نقاش! لأني وعيت الدرس جيدا، وعرفت بأن نقاشاتنا لن تزيدنا إلا فرق ة!!! لأننا لا نتبع المنطق فيها، ولا نحكم العقل فيها، إنها مجرد ملاسنات تافهة تعبر بوضوح عن شخصياتنا المتناقضة وغير المتزنة! ولو أردنا عدم الاحتراب، لوجب علينا الاكتفاء بنياتنا، والابتعاد عن خطر المجادلات. أنا لا أريد أن أناقشكم، لأني اعرف جيدا طريقتكم في النقاش، أقول لكم "نحن"، فتقولون بدونية، "أنظر إلى الغرب، وكيف يعاملون هناك إنسانهم بكل احترام" ؟! فأقول لكم، "تعلموا منهم إذا"، رغم أني لا أتصورهم أبدا خيرا منا، ورغم إعجابي بعقلهم، فتقولون بصلافة ومكابرة فارغة، "وما بنا ؟ نحن أحسن من الغربيين لأنهم يتناسلون كالحيوانات فيما نحافظ نحن على شرفنا من خلال عفة نسائنا"!!! أي شرف؟ وأية أخلاق؟ فنحن يحق لنا أن نكذب وأن نسرق وأن نزني بمن نشاء من نساء العالمين، لأننا سنبقى شرفاء ما دامت فروج نسائنا محمية في حرزها الحريز!!!. تقولون "بئس القوم أعداؤنا، فهم فاسقون"، حسنا، أنا لن أناقشكم في ذلك، ولكن ماذا عنا، ونحن بعد إيماننا، نسخر من بعضنا ونلمز أنفسنا ونتنابز بالألقاب؟!. أنا لا أريد أن انتقد خطأ شائعا بينكم علانية! لأني اعرف بأنكم ستدافعون عن أنفسكم بالقول بأن هذا ما رأيتم آباءكم عليه، فهل يعقل أن يكون آباؤكم الحكماء على خطأ؟ وأنا لا أستطيع أن أرد عليكم بالقول بأن آباءنا الكرام لو كانوا على صواب، لما وصلنا إلى ما نحن عليه من وضع لا يسر، لأن خجلي سيلجمني ويمنعني عن قول ما لن تتقبلوه مني بكل تأكيد. ولذلك أتيتكم متمترسا بأوراقي هذه لكي اطلب

من أولي العقل منكم أن يكفوا عن وزن الأمور بعواطفهم فقط، ولكي اصرخ في وجوهكم " أما حان وقت إعادة الحسابات؟ "، سأبحث، وأنا ارتحل معكم عبر سطوري، عن الشرفاء منكم، والعاقلين، لكي أدينهم لأنهم اعتزلوا الناس!، سأسألهم " ما لصوتكم قد اختفى؟ " و" لماذا تركتم مواقعكم للرعاع وتنازلتم عن واجباتكم؟ ولكني لن انتظر جوابا، بل سأقول كل ما عندي قبل أن ارحل، وإذا ما أخطأت في بعض ما سأقول، فذلك لأني أنا أيضا نتاج لمجتمعكم، أو لستم أنتم أهلي وإخوتي؟!.

(درس في التربية الوطنية)

كنت قد قلت باني سأتحدث عن بلدي بالتحديد، ولكن غضبي وأنا اجترّ كل مآسي وضعنا الحالي، قد وصل إلى أقصى مداه، فقررت أن أتجاهل الحديث عن هذا البلد المنسي لأنه لا يمكن أن يكون دولة جديرة بالانتماء إليها، ما دامت حكومته تصر على قطع جذورها التي تمتد بعيدا عن الحدود التي يصر النظام الحاكم فيها على حراستها بقوة، خوفا من أن يدنسها عربي من بلد آخر!!! فيستعين بخبرات أجنبية! لكي يحتمي من العرب الطامعين!!! وكل ذلك لان كابوس الدويلة التي أنفقت مليارات الدولارات طوال عقود من الزمن لشراء تجهيزات عسكرية وأسلحة متطورة ثم اختفت من الوجود خلال ساعات! لم يزل يقض مضاجع هؤلاء الحكام الصناديد الذين جعلوني اشعر بعار ما بعده عار عندما سمحوا لعلم عدوي بالرفرفة في سمائي!!! فحرمت على نفسي رؤية المنطقة التي تقع فيها ممثلية العدو، أو حتى المرور فيها، مجرد مرور.

أنا أحب الدار التي أعيش فيها، واشعر بحنين جارف إلى تلك المدينة الحدودية الوديعة النائمة في أحضان التلال، التي ولدت فيها وشهدت مرابع طفولتي، قبل أن انتقل مع أهلي إلى العاصمة. أنا أنتمي بلا قيد أو شرط، إلى الأرض التي أتجول فيها بدون جواز سفر، ولكني لا أؤمن بدولة لا تمتد من المحيط إلى الخليج من دون حدود، وأنا لن أشعر بأمان، أو أتفاءل بمستقبل، إن لم تصبح هذه الدولة حقيقة قائمة، ولكني أعرف بأني لست ببالغ ولادة هذه الدولة بعمري المحدود، ومع ذلك، فإن هذا ليس هو الذي يؤلمني، لأني أؤمن بالأقدار، وكان يمكن أن أرضى بالمكتوب لي، لو لا الضيق الذي اشعر به كلما ازددت تمعنا في وضعنا المزري الذي يجعل من تضاؤل فسحة الأمل بوجود هذه الدولة يوما ما، أمرا محتوما!. ولذلك أنا أحذركم من أن التشاؤم سيكون هو السيد في صفحاتي المقبلة، ومن كان منكم يبحث عن المتعة في القراءة فليرم أوراقي هذه بعيدا عنه لأنه لن يجد فيها ما يسره. ولكي أكون صادقا معكم إلى ابعد الحدود أعترف بأني فكرت أحيانا في إيجاد البدائل التي تخفف عني شعوري بالضيق، لأنني أعرف بأن التعاسة في الوطن غربة، والسعادة في الغربة وطن، لأن الإنسان عندما يجد سعادته وطمأنينة نفسه في أية أرض، فان تلك الأرض تستحق أن تكون وطنه. ولكني قررت في النهاية أن لا أموت إلا في الأرض التي أرادت الأقدار أن أولد فيها، لأن السعيد، هو من سعد حيثما كان، والتعيس، هو من ذهب يبحث عن السعادة في مكان آخر. أنا لم استطع يوما أن افهم كيف يمكن أن يقرر إنسان ما أن ينتزع جذوره من الأرض التي نبتت فيها، ليذهب ويبحث لها عن منبت لن يكون يوما في أي مكان آخر؟!. أنا لن أكابر، وسأعترف بأن الحياة في وطني ليست سهلة بالمرّة، إذا ما قيست بالحياة في الدول المتقدمة، ولكن ألم يستطع هؤلاء المهاجرون الأذكياء أن

يدركوا سلفا أنهم بفعلتهم هذه إنما يبدلون مشاكل يعرفونها جيدا، بأخرى لا يمكن أن تخطر لهم ببال؟! وهي مشاكل أعقد بكثير من مشكلة توفير الخبز للأبناء بكل تأكيد!!!.

عندما راجعت ما سبق ان كتبته، بدءا من الحديث عن السياسة، قررت في لحظة أن أمزق الأوراق التي كتبتها لأنه لم يبد لي جميلا، ولكني كنت قد أقسمت أن لا أقول بعد الآن إلا الحقيقة، ولا أتصور إن إخفاء جزء منها، هو تصريح بها، ولذلك تراجعت عن قراري. فإن استهجنتم بعد ذلك ما تقرأون، فأعلموا أنه ليس ذنبي، إن كان الحديث عن بشاعة السياسة، بشعا، أو إن كان وصف أوضاع شاذة، غير جميل.

(نقطة على خط مستقيم)

في إحدى دويلات مدنكم المتنافرة ولدت، وكانت الأقدار قد شاءت أن تكون نقطة البداية في منظوري، هي النطفة السادسة التي يزرعها أبي، النجار، في أحشاء أمي التي كانت ربة بيت، وتثمر مولودا. أنا لا أتذكر السنوات الأولى من حياتي بالطبع، ولكني كنت محبوب أهلي، لكوني طفلهم، ولأني كنت جميلا وهادئا كما يقولون، ولكني لم أتمّ العام الثالث من عمري حتى ولدت أمي مرة أخرى، ولتعقبها بولادة ثامنة بعد ثلاث سنوات، فكان مجموع مواليدها، ستة ذكور وأنثيين. إن موقع الوسط في عائلة شرقية كبيرة يعني الحرمان من الأفضلية التي تمنح للابن الأكبر في العادة، والافتقار إلى العطف والدلال الذين يتلقاهما الأصغر، وأنا لا أستطيع أن أكون متأكدا مما سأقوله، ولكن يبدو إن ولادة الأخ الذي تلاني، كانت الصدمة النفسية الأولى التي أتلقاها في حياتي، لأنه أزاحني عن بؤرة الاهتمام، لأركن على رفوف الإهمال!، وأنا عندما اذكر الإهمال، أقصد الجانب النفسي فقط، لان الجوانب المادية كانت متوفرة في بيتنا الذي لم يكن يعاني من نقص في ملبس أو مأكل أو مشرب، وكانت أمي شديدة الحرص على نظافتنا جميعا. لقد كنت طفلا صحيح الجسم، فلم احظ بالعطف الذي يمنح للمريض حتى يشفى، وكنت حاضرا دائما، فلم أنل الشوق إلى البعيد، وأنا كما عرفتم محروم من ميزة الصغر، فكان أملي الوحيد في إشباع حاجات طفولتي، يكمن في المطالبة، التي لم اجرؤ عليها يوما، لأني كنت طفلا خجولا، وهكذا انزويت في موقعي الثانوي وأنا اجترّ أحزان طفولة لم تشبع إلا لماما. وأنا إذ اذكر كل هذا، لا أريد أن أبدو وكأني أنعى حظي السيئ، لأنه في الحقيقة لم يكن كذلك، وكان أيضا لمصلحتي في النهاية، ولكن كيف نجعل طفلا يفهم، أن عدم حصوله على ما يشتهي هو لمصلحته؟!. كما لا أريد أن أدين والديّ لأنهما لا يستحقان ذلك، فقد كان أبي عطوفا ورحيما بنا، ولكنه كان يزن الأمور بعاطفته فقط، وذلك لغياب الثقافة التي كانت ممنوعة على جيلهم الذي تربى في أحضان الاستعمار، فلم يحظ والدي بتعليم يتعدى المراحل الأولى للابتدائية. لقد أعطانا هذا الأب أقصى ما يستطيع، ولكن ما الذي يستطيعه فرد واحد عندما يرى نفسه المسؤول الوحيد عن عائلة مكونة من أحد عشر فردا؟ فقد كان لوالدي ابن وابنة من زواج سابق عاشا معنا، لقد حاول هذا الإنسان الرائع أن يوفر لنا لقمة العيش وقد استطاع، ولكنه لم يستطع أن يوفر العدالة أحيانا، لأنها تحتاج إلى أكثر من النية، فهي تتطلب الثقافة وال تنبه الشديد. أما أمي، فإن إحساسي بالعدل يجعلني أقول أنها كانت السبب الأول والمباشر لكثير من القيم والمبادئ الصحيحة التي أؤمن بها، ومثل هذه القيم والمبادئ موجودة بكل تأكيد في داخلي لأن الإنسان لن يخلو منها حتى إذا كان إلى الانحطاط اقرب!!!. لم تحظ أمي هي أيضا بالفرصة

لإكمال دراستها، رغم أنها كانت قد تجاوزت المستوى الذي أدركه أبي قبلها، فكانت العواطف أيضا، هي المحرك الرئيس لهذه الإنسانة العزيزة، ولذلك فقدت الفرصة في أن تتواصل معنا فكريا بعد أن عبرنا مرحلة الطفولة. قبل أن أتابع، أريد أن أؤكد أني لا أرى فيما سأقوله أي ة مأساة، بل كان ما يحدث في بيتنا طبيعي، ولكنه طبيعي بالنسبة للشرقيين فقط! وأنا اعرف بأن الأحوال في بيوت كثيرة أخرى، كانت أسوأ بكثير، أي أني أرى كأس أهلي الآن، نصف مملوءة بالماء، لا نصف فارغة، ولكن كيف كان يمكن لذلك الطفل أن يفقه ما أقوله الآن؟.

كان إحساس أمي بفقر البيئة التي خرجت منها بزواجها قويا، وبمرور الوقت تبين لها إن ظروفها بعد الزواج لم تكن أفضل من سابقتها بكثير كما كانت تأمل، وكان هذا يتعارض مع طموحها الذي لم يكن يلجمه حس منطقي، فشعرت نتيجة لذلك بخيبة أمل منعتها من عيش حياتها بسلام، فكانت ثورات أعصابها تدفعها إلى الاصطدام بوالدي الذي كان الولد المدلل لوالديه، وكبر ليجد نفسه مضطرا لأن يعطي فقط، بعد ما كان قد تعلم في صغره مبادئ الأخذ فقط ! فكان تصاد مهما المستمر أمر ا لا بد منه، وهو ما أصبح مصدر قلق وعدم ارتياح لأطفالهما، أو في الأقل، بالنسبة إلي، لأني لم اسأل إخوتي عن رأيهم في ذلك يوما. وكانت هذه مأساتي وأنا طفل، فقد ضاع مني الشعور بالأمان، وأنا أتابع مشاجرات والديّ بخوف ما بعده خوف، واذكر جيدا كيف كنت اكره الأعياد وعندما تقترب ! رغم حبي الطفولي لها !!! لأنها كانت تحمل معها من الأسباب ما يجعل أمر المشاجرات شبه مؤكد!. أنا لا أريد أن أسوّغ شيئا بذكري كل هذا، بل أنا أتحدث عن انطباعات طفولتي، لكي تنتبهوا على أطفالكم، وتتوقفوا عن مطالبتهم بالتفكير مثلكم، فقط حاولوا أن تفهموا وجهة نظرهم وان تنظروا أحيانا إلى ما تفعلوه من الزاوية التي ينظرون هم منها. كما أني أبغي من هذا أن أوضح لكم الكثير من جوانب نفسي التي لن تعرفوها إلا إذا تحدثت أنا عنها، لكي أريحكم من محاولة تحليل نفسيتي اعتمادا على خيالاتكم، وبذلك تنتبهون على ما سأقول.

لقد كان الطفل الذي كنته خجولا، غير واثق من نفسه، منطويا ويتلعثم في كلامه، وأنا غير معني بتسويغ شيء، فقد كنت كذلك ولن يغير التسويغ شيئا الآن، وإياكم أن تقولوا أن هذا كان بحكم شخصيتي، وإنما كان هذا ذنب أهلي، و آمل أن تنتفض قلوبكم فرقا عندما أذكركم بأن أهلي إنما كانوا أناسا طيبين كما سبق أن قلت!. ولكي أوضح لكم عمق تأثر البناء النفسي لي بسبب ما كان يحدث في بيتنا، أقول،أنا اذكر عندما كنت لا أستطيع لفظ بعض الحروف مثل الراء والكاف!!! وقبل أن تحاولوا تخمين عمري آنذاك، سأحدثكم عن شعوري العميق بالمهانة والإحراج وأنا أرى المعلم وهو يضحك ملء شدقيه خلال محاولته تعليمي لفظ حرف الراء في بداية العام الدراسي الذي جلست فيه على مقاعد الدراسة في الصف الأول الابتدائي! أنا اذكر

الآن ضحكاته المجلجلة جيدا وهو يتابع محاولاتي الفاشلة في تقليد الصوت الذي يحدثه بلسانه الملتصق بسطح فمه! وكأنه أراد أن يزيد الطين بلة بالنسبة لي، فبادر إلى دعوة مدير المدرسة لكي يشهد بنفسه هذا الطفل العجيب الذي لا يستطيع أن يلفظ حرف الراء وهو في السادسة من عمره!!! وأنا ما زلت اذكر كيف كنت أغالب دموعي خوفا من أن يزداد شعوري بالمهانة، بانهمارها! وأذكر كيف كنت اشعر بأن وجهي يزداد احمرار في كل لحظة! ولكني ما عدت اذكر إن كان ذلك، لشعوري بالخجل أم للغضب الذي انتابني، لأن هذين الراشد ين يعذباني بإصرار وأنا ما أزال طفلا صغيرا!. أنا لا أريد أن أدين هذين الرجلين اللذين أعطياني في النهاية أحسن ما عندهما، فقد كانا من ذلك الجيل الرائع الذي كان يبذل في مهنته عصارة جهوده، ولا أريد أيضا أن أتكلم هنا عن صراع الأجيال أو غيره من المشاكل التي لن تزول من هذه الحياة، لأن الأجيال ومهما تصارعت أو تناقضت فيما بينها، فإنها ستكون معبرة عن نفسها بشكل طبيعي وهذا لن يغير من حقيقة شخصيات الأفراد شيئا، وأنا هنا أتكلم عن الأفراد فقط، ولذلك أتساءل، كيف غاب عن بال ذينك المعلمين الجليلين أن هذا الطفل له مشاعر وأحاسيس هو أيضا؟!!!.

أنا لا أريد أن أطيل عليكم، ولذلك سأتلو عليكم قائمة المحبطات التي كانت تعيق نمو هذا الطفل، الطبيعي، أو بالأحرى بعضها، لأني لا أستطيع تذكرها كلها. وهي تشمل، الإهمال المفاجئ بعد طول اعتناء، الخوف، القلق، عدم الشعور بالأمان، خيبات الأمل و الأحباطات، الشعور بالمهانة المتأتي من الإحساس بدونية غير معقولة، وأخيرا خوف عظيم من حساب الله الشديد، لأنه كان قد اقترف ذنوبابدت له هائلة رغم تفاهتها! وأولها الكذب، الذي كان ضروريا بالنسبة له وذلك خوفا من الكبار طبعا!!!. ومن السخف طبعا أن تتصوروا بأنه لم يكن رغم ذلك، سعيدا أحيانا، ويستطيع أن ينام ملء جفنيه بعد إشباعه بعض حاجات طفولته، ولكن هذه الأحيان لا تترك آثارا مثل الآثار التي تتركها المحبطات الواردة في القائمة التي تلوتها، في نفوس الأطفال!. وكان اضطراري وأنا طفل إلى الاكتفاء بالنزر اليسير من الحاجات التي كنت أتوق إليها، هو الشيء الوحيد الذي أورثني ما اعتبره الآن كسبا كبيرا! وهو عدم تمكن رغبة الامتلاك من الاستيلاء على عقلي!!! بتهوا، أنا لا أقول بأني مبرأ من هذه الرغبة، ولكنها عندي في حدها الأدنى، لأني تعودت ذلك سلفا، لا لأني أردت ذلك، وكان في هذا فائدة كبيرة لي، لأنكم على النقيض مني، ترغبون في امتلاك الأشياء بشدة، حتى تتملككم هي!!!.

(بوابة الجحيم)

محملا بهذه الأحمال الثقيلة، ولجت ليل مراهقتي الذي أتى مبكرا ، ليرخي سدوله علي، ويذيقني مرّ العذاب حتى طرقت أبواب الثلاثينات من عمري، أو بالأحرى تجاوزتها!!!. في النصف الأول من مراهقتي، تحول الطفل الهادئ المستكين إلى مراهق أرعن، يمكنه أن يخوض المغامرات " غير الخطيرة " بأمان أكثر من أقرانه، وهو مسلح بخيال خصب، ومقدرة على التخطيط، وقابلية على الكذب كانت تجنبه المتاعب في أكثر الأحيان!. هل أبوح لكم بسر؟ لقد كنت متعلقا بشكل مرضي، بملابس النساء الداخلية، وألوانها!، ولكني لن أحدثكم عن تفاصيل الأحلام الجامحة، والخيالات الش بقة التي كانت تراودني، ولن أتكلم عن دوريات التلصص والتستر بظلمة الليل، بحثا عن جزء مكشوف من جسد امرأة، أية امرأة كانت!، فأنتم تعرفون كل هذا كما اعرفه، وخبرتموه حتى إذا لم تعترفوا به، ولكني فقط أريد أن أتوجع أمامكم لذلك المراهق الذي وهبته الطبيعة مقدرة جنسية كبيرة، وحرمته الظروف من فرص التنفيس عنها. أنا أراهن بأنكم ستنتفضون الآن معترضين علي، وستوجهون اتهاماتكم لي جزافا! ولذلك أبادر إلى تأكيد أني لا أطالب بمنح الحرية الجنسية للمراهقين، فأنا لست من دعاة الإباحية كما قد تقولون! ولكني فقط أطالبكم بان تفهموا نفسية المراهقين، وأن تأخذوا وجهة نظرهم المشوشة بالاعتبار، وان تحاولوا التخفيف عنهم بصورة عملية، لا بالمحاضرات الأخلاقية، أو بالترهيب، فقد كنتم مراهقين انتم أيضا، ولكني اعرف بأنكم لن تقدموا لهم، ما لم يقدمه لكم أحد، وستظلون تقولون بأنكم عشتم هكذا وها انتم رجال، كما يجدر بالرجال أن يكونوا! وليتني اصدق إنكم كذلك بالفعل!!!.

أواه لكم أتمنى لو حدث المستحيل، واستطعت أن أعود الآن إلى الماضي! لأني لن افعل شيئا غير أن ابحث عن ذلك الطفل الجميل، لأقبله واحتضنه، لأنه كان بحاجة ماسة إلى الشعور بحب الآخرين له، وأعطيه بعض الشعور بالأمان الذي تاه عنه. و أحاول أن ألاقي ذلك المراهق الأشعث، الذي زادت البثور المتفجرة في وجهه من إحساسه بقبحه، وهو الطامح إلى أن يكون فارس أحلام الصبايا الجميلات!!! وأن أربت على كتفه وأفهمه بأني اشعر بما يعانيه. أن احتضنهما معا، أطمئنهما بأن الأمور ستسير نحو الأفضل في النهاية، رغم الآلام وطول المعاناة التي تنتظرهما، أن أخبرهما بأني كنت مثلهم ا، ولذلك أفهم بالضبط ما يدور في دواخلهم!!!. ولكن، هيهات أن يحدث هذا، وها قد حُكم عليّ بأن يعيشا خالدين في داخلي، وهو ما قد يبلبل أفكاري وأنا في منتصف العقد الخامس من عمري، ولذلك أنا جاد في التعبير عن نفسي وأنا في كهولتي، خوفا من أن يُثقلا خطواتي في شيخوختي!!!. أنا لا أستطيع أن ادّعي

الآن بأني لست بالنرجسي، وإن ذكري أمنيتي هذه، إنما هو محاولة لشرح مشاعري، لأنني لا أستطيع أن أنكر حقيقة أني قد ضبطت نفسي متلبسا بتهمة الشفقة على النفس، بذكري كل التفاصيل التي أوردتها، ولكن هذا لا يعني أبدا أن الشفقة على النفس ليست طريقا أكيدا للاندحار الذاتي، وهو ما يحدث للكثير منكم، وأنا لن اسمح لنفسي أبدا، أن توردني إياه. وعلى ذكر الذاتية فأنتم لا بد من أن تكونوا قد لاحظتم بالتأكيد أن ما كتبته حتى الآن يبدو وكأنه سيرة ذاتية، أو، هو كذلك بالفعل، ولذلك أريد أن اعتذر منكم إذا ما بدا بعض ما أقول وكأنه محاولة لت سويغ أو تغطية شيء ما في داخلي، كما يحدث في السير الذاتية للأشخاص دائما. أنا لا أريد أن أداري من نفسي الشيء الكثير، أتمنى لو استطعت أن أصرح بكل ش يء مرة واحدة وارتاح، ولكني اعرف باني لن أستطيع، ولذلك سأقول ما يمكن قوله، وهو إن بدا قليلا فأني أتحداكم أن تستطيعوا قول مثله للآخرين . ولعل ما ذكرته يكفي لبيان سبب عدم تمكني الآن من أن أكون أفضل مما أنا عليه بالحقيقة، فأنا مثلكم تمزقني بقايا الإرتكاسات، ولا تخلو نفسي من اثر لنكوص، ولكنني أحاول المضي قدما، وإذا ما استغربتم عدوانيتي عندما أخاطبكم، ف أرجو أن تتذكروا أني إنسان كان يجب أن ينفس عن عدوانيته في مقتبل عمره، ولكنه لم يفعل! وإذا كنت قد روضت نفسي مكرها على أن لا اسبب إيذاء جسديا لأحد، فإني لن ارحم خصما تمكنت منه خلال نقاش فكري!.

أكملت دراستي الابتدائية بتفوق لا بأس به رغم كل شيء، ولكن في الثانوية بدأ ذلك التفوق برسم خط بياني متجه إلى أسفل بإصرار! فقد توقفت عن أن أكون التلميذ النجيب الذي كنته، وتحولت إلى خيبة أمل مستمرة للمدرسين الذين كانوا يميزوني في بداية كل عام دراسي عن بقية التلاميذ لأنهم يتأملون بي خيرا، ولكنني كنت أخيب أملهم دوما لعدم تمكني من ترجمة الذكاء الذي توسموه فيّ إلى نتائج مرضية! ولا عجب، فقد كنت اكسل من ان ابذل جهدا لقراءة ولو صفحات معدودات من كتاب مدرسي يجب علي ان أراجعه! وذلك لأني كنت اقضي ساعات طوال في مطالعة المجلات ومن بعدها الكتب المختلفة، لأن المطالعة كانت الهواية الوحيدة التي عشقتها، فقد ولدت في بيت يهوى القراءة، قراءة كل ش يء ما عدا الكتب المدرسية، وفتحت عيني وذلك البيت ملئ بمجلات المغامرات المصورة الشيقة والكتب المتنوعة. أنا لن أطنب في مدح الكتب ولن ألقي عليكم محاضرة في فوائد المطالعة، فانتم تعرفون ما يمكن أن أقوله، ولكنني في الحقيقة أدمنت قراءة كل الكتب التي أجدها أمامي، وكان ذلك على حساب دراستي بكل تأكيد. والغريب أنني لم ارسب طوال حياتي الدراسية، سوى مرة واحدة وكان ذلك نتيجة لعبث المراهقين ونزقهم، ولكني في النهاية أنهيت الثانوية بمعدل منخفض، ولاني كنت أؤمن في

ذلك الوقت بأن الدراسة الجامعية لن تعني شيئا بالنسبة لي إذا لم تكن في كلية الطب أو الهندسة!!! فقد قررت ان اكتفي بما حققته حتى ذلك الحين دراسيا.

أنتم في الحقيقة لا تحتاجون إلى ذكاء كبير لكي تدركوا بأني كنت في تلك المدة إنسانا خياليا، يعيش حياته في أحلام، وبسبب تقاعسه ضيع معظم فرصه في الحياة سلفا. فأنا لم أتعلم من والدي مهنته، ولم أستفد من دراستي، و! . . . ولكن لماذا استمر في البوح أمامكم؟ ألكي تدينونني بلساني؟ كلا سأحتفظ الآن بما هو حق لكل إنسان أن يخفيه، ولن تستطيعوا أن تلوموني لأني لن أكون بذلك، إلا مثلكم، فانتم ترتعبون من فكرة أن يستطيع أحد أن يقرأ أفكاركم، ولذلك تحرصون على إضفاء ثوب المظاهر على أنفسكم لكي تأمنوا شر الأعين الثاقبة. أما ما سبق أن صرحت به، فأنا قلته، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرجمني بحجر؟. والله لو كنت واقفا أمامكم الآن لفعلتم، ولكن، ليس لأنكم بلا خطايا، بل لأنكم مليئ ون بها، ولكي تداروها، سترجمو نني بحجارتكم.

أنا سأستمر بالكتابة، وإذا وجدتم بعض التناقض فيما تقرأونه، فلا تبد أوا بالصراخ والإدانة كما هو ديدنكم، فأنا لم ادّع الكمال، و لم اقل أن أفكاري كلها صحيحة، أنا سأحاول فقط أن أضع الأسئلة أمامكم لعلكم تنتبهون، فتحاولون أن تبحثوا عن الأجوبة، ولكن قبل أن تحاولوا، أنصحكم بأن تنفضوا عن أنفسكم غبار الحياة، وأن تنبذوا كل الأفكار ال سابقة، والمسلمات والعادات المتأصلة، لأنكم في هذه الحالة فقط تستطيعون أن تعرفوا عمّ أتحدث. أنا أريد أن أثير التساؤلات، ولذلك لم أشأ أن اكتب سيرة ذاتية لنفسي، لأنكم لن تهتموا بكل تأكيد، فأنا شخص عادي، وليس في حياتي ما يمكن أن يثير اهتمامكم، كما تفعلون حين تقرأون سيرة فنان كبير أو رياضي لامع أو حتى راقصة مشهورة!. أنا مجرد إنسان عادي تمنى يوما أن يكون روائيا ناجحا، ولكنه لا يستطيع أن يحقق أمنيته لأنه يفتقر إلى الموهبة، لا موهبة الكتابة، ولا أي موهبة أخرى تميزه عن الناس العاديين! ويبدو أني سأموت وأنا اختنق في عاديتي؟ وما أفعله الآن، هو المحاولة الأخيرة لي، آه لو امتلكت فقط تقنية الكتابة، لكانت هي الكفيلة بتعويض الموهبة، ولكن من أين لي ذلك، وأنا لم احترف الكتابة يوما ؟!. أنا اعترف بأني لا أعرف كيف يحول الكتاب أفكارهم إلى قصص أو روايات ؟ ولكن، هل يكفي هذا لكي أتنازل عن حلمي بالكتابة؟ أنا لا أستطيع أن أتنازل، لأني أحس بمعاناة الإنسان الذي يحلم كشاعر، ولكنه لا يمتلك شاعريته! ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أتخلص من الشعور بالإحباط الذي يسببه فشلي في أن أكتب كما أحلم، لأني لا أمتلك أنانية العباقرة، أو إرادتهم!!! فأنا كما قلت لكم مجرد إنسان عادي شاء قدره أن يمتلك وعيا عاجزا استقاه من بطون الكتب، وعن طريق عيش حياته بنصف

تنبا!!!. أنا أريد، لأني امتلك الرغبة ولكني لا أستطيع، لأني لا أمتلك الإرادة والوسيلة! فما الذي أفعله؟. ستنصحونني بأن أنبذ كل هذا بكل تأكيد، أليس كذلك؟وفوق هذا أن أحاول العيش كما يعيش الناس العاديون! شكرا للنصيحة يا أحبتي، ولكن، ألم تعرفوا بأن الإنسان، أي إنسان، عندما يمتلك أي قدر من الوعي، فإنه يخطو خارج حدود اعتيادية البشر؟! لأنه إنما يدخل بذلك مملكة التساؤلات، ومتاهة البحث عن الأجوبة! وهي متاهة ما أن يلجها إنسان، حتى يصبح من المستحيل عليه أن يخرج منها! ليس فقط لأنه لا يستطيع، بل لأنه لا يريد أيضا!!!.

(عبرة)

بعد الثانوية، أديت الخدمة العسكرية التي كانت إلزامية في ولايتنا، في حال عدم إكمال الدراسة الجامعية، فتعرفت خلال أشهرها الأربع والعشرين على حياة جديدة، لم تكن تخطر لي ببال، ولكنها أفادتني كثيرا لأنها لفتت نظري إلى أهمية الحياة المنظمة، وعرفتني على شخصيات كان لها اثر على حياتي فيما بعد، ولكن أهم ما تعلمته من الحياة العسكرية هو مسألة السياقات، التي لم أدرك أهميتها في حينها، بل كنت أشعر بها وكأنها منغص فرض علي، لأنها هي العماد الذي تقوم عليه التدريبات العسكرية التي كانت تضنينا. ولكني اكتشفت بعد مرور سنين، إن المبدأ فيها كان، تعليم الجندي التصرف السليم، بغض النظر عن الشذوذ الذي يمكن أن يعتري المواقف التي تعترض سبيله، ومن تعود السليم من التصرفات في المواقف الاعتيادية لا يمكن إلا أن يكون كذلك في المواقف غير المتوقعة! أما إذا أخطأ، فذلك لأنه لم يوفق في معرفة الصحيح لا لخطأ السياقات. ولذلك كانت السياقات هي أحد الأسس التي اعتمدتها في تغيير ما يمكن تغييره من حياتي فيما بعد.

لقد عانيت كثيرا من اضطراري للاستيقاظ مبكرا يوميا خلال العسكرية، وهو الأمر الذي لم أتعود عليه أبدا فيما بعد، فكان هذا، واضطراري إلى الاحتكاك بشخصيات لم ارغب يوما في التعامل معها، من أهم اعتراضاتي على الحياة العسكرية، ولذلك لم يخطر لي ببال، أني سوف أحنّ لتلك الحياة بعد إنهائي الخدمة، ولكن هذا سرعان ما حدث! ولم يكن قد مضى على تسريحي منها سوى بضعة أشهر!.

بعد التسريح وجدت نفسي في خضم أزمة نفسية حادة، فقد اكتشفت أني عاجز عن العمل لأني لم أكن أمتلك المهارة التي تؤهلني لأداء أي عمل يدوي! أما العمل لدى الدولة، فانه كان غير متاح نتيجة للازمة الاقتصادية الخانقة التي كانت تلم ببلدنا الفقير!. كان أبي ما يزال يعمل رغم تقدمه في السن، الأمر الذي آلمني وزاد أزمتي استفحالا، وفي ذلك الوقت بالذات اكتشفت أني لم أكن أكثر من صبي غرير، وأنا أتوهم الحكمة، وأفاخر بعقلي، وأتبجح بمنطقي الذي لا يقربه شك!. ولكن الحظ، وبالمناسبة، أنا لم اقل لكم من قبل،أني أؤمن بالحظ، مثلما تفعلون، رغم الاختلاف في التسميات، حسنا ها أنذا أفعل، وفي الحقيقة إن الحظ يتصرف أحيانا بطريقة غريبة، فهو يناكد الإنسان النشط المكافح، ويسد بوجهه كل الأبواب، ويداري الكسول والغبي، الذي لا يكاد يسدّ بابا بوجه نفسه، حتى يفتح له الحظ أبوابا أخرى! فيما ينتظر مع آخرين حتى

اللحظة الأخيرة، وعندما يقاربون حدود اليأس، يفتح لهم بابا غير متوقعة!، كما فعل معي في تلك الأيام العصيبة!.

(عبور)

في ذلك الوقت،كان قريب لي قد توفى، فاحترت في أمر الذهاب إلى المأتم، لأني كنت، و ما أزال، اشعر بقرف كبير مما يحصل في تلك المآتم! فقررت بعد تردد أن اكتفي بالتعزية بعد انتهاء المآتم، ولكني وجدت نفسي في اليوم التالي، جالسا في مكان منعزل من القاعة التي كان يقام فيها المآتم!. ولم يطل بي المقام طويلا هناك، حتى دخل القاعة قريب آخر لم أكن قد رايته منذ زمن طويل، كان موظفا كبيرا في إحدى الوزارات، ولكني لم أفكر في الالتجاء إليه في محنتي، لأني كنت لا ارتجي منه خيرا!، كان فارق العمر كبيرا بيننا، ولم تكن علاقتي به تتعدى حدود السلام المتبادل. تابعته بنظري وهو يصافح معارفه تباعا حتى وصل إلي، مددت له يدي فشد بكفه على كفي مصافحا ثم سحبني ليقبلني! فاجأتني حركته، ولكني قبّلته أيضا، وأنا أشعر بخجل لأني لم افرح عندما رأيته، لم يكمل دورته في القاعة، بل فضّل أن يجلس إلى جانبي في مكاني القصيّ، ولم ينتظر سوى ثوان معدودات ليبادرني قائلا :

ـ مالك تجلس منفردا هكذا؟.

كان هذا اكبر عدد من الكلمات التي يوجهها لي في جملة حتى ذلك الوقت، ولكن نبرة صوته التي بان فيها الود شجعتني على الرد قائلا :

ـ أراقب هؤلاء الناس، وأتعجب لأمرهم!

ـ وما وجه العجب فيهم؟

ـ أليسوا في مأتم؟

ـ نعم!

ـ فمالهم يتصرفون وكأنهم جالسون في مقهى؟! أنظر إليهم، كيف يتبادل كل واحد منهم الحديث مع الجالس إلى جانبه، كما نفعل الآن بالضبط؟.

ارتسمت بسمة دهشة على شفتيه، وهو يلاحظ صلافتي غير المقصودة، قال بصوت خفيف يمازحني :

ـ أو تريد إذا ان نجلس صامتين؟

فأجبت من دون ترو:

ـ أو ليس هذا هو المفروض؟

لم يجبني بشيء هذه المرة، بل اكتفى بالابتسامة اللطيفة التي ظلت معلقة على شفتيه، وسكت، نبهت عند ذاك لسخافتي، فقلت مرتبكا:

ـ أنا لم اقصد أن أكون، صلفا، ولكن المآتم تقام حدادا على موت إنسان، وأنا لا أستطيع أن أتوقف عن الشعور بالضيق الشديد عندما أرى مثل هؤلاء الثقال الذين يتحدثون هكذا ويضحكون وكأنهم في حفل زفاف.

ـ ولكن، هكذا تجري الأمور عندنا دائما!

ـ نعم، وهذا هو بالضبط ما يزعجني، لأنها يجب أن لا تجري هكذا، ألا تلاحظ أننا نتخبط في مناسباتنا الاجتماعية ؟ فمآتمنا ملهاة، وأعراسنا مأساة، حفلاتنا عراك، ومشاجراتنا مناسبات لإدعاء قوة وشجاعة لا نمتلكهما!.

هز برأسه موافقا ولكنه قال:

ـ ولكن مالك ولهذه الأشياء؟ فأنت لن تغير شيئا.

ـ أنا أعرف بأني لن أغير شيئا، ولكني أتضايق جدا من مدلولات هذا التخبط ولذلك لا أستطيع أن أسكت.

ـ حسنا، حسنا، هوّن على نفسك الآن، وحدثني عن دراستك.

ـ لقد أكملت دراستي الثانوية قبل عامين.

ـ والجامعة؟

ـ لم اشعر برغبة في إكمال الدراسة الجامعية.

ـ ولكن لماذا؟!

ـ في الحقيقة، كان معدلي منخفضا ولم يكن يؤهلني للدراسة في الكلية التي أرغب بها.

ـ حسنا، وماذا عن الخدمة العسكرية ؟

ـ لقد أكملتها قبل أشهر.

ـ إذا، أنت تعمل الآن؟.

شعرت بالخجل وأنا أجيبه باقتضاب:

ـ كلا.

ـ أعاطل أنت إذا ؟

شعرت بوقع السؤال الثقيل على نفسي، ولكني أجبت بأقصى ما أستطيع من أدب :

ـ نعم.

ـ لكن لماذا؟ هل يروق لك أن تكون عاطلا؟ فأنت لست بالصبي الصغير!.

ـ لقد حاولت أن أعمل ولكني لم أوفق.

كنت كاذبا فيما قلت، ولكني لم استطع إلا أن أكون كذلك، لشعوري الشديد بالإحراج عندها. قال متسائلا:

ـ ألا توجد أعمال يمكن أن تزاولها؟
هنا قررت أن أكون أكثر صراحة معه فقلت:
ـ نعم، ولكني بكل بساطة لا أتقن أي عمل.
ـ ومهنة والدك، ألم تتعلمها؟
ـ كلا، فقد كان حريصا على أن نحصر جهودنا في الدراسة فلم يشجعنا على تعلم مهنته.
ـ ولكن تعلم مهنة يفيد، ولا يضر أبدا!.
ـ لقد تصور بأنه كان يقدم لنا بذلك أفضل ما يمكنه، ولكني خيبت أمله وها أنذا أدفع ثمن ما اقترفت.
بدا من نظرته بأنه يتهيأ لمهاجمتي بشدة، فتخندقت خلف الحجج والمسوغات التي خطرت ببالي! ولكنه قال فجأة وبهدوء أربكني:
ـ لا بأس، لا بأس،
ثم صمت وبدت عليه علامات التفكير ! فبقيت صامتا أنا أيضا لأتحاشى معاودة ذلك الحديث الذي كان يحرجني كثيرا. ولكنه قال بعد حين :
ـ ماذا لو هيأت لك فرصة للحصول على وظيفة؟
ـ ماذا؟
ـ وظيفة، أنا اعرض عليك فرصة أن تعمل موظفا في الوزارة التي اعمل فيها، حيث ستبدأ دورة لخريجي الثانوية، والمميز في هذه الدورة إن المنخرطين فيها سيتقاضون رواتب تشجيعية طوال الأشهر الستة التي ستستغرقها وبعدها سيتم النظر في أمر تعيينهم.
لم يخطر ببالي ان اسأله عن ماهية الدورة لأني كنت شارد الذهن، وأكاد لا اصدق ما تسمعه أذناي! فقد كنت أشكو حينذاك من سوء الحظ كثيرا! وها هو الحظ يهيئ لي فرصة غير متوقعة للخروج من الدائرة المغلقة التي بقيت أدور فيها طوال اشهر خلت، قلت من دون تنبه:
ـ ولكن،
فقاطعني بصوت آمر:
ـ بلا ولكن، فقط تعال إلى مكتبي في ديوان الوزارة غدا صباحا وسيكون لكل حادث حديث.
ـ ولكني، لا اعرف في أي وزارة تعمل؟
ـ ماذا؟! لا تعرف! يا لك من قريب محب؟! إنها وزارة القانون والشؤون الاجتماعية!.
لم أعلق بشيء، بل أسلمت ظهري المنتصب للكرسي المريح، فقد لاحظت فجأة أني قد نسيت الميت، ورحت أتصرف مثل أولئك الذين كنت انتقدهم قبل قليل!!! فشعرت بخجل جعلني أصمت.

وفي اليوم التالي ذهبت إليه حسب الموعد، وعندها عرفت بأن الدورة عبارة عن محاضرات مكثفة في علم النفس!، فقد كانت النية في الوزارة تتجه، وعلى اعتبار أن السجون إنما هي مؤسسات لإعادة تأهيل الجانحين، إلى إعداد مرشدين من خلال هذه الدورة ومن ثم تعيينهم في السجون التابعة لها. أنا موظف في السجن؟!، لم أستطع أن أتصور ذلك، فاعترضت، ولكن اعتراضي كان خجولا لأني كنت خائفا من ضياع هذه الفرصة التي أتيحت لي وأنا على حدود اليأس المضني!، وعدني قريبي بأن يستخدم نفوذه لكي يتم تعييني في سجن العاصمة المركزي الذي كان الأقرب لمحل سكني، وظل يرغبّني في الأمر، وأنا صامت، اشعر بالخجل من الاهتمام الكبير الذي أبداه لي، حتى وافقت في النهاية، ولا ادري إن كان يمكنني غير ذلك؟!.

وفي الدورة اكتشفت الآفاق الرحبة التي يفتحها علم النفس أمام العقل الإنساني، فرحت أتابع المحاضرات الشيقة التي كان يلقيها علينا مختصون في علم النفس بولع، وفي النهاية أحرزت المركز الأول في الاختبارات التي خضعنا لها بعد إتمامنا الدورة. وعندما استذكر ذلك الولع اليوم لا أستطيع أن أتذكر بالضبط، لماذا لم أبادر إلى أن أحاول دراسة هذا العلم في الجامعة؟ ومثل هذه الفرصة كانت مهيأة أمامي لو كنت قد حاولت؟ ولكني لم أحاول! ولا ادري إن كان الشعور بالعوز المادي الذي عانيت منه طوال اشهر هو السبب؟ أم هو خوفي من أن لا أستطيع أن افرض الالتزام بالدراسة على نفسي، كما كان ديدني دائما؟! لم اعد اذكر، ولكني شعرت بالندم بعد ذلك بكل تأكيد.

تم تعييني مرشدا في السجن المركزي بالفعل، وبدأت بذلك أولى خطوات اكتشاف ذلك العالم الغامض العجيب، ولكن قريبي مات بعد اشهر! وبكيت بحرقة في جنازته، ومرة أخرى، لا ادري!، ان كان ذلك بسبب إحسانه لي ؟ أم أني فقدت بموته السند الذي كان يمكن أن يبعد عني أذى الآخرين الذين اختلفت معهم في الرأي؟!. فقد كنت بدأت عملي باندفاع وكانت لهفتي كبيرة على تطبيق ما تعلمته إبّان الدورة على ارض الواقع، وهو الأمر الذي لم يرق للكثير ين من زملائي الذين كانوا يتعاملون مع وظيفتهم على أساس إنها مجرد وسيلة لكسب العيش، ولا يرون فائدة في البرنامج الخيالي لإعادة التأهيل. أما السجناء، فقد كانوا بنظرهم نوعا من البشر لا يفيد معه غير العقوبات الجسدية والترهيب المستمرين!، وكان أسوأهم في ذلك الاعتقاد، مسؤولي المباشر، الذي كان من خريجي كلية علم النفس،ولكن روتين الوظيفة أفقده كل اهتمام باختصاصه، فتحول إلى شبه إنسان، يتلذذ بساديته، ويشعر بقوته وهو يسوم أولئك البائسين سوء العذاب!، شأنه في ذلك، شأن الحراس الأميين الذين كانوا لا يقلون وحشية عن المجرمين الذين يحرسونهم!. ولكن الأمر الذي حيرني كثيرا في حينها، هو أني لاحظت أن هذه الوحوش كانت

تعبر عن إنسانية واضحة في العلاقات التي تربطهم فيما بينهم، وفي علاقاتهم خارج السجن، رغم أنهم يمكن أن يتصرفوا كالكواسر عندما يختلون بسجين، أو أكثر!!!. في البدء لم استطع أن افهم سبب ذلك، أما الآن فأنا افهم بكل تأكيد، وهذا واحد من الأسباب التي تدفعني الآن إلى محاولة إثارة اهتمامكم بما أقول، لعلكم تفقهون؟. وهنا أود أن أؤكد لكم بان كل صفة ألصقتها بشخص تحدثت عنه، أو سأتحدث عنه فيما بعد، إنما هي انطباعي الشخصي عنه، فإذا ما قلت عن شخص ما بأنه مثقف، فإني اقصد فقط أنه اثقف نسبيا من الآخرين الذين اعرفهم، وكذلك هو الأمر بالنسبة لبقية الصفات، كما أني حين أتحدث عن أحاسيسهم أو صفاتهم التي بدت لي في لحظة ما، فإنما أتحدث عن انطباعاتي فقط، أما الانطباعات التي ستتولد عندكم، فأنا غير مسؤول عنها، فإذا ما قلت مثلا عن شخص بأنه صادق، ثم اكتشفتم من خلال ما اكتب انه قد مارس الكذب، فلا تستغربوا أو تتهموني بالتناقض، لأني قصدت بقولي انه اصدق نسبيا، ولم اقل بأنه الصادق الكامل، لأنه لا يوجد كمال في هذه الدنيا المبتلاة بالنسبية المحيرة.

(صحوة)

بتوالي السنين في الوظيفة الصعبة، بدأ الحس العملي الذي استيقظ في داخلي إبّان خدمتي العسكرية، يهز الأرض تحت عوالم الخيال التي كنت قد تعودت على العيش فيها! فبلغت بعد لأي، سن رشدي، الذي أتى متأخرا جدا! وكان هذا البلوغ زلزالا شهدته نفسي، ولا يمكن أن يفهم حالي عندها،إلا شخص استيقظ يوما، ليكتشف أنه قد نام سنين طوالا!، ولم يعد يرى من عالمه القديم، إلا ركاما لا أمل في إعادة بنا ئه، أو حتى ترميمه!!!. عند بلوغي، وجدت نفسي رجلا غريبا في عالم عجيب!، رجل يعيش غربة عارمة ناتجة عن شعور مبهم بالاختلاف عن الآخرين ! مبهم، ولكنه موجود بقسوة شديدة!. حاولت ان استفيد من شعوري هذا، بأن اقنع نفسي بأني مميز، لأني افضل من الآخرين، ولكني فشلت، لان الطفل الذي تعود على الشعور بالدونية، والمراهق الذي أرهق نفسه بعذاب ضميره، وإحساسه المرهف بذنوبه التي لم يكن لها وجود إلا في مخيلته، منعا عني النجاح آنذاك! منعاني، وأنا لا اعرف حتى بوجودهما!!!. كان منعطفا خطرا ذاك الذي اعترض دربي في تلك الأيام، لان الشعور بالاختلاف عن الآخرين، مع عدم القدرة على الإحساس بالتميز، كان يمكن ان يفقدني توازني، لأنه يعني ضمنا باني أسوأ الناس الذين اعرفهم!. ولكني أيقنت في النهاية باني وان كنت لم أقاتل فعليا دفاعا عن القيم والمبادئ المثلى، دون كيشوت آخر لفظه قطار الزمان في هذه الدنيا!، دون كيشوت عاش في دنيا الأحلام، حتى هزه الواقع ومزق أحلامه شر ممزق!، أحلام؟! بل يجب ان أقول، مدن وقصور هائلة بنيتها في ظل خيال جامح وكسيح! فإذا بها هشيم تذروه الرياح، في لحظة يقظة واحدة!!!. ولكن اقتناعي باني لست أسوا الناس، لم يمنع عني الضياع الرهيب الذي عشته بعد ان اكتشفت باني إنما كنت أعيش في مدن سراب وحياة أحلام!!!، ضياع، جعل اليأس يتسرب إلى نفسي لأني شعرت بان صحوتي كانت متأخرة جدا، فرحت أتهاوى بشكل سريع، حتى تماسكت في آخر لحظة!، لأني اكتشفت فجأة حقيقة بسيطة وأنا استعرض ما حدث، وما يحدث لي!، حقيقة كانت أمامي طوال الوقت، ولكني لم أتنبه عليها لاضطرابي وتشوش تفكيري!!!، فقد كنت قد اكتشفت بداية الطريق الصحيح منذ اللحظة التي أدركت فيها، هش اشة حياتي السابقة!، أليس اكتشاف الخطأ ومهما بلغ من فداحة، هو بداية العلاج ما دام هناك وقت للتغيير؟. فكان التغيير، بأن حولت ركام عالمي القديم، إلى عالم بسيط، ولكن لا غنى فيه عن القيم المعنوية التي كانت هي كل مكاسب دنياي القديمة، إلى جانب إحساسي بالمادة، التي عرفت أخيرا بان لها أهمية خاصة في هذه الدنيا، ولكني أبقيتها مشروطة بأن تكون مجرد وسيلة لبلوغ الغايات.

أنا أرجو أن لا تحاولوا تسفيه ما قلته توا ، لأني اعرف بان الانسلاخ الكامل عن عالم معاش، هو ضرب من المستحيل، واعترف بان بعض السلبيات القديمة ما تزال معشعشة في داخلي، ويمكن أن تبقى هناك إلى النهاية! ولكن شفيعي في هذا، هو تطلعي إلى الأفضل دائما.

(دنـــــس)

كانت المرأة تحتل إحدى قمم حياتي السابقة، فحافظت على مكانتها في حياتي اللاحقة، وبقيت تحرك مشاعري، وتثير عواطفي، وأنا اشعر بأنها أحق مخلوقات الله بحبي. عندما اقترب من امرأة أكون نهبا لقوتين متنافرتين! واحدة تجذبني إليها، لان الرجولة في داخلي كانت تأبى إلا أن ترضخ لسحر الأنوثة، وأخرى تدفعني بعيدا عنها لحذري منها، وخجل كمن منذ طفولتي في الداخل! ولكنها في الحالتين، تبقى تحتفظ بقوة طاغية وآسرة، تمارسها علي لأنها المخلوق الوحيد الذي يمكن أن يوصلني إلى قمة السعادة والهناء إذا ما رضيت، فأوفت، أو أن تنحدر بي إلى درك الشقاء وحضيض الضياع، إذا ما خانت أو غدرت، ولا تعجبوا، فأنا أيضا رجل شرقي مثلكم. كانت المرأة هي الزهرة الوحيدة التي زرعت في أعماقي، ولم تفقد نضارتها بمرور السنين، وتعاقب الأحداث، أو تكالب الآلام على نفسي، لم تذبل، ولم تستطع ريح أن تقتلعها، كانت أية نظرة تنصب علي من أنثى ترضيني دوما، وتبهجني أية بسمة خضّبت برضاب امرأة، وعلى أية شفتين، كان قرب المرأة مني يملأ قلبي سرورا، فجعلني كل هذا أحس بالظلم الكبير الذي حاق بالمرأة منذ بدء الخليقة!. أنا أؤمن بأن المرأة إنما هي ضحية الرجل الذي اجبرها على أن تقبع في البيت، فيما راح هو يستغل الخبرات التي كانت تتراكم في داخله بتنوع تجاربه وتعددها، ثم يعيّرها بنقص عقلها الناتج عن قلة التجربة! يدعي الحكمة لنفسه ويتهم المرأة بأنها عاطفية ولا منطق لها، ليبرر ظلمه ويزداد تحكما فيها، وتسلطا عليها!!!. الحكمة للرجل، والانفعالات للمرأة!، حسنا أنا اعترف بان هذا صحيح من وجهة نظر النتائج، نتائج الظلم الطويل الذي تعرضت له المرأة، الرجل عقلاني والمرأة عاطفية!، هذه هي الحقيقة، ولكنها ليست مطلقة بكل تأكيد، ولكن أليس ظلما أن يكون دور الرجل زرع البذور فقط؟، فيما تعاني المرأة أشهر طوالا من تلك النبتة التي تبدأ بالنمو في أحشائها، وتكابد التغيرات البيولوجية الكبرى التي تطرأ على جسدها، وتتعرض لشتى أنواع المخاطر، والمنغصات، لكي تنهي اشهر العذاب، بتجربة تكون خلالها اقرب للموت، منها إلى الحياة! فتهب العالم طفلا يسمى باسم أبيه!!! كيف تحتمل امرأة عاقلة، ومثل هذه المرأة موجودة حتى إذا أنكرتم ذلك، فكرة أن تصنع هي الحياة، ويرفض الرجل مشاركتها إياه في قيادتها؟!

أنا لا أحرّض نساءكم يا سادتي على الثورة ضدكم، فانتم تعرفون بأنهن اضعف من أن يقمن بذلك، ولكني أريد منكم فقط أن تتذكروا وانتم تزحفون ليلا، إذ يهيجكم الشبق، لاسترضاء نسائكم، مدى الأذى الذي ألحقتموه بهن طوال حياتكم!. ولكني اعرف بأنكم لن تفعلوا ذلك، بل ستقولون بأنهن يستحققن ما يتعرضن له، لسوء تصرفاتهن وافتقارهن إلى العقل!!!. أنا لن

أناقشكم فيما ستقولوه، بل سأقول مرة أخرى بأنهن ضحاياكم على مر التاريخ، الذي شهد الآلاف من الحكماء والعلماء من الرجال، ولكني عندما أقابل ولو امرأة واحدة، تمتلك ولو قدر ا ضئيلا من الحكمة والعقل، اشمت بملايين الرجال الذين يعيشون حياتهم، ويموتون، وهم عاجز ون عن إدراك معناها، أما إذا كانت المرأة عالمة، أو حكيمة، فلكم أن تتصوروا مدى شماتتي!!!. لقد حاق الظلم بالمرأة طوال تاريخها، وفي كل المجتمعات، ولكن حالها في مجتمعنا أسوأ وانتم تعرفون ذلك، ولكن إياكم أن تسوغوا ذلك بتعاليم الدين، الذي كان في الحقيقة قد انصفها كثيرا، ولكنكم انتم الذين لا تفقهون.

لكم أن تتصرفوا مع نسائكم كما تشاءون، ولكني أحذركم من النهاية إذا كنتم تؤمنون بالشدة معهن، معتمدين على خوفهن منكم!، لان الخوف ومهما طال أمده، سيتوقف يوم تصبحون ضعفاء وعاجزين، وتحتاجون إلى الرعاية والاهتمام!، ومثل هذا اليوم آت لا ريب فيه، ولكن من سيرحم، الذي لم يرحم؟!. أنا لا أؤمن بمقابلة الإساءة بالإساءة، وأتمنى لو كنت أستطيع أن أقابل إساءة الآخرين بالمحبة، ولكنكم ستكونون في شيخوختكم، تحت رحمة المرأة التي أهنتموها وآذيتموها، وهي كما تقولون انتم، انفعالية، لا عقل لها ولا ضمير!!!.

كنت أتوق دائما إلى امرأة نسج الخيال صورتها وحاك العقل صفاتها، وأنا كما عرفتم متخصص في دنيا الأحلام! لذلك كانت هذه المرأة ليست ككل النساء، لأنها المرأة الطبيعة، (فهي ضرورية بالنسبة لي كالهواء وشفافة كالماء، طاهرة كالتراب وعميقة كالبحار، شامخة كالقمم وطيبة كالأرض، ورحيمة كالسماء، واضحة كالنهار ومثيرة للأشواق كالليل، رقيقة كالنسيم وصلبة كالطود، متجددة كالربيع وصافية الأديم كالصيف، عزيزة لو ظمئت وغزيرة لو رويت، عادلة عندما تغضب ومعطاء عندما ترضى، للخير ثمارها دانية القطوف وأمام الشر أشواكها متراصة الصفوف، بكبريائها تطول الثريا وبتواضعها تلامس الثرى، أحبها بكرا جرداء واعشقها خصبة معطاء، فمن شمسها دفئي وفي ظلها ستكون جنتي.)

عذرا يا أحبتي لأني استعرت مبالغات الشعراء لوصفها، فهي كما قلت لكم معشوقتي ولو توخيت الاعتدال في وصفها، لبقيتم تقولون بان مثل هذه المرأة لا وجود لها! ولكنها موجودة وانتم لا تدرون أو لا ترونها، أو ترونها، ولكنكم لا تريدونها، لأنكم تريدون الغبية، لتنتشو بذكائكم! أو تنتقون الضعيفة، لتحسوا بقوتكم! تعبدون الجمال، فتتنازلون عن الكثير من المنطق بسببه!!! فإذا كنتم تبحثون عنه من اجل التمتع به، فهذا في الأقل من حقكم، ولكني آسف لما تضيعون بسببه، أما إذا كان البحث عنه من اجل المظهر؟! مظهركم أمام الآخرين، فهذه مأساة لا أريد الخوض في غمار الحديث عنها أبدا.

أما المرأة التي أتحدث عنها، فهي قوية، شجاعة، ذكية وصادقة، لأنها كما قلت لكم، المرأة الطبيعة، وأنتم تخافون هذا النوع من النساء، ولكن مالي ولكم؟ فقد انتظرت هذه المرأة طويلا ولكنها لم تظهر، فانغمست في علاقات نسائية نادرة وتافهة، لم تكن تزيدني إلا لهفة على من غابت، وقبل أن استرسل يجب أن اذكر، لكي أكون منصفا في بيان حقيقتي، باني لم أترك فتاة أعجبتني أو امرأة جذبتني قبلها، إلا بعد أن أجبرتها على اللقاء، وانتزعت منها الوصال، ولكن ذلك كان في أحلامي فقط!!!، فأنا كنت سيد الخيالات، ألا تذكرون؟ وفي الحقيقة، ظل وجهي ضائعا على الأرصفة طوال سنين، لا تميزه امرأة أو فتاة، تبعد عني إعتياديته، اللعوبات اللواتي كنت اشتهيهن، وتجذب علامات البله، التي لربما بدت فيه أحيانا، البريئات اللواتي لم استطع أن أحبهن، لألبي الرغبة بالزواج، المعلنة بوضوح في أعينهن المشتاقة إليه، لا لي!!! كنت أصدم بالنفور غير المنطقي الذي تبديه كل فتاة معقولة أحاول الاقتراب منها، فألوذ بالفرار خوفا على المتبقي من عزّة نفسي!!! ولكني مُنحت ثقة كبيرة، بعد نفور، في أحيان كثيرة، فأصبحت أثيرا أو صديقا أو حتى كاتم أسرار، ولكني لم أصبح عشيقا أو محبوبا، فقد كان هذا يبدو وكأنه ضرب من مستحيل!!!. أنا لم أكن عذريا، وشبق المراهقة المكبوت، كان يدفعني لاشتهاء أية فتاة تقترب مني، ولكني تركت انطباعا لدى الكثيرات منهن يوحي باني واحد من أكثر الفتيان ع فة! أومن يدري، لربما عنّة أيضا؟!!!. كانت الغيرة التي اشعر بها عندما استمع إلى مغامرات أترابي النسائية، تدفعني إلى ندب حظي اللعين الذي كان يأبى إلا أن يدير لي ظهر المجن، كلما بذلت جهدا لكسر طوق الحرمان الذي فرض علي في دنيا النساء. ولم يكن خيالي ليبخل علي برؤى أرويها للآخرين في المقابل، فتسر أسماعهم، وتحوز إعجابهم، فقد كنت كذابا متميزا في هذا المجال! ولكن هذا لم يخفف عني وقع الإحباط يوما، فدفعني نزق المراهقين إلى أحضان البغايا في سن مبكرة! ولكن ذلك كان مرتين، أو ثلاثا، في أواخر أيام الثانوية! أما بعد ذلك، وبعد توفر فائض الراتب عندي، وفي غياب الرادع الديني، الذي هو أقوى الروادع الأخلاقية، فان شيئا لم يكن ليمنعني عن ارتياد المواخير!.

لقد كان بودي أن أتجنب الخوض في هذا الموضوع المخجل بالنسبة لي، ولكن الرغبة في قول معظم الحقيقة، هي التي تدفعني إلى عدم التغاضي عنه، لقد ارتدت بيوت الرذيلة ولكني لم أدمن دنسها، لأني لم استطع أن ألامس إحداهن يوما، من دون أن أحس بالقرف والاشمئزاز، لا من العواهر اللواتي كن يشاركنني عهري، فأنا كنت، وما أزال، ارثي لحالهن البائس، واعتقد بان معاناة الشعور بجحيم الدونية الرهيب، والوقوع تحت رحمة رغبات سقط الناس، هما أقسى عقوبة يمكن أن تنزل بإنسان!، ولكن القرف، كان من نفسي، واشمئزازي، من هوانها، فاهرب من وكر الرذيلة، مقررا أن لا أعود إليه، ولكن بعد أن اكتوي بحمى جسدي المكبوت، وانقطاع

وصل الفتيات الشهيات، بعد حين، أتستر بظلال الجدران، وأنأى بظلي، بعيدا عن العيون التي يمكن أن تلحظ عاري!، وأنا ما أزال بعيدا عن تلك الأزقة الموبوءة التي أنا ساع إليها!!! وعندما أقف أمام الأبواب الموصدة، أبقى مترددا لفترات طويلة،و في غفلة من عيون الآخرين، ألجها، لأعيد تلك التجربة المقرفة، علّي أطفئ ناري، ولكنها كانت دوما تزيدها أوارا!!!.

لعلكم يا سادتي يا كرام، تستهجنون ذكري كل هذا وأنا في خضم الحديث عن اطهر إحساس يمكن أن ينتاب إنسان؟! لقد قلت لكم باني إنسان عادي، لا شيء مميز فيّ، وأنا لا اشعر بخجل منكم عندما أقول، إن الأمل في ظهور من أحب، كان يحدو بي في ذلك الوقت، رغم الأوحال التي كنت أتمرغ فيها!، ولكنها تأخرت كثيرا في الظهور.

و أخيرا، وأنا في طريقي إلى اكتساب راحة اليأس، وفجأة، وجدتها!. أنا لا ادعي بان الحزوز التي تكاثرت في نفسي، من تلك الأيام الغابرة، لم تترك آثارا، يمكن أن تكون عقدا، أو إرتكاسات، وأنا اعترف باني أفاجأ أحيانا بوهن في داخلي، يحتاج إلى تصحيح، ولكني أفاخر باني قد نبذت دنس العواهر، لا بعد الزواج كما قد يتبادر إلى أذهانكم، بل في ذلك اليوم الحار الذي سيبقى خالدا في ذاكرتي.

(قطرات مطر على أرض يباب)

وجدتها؟!، بل ساقها الحظ الذي لطالما لعنته، إلي!، لاقيتها، وذكر ظروف اللقاء غير مهم، بل المهم، هو أني عرفتها على الفور، لأني سمعت همسا يتردد في داخلها، وشممت فيها عطرا لا يمكن ان تخطئهما غرائزي، لأنهما همس الطبيعة وعطرها! فعرفت بأنها الفتاة التي يمكن أن اغتسل بشفافيتها، وأتطهــر من الأدران، بطهـــرها، لكي أكــون صالحا لها. فتاة اعرفهــا قــبل أن تعرف هــي نفسها، لأنـــي أحببتهــا منذ أن بـــدأ نســغ العواطف يســري مع النجيـــع في شراييني. أنا لا اعـرف كيف كان يمكن أن يكــون حالــي اليـــوم، لو لم

ورقة مفقودة

إذ يهيم الليل في براري السماء
أقف متوحدا، غريبا، في قفر الأرض، مستوحشا
تطل علي النجوم بخفر وحياء
فتبتسم لي اليمانية، ويغمرني فيض شعاع
تهمس باسمك، فتتألقين
ويطل وجهك من ثنايا الروح
وعندها يصبح هواك
حلما، نورا، دنيا وصلاة

وغير هذا من نثر المحبين الكثير، في الرسائل التي تتالت، ولكن تبقى تلك الرسالة الأولى، هي الأحلى والأروع، لأنها هي التي جعلت اللقاء الأول ممكنا!.

كانت تجلس أمامي مبتسمة وهي متشحة بالأبيض، كما حلمت بها طوال عمري (وهذه حقيقة وليست من تهاويل الشعراء). كان حلمي الكبير قد بدأ يتحقق بذلك، ولذلك كانت سعادتي لا توصف. قالت بعد تردد واضح:

ـ في الحقيقة، أني، أني،

قلت بلهفة وأنا أحاول أن أشجعها على الكلام:

ـ هيا قولي كل ما تريدين، فكلي آذان صاغية، فقط قولي.

فقالت بصوت هو إلى الهمس اقرب :
ـ كنت طوال عمري، انتظره بلهفة، ولا أنكر باني كنت أحيانا افقد الأمل، ولكني بعدها كنت أشجع نفسي لكي أعود إلى ملل الانتظار لأني اعرف بأنه موجود في مكان ما، وسيظهر حتما بتوقيت ما. ولكن الذي يحيرني هو أني كنت متأكدة من أني سأعرفه حالما أراه.
صمتت لثوان قبل أن تتابع بخجل:
ـ ولكن، أن تكون أنت، هو، فهذا ما لم أتوقعه! كنت أنت موجودا أمامي طوال اشهر، فلماذا لم اعرف؟ لماذا لم اشعر؟ وكيف استطعت أن تخفي عني مشاعرك، قبل أن تبوح بها ؟ هذا هو الذي يربكني ويثير حيرتي الآن! إذا كان هو، أنت، فلماذا لم أعرفك؟.
كنت اعرف عمّ تتكلم بالضبط، ولكني لم أشأ أن أقاطعها، لأني لم أكن قد شبعت بعد من لذة الاستماع إلى صوتها، الذي كان يشي بارتباكها، كنت مستنفرا جوارحي لرصد كل ما يزيد من يقيني بأنها، هي، قلت متضرعا بعدما صمتت :
ـ هيا قولي، تكلمي، لا تدعي شيئا يمنعك عن قول ما تريدين قوله، فأنا أيضا لدي الشيء الكثير الذي أريد قوله، ولكني لن أبوح بحرف واحد، إلا بعد الاستماع إلى كل ما تقولين.
أطرقت برأسها مفكرة لحظات قبل أن تقول:
ـ أو تدري ؟ لقد كدت أذوب خجلا عندما قلت لك لا، بعد ما صارحتني بحبك.
ـ ولكن، لم كنت كذلك ؟ فان من حق الإنسان أن يقول لا، لمن لا يستطيع أن يبادله حبا.
ـ نعم، ولكنك كنت تتكلم بحرارة ووضوح شديدين، أكّدا لي صدق مشاعرك، وأنا لست بالفتاة التي تستهين بالمشاعر، أية مشاعر، فكيف إذا كانت حبا لي، أنا بالذات؟، قل لي، إلى أي مدى أستطيع أن أكون صريحة معك؟.
ـ أي سؤال هذا؟ تستطيعين ذلك إلى أي مدى تريدين!.
ـ حسنا، عندما كنت تتكلم في حينها، رأيت فيك إنسانا آخر، غير الإنسان الذي شعرت به طوال اشهر، كنت مختلفا جدا، وعندها أيقنت باني لم أكن أعرفك أبدا، ومع ذلك رفضت لأني كما قلت لك، لم أتعرف عليه، فيك.
كانت تتكلم عن تلك الانطباعات اللعينة، التي تترسخ في أذهان الآخرين عني قبل أن يعرفوني بكل تأكيد، ولكني لم أشأ أن أتكلم عنها في تلك اللحظات فقلت متسائلا :
ـ إذا، ما الذي تغير بعد ذلك، ودفعك إلى،
تلعثمت فجأة لأني تصورت باني سأبدو فضّا إذا ما أكملت جملتي، ولكنها أنقذتني بالقول:
ـ تقصد، أن اتصل بك هاتفيا بعد أسابيع؟
ـ نعم.

ـ كانت رسالتك، هي التي دفعتني إلى ذلك، فقد كنت تعتذر فيها عما بدر منك وكأنك كنت تتوقع ردي سلفا؟!، وتعتذر عن مشاعر نبيلة انتابتك! لأنك توقعت باني سأقول لا، يا ويح نفسي، أية حمقاء كنت، عندما رفضت أن آخذها في البداية؟.

ـ لا تقولي هذا عن نفسك، ولكن اخبريني، لماذا رضيت أن تأخذيها فيما بعد؟

ـ لأني شعرت برغبتك الشديدة في أن اقرأ ما كتبته، ولان قراءتها كانت ابسط ما يمكن أن أقدمه لك، مقابل كل المشاعر الحلوة التي أظهرتها لي ورفضتها!.

ـ ولكن هذا كان من حقك، فأنت أيضا لك أحلامك الخاصة، ولك فكرتك عن الرجل الذي تحبين. أما عن الرسالة، فإنها كانت مجرد محاولة شرح أو تبرير للتصرف الذي بدر مني، كانت توضيحا لحقيقة ما جرى في داخلي ودفعني إلى أن،

سكتّ فجأة لان جزءا كبيرا من سعادتي كان قد غار، فقد شعرت باني كنت اكذب في تلك اللحظات!!! بعدما كنت قد قررت أن لا اكذب عليها، نعم كنت اكذب، لان تلك الرسالة وان بدت وكأنها للاعتذار، ولكنها كانت في الحقيقة محاولة أخيرة ولكنها مؤثرة، لكسب معركة الحب التي أدركت بأني قد خسرت بدايتها، بعدما طال انتظاري لردها الذي لم يأت، رغم أني كنت قد اتصلت بها هاتفيا وصارحتها بحبي، أنا اقسم باني لم اكذب في تلك الرسالة أبدا، ولكني انتقيت عباراتها بطريقة يكون لوقعها على قارئتها فعل الزلزال!!! فأنا كما قلت لكم، كنت اعرفها من دون أن تدري هي، ومجرد كشف ذلك لها كان سيهزها بكل تأكيد. قالت بعد أن طال صمتي:

ـ لقد كانت رسالة اعتذار رقيقة، وكان من الممكن أن لا أرى فيها شيئا أكثر من ذلك، لولا، قالت ذلك وسكتت وهي تهز برأسها برفق مبتسمة، فقلت بلهفة:

ـ لولا ماذا؟

ـ لولا انك تحدثت فيها عني، وعما يدور في دواخلي، كان ذلك مذهلا، لان معظم ما قلته كان صحيحا! كيف أمكنك أن تعرف كل تلك الأشياء عني؟ فأنا والله لم أبح بها لأحد في حياتي! فكيف عرفتها؟

سكتت قليلا، ثم قالت:

ـ كان هذا كافيا لكشف مقدار حبك لي، ساءني أن اخسر هذا الحب الكبير، فبدأت أمعن التفكير فيك، استعيد صورتك أتذكر نظراتك وتصرفاتك، و كلماتك، فلا أرى فيها ما يشي بتلك المشاعر! فكيف استطعت أن تخفيها كل تلك ا لمدة عني؟ ولكن هذا ليس مهما الآن، المهم هو أني في النهاية سألت نفسي "ألا يمكن أن يكون هو، هو؟" وقبل أن تسألني أقول، أنا لم اعرف الإجابة بعد، ولكني لا أطيق الخسارة في هذا المجال، ولذلك اتصلت بك، لكي،

بدا عليها الارتباك فجأة فسكتت، توقعت ما كان يمكن أن تقوله، ولكني آثرت أن اسمعه منها، فقلت مشجعا :

ـ لا تتوقفي الآن، هيا قولي واطلبي ما تريدين،

ـ حسنا ، أنا اعرف بان ما سأطلبه منك، لربما يبدو غير معقول، ولكنه المخرج الوحيد الذي اهتديت إليه وأنا في حيرتي.

ـ وما هو؟!

ـ أن تمنحني فرصة، لكي، أعرفك أكثر.

كان هذا هو ما توقعته بالضبط، وكنت انتظره بفارغ الصبر، اصطخب الفرح في داخلي وغمرتني السعادة، فقلت باندفاع :

ـ أنا اعرف بأن الذي طلبته مني للتو قد يكون غير مقبول من قبل غيري من الرجال، لأنهم لا يحتملون فكرة أن ترفض حبهم امرأة، ولكني وبكل إحساسي برجولتي أقول، لك ما أردت، بدون تردد، فقد كان هذا هو أقصى ما أتمناه، وسأنتظر واصبر حتى تتأكدي من مشاعرك.

كانت تتابع أقوالي والدهشة تكاد تقفز من عينيها، وقد شعت ملامحها بفرح لم تشأ أن تخفيه، كان جبروت الحب، الانفعالي، يجتاحني بعنف، فيجعل نبضات قلبي تتسارع، قلت بصوت حاولت أن يبدو هادئا ولكنه أبى إلا أن يتهدج:

ـ أحذرك باني سأكسب معركتي، وعذرا لهذا التعبير، ولكني سأكسب معركتي، لان الزمن كان يجري دوما لصالحي في علاقاتي مع الآخرين، ولا أرى الآن ما يمنعه من أن يكون كذلك معك أنت أيضا، بل هو سيكون كذلك معك أنت، بكل تأكيد. لا تدعي أقوالي هذه تؤثر عليك، وخذي من الوقت ما تشائين، ولكن لا تطيلي انتظاري، رأفة بي.

كنت انتقي كلماتي بكل حذر لأني اعرف بأنها كانت تراقبني بكل اهتمام، وكنت أريد أن اكسب من النقاط في ذلك اللقاء، ما يجعل من أمر البت في النهاية محسوما لصالحي، قلت:

ـ فقط تأكدي جيدا من مشاعرك قبل أن تقرري، لان نزوة أو رغبة أو حاجة ما، يمكن أن تبدو وكأنها حب لأول وهلة، أحيانا، ولكن ما إن يزيح العقل أو الاعتياد، النزوة، أو تنتفي الرغبة أو تشبع الحاجة، حتى يختفي ما بدا وكأنه حب، ليجد الشخص نفسه وقد تورط في علاقة لا قبل له على متابعتها وعندها تكون المأساة. تأكدي، وثقي بقدرتك على الوصول إلى القرار الصحيح. وبتهي فأنا اكره العلاقات العابرة، جدا، ولا أطيق مفترقات الطرق التي تفصل بين المسافرين، فان قلتِ نعم، فان هذا سيعني بالنسبة لي، نعم إلى النهاية، نهاية حياتنا، هل تعرفين ما اقصد؟.

ـ بالتأكيد فأنا أيضا اكره قصص الحب الفاشلة، بل هي ترعبني.

(يا فتاتي الحبيبة، لن تستطيعي أن تقولي غير هذا لأنه كان هو الذي أتوقعه، فأنا أعرفك ولا مجال للخطأ). كان الوقت يدركنا بسرعة فقلت:

ـ حقا إن الأوقات السعيدة تمر بسرعة مذهلة، ولكني أريد أن أقول ما قد يبدو وكأنه سابق لأوانه، فاسمعيه إكراما لي، أنا أريدك أن تعرفي بأننا إذا ما قررنا أن نمضي في دروب العمر معا، فإننا سنواجه أوقاتا عصيبة في بعض مراحل حياتنا، تنسينا حلاوة هذا اللقاء، أنا لن اسمح لنفسي بان تندم على قرار إعلان حبي لك، ولكنك يمكن أن تندمي، فلا بأس، لان الأمور تجري هكذا أحيانا، أما أنا فاني لم أكن لارتاح، لو لم أحاول ما حاولته لأنك تستحقين كل ما شعرت به نحوك وبغض النظر عما سيكون من شأنك معي فيما بعد.

كنت أريد أن أتكلم، وأتكلم، ولكن الوقت اللعين أبى إلا أن يقطع علينا سحر الوصال، فافترقنا على أمل اللقاء في يوم آخر.

(تهويمة عاشق)

(أو تذكرين يا ثيزبي تلك الأيام الخوالي عندما كنت أبثك حبي من خلال شق الجدار؟ نتناجى، ونستهلك ساعات النهار، بتذكر عشق طفولتنا وهيام شبابنا. ألا تذكرين كيف وقف أهلونا بيننا، كما كان يقف ذلك الجدار اللعين؟ أرادوا أن يمنعونا عن الحب، فزادوا تأجج نيرانه في قلبينا!. ظالمون هم أهلونا، ومن اظلم ممن أراد أن يطفئ النيران المقدسة في أروقة المعابد؟. أواه يا عطية الآلهة، لكم كانوا ساذجين عندما تصوروا بأنهم يمكن أن ينتزعوا غرس عشتار من فؤادينا، اللذين ربطهما الهوى، ووحدهما الغرام؟! أرادوا أن يطفئوا جذوة الحب بعدما عرفنا بأنه سر الوجود الأعظم! ومن أصبح من العارفين، لن يرتضي بأن يعود إلى ظلمات الجاهلين.

ثيزبي، يا حبيبة العصور، أو تقبلين اعتذاري بعد كل تلك الدهور؟ فرغم عدم وجوب الاعتذار بين المحبين أقول، عذرا يا نسمة الحياة العليلة لتلك الهفوة التي سقينا بسببها أشجار التوت الأبيض بدمائنا! يا لثمن الظلم الباه ظ! سالت دماؤنا، ونحن لم نقترف ذنبا، أكثر من الرغبة في أن نتعانق بجسدينا بعيدا عن ذلك الجدار اللئيم، الذي زادته أعين أهلنا لؤما، ولكنه لم يستطع أن يمنع عناق روحينا المتصل. يا للآلهة ! ضاقت بنا بابل العظيمة، فرمنا اللقاء في نينوس، حيث لن نخشى الأموات، ونحن نمارس طقوس الحياة المتجددة. ولكن، من أين كان لي أن اعرف بأن تلك اللبؤة اللعينة ستخيفك، فتجعلك تلوذين بالفرار من أمامها، بعدما تركت لها رداءك، لتمسح به دماء ضحاياها؟! وأي حظ تعس رمى بذلك الرداء الممزق الدامي، أمامي، وأنا أتلمس دربي في الظلمة؟ يا لأنليل! تنتابني الآن القشعريرة نفسها التي شعرت بها قبل آلاف السنين، وأنا أتعرف عليه رغم الظلام!!! توقف الدم في شراييني، بل فر منها، اجتاحتني صفرة الموت، ورعشة النزع الأخير! تحاملت على نفسي لكي اطبع عليه قبلاتي الثكلى التي ادخرتها لثغرك الرائع، لعقت ما تصورته دمك الزكي، ومسحته بدموعي! أدميت بأسناني، شفاهي التي لطالما قبّلت حجارة ذلك الجدار، لأنك كنت خلفه تقبعين، والي تنصتين، إعتصرني الهم وزلزلني الأنين، جدّفت بحق الآلهة، وشتمت العالمين. ندمت لأني اقترحت هذا المكان للقاء، ولكن لا عزاء لمفجوع، في ندم، غمرني الحزن، ومزقت اللوعة أحشائي، وأنا اعتقد باني قد قتلتك، بمحاولتي أن أهبك الحياة. صرخت ولطمت وبكيت، حتى ذرفت آي الجميلة دموعها الفضية لبكائي، ولأجلي خاصمت بعلها العظيم، لأنه منعها من أن تغير مجرى القدر، بإخباري الحقيقة في تلك اللحظات!.

نعق الندم في أرجاء صدري، حتى غرزت فيه خنجري لكي أحرر روحي الملتاعة من اسر جسدي الفاني، وتهرع لتبحث عنك في مملكة أرشكي جال حيث تصورت أنك قد ذهبت إليها.

كانت تريد أن تضرع بكل لهفتها، لها علّها تلاقيك بها، ولو في سعير الجحيم! أو في أعماق بحار الظلمات الرهيبة! ولكن يا ويح نفسي، كيف تصورت بان ملاكا مثلك يمكن أن يطأ ارض المعذبين؟! هل سيكون مآلك، غير الفردوس وجنات نعيم؟ ولكن من أين لمثلي، أنا، قاتل حبيبته أن يأمل بدخول مملكة الحور والرياحين؟!.

أواه يا آلهة الرحمة، ويا ملائكة السماء! كيف اصف ذهولي لرؤيتك بعد موتي، آيبة إلى ارض اللقاء، وأمام جسدي الذي نضبت فيه الحياة، التي كانت تمل ؤك، تترنحين وتهوين؟!. رفرفت روحي هائجة وهي تصرخ من ألم لا سبيل إلى وصفه! سمعتها الأبالسة، وبكت لها الملائكة، ولكنك لم تسمعي، وأنت في دنيا الأحياء تبكين، تضرعت إليك أن تكفي يدك الممسكة بخنجري الدامي، عن صدرك الحبيب، ولكنك لم تسمعي، وأنت في دنيا الفانين تنوحين. أي حبيبتي، كيف أغمدت ذلك القاتل بين نهديك الكاعبين؟ صرخت، وصرخت، حتى فرت شياطين أرض الأهوال، فزعة من حولي، وأنت يا منية القلب، لا تسمعين!. ترى، أي ذنب اقترفت؟ وأي جناية جنيتها، لكي أعاقب بتلك الفظاعة؟! أي قدر كان ذاك؟ وأي عقاب؟.

ثيزبي، يا ثيزبي ! مالي أراك ذاهلة؟ وأنت لي ناكرة ! أو لم تعرفيني؟! أنا بيراموس، حبيبك، ألا تذكرين؟! ألا تذكرين بابل؟. ألا تذكرين سميرا ميس؟. دارينا المتلاصقين، أهلينا الظالمين، ألا تذكرين؟. أنسيت طفولتنا ومراحنا ؟أنسيت أيام هنا ئنا ودهور عذاباتنا؟. ولكن، أنت حتما ناسية، بل كان يجب أن تنسي، حالما تركتِ جسدك الهامد، ملقى على جسدي الذي سقته المنايا بكؤوسها، لترتفعي، والى عليائك تسمين، فهكذا شاءت الآلهة، وهكذا حكمت سننها والقوانين، ولكن، ألم تسألي نفسك وأنت حياتك الحالية تعيشين؟ لم انتظرتِ كل تلك السنين؟ ألم يكن كل ذلك، لكي آتي أنا من دون العالمين، فتهبيني قلبك الثمين!.

ألم يكن هناك عشرات قبلي، خطبوا ودك؟ وآلاف غيري هم أفضل مني! فلم أنا بالذات؟ أليست هي لعبة الأقدار، وهوى الأرواح التي لا تنسى؟. أنا بيراموس، وان كنت قد نسيتِ اسمي السابق، فأن روحك الخالدة لا يمكن أن تنسى؟ أنا بيراموس القديم يا فرحة الروح، وها قد عدت لكي أضمك إلى صدري أخيرا، عسى أن لا تمنع الأقدار استمرار لقائنا مرة أخرى!. ترى؟ كم مرة التقينا خلال القرون التي أعقبت تلك المأساة، وحتى الآن ؟ لابد من أن نكون التقينا مرات ومرات! ولكن ذلك الجدار انتصب خالدا في ذاكرتينا، ليمنع تواصل الذكريات، ولولاه لعرفنا كم من مرة أوصلنا قارب الحب، إلى بر السعادة والأمان! وكم من مرة غرقنا في خضم أمواج الحياة شهداء لقضية الإنسان الكبرى، الحب الخالد.

تعالي يا ثيزبي لنطفئ لهيبنا بالقبلات، ونعوض بالعناق حرمان تجاربنا السابقة، تعالي لننفخ بمزامير السعادة ونملأ دنيانا حبا، أملا ومهرجانات أفراح، تعالي نرد لعشتار جميلها، بأن نكون

متحابين، وسعداء! تعالي لنملأ الحياة، حياةً، ونتهيأ للقاء آخر في حياة أخرى ولكن، بعد عمر مديد هذه المرة، لا حبا بالحياة نفسها، ولكن حبا بالحب).

(إستيقاظة محب)

مضى على ذلك اليوم البهيج ستة عشر عاما، وهي الآن زوجتي. ومثلما وعدتها، لم اشعر بالندم يوما لأني أعلنت الحب، عليها! ولذلك أنا واثق الآن باني لن اشعر به أبدا، بعدما أجبرت نفسي على أن أحبها كما هي بالفعل، لا كما حلمت بها، وعندما أقول، أجبرت نفسي، فإني لا اعني بان الفارق كان كبيرا بين الحلم والحقيقة، لأنها إن لم تكن متجددة كالربيع، فإنها صافية الأديم، وان عجزت عن أن تكون عادلة عندما تغضب، فإنها في الأقل، معطاء عندما ترضى! و اعذروني يا أيها الرجال إذا ما سألتكم، هل تستطيعون انتم أن تكونوا منصفين عندما تغضبون؟!. المهم، إنها كانت تمتلك معظم الصفات التي حلمت بها وهذا أكثر من كاف بالنسبة لي، لأني لم أكن ملاكا في يوم من الأيام. ولعل السبب في غضبها، وبغض النظر عن الأسباب المعلنة لكل حين، يكمن في أني لم استطع أن اقترب كثيرا من الصورة التي رسخت في بالها (عنه)!!! ولذلك أقول بأنها يمكن أن تكون قد أحست بالندم، الذي لم اشعر أنا به، ولكن هذا لا يهم، لأنها في الحقيقة امرأة بضمير حي، ولكم أن لا تصدقوا بوجود مثل هذه المرأة، ولكن إياكم أن تتصوروا أني أقول عنها ذلك، لمجرد أنها زوجتي.

عندما تزوجنا، كنت قد تجاوزت الثلاثين، وكانت هي تصغرني بسبع سنين، وهو فارق مثالي بين الأزواج، إن كنتم لا تعلمون؟ وأنا لا أفاخر بذلك، لان هذا ليس من حقي، بل أريد أن أبين لكم بذكره، مدى الإجحاف الذي ألحقته بحظي عندما وصفته يوما بالعاثر!!!. كانت هي قد أنهت دراستها الثانوية بتفوق واضح، ولكن أهلها رفضوا أن تكمل دراستها الجامعية! وحجتهم في ذلك العوز المادي، ولكني متأكد من أن ذلك السبب كان آخر الأسباب المتعددة التي دفعتهم لاتخاذ ذلك القرار!!!. أنا لا أريد الخوض في تفاصيل تلك الأسباب ومسبباتها! وإنما أنا آسف فقط لضياع فرصة هذه الإنسانة العزيزة في الحياة جبرا، كما فرض عليها، لا اختيارا أو كسلا كما فعلت أنا!!!.

عندما أحست بجنينها الأول ينمو في أحشائها، تحرك حسها العملي، فقررت أن تستغل مهاراتها الجيدة في الخياطة لكي تضيف موردا آخرا إلى الراتب المحدود الذي كنت أتقاضاه، والذي كان يكفينا نحن الاثنين، ولكنه لن يفي بالتأكيد بمتطلبات أطفالنا الذين كنا نحلم بتهيئه أفضل حياة ممكنة لهم. وعندما قررت ذلك، لم أناقشها كثيرا، بل وافقت بعد تردد، ومرة أخرى لم اندم لأني سايرتها في شيء تريده بعد طول تفكير، لان راتبي لا يشكل اليوم سوى النسبة الأقل في ميزانية البيت!!! أما الباقي، فهو من واردها كخياطة لنساء المناطق المحيطة ببيتنا. وهذه الميزانية تتيح لنا الآن أن نهيئ مستلزمات الحياة لأطفالنا، بشكل أفضل من معظم معارفنا

وأصدقائي، وهذه الحقيقة وان كانت تشعرني بالأسف لأني أتمنى لو كانوا في سعة من عيشهم، لا كما هو حالهم بالفعل، إلا أنها تجعلني راضيا، إذ أرى أولادي يسعدون بما هيأناه لهم، حتى لو كان ذلك متأتيا من جهود زوجتي!!!. سأكون كاذبا لو قلت باني لا أتمنى أن تكون هذه الميزانية، وأكثر، نتيجة لجهودي أنا، لأني أنا الرجل!!! ولكني لا أستطيع أن أشكو من ش يء، رغم عدم تحقق هذه الأمنية.

أنا متأكد من أن زوجتي لا مطامع شخصية لها في الحياة وهي تكد بعملها الشاق، ولكني لا أستطيع أن أنوب عنها في الكلام. أما عن نفسي، فان كل متطلبات حياتي هو ما يسد رمقي من طعام شرطي الوحيد فيه أن يتقبله ذوقي، ولفافة تبغ وشاي! ولكي أكون أكثر صدقا، أضيف إلى هذا، ملابس لائقة حتى إذا كانت قديمة، أما غير ذلك فانه شيء لا يستحق أن يذكر. ولاني أؤمن بان هذا كان مفروضا علي بشكل أو بآخر، من خلال نوعية شخصيتي، التي لم اخترها أنا بكل تأكيد! ولتجاربي الخاصة، التي لم انتقها! فإني لا أقول هذا ادعاء، خاصة وأنكم تستطيعون أن تدّعوا الشيء نفسه، والأكثر من ذلك أن تفاخروا به. ولكني لا أستطيع وأنا اذكر هذا، أن امنع نفسي عن تذكر تلك الطواويس الآدمية التي تتبختر متباهية بملابسها الأنيقة! فيما يرزح أبنا ؤهم تحت عار الإحساس بثقل الخرق البالية التي تكسو أجسادهم!!!. يتسللون خفية إلى المطاعم لكي يلتهموا ما يشتهون من مأكل ومشرب، فيما يقضون أوقاتهم النادرة في بيوتهم، لكي يقنعوا أولادهم بتناول ما يقدم لهم من طعام بائس، ولو كان مجرد كسرة خبز!!!. انتم تعرفون مثل هذه النماذج بكل تأكيد، فاسألوهم عن مطامعهم في الحياة، والله سيقولون لكم بأن لا مطمع لهم سوى تربية أطفالهم، وتوفير أسباب العيش لهم، ولكن! ذلك لن يكون إلا بضرب الذي يتجرأ من أولادهم على طلب النقود، لكي يشتري زجاجة مرطبات اشتهتها نفسه الصغيرة، وتذكيره بالفقـر الذي فرض عليهم! ليسارع الأب الكريم في الليل إلى شراء زجاجة خمرة، لينسى بشربها، فقره المدقع! ويبكي وهو ثمل، على أولاده المساكين الذين يعانون من العوز بسبب الحظ العاثر اللعين الذي أبى إلا أن يلازمه طوال حياته البائسة!!!.

كانت ثمار زواجنا، ولدين يقتربان الآن من حدود فترة المراهقة، وأنا متهيئ لتلك المرحلة الصعبة من حياتهما، بكل قدرتي على الحب والمتابعة وال تنبه، وطفلة في شهرها الخامس أصبحت منذ ان أهلّت، بهجة حياتنا. هؤلاء هم كل أولادي، وهم التحدي الأكبر في حياتي، وأنا وبكل وعيي بطفولتي غير المشبعة، ومراهقتي المجدية، ورجولتي المتأخرة، أؤكد بأني مصمم على ان امنع كل الأخطاء المشابهة لتلك التي ارتكبتها أنا، أو تحملت وزرها، من ان تلقي بظلالها على حياة أولادي.

أنا لا احلم بأن يكونوا أطباء مشهورين، أو مهندسين بارعين، كما تفعلون! أنا فقط أريدهم أن يكونوا ناجحين في المجالات التي سيختارونها بأنفسهم، ولكن قبل ذلك عليهم أن يكونوا أشخاصا جيدين. فإذا تحقق ذلك، أكون قد عشت حياتي بسلام، وأديت واجبي، أما إذا لم يصبحوا! فاني أتمنى، أن يكون الموت قد أخذني، قبل أن أراهم كذلك. ولكن بغض النظر عن الأمنيات التي تتمنوها لأولادكم، يجب أن تعوا جيدا بأنكم إنما تربونهم لكي يصبحوا أناسا كاملين، وهذا يعني بان مسؤوليتكم الأدبية تمتد إلى ما بعد بلوغهم سن الرشد، تذكروا هذا جيدا ولا تنسوه عندما تحاسبون أطفالكم على أعمالهم، واعلموا بان الطفل عندما يجبر على التصرف كأنسان بالغ، فانه سيفقد الفرصة في أن يكون كاملا عندما يبلغ!.

أنا أحب أطفالي كثيرا، بالضبط كما تفعلون، ولكني حريص على أن لا أؤذيهم بحبي هذا! فهناك من الحب إن كنتم لا تعرفون، ما يؤذي! ومنه، ما يضلّ بعض الناس عن دروبهم!. أما عن زوجتي، ما زلت أحبها كثيرا، ولذلك أقول باني راض بما تهي أ لي حتى الآن في حياتي العائلية، ولكني اعرف بان الوضع كان سيكون أفضل كثيرا لو كنا قد استطعنا، أنا وهي أن نحافظ على روابط العشاق بيننا، لان العاشق ينقاد إلى معشوقه بحكم شعوره بالانتماء إليه، ولكنها حولت الروابط، ومن دون أن تدري، إلى علاقة بين زوج وزوجته. وأنا هنا لا أشكو عقوقها، لأنها تمتلك عقلا وضميرا، ومن كانت كذلك لا يمكن أن تكون إلا بارة بزوجها، وإنما أتحدث فقط عن إمكان الاقتراب من الكمال، ولكنها تبقى حبيبتي لأني لا أستطيع أن أفكر بها بطريقة أخرى، ولو ملكت حق الاختيار ثانية، فاني لن اختار غيرها، حتى بعد أن عرفت أنها لن تكون إلا زوجة لي بعد الزواج، رغم قصة الحب الرائعة التي عشتها قبله!. هي تستحق كل المشاعر التي انصبت عليها، وان أصبحت الآن تنام سريعا لأنها متعبة طوال الوقت بسبب مشاغلها، وتدعني وحيدا في مواجهة ليلي الطويل؟ فلا بأس، لأني تعودت على السهر وحدي، وإن شكوت، فلن أشكو غير الليل! لان ليلكم ان كان يمتاز بالهدوء والسكينة، فان ليلي لا هدوء له ولا سكينة ! بل كان مكثفا للآلام، ومصورا للهواجس، وما يزال. ليل ينام فيه أنا(ي) الهادئ الخجول الذي تعرفونه، ليستيقظ (أنا)، هائج، جامح وثائر. لا يعرف للهدوء طعما، ولا للسكينة مذاقا. أنا، يعاني العذاب في لياليه، فهو يتحسس فيها هواجسه ويكاد يلمس لمس اليد، آلامه! لأنها تتحول إلى كيانات شبه مادية لشدة وضوحها! لا مجرد أحاسيس كما هي بالفعل. أنا أتحرر من كبت المشاعر متسترا بظلمة الليل (وكأن نور الشمس يمكن أن يفضح خفايا الوجدان؟!). وابدأ باجترار إحباطاتي طوال ساعات، حتى أشارف حدود الجنون، ولكني أعود إلى الواقع فجأة على صوت طفلتي الصغيرة، وهي تصرخ طالبة الحليب، أو، عندما يقطع علي خلوتي،

أحد ولديّ، فاشعر بسعادة، لان الواقع وان بدا مملا أو غير محتمل أحيانا، فإنه أرحم من جنون الخيالات بكثير.

(سجين)

يقع مبنى السجن المركزي في ضواحي العاصمة، وهو ضخم ويبعث الكآبة في النفس، يحيط به سور عال، في أركانه الأربع ة، أبراج هائلة تستخدم للحراسة، تعتلي جدرانه أسلاك شائكة ومكهربة، لم تكن ذات فائدة بنظري لان الجدران كانت عالية جدا! ولكن يبدو أنها وضعت لتزيد من شعور السجناء بالإحباط، وتمنعهم من التفكير بالفرار، والدليل، انه لم تسجل حالة فرار واحدة من هذا السجن الحديث نسبيا مقارنة بالسجون الأخرى، طوال فترة عملي فيه، وهي طويلة بالفعل!.

كان نزلاء هذا المبنى، خليطا عجيبا من شخصيات شتى وفدت من كل طبقات المجتمع، والغريب إن الأمور هنا تجري كما تجري هناك بالضبط! فأنت في السجن تستطيع أن تنال كل شيء! إذا ما توفرت لديك الأموال، ولكن، كل شيء يمكن أن يتمناه سجين بالطبع، وفي بعض الأحيان، ما لا يجرؤ سجين آخر على تمنيه!!!. أنا لم اسمح لعلاقتي بالسجناء أن تتعدى حدود غرفة المكتب الذي خصص لي، ولذلك سأتغاضى عن ذكر كل ما سمعت به فقط، من دون أن أكون شاهدا عليه، أو في الأقل، أن أنال اعتراف الشخص المعني به، لأني لو فعلت ذلك لبدت أوراقي هذه وكأنها حديث متصل عن اللامعقول في عالم عجيب!.

لقد تعاطفت مع السجناء على اختلاف أنواعهم، ما عدا قلة نادرة منهم، لم استطع أن اشعر بأي تعاطف معهم، ولكن صدقوني، لم اقصر بواجبي معهم رغم ذلك. إن تعاطفي لا يعني أبدا أني أؤمن بأنهم لا يستحقون المصير الذي انتهوا إليه، بل العكس هو الصحيح، لأني أرى إنهم استحقوا حكم المجتمع عليهم لأنهم اخط أوا بحقه. ولكن هذا لا يعني أبدا أن نتجاهل حقيقة إن معظمهم كان ضحية أسرة مفككة، أو أبناء لجهلة أنانيين، أو حتى ضحايا المجتمع نفسه لأنه لم يهيئ لهم البدائل الجيدة التي يمكن أن تعوضهم افتقادهم الرعاية الأسرية الصحيحة. ومن أراد منكم أن يناقض رأيي فليتفضل ويحاول أن يخمّن نسبة الأمل التي يمكن أن يمتلكها طفل يرى نفسه وحيدا في عالم لا يرحم وتائها في شوارع ظالمة، في أن يكون رجلا صالحا في المستقبل؟!!!. أنا أصاب بإحباط شديد عندما أفكر بما يمكن أن يتعلمه أولئك الصغار الذين يدفعهم أهلهم إلى الشوارع لكي يستجدوا المارة طوال ساعات النهار!!! ولا أؤمن بان كل الأطفال الذين يسلمون إلى أصحاب مهن جاهلين، ليعلموهم أسرار مهنهم، سيكونون عمالا ماهرين!!! أنا لا أنكر أن طيبة القلب صفة مميزة لمجتمعنا، ولكنها بدون عقل متفتح لا يمكن أن تنجي طفلا مهددا بالسقوط من مصيره المحتوم.

أنا(ولا بد أنكم لاحظتم كثرة استخدامي لكلمة أنا، فلا بأس لأني أنا أيضا مصاب بهذه اللعنة) لا أريد أن أثقل عليكم كثيرا بتمثيل دور المصلح الاجتماعي أمامكم، فما أنا في الحقيقة سوى مرشد صغير لم يستطع أن يقدم لهؤلاء المساكين الشيء الكثير!. كنت أصغي بكل جوارحي إليهم وهم يتكلمون عن معاناتهم، لا لكي أقدم لهم ما يقيل عثراتهم، فذلك لم يكن متيسرا لي، بل لأني كنت أرى في تجاربهم المريرة مادة غنية تشبع بعض نهمي إلى معرفة بواعث تصرفات الآخرين!!!. أنا لا أستطيع أن ادعي باني قد أصلحت واحدا منهم! وان كانت كلمة طيبة مني، أو تصرف رقيق، قد اثر في بعضهم، إلا أني لم أر واحدا منهم يوما، وقد عاد إلى الانضواء تحت راية المجتمع السليم بسبب ذلك! لان الكلمة الطيبة صدقة كما تعرفون، ولكنها لن تكون ذات فائدة إلا مع المهدد بالسقوط، أما من كانوا في درك أسفل، فان ما يحتاجونه أكثر منها بكثير!.

أنا لو حاولت أن اصف لكم حياة السجن الحقيقية فإني لن أجد خيرا من كلمات مكابد، السجين الشاب الذي تعرفت به هناك، تفي بهذا الغرض، واليكم كلماته كما قالها بنفسه :

(عندما يصل السجين إلى هنا، يكون نهبا لمشاعر متناقضة، فهو يكاد لا يصدق ما يحدث له فيكون حزينا، وغاضبا!، يائسا، ومليئا بالأمل!، مستعطفا ومتمردا! ولكن ابرز ما يميزهم جميعا، هو انتظارهم في بدء حياتهم هنا معجزة تنقذهم من الكابوس الذي يجدون أنفسهم فيه!!! وهذا هو ما اسميه بالفترة الانتقالية! لان حياة السجن الحقيقية تبدأ في اليوم الذي يستيقظ فيه السجين ليجد نفسه وقد امتلأت بسكينة غريبة وهدوء مريب! لأنه يكون عندها قد استوعب فكرة أنه سجين، وعند ذلك فقط تبدأ أيام السجن التي لا تشبه أيام البشر الاعتياديين في ش يء، لأنها نسخ متتابعة ليوم واحد!!!. في مثل هذه الأيام، يعرف الإنسان المثقف، الطعم الحقيقي لمشاعر مثل، الحزن أو الفرح ! فهو لا يتوقف إلا عند الثمالة، عندما يتعامل مع كأس الحزن، ولكنه يفاجأ بمقدار الفرح الهائل الذي يشعر به عندما يكون هناك باعث على السرور!!! فمجرد احتمال أن يتجاوز السجين بقعة الأرض المخصصة له كزنزانة، يعادل بفرحه كل ما يمكن أن يشعر به مسافر إلى منتجع سياحي!!!. وان إمكان أن يغير سجين نوعية الأكل البائس الذي تعود على تناوله، تعادل بلذتها كل اللذة التي سيشعر بها شخص يتناول عشا ءه في واحد من أفخم الفنادق وأرقاها!. ولكن هذه المشاعر سرعان ما تزول بسبب الإحساس المرضي بثقل الوقت اللعين، الذي يكاد الناس خارج أسوار جحيمنا هذا لا يشعرون به! أما هنا فهو مأساتنا، لأننا نحس بكل لحظة من لحظاته، فنتفنن باستنباط الطرق الكفيلة بإبعاد ذلك الشعور ال ممضّ به، ولكننا في النهاية نسقط صرعى الإحساس به!!!.

إن تشتت فكر السجناء، بين جحيم يكتوون بنيرانه هنا، ونعيم بعيد يتصورونه، يجعلهم يعيشون حالة تمزق رهيبة تزيدها الأيام سوءا. لقد رأيت بعيني كيف تساقط الكثيرون تحت ضغط الظروف النفسية. هزموا واندحروا لأنهم لم يتحملوا! أنا اعرف بأنهم قد سقطوا لضعفهم ولكني أتعاطف معهم فهم يستحقون الشفقة، أما أنا فان قابليتي على الصمود ما تزال غير محدودة، وإصراري على المواصلة يتزايد، ولكن هذا لا يمنع الأسئلة المرعبة من طرق أبواب عقلي! إلى متى يدوم هذا الحال؟ وهل سأكمل المشوار إلى النهاية؟ أنا لا أستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة! ولا اعتقد إن أحدا يستطيع!).

(ضَلال)

كان السجناء خليطا من قتلة ولصوص ومحتالين ومختلسين، و آخرون لو أردت التحدث عنهم جميعا، لاحتجت إلى وقت طويل، وعدد اكبر من الأوراق، ولذلك آثرت ان أحصرهم بالفئات الأربع الأولى.

كانوا على تباينهم يجمعهم هاجس غريب، فهم ما ان يدخلو ن مكتبي حتى يبدءوا بترديد مقولة "أنا بريء" بدون ملل!!!. كان هذا الأمر يغضبني في البداية، ولكني تعودت بمرور الوقت عليه حتى عددته متنفسا لهم، لا ضرر منه ما داموا يقضون فترات عقوبتهم بالفعل، ولكني الآن أدرك بأني كنت مخطئا في هذا، لأنهم كانوا بحاجة إلى من ينبههم على أخطائهم التي يجب أن يعترفوا بها لكي يشعروا بالندم الضروري للتراجع عن سلوك الدروب التي اختاروها لأنفسهم.

كان معظم اللصوص من طبقات مسحوقة، ويجمعهم الجهل وقلة الوعي. حاولت كثيرا أن أحاور بعضهم، لكن الشعور بالإحباط كان ينتابني في كل مرة، حتى أقلعت عن تلك المحاولات، ولكني اكتشفت في النهاية بان معظم ما كان يحيط بهم في بيئاتهم كان يدفعهم دفعا إلى أن يكونوا ما هم عليه! أنا لا أريد أن أقول، بان الجوع يبرر السرقة (رغم انه يمكن أن يكون كذلك أحيانا)، ولكني أحاول الآن أن أفكر بالأمر على وفق وجهة النظر الجاهلة التي كانوا يمثلونها!، أنا لا أريد أن أفصح عن كل ما توصلت إليه بشأنهم، لأنهم بجهلهم وتفاهة أعمالهم جعلوا الحديث عنهم مملا وغير ذي شأن. لم يكونوا سوى نشالين وحفنة من صغار اللصوص الذين يسرقون الملابس من على حبال التنشيف! أو أجزاء صغيرة من سيارات متوقفة! وغيرها من الجنح التافهة!. ومن الغريب أني لم التق طوال المدة التي عملت خلالها في السجن، بلص واحد سرق شيئا ذا قيمة بالفعل!!!، ما عدا سرقة السيارات طبعا، ولكنها كانت من الجنايات لأنها ترتبط في معظم الأحوال بالجريمة المنظمة وحوادث القتل!.

أما المحتالون، فان معظمهم كان من الطبقات الفقيرة أيضا، في أصولهم في الأقل، لان من حقق ثروات منهم بدأ من الصفر باحتيالات بدأت صغيرة، ولكنها أخذت تكبر بمرور الوقت حتى أوصلتهم إلى السجن في النهاية. إن الأمر الذي يلفت النظر في هذه الفئة أنهم كانوا يعبرون في إحتيالاتهم عن ذكاء واضح! ولكن بئس الذكاء ذاك الذي لا يستغل إلا في الشر. والأغرب من ذلك أن بعضهم الآخر لم يكن في الحقيقة إلا غبي ا جاهلا!!! ولكم أن تعرفوا حقيقة الذين وقعوا ضحية لإحتيالات مثل هؤلاء!!!. وأنا إذا أردت أن أورد مثالا للمحتالين، فلن أتحدث إلا عن(ظِلال)لأنه هو الأغرب بينهم!.

كان ابنا لعائلة غنية جدا! وكنت عندما أرى أهله يأتون لزيارته بتلك السيارات الفارهة والمتعددة، أعجب للأسباب التي يمكن أن تدفع بمثل هذا الشخص إلى طريق الغش والاحتيال!. ولكن عجبي ازداد عندما اكتشفت مدى بعده عن الذكاء!!! ولكني في الأقل أدركت بذلك، أن سلاحه في احتيالا ته كان مظهره، وجمال وجهه!!! فقد كان مدور الوجه أبيضه، لطيف القسمات، تكاد مظاهر الصحة تشع من وجهه، كان طويل القامة متين البنيان، يحبه رفاقه من السجناء لأنه كان كريما معهم، خاصة وانه لم يكن يخلو من الأموال يوما، وهذا هو ما جعل من حياته في السجن سهلة! لان الحراس كانوا يسارعون إلى عرض خدماتهم عليه حتى قبل أن يطلبها!. وأنا إذ اذكره الآن لا أستطيع أن احدد موقفي منه!. هل اشعر بالشفقة عليه، لأنه كان مثالا على التربية السيئة والدلال الزائد كما خمنت؟! أم اكرهه، لأنه أنهى دراسته الجامعية ومع ذلك لم يستطع أن يجنب نفسه الانزلاق إلى الدرك الذي وصل إليه؟!.

عندما دخل المكتب بادرته قائلا :

ـ أهلا يا ضَلال، تفضل بالجلوس.

جلس ولم ينتبه لتلاعبي المقصود بلفظ اسمه، كان هذا طبيعيا بالنسبة لي لما اعرفه من بلادته، ولكن غير الطبيعي كان يكمن في أني لم أتعود على مثل هذه العدوانية التي قابلته بها!!! ولا أستطيع أن اذكر الآن إن كان ذلك نتيجة لكرهي لما كانت أعماله تمثله؟ أم لان امتلاكه، ورغم سجنه، لأشياء افتقد إليها، تثير في مشاعر العداء!!!، قلت له :

ـ حسنا حدثني يا ابن الورد عن نفسك؟

فقال باستغراب شديد :

ـ ابن الورد؟!

ـ اقصد عروة.

ـ آه، ولكني لم أكن بالشاعر يوما!.

ـ ولكني لم اقصد الشاعر، بل قصدت الصعلوك.

ـ صعلوك؟!

ـ نعم صعلوك، ألا تعرف بأن عروة ابن الورد كان أمير الصعاليك، وكانوا كما يقال، يسرقون من الأغنياء، ليعطوا للفقراء؟!

ـ ولكني لست باللص!.

ـ حسنا، محتال إذا.

قال بغضب واضح:

ـ أنا لست بمحتال.

ـ ولكني لم آت بقولي هذا، بشيء من عندي، بل إن الوثائق التي لدي تقول ذلك، اسمع، أنا لا أريد أن أحاسبك، بل أريد مساعدتك، الست في السجن الآن بسبب الاحتيال؟ فلم تغضب إذا ما قلت أنا ذلك؟.

ـ ولكني برئ من هذه التهمة.

ـ حسنا، حسنا، لقد قلت لك أني لا أحاكمك، وإذا كنت لا ترغب في الحديث، فلك ان تغادر لأنك لست بمجبر على الجلوس والاستماع لي.

لم يحرك ساكنا، بل بقى جالسا في مكانه، فقد كانت زيارات مكتب المرشد الذي هو أنا، متنفسا مؤقتا لهؤلاء المساكين بعيدا عن منغصات السجن. وكان اللين الذي أبديه لهم، واحدا من ابرز نقاط الاختلاف مع مسؤولي! لأنه كان يؤمن بان الشدة هي الطريق الصحيح للتعامل مع هذه الفئة المنفية من حياة البشر!. قال بعد مدة صمت وبصوت لاح فيه اثر لأسى:

ـ يبدو انك لا تصدق باني برئ؟.

عندها رق له قلبي فقلت محاولا التخفيف عنه :

ـ اسمعني جيدا يا ظلال، أنا بودي أن أناقش معك وضعك، وفي هذا فائدة لك، ولكن إصرارك على انك برئ يجعل من أمر النقاش متعذرا، ولذلك لا يوجد لدي الآن كلام يمكن ان أقوله، أما أنت، إن كان لديك ما تقوله غير عبارة "أنا برئ"، فقله.

استغرق في نوبة تفكير وهلة، ثم قال بصوت خافت:

ـ ولكني لست بالإنسان السيئ والله.

ـ وأنا لم اقل ذلك.

ـ كلا، لم تقله، ولكن وجودي في السجن،

قاطعته قائلا :

ـ يا ظلال، إن وجودك في السجن هو عقوبتك لخطأ ارتكبته من وجهة نظر قانونية، لنقل فرضا، بأنك مخطئ، ولكن هذا لا يعني أبدا انك شرير.

نظر في وجهي مليا قبل أن يتساءل:

ـ هل تؤمن حقا بذلك؟

ـ إن لم أكن مؤمنا بـذلك لما قلته، وعلى كل حال فقد سمعت من السجناء الآخرين أخبار مساعدتك المحتاجين منهم، وهذا يدل على طيبة قلبك، والشرير لا يتمتع بطيبة القلب.

بان السرور على وجهه واضحا ولكن، في تلك اللحظة أبى شيطان الخبث إلا أن يغويني، فقلت مستدركا!:

ـ ولكني كنت قد سمعت أيضا عن الضرب المبرح الذي تعرضت له على يد ذلك السجين الذي ادعى بأنك قد تحايلت عليه، وأخذت منه مبلغا من المال لأداء خدمة لم تؤدها.

ـ ولكنه كان يكذب، لأني،

قاطعته مرة أخرى، ولكن بنفور هذه المرة، لأني عرفت بأنه كان سيكذب، قائلا :

ـ دعنا من الحديث عنه، وحدثني إذا شئت عن دراستك الجامعية.

فقال باندفاع وسرور :

ـ في الكلية، كنت محبوب الطالبات الجميلات اللواتي كن يتحلّقن حولي في النادي، يا لهن من مخلوقات رائعات،

كان من الواضح أنه لم يفهم باني قصدت دراسته، لا مغامراته عندما سألته! ولكنه كان يريد أن يحدثني عن النساء، وهذا هو حديث السجناء المفضل، تململت في مكاني لأني لم أكن أريد أن اسمع مثل هذا الحديث، ولكن خجلي منعني من إسكاته، فرحت استمع إليه وهو يجهد نفسه ليتذكر تفاصيل مملة عن مغامرات نسائية وغزوات ليلية! حتى صور نفسه وكأنه فحل لا يُشق له غبار! رغم إن كلامه كان يشي بحقيقة أن معظم الفتيات اللواتي عرفهن، كن طامعات بالأموال التي لم تكن تنقطع عنه سواء لثراء أهله، أو لهوايته الغريبة في الاحتيال على الناس!. كنت انتظر أن ينهي حديثه لكي أتخلص من رفقته التي كانت تضجرني، ولكنه قال فجأة وهو ينهي جملة:

ـ شكرا للرب الذي خلق لنا النساء.

شعرت بالغضب، فقلت على الفور:

ـ وهل خلق الله النساء للفسوق فقط؟ وان تحولهن أنت وأمثالك إلى عواهر؟.

ألجمت المفاجأة لسانه، إذ لم يكن يتوقع غضبي، ولكني تابعت قائلا ومن دون أن أعيره اهتماما:

ـ لقد خلق الله الرجل والمرأة يا بني، لكي تستمر الحياة على الأرض، ولم يخلق المرأة لكي يتمتع بها الرجل، فقط.

قال متلعثما :

ـ ولكن، تبقى للرجل، أرجحية، مطلقة، لان الرجال قوامون على النساء.

كان هذا هو أعجب، وأغبى، ما يمكن أن اسمعه في تلك اللحظة !!! ولكني لم أشأ أن أقول له شيئا عن غبائه، فقلت مجاريا:

ـ قوامون على النساء، ضمن العلاقات الشرعية التي يقرها الدين والمجتمع، ولكن هذا ليس موضوعنا، لأنك لا تمتلك الحق في أن تقحم الدين في حديثك عن نزواتك ومغامراتك التي لا يمكن أن يقرّها.

فقال بإصرار :

ـ ولكن الأشياء تترابط، فإذا قال الله بان الرجال قوامون على النساء فان هذا يعني،

ـ ألم تسمعني؟ قلت لك دع عنك حديث الدين، ناقشني إذا أردت بالأمر من وجهة نظر اجتماعية.

وكأنه أراد ان يتذاكى، فقال:

ـ هه، أنت ملحد إذا؟

ازداد غضبي، لكني سيطرت عليه لكي أقول بأقصى ما أستطيعه من هدوء:

ـ ملحد، أو غير ملحد، المهم هو فقط أن تناقشني من الزاوية التي تريد أن تنطلق منها، لأنه لا يعقل أن يناقش موضوع من وجهتي نظر مختلفتين في وقت واحد! ولكن قبل أن تتورط في النقاش، أريد أن أحذرك من أنك مهما فعلت، فلن تستطيع أن تبرر لي أخطاءك.

ـ ولكن، أية أخطاء؟ أوليس من حقي أن استمتع بحياتي، وأؤدي واجباتي الدينية في وقت واحد؟

ـ هذا من حقك بالطبع، ولكنك كنت تحدثني عن مغامرات تجعلك زانيا وباعترافك، والزنا محرم كما تعرف، فهل تريد أن تتورط في الحرام، مع انك تعرف جيدا بأنه كذلك، ثم تستغل تأديتك للواجبات لكي تمحو ذنوبك؟! أي منطق هذا يا ضلال؟!. على كل حال أنا اعرف بأنك لست بالمتدين، فلا تحاول أن تدعي ما ليس فيك.

ـ ولكن، هل أنت كذلك؟

ـ تقصد متدين؟

ـ نعم.

ـ كلا.

ـ وهل لك مغامرات نسائية؟

يا للمسكين، كان يريد أن يحرجني! فقلت كاذبا، لكي أجاريه:

ـ نعم.

ـ فلماذا تحاسبني إذا؟

ـ ولكني لم أحاسبك، أنا أريدك فقط أن تتصرف على وفق ما تريده بالفعل، فان أردت أن تتدين، فابتعد عن المحرمات، حتى الجاهل يا صديقي يعرف هذا، أما إذا أردت أن تنساق وراء نزواتك في طلب الملذات، فعليك أن تتحمل عواقب ذلك، سواء أكان ذلك في هذه الحياة، أو في الحياة الآخرة.

لم ينبس هذه المرة بنبت شفة، وكان هذا يعني باني قد أفحمته، ولكني شعرت بإحباط لأني فطنت بعد ذلك إلى أني لم أحقق بهذا شيئا، لأنه لم يكن في النهاية، سوى جاهل آخر!!! كان يبدو

منزعجا جدا، ولذلك طلبت منه العودة إلى زنزانته، لكي يتخلص من مهمة الاستماع إلى كلامي، الذي لن يستسيغه يوما!.

(ظل في مفازة)

لم يكن لي أن افطن لمدى تفشي ظاهرة الاختلاس في مجتمعنا، لو لم التق بذلك العدد الكبير من المختلسين في السجن!. يبدو إن العداء الذي كان أجدادنا يضمرونه للدولة الأجنبية التي كانت تحكمهم، قد انتقل إلى أحفادهم، فراحوا يعبثون بالأموال العامة على أساس إن اختلاسها أو العبث بها، ليس حراما!!! وهذا واضح في الطريقة التي نتعامل بها مع الممتلكات العامة! ألم تلاحظوا يوما مدى التدمير المتعمد الذي نلحقه بها، وكأنها لم توجد لخدمتنا نحن؟!. أنا لا أقول أن هذا هو السبب الأوحد لاستفحال هذا الأمر الخطير. ولكن الخوض في مسبباتها سيجعلنا نتيه في تشعبات لا انوي الآن الخوض فيها، وانتم إذا ما أعملتم الفكر فيها، ستصلون إلى النتائج التي توصلت إليها. ولكني أريد أن تعرفوا بان اختياري لـ(لطيف) لكي أتحدث عنه أنموذجا للمختلسين، لم يكن لأنه أذكاهم أو أغربهم، بل لأني شعرت منذ البدء انه يختلف عن الآخرين!.

كان قد دخل بهدوء إلى الغرفة، وجلس معتدل القامة أمامي، تقبل اللفافة التي قدمتها له بأدب، وابتسامة حلوة!. كانت ملامحه عادية، ولكني تنبهت إلى ما كانت نظراته تعبر عنه، من ذكاء! فشعرت بأنه ليس كالسجناء الآخرين، لان هدوءه الظاهر وثقته بنفسه التي عبر عنها وهو يصافحني، كانا يفصحان عن تركيبة نفسية تختلف عنهم، فقد كان معظم الآخرين يعبرون عن قلق، أو خشية مني، حتى وأنا اضحك معهم! وكأنهم كانوا يتوقعون في كل لحظة ضربة أو إهانة!!!، أما هو، فقد قال لي فجأة:

ـ شكرا.

ـ علام؟!

ـ لأنك لم تعاملني كنزيل.

شعرت بدهشة وقلت :

ـ ولكني لم اقل شيئا بعد!

ـ أنا لا احتاج إلى قول، فأنا أستطيع أن اعرف ذلك من خلال طريقة مقابلتك لي.

اثبت بقوله هذا انه كان يمتلك الحدس، وهذا يعني بأنه مختلف بالفعل، قلت:

ـ في الحقيقة، لقد أثرت انتباهي منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها.

ـ حمدا لله، إن اللقاء الأول لا يكون في صالحي، في اغلب الأحيان.

وبقوله هذا تأكدت، من انه يشبهني بالفعل!!! فأيقنت بأن هذا كان هو الذي جعلني أميل إليه منذ البداية! حيرني هذا قليلا، لأني لم أتعود على التعامل مع أشخاص يشبهوني! أو بالأحرى، أقلقني! فقلت متابعا قوله، ولكن بحذر :

ـ ولكن الزمن كان يجري دائما لصالحك، في علاقاتك بالآخرين الذين تريد أن تتواصل معهم، أليس كذلك؟.

ـ بالضبط!

ـ وأنت اجتماعي بطبعك ولكنك تميل إلى الوحدة والانفراد بنفسك، تكره الصخب وتهوى الهدوء؟

كان يتابع كلامي بصمت ولكني أدركت باني قد أثرت اهتمامه كثيرا فقلت متابعا:

ـ تحب التأمل وتكره الادعاء ومغرم بالمطالعة، لا تنسى الإساءة أبدا ولكنك مع ذلك تستطيع أن تحسن إلى من أساء إليك؟.

ثم أضفت بعد تردد :

ـ تعاني من مشكلة مع النساء، فهن يقبلن بك صديق ا، ولكنهن يرفضنك عاشق ا أو حبيبـا، أو بالأحرى، عشيقا؟

وعندها بانت علامات الدهشة على وجهه فقال:

ـ حسنا، هذا كثير جدا، فأنا لم أتوقع أبدا أن تكون المعلومات المدونة في سجلاتكم عن السجناء بهذه الدقة والتفصيل، وحتى إذا كان الأمر كذلك، فمن أين لكم هذه المعلومات الأخيرة التي لم أحدّث عنها أحدا في حياتي.

قهقهت مسرورا للحظات، ولكني تداركت بان قلت:

ـ اعتذر لضحكي هذا، ولكني لا اقصد به أمرا سيئا. لقد ضحكت لأني لم أكن أورد بحديثي هذا أية معلومات مدونة عنك في سجلاتنا.

ـ عجيب! فمن أين أتيت بها؟!

ـ قل لي أولا، أهي صحيحة؟

ـ بالتأكيد!

ـ أتريد المزيد منها؟

ـ كلا، فقط قل لي من أين أتيت بها؟

لم أشأ أن أقول له بأني قد عرفتها، من خلال معرفتي بنفسي!!! فقلت متجاهلا سؤاله بتعمد:

ـ قل لي، ماذا تقرأ الآن؟

ولكنه قال بإصرار:

ـ قل لي مصدر معلوماتك أولا، لو سمحت

ـ حسنا، سأخبرك عنه ذات يوم، أما الآن فقل لي ماذا تقرا؟

ـ لا شيء، فأنا مغرم بالشعر، ولا أستطيع هنا أن أجد ما يعجبني، وأنا سأكون ممتنا جدا لك فيما لو جلبت لي ديوان السيّاب لكي أعيد قراءته.

ـ سأرى ما يمكنني عمله، ولكن هل تعرف لماذا أرسلت في طلبك؟

ـ كلا!.

ـ إن عملي هو التحاور مع السجناء ومحاولة وضع اليد على مكامن الخطأ في نفوسهم لكي يحاولوا إصلاحها.

قال بصوت منكسر:

ـ فهمت!

كان يشعر عندها بإحراج شديد! وكان يجب أن يكون كذلك، لأنه يشبهني، وأنا مثلكم يا أيها السادة، أستطيع أن أوجه اشد الانتقادات إلى الآخرين، ولكني اشعر بإحراج كبير إذا ما وجه لي انتقاد صغير!!! قلت على الفور:

ـ ولكني بعد أن رأيتك، أدركت بأنك لست بحاجة إلى مثل هذا النقاش، لأنك تبدو اثقف من أن لا تنتبه إلى الخطأ الذي ارتكبته، و أدخلك السجن.

انفرجت أساريره وقال :

ـ ولكني مستعد لان أكون صريحا معك إلى ابعد الحدود.

ـ أنا متأكد من ذلك، ولكن لنؤجل الحديث إلى يوم آخر.

توطدت العلاقة بيننا فيما بعد، حتى تحولت إلى صداقة، كانت هي الاستثناء الوحيد لقاعدة عدم اتخاذ السجناء أصدقاء، التي ألزمت نفسي بها. لم أكن اقضي معه أوقاتا طويلة، لانشغالي بواجباتي عندما أكون في السجن، وكان هو يتفهم موقفي فلم يثقل علي، بل اكتفى بالكتب أو بالأحرى دواوين الشعر، التي كنت اجلبها تباعا، وغيرها من الخدمات البسيطة التي كنت أقدمها له. ولكني في الحقيقة، كنت أطيل الوقت المخصص له عند زيارتي، كثيرا! كان يحب الشعر ولكنه لم يستطع أن يكون شاعرا، فراح يكتب النثر بأسلوب شعري واليكم مثلا لنثره:

(ساعات جامحة تطوي مسافات العمر،

ودقائقي هنا من رحم الدهور تولد.

وأنت يا زهرة النسرين،

في ظلمة حياتي تشعين

وكالفراشة على ورود أحلامي تتراقصين
تشعين، تبرقين وتتمايلين
ولكنك في غفلة، تبعدين
ودقائقي بعيدا عنك
من رحم الدهور تولد.

أنا هنا أعانق أوهامي،
واقبل شفتي الخيال
أناجي أضغاث أحلام
وأعانق جنيات الظلام.
ابكي الزمن المراق على دروب التيه
وساعات جامحة تطوي مسافات العمر!
ألا تبا للزمن المراق
ألا تبا للزمن المهدور)
ولقد سألته مرارا عن زهرة النسرين ولكنه لم يجبني فقررت ان احترم سره.

قلت له ذات يوم فجأة وكان يجلس أمامي في المكتب :
- حدثني عن الملابسات التي أدت إلى سجنك.
لم يفاجأ، وكأنه كان يتوقع سؤالي، فقال بهدوء :
- كانت تهمة اختلاس، ورغم انه لا يشرفني أن أقول هذا، ولكني كنت مذنبا، بكل ما تعنيه هذه الكلمة. كنت موظفا في مصرف، وكنت الأنشط فيه، ولذلك كان الزبائن يصرون على أن اهتم أنا بمعاملاتهم. كنت اعرف الكثير من الناس، وخاصة الأثرياء منهم، وأنت تعرف نوعية بعض الذين يمتلكون الثروات في مجتمعنا، كنت اشعر بأنهم لا يستحقون ما يمتلكون! صدقني لم يكن ما اشعر به حسدا، ولكنهم بكل بساطة لا يستحقون، ولذلك كانوا يثيرون قرفي،
قاطعته قائلا باستغراب :
- لا تقل لي بأنك تريد أن تبرر خطأك بهذا القرف!!!.
- لا، بالطبع لا، ولكني أحاول أن أبين لك دوافعي بأقصى ما أستطيعه من صدق. لقد كانت في البداية نزوة، أو بالأحرى، تحديا داخليا، دفعني إليه ذلك القرف، أردت أن استغفلهم، لكي اثبت

لنفسي إنهم أغبياء بالفعل، فبدأت أتلاعب بالأرقام، وكانت لعبة أتقنها جيدا، وتساعدني فيها ذاكرتي الممتازة. في البداية لم يشعر أحد بشيء.

ـ أي انك قد نجحت؟

ـ نعم

ـ واستطعت أن تثبت غبا ءهم؟ رغم أني لا افهم كيف يمكن أن يكون تلاعبك بالأرقام، إثباتا لذلك؟!.

ـ صدقني، هو كان كذلك، ولكن هذا شرحه يطول، لقد اختلست مبالغ صغيرة من دون أن يشك أحد بشيء.

ـ ولكن لماذا لم تكتف بما فعلت؟

علت وجهه حمرة الخجل وهو يقول:

ـ الطمع، لقد تملكني لأني اكتشفت بذلك أني أستطيع أن أزيد دخلي من دون تعب. لقد كانت هناك حاجات كثيرة لي لم استطع أن ألبيها لضيق ذات اليد، وكانت هذه فرصتي!. لقد حرصت على أن أكون معتدلا في البداية لكي لا يكشفني أحد، ولكن اللعبة طالت، وأنا لم يعد بإمكاني أن أتوقف! فكان من الطبيعي أن يحدث يوما ما ليس في الحسبان، وهو ما حدث، وأنا الآن في السجن كما ترى.

ـ ولكن! اللعنة، ألم يكن بإمكانك أن تتوقع مثل هذه النهاية، وأنت تدعي الذكاء، أو، أنت ذكي بالفعل؟!.

ـ بل كنت أتوقع، ولكن الرغبة كانت تغلب الخوف دائما. أنت لا تستطيع أن تتخيل الخوف الذي كنت اشعر به كلما اكتشفت باني يمكن أن أكون قد اقترفت خطأ، كان هاجس الخوف يضنيني والقلق يقض مضجعي، ولكني ما أن أزيل الخطأ، حتى أعود مطمئنا وواثقا من نفسي! لقد كانت رعونة مني أن لا استمع إلى صوت العقل! ولكن هذا ما حدث. أو تعرف ما هو المضحك في الأمر؟ هو أني كنت مطمئنا جدا إلى وضعي، عندما اقترفت الخطأ الذي أدى إلى انكشاف أمري في النهاية!

ـ وهل تشعر بالندم الآن؟

نتبهت فورا على سخافة سؤالي، ولكنه قال مبتسما:

ـ هل تحفظ السر؟

ـ بالطبع!

ـ أنا لم اشعر بالندم إلا عند انكشاف أمري.

ـ ماذا تقصد؟!

ـ ما قلته، فأنا لم اشعر بأي ندم طوال المدة التي كنت اختلس خلالها أموال الآخرين! بل كنت فرحا بذكائي، ومسرورا بكل تلك الأموال التي كنت أنفقها على نفسي! ولكن، في اللحظة التي رأيت فيها الأصفاد تكبلني، شعرت بندم عميق.

ـ وبعد ذلك؟!

ـ أنا لا استسيغ مشاعر الندم، ولذلك بدأت في السجن محاولة إقناع نفسي باني استحق ما حدث لي وهو ما حصل بالفعل. أما الآن، فإني انتظر بفارغ الصبر، اليوم الذي يطلق فيه سراحي لأعود إلى الحياة نظيفا، بعدما دفعت ثمن ما اقترفت من سوء.

ـ أي انك لن تكرر ما فعلت ؟

ـ بالطبع لن أكرره يا أيها الصديق، ولسببين، أولهما أني لن أعود إلى ذلك المصرف ثانية، لأني ما عدت موظفا فيه بعد طردي! وثانيهما لأني وبعد أن ذقت مرارة الذل في السجن، على يقين من أني لن اقترف ما قد يعيدني إليه، مهما كانت المغريات أو، الظروف القاهرة التي سأتعرض لها في الخارج.

ـ عجيب أمرك يا لطيف! فأنت تميل إلى تقديم النصح إلى الآخرين، فلم لم تنصح نفسك، هه؟ على كل حال، أنا أريد أن أكون الناصح هذه المرة، أرجو أن تسمعني؟

فقال ضاحكا:

ـ والله لم استمع يوما إلى نصيحة، لأني لم أكن اشعر بالحاجة إليها، ولكن منك أنت، سأسمعها، بل آخذ بها أيضا.

ـ حسنا، قل لي إذا، أو تعرف ما هو الفرق بيني و بينك الآن؟

ـ الفرق؟! أنت موظف في السجن، وأنا سجين.

ضحكت لأنه كان يمازحني، ولكني قلت:

ـ لا ليس هذا ما قصدت بكل تأكيد، بل هما شيئان، و أولهما هو فارق العمر بيننا، فأنا اكبر سنا، وأنت تعرف بان هذا يعني زيادة في الخبرة والتجارب، إن كنت تعتبرني ندا لك في الذكاء؟. أما الثاني، فهو حقيقة انك تحب الشعر وتقرأه بإفراط، فيما أميل أنا إلى القراءات الجادة. لا تبتسم، فأنا جاد فيما أقول، لأني هنا لا اعني فعل القراءة نفسه،بل دلالاته. إن حياتنا فقيرة، وتنوع تجاربنا في مجتمعنا محدود، ولذلك فان القراءة تكون في هذه الحالة رافد ا مهم ا من روافد التجربة وزيادة الخبرات، فإذا كنت لا تقرأ إلا الشعر، فأنت تبحث عن الصور فقط، ولا تهمك الحقائق، وهذا ليس اتهام ا للشعراء، أو في الأقل، ليس جميعهم، لان منهم من يكون فيلسوفا حقيقيا أو مفكرا كبيرا، فيقدم لقرائه عصارة تجاربه في صور شعرية جميلة، ولكن هذا لا ينفي حقيقة إن المولع بالشعر إنما يبحث عن صورة حلوة فيه، أو بالأحرى عن خيال، وهذا لا يساعد

في تعميق تجاربه!. صحيح إن السجن يعد خبرة مضافة بالنسبة إليك، ولكنه غير كاف أيضا، ولذلك فان نصيحتي هي أن تقرأ وتقرأ، لا الشعر فقط بل كل ما تصل إليه يداك من كتب، فهذا لن يضيرك أبدا، ولكن من الممكن جدا أن تستفيد منه. أنا لن أضيف إلى هذا، أن اطلب منك أن تعيش حياتك بتبه دائم، وان يكون لك فيها محطات للتأمل، فأنا اعرف بأنك تفعل هذا بالفعل، ولكني أريدك أن تهتم بصحة المواقف التي تتخذها في حياتك مقاسة بالمطلق! لا بالنسبية التي عمت حياتنا، وتذكر بأنه في النهاية لن يصح إلا الصحيح.

كان يتابع كلامي باهتمام وصمت فشجعني هذا على المتابعة:

ـ حسنا، يبدو انك موافق على ما قلته حتى الآن. ولذلك أريد أن أحدثك عن نظرية أسوأ الاحتمالات.

ـ نظرية أسوأ الاحتمالات!!!

ـ صبرا علي يا لطيف، فأنا أريد أن أبين أفكاري بأوضح صورة ممكنة، إن هذه النظرية تقوم على مبدأ توقع الاحتمال الأسوأ سلفا، والتحسب له، عندما يقبل الإنسان على أي مشروع، لا تقل بان هذا تشاؤم، لان التشاؤم يمنع الإنسان من المبادرة، أما إذا فكر بها، وتوقع أسوأ الاحتمالات، فانه يحصن نفسه من المفاجآت غير السارة، أما إذا ما تحقق احتمال اقل سوءا، فانه سيكون أفضل حالا بالتأكيد، لأنه لم يواجه الأسوأ الذي توقعه. أما إذا فكر بالاحتمالات الحسنة فقط، فانه سيعاني كثيرا إذا لم تجر الرياح بما اشتهته سفنه. أنا اعرف يا لطيف بان الناصح يكون ثقيلا أحيانا، ولكني أرجو أن لا أكون قد أثرت مللك؟.

كنت متأكدا من أن وقع كلامي عليه كان حسنا، ولكني قلت هذا لكي ادفعه إلى الكلام، لأني شعرت بان جعبتي كادت تفرغ مما يمكن أن يقال، وأنا كنت أريد المتابعة!!! قال هو على الفور:

ـ لا والله لم تفعل ذلك، ولكن لدي اعتراض.

ـ لا تعترض الآن وقل لي، أكان من الممكن أن تكون أنت هنا الآن، لو كنت قد حسبت حسابا لأسوأ الاحتمالات، قبل أن تقدم على مشروعك الغريب؟

بانت الحيرة في عينيه فقلت مستدركا:

ـ أنا لا أريدك أن تستعجل بالإجابة، ولكن اخبرني، هل تؤمن بان ما حدث، من كشف للعبتك كان بسبب الحظ، أم كان لخطأ في التقدير من جانبك؟

- لا والله، بل كان هو الحظ اللعين.

- ولكنك لو كنت قد توقفت في مرحلة ما، قبل النهاية، فان مشروعك كان يمكن أن يكون ناجحا بنظرك، أليس كذلك؟

ـ نعم

- ولكنه بهذا، يكون ناجحا بسبب الحظ أيضا!.
- وكيف ذلك؟!
- لان ما حدث في النهاية، وتنسبه أنت إلى الحظ، كان يمكن أن يحدث مع أول خطوة تخطوها في هذا المجال.
رفع كتفيه دلالة للحيرة وقال:
- لا ادري، فأنا لم أفكر بالموضوع من هذه الناحية!.
- صدقني إن الأمر كذلك، فأنت راهنت على الحظ من دون أن تدري، والحظ كما تعرف متقلب، فلا تأمن له، وتنسى أحكام عقلك. أنا أيضا اشعر بمرارة عندما أرى من لا يستحق يمتلك ما يحرم منه أصحاب العقول، وأنا لا اقصد الأموال فقط، بل كل شئ! ولكني اختلف عنك في أني أتمنى لكل من يمتلك، المزيد، لأنه إن كان طيبا فانه يستحق ما يمتلك لان الطيبة خير، وان لم يكن كذلك فان ازدياد ما يمتلك سيجعله عاجزا بالتأكيد عن رؤية الحق، وفي هذا العمى ستكون نهايته. ولكن، الذي يقرفني منهم، هو من يدعي بأنه يستحق ما يمتلك!!!. ولكني في النهاية لا يسعني إلا أن أقول لا بأس، لان الامتلاك يكون أحيانا بسبب تسلسل الأقدار.
- ماذا؟!
- تسلسل الأقدار، ألم تسمعني؟
- أسوأ الاحتمالات، وقد فهمناها! ولكن، ما هذه الأقدار المتسلسلة؟! أتريد أن تبلبل أفكاري اليوم؟.
مرة أخرى كان يمازحني، ولكني أجبته بجدية:
- لا والله، أنا لا أريد أن أبلبل لك أفكارك، بل أريد توضيح بعض أفكاري لك. ولكن هذا الموضوع شائك قليلا ولذلك حاول أن تركز معي، أنت تعرف بان هناك في حياة كل إنسان لحظات مهمة جدا لأنه يقف خلالها عند مفترق طرق. ألم يحدث أن مررت بموقف شعرت فيه بأنك إذا ما اتخذت قرارا بشأنه، فانك يمكن أن تغير حياتك؟.
- كلا، لم يحدث لي هذا، ولكني افهم ما تعنيه.
- لم يحدث لك؟! أأنت متأكد؟ ألا تعتبر السجن تغييرا لوجهة الحياة؟! ولكن هذا هو حال هذه اللحظات أحيانا، فهي تبدو غير مهمة في حينها، ولكنها تغير حياتنا. أن الإنسان يفتح أمام نفسه، بقراراته أحيانا، أبوابا تؤدي به إلى دروب لم تخطر له ببال، قبل أن يتخذ تلك القرارات، أيبدو لك هذا ممكنا؟.
- نعم، ممكن.
- إذا، فقرار واحد تتخذه، يمكن أن يقلب حياتك رأسا على عقب.

ـ ولكنك يا رمزي تتحدث هنا عن قرارات، وهذا فعل إرادي يصدر عن العقل! فما دخل الأقدار فيه؟

ـ بل لها كل الدخل فيه، ولكن دعنا نفترض الآن بأنك اتخذت قرارا، وحدث مثل هذا الانقلاب، فهل تستطيع أن تدعي بأنك كنت تعرف سلفا المتغيرات التي ستطرأ على حياتك؟ وهل توقعت الآفاق التي ستفتح أمامك فيما بعد؟.

ـ بالطبع، وإلا لما اتخذت هذا القرار!.

ـ لا تتعجل بالإجابة يا لطيف. لأنه موضوع يحتاج إلى الكثير من البحث والتمحيص قبل استيعابه، ولذلك فكر بما تقوله قبل أن تجيب.

ـ حسنا، قد لا أستطيع أن أكون على يقين، ولكني على الأقل، أتوقع.

ـ أتتوقع مثلا، بأنك لو قررت أن تعمل في مكان ما، فانك ستلتقي هناك بشخص سيكون للقائك به أثر بالغ في حياتك فيما بعد؟!.

ـ لا. في الحقيقة لا أستطيع ذلك، ولكن هذا إن حدث فانه سيعني بان حظي شاء ذلك.

ـ ها قد أدخلت الأقدار في نقاشنا، لان الحظ ليس إلا اسما آخر للقدر. ولكن قل لي، إذا لم تقرر ان تعمل في ذلك المكان المفترض، هل سيكون لقاؤك بذلك الشخص محتملا؟

ـ إذا شاء الحظ ذلك، فانه سيعني بان هذا محتم الوقوع، لان قدري هو أن التقي بذلك الشخص وان يغير لي هذا اللقاء حياتي.

ـ هذا والله منطق غريب بالنسبة لي، لأنك إذا كنت تؤمن بأنه قدرك أن تلتقي بشخص في حياتك، لكان الأولى بك أن تؤمن أيضا بان هذا لن يحدث إلا في مكان وتوقيت معينين! أما إذا آمنت بأنك ستلتقي به، سواء أعملت هنا أو هناك، فان هذا يعني بان قدر ذلك المسكين سيكون، التواجد في مكانين مختلفين وبتوقيت واحد!!! فهل هذا ممكن يا مؤمن؟.

ـ لا اعرف! ولكني اشعر بان ما أقوله صحيح.

ـ أن تشعر فلا بأس، ولكن أن تقول لي بأنك على يقين، فلا ألف لا، اسمع، أنا أيضا اعتقد بان ما سيناله المرء في النهاية كان مقدرا له منذ البدء، ولكن كيف؟ فهذا ما لا اعرفه، وأنا على يقين من أني لن اعرفه يوما، لأنه يتعلق بإرادة قوى، هي اكبر من أن نستطيع فهم إرادتها، أو أن نعيها. وحتى إذا ما شعرنا بأننا قد أدركنا حقيقة ما، تتعلق بهذا الأمر، فإننا لن نستطيع أن نكون على يقين، لأنه لا يقين في الأمور الغيبية إلا يقين الإيمان بوجودها.

سكتّ للحظات منتظرا ردا منه ولكنه بقى صامتا، فتابعت قائلا:

ـ وهكذا ترى إن ما يحدث من أمور غير متوقعة، بعد أن يتخذ المرء قرارا ما، هو ما اسميه أنا تسلسل الأقدار، ولاحظ باني أتحدث عن احتمالات فقط، ولكنك لا تستطيع أن تنفيها لمجرد انك تشعر بنقيض ما اشعر به.

ـ حسنا، ولكن ألا تلاحظ بان هناك ازدواجية في طريقة تفكيرك؟

ـ وما هي هذه الازدواجية؟!

ـ إنها الخلط، ما بين الأفعال الإرادية أو العقلانية للإنسان، ومشيئة الحظ!.

ـ ولكن، أين ذكا ؤك يا لطيف؟ ألم تفهم بان كل ما قلته إنما يتعلق بهذا الخلط، أو بالأحرى التداخل بينهما؟ فهذا التداخل هو الذي يسير الإنسان، ويوصله في النهاية إلى مصيره المحتوم. أنا لا أريد التورط الآن في إشكالية الجبر والإرادة، المستعصية منذ القدم والتي ستبقى كذلك! أنا فقط أؤمن بان القدر أو الحظ هو الذي يسير الإنسان، ولكن كل واحد منا يستطيع ان يختار طرقه بنفسه، وهذا التسيير لا يلغي أبدا إرادة البشر.

ـ ولكن هذا منطق غريب لا أستطيع أن اقره!.

ـ وأنا لم اطلب منك إقراره، أنا فقط أوضح لك وجهة نظري. ثم، إن أقررته أ و لا، فان هذا لا يمنع أن يكون هناك احتمال لان تكون أنت نتيجة لتسلسل الأقدار التي واجهت والدك بعد اتخاذه لقرار ما!

فقال وهو يضحك :

ـ وما الذي تقصده الآن؟

ـ أو لستَ إنساناً؟

ـ بالطبع أنا إنسان! هل لديك رأي آخر؟

ـ كلا، لا اعتراض عندي لو أقررت بأنك تكونت من ستة و أربعين كروموسوما لا غير.

ـ حسنا، أنا اقر بذلك!

ـ لا تضحك، لأني أتحدث بجدية. إذا أنت تتفق معي بأنك قد منحت من قبل أبيك ثلاثة وعشرين كروموسوما وكذلك فعلت أمك؟.

ـ هلا توضح ما تريد قوله، رأفة بي!.

ـ ولكن هذا هو ما أحاول أن افعله في هذه اللحظات. حسنا، حقيقة أن البويضة التي كانت موجودة في مبيض أمك، كانت هي نفسها طوال المدة التي شاءت الأقدار أن تبدأ خليتك الأولى بالانقسام خلالها، تفرض علينا حقيقة أخرى، وهي إن المتغير سيكون في هذه الحالة هي كروموسومات أبيك المودعة في حيمنه الغالب، فلو تغير الحيمن بسبب التوقيت لتغيرت النتائج! أليس هذا صحيحا؟

ـ لا اعرف ما الذي ترمي إليه! ولكني سأسايرك، نعم، هذا صحيح!.
ـ إذا، ما الذي كان سيحدث لو أن والدك كان قد قرر فجأة وقبل أن تحين اللحظة المحددة لبدء خلقك، أن يغير خططه؟ ولكن اجبني أولا، هل كان يستطيع ذلك؟.
ـ ما هذا؟! ما الذي تحاول أن تقوله؟!.
ـ اجبني أولا، فأنت أتيت إلى الدنيا، لأن والدك قرر أن يمارس واجباته الزوجية في ليلة محددة بالضبط، أو بالأحرى، لحظة محددة، أليس كذلك؟.
ـ ماذا؟! والله لقد بلبلت أفكاري، ولكن لا تفرح، لان هذا ليس بسبب رصانة أفكارك، بل لغرابتها حسنا، حسنا، لأقلها لك بهذه الطريقة، لقد قررت الأقدار في اللحظة التي اخترق فيها حيمن أبي، جدار بويضة أمي، أن أكون أنا، وهذا كان يجب أن يكون في لحظة محددة، والدليل على ذلك هو وجودي أمامك، فبأي غيّ تريد أن تعمه؟
ـ سامحك الله يا أيها الصديق، ولكني اعرف هذا ولا أنكره، أنا فقط أتحدث عن إرادة الإنسان، ألم يكن والدك يستطيع أن يغير خططه في تلك الليلة؟ افترض، والافتراض مبدأ معقول في المناقشات، إن والدك كان قد التقى بغانية جميلة أعجبته، نحن نعرف بأنه لم يأبه لها لأنك موجود، ولكن ماذا لو كان قد رضخ لسحرها وقرر في لحظة ضعف أن يخون زوجته؟ ألا يعني هذا بان كروموسوماتك الموعودة كانت ستذهب إلى المكان الخطأ؟! وان بويضة أمك كانت ستستقبل حيمنا آخر يجعل أمر أن تكون أنت هو أنت، أمرا مستحيلا؟.
صاح بدهشة صادقة:
ـ ماذا؟!!!
عندما رأيت إمارات الدهشة والحيرة واضحة هكذا على وجهه لم استطع أن اصمد، فضحكت بصخب حتى شاركني الضحك. قلت وأنا أغالب ضحكتي:
ـ أتدري ؟ إن المشكلة في هذه الحالة لن تكون في الكروموسومات الاثنين والعشرين التي تحدد صفاتك، بل ستكون في الكروموسوم الجنسي، لأنك إن كنت ستكون ذكرا في الليلة أو اللحظة الموعودة، فان هناك احتمالا كبير ا في أن تكون أنثى في الليلة التي تليها، وأنا لا أستطيع أن اضمن مستقبل أنثى يكون لها وجه مثل وجهك.
أجابني بهدوء وابتسامة عريضة تملأ وجهه:
ـ ولكني موجود وهذا هو المهم.
وعندها لم أر بدا من التصريح بما كنت أفكر به في الدقائق الأخيرة فقلت:
ـ ولكن، ألا يمكن أن تكون أنت، هو الاحتمال الآخر؟!.
عادت إمارات الدهشة لتتسلل إلى وجهه رغم الابتسامة التي أبت أن تختفي، فقلت مستدركا:

ـ ولكن دعنا من هذا يا لطيف الآن. لأني أرى بأننا لن نتفق في هذا الموضوع على شئ، ولذلك سأقص عليك قصة قصيرة.

ـ هيا، هات ما عندك واعتقني بعدها.

ـ في الحقيقة هي نكتة، ولكنها تخدم غرضي في أن أوضح فكرة الأقدار المتسلسلة، وأنا إذ أقول نكتة، فلأن الجميع تداولها على أنها كذلك، ولكني لا استبعد أن تكون حادثة حقيقية تحولت بالتداول إلى نكتة. (فقد كان أستاذ جامعي ينتظر في يوم ما الحافلة للذهاب إلى الكلية التي كان يدرس فيها، وفيما هو كذلك، توقفت أمامه فجأة سيارة فخمة وسمع صوت سائقها يناديه باسمه! انحنى قليلا فرأى شخصا تبدو عليه علامات الثراء مبتسما له! لم يعرف من هو، ولكن السائق قال له:

ـ ما هذا يا فلان؟ ألم تعرفني؟

ـ عذرا، ولكني لا أستطيع أن أتذكر!.

ـ لا تذكرني! أنا فلان الفلاني.

عندها تذكره، فقد كان معه في المدرسة الابتدائية، وكان لا يستطيع أن يستوعب الدروس، إلى درجة أن التلاميذ أطلقوا عليه لقب (الحمار)!. بعد تكرار رسوبه ترك المدرسة واختفى نهائيا، فيما استمر أستاذنا بالدراسة التي تفوق فيها، حتى حصل على شهادة الدكتوراه، التي أهلته لأن يكون أستاذا في الجامعة.

ـ هيا اركب لكي أوصلك، فأنا مشتاق لك.

قال السائق ذلك، فصعد الأستاذ خجلا ومترددا!

ـ إلى أين تريد الذهاب؟

ـ إلى الجامعة.

ـ الجامعة؟! وما الذي تفعله هناك؟.

ـ أدرّس، فأنا أستاذ جامعي.

ـ ماذا؟! أستاذ جامعي! ولا تملك سيارة تتنقل بها!!!.

ـ ومن أين لي سيارة، وراتبي يكاد لا يكفي عائلتي؟.

هز الآخر رأسه بأسى، فقال الأستاذ:

ـ ولكن، قل لي أنت يا فلان، من أين لك هذا؟!

عندها ضحك فلان بجذل، وقال :

ـ عندما تركت المدرسة، كما لا بد وان تذكر، عملت في مهن عديدة، ولكني لم أوفق في أي منها بسبب الحظ السيئ. مضت سنون متعددة وأنا على هذا الحال، حتى أوشكت على الانتحار. وفي

يوم، كنت لا امتلك فيه إلا مبلغا يكفي لشراء شطيرة صغيرة فقط، وفيما أنا في حيرة من أمري! هل اشتري تلك الشطيرة التي لا تكاد تغني عن جوع، أم احتفظ بالمبلغ الصغير الذي ستمر مدة طويلة قبل أن يدخل جيبي غيره، مرّ من أمامي بائع لبطاقات اليانصيب، فقررت في لحظة الهام أن اشتري به بطاقة، أنا ما أزال اذكر ذلك اليوم جيدا، فقد كان حارا لأنه اليوم السادس من الشهر السادس، فاخترت بطاقة تحمل الرقم 38، الذي هو حاصل ضرب 6 في 6، ففازت بالجائزة الأولى، ومن يومها بدأت أحوالي تتغير، وأنا اليوم صاحب شركة ومصنع وامتلك من الأموال الشيء الكثير.

قال الأستاذ:

ـ قصة غريبة بالفعل! ولكن أتدري يا فلان، أن حاصل ضرب 6 في 6 هو، 36 وليس 38!

هنا غرق السائق في الضحك وقال:

- إلى متى تبقى بهذه العقلية يا أستاذ؟ ألا ترى باني لو عرفت الإجابة الصحيحة في حينها، لما أصبحت ما أنا عليه الآن؟!.)

قال لطيف وهو يهز برأسه:

ـ نعم، يمكن لهذه الأقصوصة أن توضح فكرتك، ولكنها ليست حقيقية.

ـ وما الذي يجعلها غير حقيقية؟!

ـ لا ادري، ولكنك أنت بنفسك قلت أنها نكتة!.

ـ قد تكون كذلك، ولكنها ممكنة الحدوث على ارض الواقع.

ـ نعم، هذا ممكن، ولكني اعترض على فكرة أن يستطيع إنسان غبي، فشل في الدراسة بمرحلتها الابتدائية! أن ينمي ثروته بنفسه، حتى لو كانت طائلة.

ـ وهذا اعتراض منطقي، ولكن، من قال لك أنه هو الذي نمّاها؟.

ـ وما الذي تريد أن تقوله الآن؟

ـ ألا يوجد احتمال أن يوجد شخص عاقل، يمتلك أفكارا عملية ولكنه لا يمتلك الإمكانيات المادية، قد عرض عليه مشروعا أصبح ممكنا، ورابحا أيضا، بأموال الثاني وجهد الأول وأفكاره؟.

ـ والله إنها لفكرة معقولة!.

ـ إذا، هل تستطيع الآن، أن تبين لي مصير هذا الرجل لو كان قد قرر أن يشتري تلك الشطيرة بدلا من البطاقة؟.

أطلق سراح لطيف، الذي لم يجبني على سؤالي الأخير، قبل أعوام، ولا اعرف ما صار من أمره الآن! هو يستطيع أن يتدبر أمره جيدا، ولذلك لا اقلق عليه، ولكني اشتاق إليه أحيانا، ولا اعرف لماذا لم يبادر إلى زيارتي، بعد خروجه من السجن؟! ولكني أخمن بأنه لا يريد أن يذكره شخص، أو شيء، بتلك الأيام الصعبة التي قضاها في السجن.

(هوج وخسّة)

يقسم القتلة في الفئة التي اقصدها، على قسمين، المحكومون بتهمة القتل غير المتعمد، والمحكومون بتهمة القتل، غسلا للعار!، لأن القتلة الحقيقيين كانوا يقضون عقوباتهم في قسم العقوبات المؤبدة الذي كان له مرشده الخاص، أو كانوا يساقون إلى الموت عندما يحكم عليهم بالإعدام، ومن أيقن بان منيته أصبحت بهذا الدنو، لن يفيد معه نصح أو إرشاد، ولذلك لم يكن لهم مرشدون، حتى تغير الأمر قبل بضعة سنين!!!.

كان مكابد وهو السجين الذي أوردت لكم وصفه للحياة في السجن، ملزما بالبقاء فيه لمدة خمسة عشر عاما، لأنه أدين بتهمة قتل شقيقته، غسلا للعار!!! كان شابا طويلا، رياضي البنية، متناسق الملامح لولا فمه الكبير الذي ما أن تراه حتى تشعر بأنه قد خلق للضحك!!! كان قد تخرّج من الجامعة قبل السجن بسنوات، وكانت ثقافته جيدة، كان دمثا، كريما، صادقا ومخلصا، يلجأ إليه الآخرون عند الضيق. كنت أتساءل في داخلي عن الأسباب التي يمكن أن تجعل مثل هذا الإنسان مجرما، كلما التقيت به في مكتبي؟! ولكني لم أجرؤ يوما على سؤاله، لحساسية موضوعه المرتبط بعقدنا المتأصلة، ولأنه يمثل أسوأ مخاوفنا، على الإطلاق!!! ومع ذلك، وفي ذات يوم:

قلت متلعثما:

ـ أنا، في الحقيقة. لا ادري، فأنا،

قال بهدوء:

ـ تريد أن أحدثك عن السبب الذي أدخلني السجن، أليس كذلك؟

بدا وكأنه كان يتوقع ذلك مني! فشعرت بارتياح وقلت متحمسا:

ـ نعم، ولكن إذا كنت غير راغب بالحديث، فلا بأس.

ـ ولم قد أكون كذلك؟ أنا لست بالنعامة، واعرف بان الجميع هنا يعرفون السبب، فلم لا أبين لك أنت بالذات، تفاصيل ما حدث؟.

سكت فجأة، وعلا الوجوم وجهه، ثم قال :

ـ أنا رجل تعود الصراحة طوال عمره، ولكن هذا الموضوع يؤلمني بشكل رهيب.

شعرت بجزع من احتمال أن يكون قد غير رأيه، ولكني قلت:

ـ لقد قلت لك لا بأس إن كنت لا تريد الكلام عنه، وأنا بالحقيقة يمكن أن اشعر بما تشعر به.

فأجابني على الفور:

ـ عذرا يا أستاذ، ولكنك لن تستطيع يوما ان تشعر بما اشعر به، فأنت لا،

بدا عليه فجأة بأنه قد تنبه إلى انه قد دخل مدخلا مخطوءا!!! فسكت للحظات، ثم تابع قائلا:

ـ أنت تختلف عن الآخرين، ولذلك سأناقش الموضوع معك، ولكنك يجب أن تعرف بان للصراحة حدودا، ورغم ذلك، فان ما ستسمعه مني، لم يسمعه أحد من قبل.

عندها شعرت بحماسة كبيرة!!! فنهضت من مكاني وهرعت إلى الباب لكي أوصده من الداخل. منعا للمقاطعة، ولكي يشعر هو بحرية اكبر في التعبير عما يشقّ على نفسه. رجعت إلى مكاني و أخرجت لفافة تبغ من علبتي وقدمتها له، ولكني تذكرت بأنه لا يدخن، فوضعتها في فمي أشعلتها، ثم قلت:

ـ أؤكد لك، بان ما ستقوله لن يغادر هذا.

و أشرت إلى رأسي، فقال :

ـ أنا متأكد من ذلك.

ـ حسنا، قل كلما تريد قوله.

ـ بل اسألني أنت ما تريد، وسأكون صريحا على قدر الإمكان.

ـ ولكن، لا أسئلة عندي، فقط حدثني عما حصل.

كنت كاذبا فيما قلت! لأن الأسئلة كانت تتلاطم في عقلي! ولكني لم استطع أن أتجاوز الشعور بالإحراج من حساسية الموضوع، فقال وهو يتابع بنظره غلالة الدخان التي كانت تتصاعد إلى السقف:

ـ أنا اشتهي التدخين أحيانا، ولكني لا أريد التورط في هذه العادة المضرة.

فقلت له صادقا:

ـ حسنا تفعل.

ـ على كل حال،

ثم سكت أيضا وقد ارتعدت شفتاه! بدا وكأنه قد استعاد صورة ذكرى رهيبة!!! لم اقل أنا شيئا، بل انتظرته حتى قال بعد صمت طال نسبيا:

ـ كان أمرا فظيعا، ولكم وددت لو استطعت أن اقتلعه من ذاكرتي! ولكن هيهات، لقد تحول إلى كوابيس مرعبة تقض مضجعي وتكاد تفقدني صوابي. أنا هنا في السجن، أخالط الآخرين دائما في مجالسهم، أمازحهم، واضحك معهم لكي لا انفرد بنفسي! أنا أخاف الوحدة لأن وجهها يهاجم مخيلتي خلالها، فيجعلني العتب الواضح في نظرات عينيها الحلوتين أشبه بالمجنون!!! رباه، لكم كنت أحبها؟ أحب وجهها الجميل، البريء، وروحها المرحة، كنت اعشق تعلقها بي، أتدري ؟ كانت وهي طفلة تحبني أكثر مما تحب أبانا، تقف في دربي عندما انوي الخروج وتأبى أن تخلي

سبيلي! حتى أعدها بان آخذها معي في المرة القادمة، وكنت افعل ذلك في أحيان كثيرة. كيف استطعت أن، أن؟. يا للأبالسة، أي قدر جعلني أقرر أن أعود إلى البيت في تلك الظهيرة المشؤومة؟ كنت سعيدا جدا وأنا عائد من لقاء أول بفتاة جديدة! لأنها جميلة، وصحبتها تعد بملذات جديدة، وأسرار أخرى اخترق حجبها!!! ولكني سمعت صراخا وعويلا قبل أن ألج الدار! لم استطع أن أميز شيئا في البدء، ولكني أيقنت بان أمرا عظيما قد حدث!. اقسم لك يا أستاذ باني لم أخف في تلك اللحظات من أن يكون مكروها قد أصاب أمي التي كنت أحبها في ذلك الوقت كثيرا! لان أبي كان قد توفي قبلها بكثير، بل كان خوفي عظيما من أن يكون ذلك المكروه قد أصاب أختي الوحيدة. فتحت الباب، واندفعت كالمجنون ابحث عن مصدر الصراخ، كان يأتي من المطبخ، وهناك، رأيتها ممددة على الأرض، ممزقة الثياب ومنفوشة الشعر! و أمي تكيل لها الركلات بكل وحشية وهي تصرخ:

ـ ما الذي سأقوله للناس؟!.

اخترقت تلك الكلمات الحانقة وجداني، كألـ، كألـ، النصال، فصرخت:

- ما الذي حدث؟

التفتت إليّ أمي وقد اشتعلت عيناها غضبا، وصاحت:

ـ ما الذي حدث يا سبعي؟! ما الذي حدث يا أيها الجسور؟! اسأل أختك، مدللتك، عما حدث؟.

شعرت وكأن قلبي يسقط في أعماق جوفي! ودارت بي الدنيا، قلت لامي مرة أخرى:

ـ هيا قولي لي، ما الذي حدث؟

ولكنها لم تجبني بل تهاوت لتقعد منهكة على الأرض، وراحت تلطم وجهها!. كانت أختي متكورة على نفسها وكأنها تريد أن تتقي المزيد من الضربات! كان الغضب يدمدم في أنحاء نفسي بعدما أيقنت بأنها قد أتت أمرا إدّا! وزاده، الغموض الذي جوبهت به، فتقدمت إلى حيث كانت تقبع، شددتها من شعرها بكل قسوة و أنهضتها، فلم تقاوم! وعندها فقط رأيت وجهها المحبوب والدماء تسيل منه بغزارة. رباه ما هذا العذاب؟.

بدا في تلك اللحظات وكأن ألم ا لا سبيل إلى وصفه، يطحنه طحنا! كان صوته خافتا، يكاد يتحشرج في كل لحظة، ولكنه كان مستمرا في حديثه:

ـ (كان الرعب والذهول يمتزجان في ذلك الوجه الدامي ليرسما لوحة معبرة تماما عن البؤس والضياع!!! ولكني لم أكن مستعدا بعد، لأن أرحم، لأن نيران الغضب كانت قد هاجت في نفسي. صرخت :

ـ ما الذي حدث؟!)

هز برأسه بأسى وبانت ابتسامة سخرية باهتة على شفتيه ثم قال:

ـ (وكأنها كانت تستطيع أن تجيبني في تلك اللحظات؟!!! ولكنها أطرقت برأسها ولم تجبني، فثار غضبي وعاجلتها بضربة هائلة على وجهها، طرحتها أرضا ليرتطم رأسها بشدة، ولكنها رفعته على الفور ونظرت باتجاهي! كانت دهشة كبيرة تطل من عينيها!!! وفي لحظة، اختفى غضبي! كانت المرة الأولى في حياتي التي اضربها فيها، وعندها رمتني بتلك النظرة، أذابت حبي لها، وحولته إلى شفقة! بل شفقة هائلة، ورحمة لا حدود لها! لعنت أمي في سري! ولعنت العالمين، اختفت الأسئلة المريبة من بالي، ولكني بقيت جامدا في مكاني، رغم أني كنت أريد أن انحني عليها لأساعدها على النهوض، أن احتضنها واعتذر إليها باكيا !).

كان شعوري بالألم يزداد في كل لحظة، يثقل فيها الصمت على نفسي! كنت عاجزا عن إيجاد الكلمات التي يمكن أن تعبر عن تعاطفي معه، عسى أن يخفف ذلك من شعوري بالإحراج!

ولكنه كان متابعا حديثه:

ـ (رباه، لماذا لم افعل ما قررت أن أقوم به؟! اقسم لك باني كنت سأفعل، لولا، لولا، رباه، أي أقدار تسيرنا عندما تغيب عنا عقولنا؟! في تلك اللحظات صاحت أمي:

ـ هيا اضربها، واجعلها تقول لك ما فعلت.

عندها، تقافزت شياطين الغضب مرة أخرى في داخلي، ولكنه كان موجها ضد أمي! هذه المرة، فصحت عليها:

ـ وما الذي فعلته لتصرخي كل هذا الصراخ؟

يا للأبالسة! لماذا نتصرف ونحن منفعلون، بخرق؟! لو أني فقط، لم اسأل ذلك السؤال السخيف، لو أني حاولت أن أكون صادقا مع نفسي، وفعلت ما نويت فعله، على الفور، لما حدث ما حدث! ولكني بدلا من هذا، تهجمت على أمي، وكأنها هي المذنبة! وكان الأمر قد أطار صوابها، حتى قبل أن أتهجم عليها، فناحت، وهي تلطم صدرها، قائلة:

ـ أتسألني أنا، يا أخا أختك؟! أتصيح علي، يا أيها الشجاع؟! اسألها، هيا اسأل هذه العاهرة، عما حدث.

كان معنى كلامها هذه المرة شديد الوضوح، ولكني كابرت والتفتّ إلى أختي، شددتها من شعرها، و أوقفتها على قدميها مرة أخرى! كنت غاضبا في تلك اللحظة لأني كنت أريدها أن تتكلم، أن تنكر ما تقوله أمي، وتخرسها، أن تحاول الدفاع عن نفسها، فسألتها بصوت بدا كالفحيح:

ـ ما الذي حدث؟! هيا انطقي، تكلمي،

ولكنها لم تجبني بل رمتني بنظرة تحولت الدهشة فيها إلى عتب!!! اقسم بالله العظيم انه كان عتبا! لم استطع أن اضربها مرة أخرى، فابتعدت عنها! كنت نهبا في تلك اللحظات لمشاعر

متناقضة! كنت غاضبا، حائرا، خائفا ورافضا تصديق ما تراه عيناي أو، تسمعه أذناي!!! كانت أمي ما تزال تصرخ وتولول، ولكن الذي كان يصمّ أذنيّ، هو صمت أختي!!! كان يذهلني و يخيفني، ألا يعني هذا؟. وفيما أنا واقف في مكاني، أتجول بنظراتي حائرا في أطراف المكان، رأيت السكينة الكبيرة المعلقة على الحائط، فاندفعت من دون وعي باتجاهها، انتزعتها من مكانها، ورجعت إلى حيث كانت أختي واقفة!. أنا أتذكر عندما أمسكت بها أني كنت أريد ان أخيف بها أختي، ولكني لا أذكر متى تحول الـ، الـ. أتدري؟)

كانت شفتاه اللتان ازرقتا من فرط الانفعال، ترتعدان!!! ومع القشعريرة التي ضربت أنحاء جسدي وأنا أراه على حاله ذاك، تسللت فكرة أنه كان لا يريد أن يتحدث عن هذه اللحظات بالذات، فدفعتني صحوة ضمير حقيقية إلى أن أحاول أن أصرخ به ليتوقف عن الكلام!!! ولكن كلماته التي كانت تزداد سرعة مع تسارع أنفاسه، سبقتني فقال:

ـ (أنا بسبب هذا أعشق شخصية "علي ابن أبي طالب" الذي أبى أن يقتل خصمه لأنه بصق عليه، وكان يريد أن يقتله من أجل المبادئ، لا من أجل نفسه، أي حلم! وأي ضبط للنفس!!! فما لنا، تطغى مشاعرنا حتى تقتل كل صوت للعقل فينا؟!!!. رأتني المسكينة مقبلا عليها و إمارات الجنون بادية على وجهي، تحول العتب في عينيها، إلى ذهول، ولكن الغريزة جعلتها ترفع يدها مع ارتفاع يدي الممسكة بالسكين، التي عندها هوت بشدة، اخترقت باطن يدها !! وسحبتها بقوة، فرأيت الخيط الأحمر الرفيع، وهو يلوث بياض كفها، وكان هذا هو آخر ما أتذكره بوضوح نسبي، أو بالأحرى، أتذكره على الإطلاق!!! إذ يبدو أن جنون الغضب، أو الرعب الذي سببته لي قطرات الدم تلك، افقدني صوابي، فرحت اضرب واضرب واضرب، من دون أن اعي).

بتهت فجأة، إلى إن الدموع كانت تسيل على خديه وهو يتكلم!!! وسرعان ما تحول بكا ؤه إلى نشيج أعجزه عن متابعة الكلام!!! فشعرت بخجل من نفسي لأنه كان الأجدر بي أن اكبح فضولي، وان أجنبه عيش تلك المأساة مرة أخرى بخياله!!! لعنت نفسي سرا لتفاهتي، ولكني لم استطع أن أقول غير:

ـ كفى، لا تكمل، ودع عنك هذا الحديث الآن.

ولكنه قال من خلال دموعه، بعد أن استطاع وقف النشيج:

ـ بل دعني أكمل، ودعني أتعذب، فأنا استحق كل ما حصل لي.

ثم استدرك، وكأنه يحدث نفسه قائلا :

ـ أي رابعة، لم فجعتني هكذا؟.

ثم غطى وجهه بيديه وراح ينتحب. هزني نحيبه بشدة فقلت:

ـ لا والله، أنت لا تستحق العذاب، بل.

كنت أريد أن أدين نفسي أمامه، ولكني تمالكت أمري فجأة، وسكتّ!!! مضت ثوان طوال قبل أن يتمالك نفسه ويقول متابعا:

-(في الحقيقة، أنا أتذكر صرخات أمي المرعوبة، ووقع أقدام، ووجوه تبدو عليها صفرة الموت، لرجال يحيطون بي، ويبعدوني إلى زاوية المطبخ، ولكن هذا كله يبدو لي الآن وكأنه حلم بعيد. عندما استعدت حواسي بعد حين، بعدما اخترق نحيب أمي وجداني، هالني منظر الدماء على ملابسي! فالتفتّ إلى حيث كانت أمي تجثو على ركبتيها قرب جثتها الممددة على بحيرة من دماء!!! كانت المسكينة تنعيها، وتصب اللعنات على رأسي!!! كنت جالسا وأنا اسند ظهري إلى جدار المطبخ، فانتفضت واقفا، وأنا لا أكاد استوعب هول المنظر، وبشاعته، ورهبته!!! جعل نهوضي المفاجئ الرجال الحاضرين، وكانوا من الجيران الذين هرعوا إلى بيتنا، بسبب عويل أمي وصراخها، يهبون واقفين هم أيضا!!!. حدقت في تلك الجثة الممزقة الدامية، وعندها فقط أدركت هول ما فعلت! فأعولت وجهرت بالبكاء كالأطفال، من دون خجل من الآخرين!. تقدمت باتجاهها لكي اقبّلها، ولكن الرجال منعوني من التقدم! والله أنا لا اعرف إن كانوا قد تصوروا باني سأطعنها مرة أخرى!!! حاولت،)

عندها، لم اعد احتمل، نهضت والدموع تترقرق في عيني، ثم سالت، وأنا أجهش إليه، نهض هو الآخر، فاحتضنته وقبلته، فقال بصوت ملئ بالامتنان:

ـ يا لك من إنسان رائع، أتبكي لمأساتي؟.

وعندها، انتحبت على كتفيه، وأنا لا اجرؤ على البوح بسبب انتحابي!!!.

فيما بعد، وعندما استعدت في بالي ذلك الحديث، تزاحمت الأسئلة في خاطري، فأنا لم اسمعه يتحدث عن دليل قاطع! لقد تحدث طوال الوقت عن شكوك، أو كلمات امرأة غاضبة! أو بالأحرى، عجوز لا ادري إن كانت قد أصيبت بالخرف، أم لا؟! أما ماذا حدث بالضبط ؟ فهو لم يقل! كان يتحدث عن كلام سمعه، لم يكن فيه ما يوحي بان تلك الفتاة، قد زنت، غير كلمة واحدة يمكن أن يكون مبعثها الغضب الشديد، لا غير!!! وحتى إذا كان هو معنى الكلام، فأين هو الدليل؟ والغريب، أني لم أصادف واحدا من المدانين بتهمة القتل غسلا للعار، استطاع أن يأتي بأربعة شهود!!! أما تلك الفتاة، فأين شريكها في الزنا؟! وما الذي حدث له؟! هل عوقب؟ أم انه لا يستحق العقاب، لأنه رجل؟!!! لم يقل لي مكابد شيئا عن هذا، وأنا لم اجرؤ على سؤاله خوفا من ردود فعلي الغاضبة في حال انه لم يقنعني!!! انه يتعذب، وهذا واضح جدا، ولا ادري لماذا اشعر عندما أرى أحدا يتألم، أو يعاني بشدة، وكأن الحياة تريد أن تقول لنا شيئا، من خلال هذا الألم ؟ ولكننا لا نفهم الرسالة! نبقى نردد مقولة بان النار تحرق الأصابع التي تلمسها، ولكننا لا

ندرك معنى ذلك فعليا، إلا عندما تحرق أصابعنا نحن!!!. كان مكابد يعاني ويتألم، بل إن ألمه كان رهيبا، ولكن هل هذا يبرر له بشاعة ما اقترف فيما لو كانت الفتاة بريئة؟!!!. "من قتل مظلوما، فقد جعلنا لوليه سلطانا"، ولكن، ماذا لو كان الولي هو القاتل الظالم؟! رباه، كيف يمكن أن تقتل النفس التي حرمتها، لمجرد أنها اتهمت؟. ويبدو أن هذه الأسئلة التي شغلت بالي، أو ما يشابهها كان لها حضور في محاكمة مكابد، لأنه عوقب بفترة سجن أطول من المعتاد في قضايا غسل العار. وللحقيقة أقول بأنه إن كان قد قتل بريئة، فان هذا لا يعني أبدا أن كل أمثاله كانوا مثله، بل العكس هو الصحيح، ولكن هل هذا يسوغ القتل؟ أنا بكل بساطة اشعر بأنه لا يسوغه!، وأنا أستطيع أن أدين هؤلاء لأنهم لم يحصنوا شرفهم الرفيع، بالاهتمام والرعاية والمتابعة الصحيحة، قبل أن يريقوا على جوانبه، أو حتى منه، الدم!!! ولكني لا أتمنى أبدا أن أكون مكانهم، لأني وان تبجحت بما سبق، أخاف من ردود أفعالي عندما يغيّب الانفعال دور العقل ويشلّه.

كنت قد قررت أن أورد لكم مثلا، قصة غير قصة مكابد التي أوردتها، ولكن جزعي من أن توصم لوحتي بالقبح والبشاعة منعني من إيرادها! أما الآن، فان ادعائي حب الحقيقة يفرض علي أن لا أتغاضى عنها كلية، لذلك سأذكرها لكم، ولو باقتضاب. واسمحوا لي بان لا اذكر اسما هذه المرة، لأني إن ذكرته، فان الكثيرين سيعرفونه لغرابة اسمه، والتشهير لم يكن أحد أهدافي عندما بدأت الكتابة، خاصة وان ما سأذكره هو مجرد شكوك تفتقر إلى الاعتراف أو الدليل، رغم أني اشعر، بأنها حقيقة!. كان إنسانا غير متزن أبدا، وإذا ما أردت أن أصفه، فأنا لن افعل شيئا، غير إعطاء صورة معاكسة لصورة مكابد! و أضيف إليها اللؤم والخبث.

لم أكد اسأله، حتى اندفع في ذكر تفاصيل شعرت بان الكثير منها مختلق! ولكنه كان يجهد نفسه في بيان مدى الظلم الذي الحق به، لأنه سجن بسبب قتله أخته الزانية التي اثبت الفحص الطبي العدلي، أنها حامل رغم عدم زواجها! كان يتحدث إلي بحماسة، وكأني القاضي الذي سيطلق سراحه من السجن بعدما يتأكد انه لم يفعل شيئا سوى ممارسة حقه الطبيعي!!! جعلني شكي بأنه كان يكذب في بعض ما قاله، أعامله بقسوة، و أجاهره بانزعاجي الشديد منه، وأنا أفند بعض ادعاءاته، مستفيدا بذلك من خوفه غير المبرر مني! عندما لاحظت بأنه كان يتجاهل سؤالي عن شريك أخته في الزنا، في كل مرة اسأله فيها، بدأت أركز على هذا الموضوع حتى أصبته بالاضطراب وبان عليه الارتباك، وفجأة بدأ بالبكاء، وبدا بكا ؤه ولعجبي حقيقيا!!! كان يشعر بتأنيب الضمير إذا! ولكني شعرت أن ذلك كان، ليس لأنه قتل فقط! بل كان لسبب أعمق بكثير!!!. أنا لن أقول لكم أكثر من هذا، لأني ورغم رجحان صحة ما توصلت إليه من انطباعات عندي، لا اسمح لظنوني أبدا أن تكون أدلتكم، لإدانة الآخرين!.

هو اليوم خارج أسوار السجن، لأنه أنهى عقوبته البالغة خمس سنوات! لم يقض منها سوى ثلاث سنوات ونصف في داخله!!!، ولكني أتمنى أن لا يغيب عن باله قبح ما اقترفه (إذا ما كنت مصيبا في حدسي، أو، حتى إذا لم أكن كذلك)، وان يورده هذا موارد الشقاء، طوال المتبقي من عمره، لان هذه هي عدالة السماء، كما أتصور.

أما عن مكابد، فإني لم استعجل استجوابه، بحثا عن أجوبة للأسئلة التي كانت تشغل بالي بشأن قضيته، لكني كنت اشعر بخجل عندما أراه، وأتذكر أني كنت قد بكيت على كتفه!!! لم استعجل سؤاله، لأني كنت أتصور بان الوقت المتوفر لدينا طويل جدا، لأنه كان سيبقى في السجن عدة سنوات أخرى، ولكني لم أكن اعرف بان رياح التغيير سوف تهب بشدة على وضعي في السجن وتقلبه رأسا على عقب!.

(غرف الموت)

أنا أراهن على إنكم تصورتم باني قد تحولت إلى نزيل في السجن، عندما تحدثت عن قلب أوضاعي فيه رأسا على عقب!!! لا يا سادتي، لم يكن هذا هو الذي حدث، ولكني لم استطع أن أنل الأجوبة المرجوة من مكابد، لأني بكل بساطة نُقلت إلى قسم آخر في السجن، وأي قسم!.

أنتم تذكرون أني كنت قد تحدثت عن خلافي مع مسؤولي المباشر، وأنا لا أريد أن أخوض في تفاصيل هذا الخلاف أكثر مما فعلت في السابق، لأنه بكل بساطة، خلاف قائم على أساس اختلاف الشخصيات الإنسانية، وما المبررات التي نقدمها تفسيرا لتلك الخلافات إلا مبررات زائفة، لأنها تدعي في الغالب المثالية، في الوقت الذي تغوص فيه جذور حقيقتها، في أعماق أنانيتنا!. أنا لا ادعي بان هذا الخلاف لم يجعلني أعيش أوقاتا صعبة، و لكني استطعت بمرور الوقت أن أتجاوزه، مع الحرص على أن لا يتحول يوما إلى شجار، لان هذا يعني عندي القطيعة النهائية! ولذلك كنت أدافع عن مواقفي أمامه بكل قوة، ولكن من دون أن أتجاوز حدود الأدب معه، ويبدو أنه قد قدر هذا الأمر في النهاية، فصارت علاقتنا اقل عدائية نسبيا، ولكن هذا لا يعني أن الأزمات لم تعد تتخللها، بل كان العكس هو الصحيح! لان حالته النفسية المتذبذبة كانت كالقنبلة الموقوتة التي تهدد الوضع بيننا بالانفجار في كل حين!. ويبدو انه كان في حالة نفسية سيئة، عندما تهيأت له الفرصة لتصفية حساباته معي، لأني ورغم التحسن النسبي،كنت ما ازال، المنغص الوحيد الذي كان يمكن أن ينغص عليه حياته الوظيفية!. وقد واتته هذه الفرصة عندما قرر موظف كبير في الوزارة فجأة، أن يكون للمحكومين بالإعدام، مرشد ا!!! وعندما تسلم هو، أمر الوزارة، قرر فورا أن أكون أنا، هو ذلك المرشد!. لقد رفضت هذا الأمر في البداية، فكانت لي معه مناقشات عنيفة ومناوشات كلامية ولكنه لم يتراجع، فقررت في النهاية أن امتثل، لأني توقعت أن يكون التعامل مع أولئك المنكودين، تجربة مضافة لي، ولاني قررت أن اترك الوظيفة، إذا لم يعجبني الوضع هناك.

كان القسم الجديد مفصولا عن بقية أقسام السجن، ولان نزلا ءه كان غير مسموح لهم أبدا بترك زنزاناتهم الانفرادية التي خصصت لكل واحد منهم، فإني كنت مضطرا للذهاب إليهم هناك، الأمر الذي جعل الغرفة التي خصصت لي مكتبابالقرب من غرف الموت تلك، كما كانوا يسمونها، غرفة راحة خاصة بي!.

أنا لن أحدثكم عن حال أولئك البائسين بالتفاصيل، لا لأني لا أستطيع ذلك، بل، لأنكم لن تفهموا ما سأقول بالضبط!!! أنا اعرف بأنكم تعرفون، بان حالهم لا يسر ولكن، أن تروا ما يعانوه بأنفسكم، فهذا شيء آخر بالتأكيد.

أنا لم أجرؤ يوما على تقديم نفسي إليهم، على أني المرشد الذي يهتم بحالتهم النفسية!!! ولكني كنت اخبرهم باني مجرد موظف في السجن، ويسرني أن أقدم لهم ما قد يحتاجونه من خدمات! ولكن ما الذي يمكن أن يحتاجه محكوم بالإعدام، غير إنقاذه من الموت؟!!! وهو ما لم يكن بإمكاني أن أقدمه إليهم! ولكن، إذا كان ذلك بإمكاني، فهل كنت سأفعل؟! أنا لم استطع أن أجيب عن هذا السؤال أبدا! ولذلك بقيت حقيقة أني لا أستطيع، مريحة جدا بالنسبة لي!!! خاصة عندما يتعلق الأمر بمجرم مثل ظالم!.

(ظالم صخر جلمود) كان هذا هو اسمه الكامل! وهل يمكن أن ينسى مجرم هذا اسمه؟!. عندما باشرت مهام عملي هناك، كان هو على بعد ثلاثة أيام من رحلته الأخيرة إلى رواق الموت! عندما رأيته في المرة الأولى، صدمت بما رأيت، كان طويل القامة جدا وضخم البنية، تشعر وكأنه يستطيع أن يسحق بكفيه الكبيرين جمجمة إنسان بالغ!!! كنت قد سمعت عن تفاصيل مرعبة تتعلق بجرائمه التي كان آخرها قتله عائلة كاملة!!! رجل وزوجته، وأطفالهما الثلاثة!!! ولكني رغم ذلك، توقعت أن أراه محطما، يستجدي الشفقة من الآخرين. ولكن هالني أن أراه مكابرا، صامدا لا تظهر عليه أية بوادر انهيار رغم موعده القريب جدا مع ملاك الموت!!!. وجعلني هذا اشعر بخيبة أمل!. لم اوجه إليه كلاما، لان تقطيبة أو تكشيرة منه، كانت كافية لردع أي إنسان، شعرت عندما نظر باتجاهي، بان القضبان المتينة التي تفصلني عنه، غير كافية لمنعه، إذا ما قرر مهاجمتي، فألجمني الخوف! ولكن فكرة انه كان يلبس قناع الصرامة، ليخفي الخوف الذي كان يشعر به بالتأكيد سيطرت علي، وتحولت من ثم إلى هاجس طوال الأيام الثلاثة، كان يدفعني إلى المرور من أمامه في كل حين، لكي اقتنص أية لحظة ضعف يمكن أن تنتابه!!! ولكنه لم يلن، بل اخذ يزمجر أحيانا عندما يراني أتطلع إليه!. ومع نهاية الدوام في اليوم الثالث، دفعني اليأس إلى أن أقرر حضور عملية شنقه في الغد!!! لكي أرى دموعه التي ستسيل، ولكني سرعان ما تراجعت عن قراري هذا، عندما وصلت إلى بيتي وفضلت أن يذهب إلى مستقره، في الجحيم من دون نظرة أخيرة مني!. في تلك الليلة، وجدت نفسي في السجن أسعى إلى زنزانته، لأني لم استطع مقاومة نزوة طارئة دفعتني إلى الذهاب إلى السجن لإلقاء تلك النظرة عليه!!! كنت أتقدم بحذر، وأنا أكاد اسمع وجيب قلبي! ويبدو انه لم يتنبه إلى قدومي، لأني فاجأته وهو يبكي!!! نعم وحق الإله، كان يبكي، وأنا لم أتوقع أن اشعر بالشفقة عليه، عندما

أراه كذلك! ولكن، أن اشعر بذلك الفرح الوحشي الذي شعرت به بالفعل، فهذا ما أذهلني فيما بعد!.

حسنا، أنا سأقول لكم باني لن اسمح لعقدي بان تتعامل مع الآخرين من خلالي! وسأفاخركم بذلك، لأنكم لم تنتبهوا حتى لوجود تلك العقد في دواخلكم!!! ولكن هذا هو ما يقال، أما الحقيقة فهي، أني لم اشعر بذلك الفرح إلا لأنه أذلني عندما شعرت بالخوف منه!!! أنا شعرت بالحقد عليه لأنه مجرم، وكرهته لأنه قاتل للأطفال! ولكني لم أشتف به، إلا لسبب شخصي!!!. عندما فاجأته في لحظات ضعفه، منعت بالكاد، بسمة رضا كادت تتسلل إلى شفتي، لأنه كان ينظر إلي بذهول!.

مرت ثوان طوال قبل أن أقول له بدون مقدمات:

ـ إذا كان ذلك يهمك، فإني أعدك باني لن اخبر أحدا بأنك كنت تبكي.

لم يبد عليه انه قد فقه ما أقول، ولكني تركته لمصيره وغادرته محملا بفرحي الثمين!. لقد وعدته بعدم البوح بسره! وها أنذا احنث بوعدي أمامكم!!!.

(همس الشياطين)

أنا لم اسأل محكوما منهم عن تفاصيل جريمته، ولذلك لم أورد أية تفاصيل عنهم سمعتها من طرف ثالث، ما عدا حالتين فقط. أولاهما، لأنها كانت قضية غريبة جدا، ولاني شعرت باني كنت سأتصرف بالضبط كما تصرف هو، لو وجدت نفسي مكانه!!! (وهذا طبعا إذا كانت التفاصيل التي سمعتها هي الحقيقة.).

كان "مظلوم" يفتقد إلى الإمارات التي تتركها الجريمة على وجوه عتاة المجرمين القاسية، التي لا يمكن أن تخفى على عين مجربة، كان يبدو عليه انه من القلة النادرة التي لم اعرف أي حظ عاثر وضعها في لحظة ما في موقف تضطر فيه إلى إزهاق روح، أو أكثر، فتصل بذلك إلى حبل المشنقة!. كان رجلا في متوسط العمر ولكني لا استطع أن اصف ملامحه التي طمستها صفرة العذاب الأليم الذي عانى منه! أما بنيته، فقد هزلت كثيرا بسبب شذوذ وضعه وغرابة موقفه! لأنه كان مثالا للرجل الذي س ئ الحياة، وراح ينتظر الموت بلا اهتمام!. رفض أن ينصاع إلى محاولاتي للتقرب منه، فقررت أن احترم صمته وادعه لشأنه، كان متزوجا وله أطفال كثيرون لم اعرف عددهم، كما لم اعرف مهنته الحقيقية التي لم تكن الجريمة بكل تأكيد. تسببت شقاوة أحد أطفاله في إغضاب جاره، فاقسم هذا على أن يذبحه بسكين! تأزم الوضع بين العائلتين لان الجار لم يشأ أن يتراجع عن قسمه! فتدخل الأقارب والمعارف حتى كاد الأمر يتحول إلى فتنة تهدد بكارثة، لو لم يبادر شخص إلى تقديم اقتراح يقضي بان يضطجع الطفل أمام الجار لكي يمرر السكين على رقبته، برّا بقسمه فقط! ولكن من دون أن يؤذيه، وبحضور جمع من الطرفين! تقبل الجار الاقتراح، ورضيت به جميع الأطراف ما عدا مظلوم، الذي رفضه بكل إصرار في البداية، ليتعرض بعدها لضغوط كبيرة سلطت عليه من جميع الأطراف التي بدا لها الحل معقولا! وفي النهاية وافق، ولكن بعد أن اشترط بان يكون مسلحا ببندقية تردع جاره فيما إذا فكر بإلحاق أي أذى بطفله!!! تم الاجتماع وسار كل ش يء كما كان مخططا له، حتى حانت اللحظة الحاسمة ليفاجأ مظلوم بالدماء وهي تسيل من رقبة طفله الذبيح!!! أنا لا اعرف شيئا عن العُقد التي دفعت ذلك القاتل إلى ذبح الطفل، رغم البندقية التي كانت موجهة إليه!!! ولا أستطيع أن أخمن بم فكر هذا المفجوع بابنه الذي قتل أمام عينيه؟! ولكني اعرف فقط بأنه وجه بندقيته في لحظة غضب، هو إلى الجنون اقرب بكل تأكيد، إلى حيث يجلس القاتل وضغط على الزناد، فلم يتوقف الأزيز حتى فرغ مخزن البندقية من إطلاقاته الثلاثين. سقط القاتل مضرجا بدمائه على الفور، ولكن المؤسف هو سقوط قتلى و جرحى آخرين معه، فقد كانت نتيجة المذبحة قتل سبعة أو ثمانية رجال، بالإضافة إلى الجرحى الذين نقلوا إلى المستشفى

على عجل، حيث تم إنقاذ حياتهم. أنا لا أريد التورط بلعبة التخمينات، كما لا أريد أن أبدو وكأني أحاول تبرير تصرف هذا الرجل، الذي رأيته في غرفة موت كئيبة، ساكنا وصامتا، ينتظر الموت بصبر جدير بالأنبياء!!! ولكني فقط أعجب للقاضي الذي حكم عليه بالإعدام!!! أليس واضحا إن احتمال الإصرار والترصد، كان لا وجود له في مثل هذه القضية؟ وهذا بغض النظر عن حالة القاتل النفسية في لحظة الجريمة!!!. أنا اعرف بان النظام القضائي عندنا ليس بالنظام المثالي الذي لا تشوبه شائبة، ولكن عذرا لكل قاض نزيه لما سأقوله، وأنا اعرف بان الشرفاء موجودون، فأنا لا استبعد أن تكون تلك الأحاديث التي سمعتها عن الضغوط التي مارسها أهل القتلى الذين كانوا من أقارب الجار القاتل، القتيل!!! وعن الرشاوي التي دفعوها، والألاعيب القانونية التي مورست خلال سير القضية، صحيحة! ولكن تذكروا، بان هذا مجرد تخمين! ولا تعتمدوا كثيرا على الأحاديث المتواترة.

(حرب البسوس)

أما الثانية، فإني أوردها لأني سمعت تفاصيلها من بطلها شخصيا، وذلك باندفاعه بوح تملكته، وكنت أنا حاضرا أمامه بالمصادفة!. كان جسّاس شابا ضئيل الجسم، لو تجاوزنا نظرة الذهول في عينيه، وتشوه ملامحه الناتج عن معاناته الآلام التي تقض مضجعه، وتبدد سكينة نفسه، لرأينا فيه شابا جميل المحيّا، فقد كان وجهه متناسق القسمات، ابيض البشرة مع شعر وشارب أشقرين.

كنت أجول بين الزنزانات صامتا على أمل أن يحادثني أحد منهم، أو يطلب مني شيئا. (كنت أعاني أحيانا من تأنيب ضمير لأني كنت اشعر باني لا أؤدي واجبي)، رغم أني لم اعرف يوما كيف يمكن أن أؤدي هذا الواجب؟!!! وعندما وصلت إلى زنزانته ألفيته واقفا بصمت، وقد أدار ظهره للقضبان، وهو يحدق في الجدار البعيد! إعتصرني حزن، فاقتربت من قضبان زنزانته وسألته:

ـ أتحتاج شيئا؟

لم يلتفت إلي، بل هز رأسه، نفيا!. ظللت ثواني أحدق في كتفه المحني، فغمرني الأسى، ولكني لم اقطع تأملاته مرة أخرى، تحركت من مكاني بهدوء، ولكن صوته الأجش طرق أسماعي في تلك اللحظة وهو يسأل:

ـ لماذا تقودنا الحياة إلى دروب لا نختارها نحن لأنفسنا؟

أجفلني صوته الذي اخترقت نبراته وجداني، كانت تلك هي المرة الأولى التي يوجه لي فيها كلاما، ولكني ارتج علي أمري، رغم إن غرضه من السؤال، كان واضحا! ولكني استطعت بعد لأي أن أقول:

ـ لأنها تكون قاسية علينا أحيانا، ولكني لا اعرف سبب ذلك.

عندها فقط التفت، فرأيت عينيه العسليتين، وفكرت بان مثل هذا الشخص لا يمكن ان يكون قبل هذه المأساة، إلا شابا لاهيا، سعيدا، تسبقه ضحكاته إلى أي مكان يقصده، ولكني لم استطع تخيل ضحكته، لأني لم أرها يوما، قال :

ـ هل تصدقني إذا قلت باني لا استحق. الشنق؟

كان سؤالا مفاجئا بالنسبة لي ومحرجا، فقلت وأنا أحاول المماطلة:

ـ ولماذا؟

بان غضب في عينيه ولكنه قال بهدوء:

ـ يبدو انك لن تصدقني!.

تمنيت عندها لو أني لم أقرر القيام بتلك الجولة، ولكن ما حدث قد حدث، وها أنذا أجد نفسي في موقف لا أتمناه، قلت بعد تردد:

ـ ليست المسألة هي أن أصدقك أو لا، ولكني لا أعرفك، ولا اعرف شيئا عن قضيتك.

قال باستهزاء ملحوظ :

ـ ولكنها قضية قتل! ألم تسمع بها؟

ـ بالتأكيد سمعت، ولكني،

ـ ولكنك ماذا ؟ أنا بكل بساطة، قتلت قاتل أخي، أي أني أخذت بثأري، فلماذا يحكم علي بالإعدام؟.

أخذت الحيرة مني كل مأخذ! فقد كنت اسمع بهذا للمرة الأولى ولكني قلت:

ـ في الواقع، أنا لا اعرف ما الذي يمكن قوله؟

أدار رأسه نحو الجدار مرة أخرى، فتصورت بان الفرصة قد واتتني للانسحاب، ولكنه قال قبل أن أخطو خطوتي الأولى:

ـ ولكني لم أكن أريد قتله.

ـ ولكنك قتلته!!!.

التفت إلي، فلاحظت أن عينيه خاليتان من أي اثر لغضب، وقال بصوت بدا فيه الحزن واضحا:

ـ نعم قتلته، وليسامح الله أمي.

كان قبل قليل يعطي انطباعا بأنه قد قتل ببرودة أعصاب لأنه كان يأخذ بثأره كما يدعي، أما الآن، فانه يبدو نادما لما فعل!!! سألته:

ـ وما دخل أمك بهذا؟

ـ لأنها هي التي دفعتني إلى القتل دفعا، بعد أن نغصت علي عيشتي وهي تطالبني بالثأر، الثأر لمقتل أخي، في الوقت الذي كنت ازداد فيه إقبالا على الحياة، لبلوغي مبلغ الشباب.

ـ ولم كانت أمك هي التي تدفعك إلى الثأر؟ ألم تكن أنت تريد أن تأخذ بثأرك؟

لم يجبني، بل هز رأسه نفيا! أثار نفيه تعجبي، فقلت بفضول:

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأنه كان قد عوقب بالفعل.

ـ من هو الذي عوقب؟!

ـ قاتل أخي، فقد قضى سبعة أعوام في السجن، ثم خرج.

ـ ولكن لماذا كان في السجن؟

- ولم قد يكون هناك؟! لأنه قتل أخي بالطبع.

- أتقصد بأنك قتلته، بعد أن خرج من السجن الذي دخله لإدانته بمقتل، أخيك!!!

- نعم.

ازدادت عندها حيرتي، واشتدت دهشتي، فقلت:

- أرجوك، لا تحيرني! أتريد أن تقص علي ما حدث، أم اذهب؟

قال على الفور:

- كنت عندما قتل أخي، اثر مشاجرة مع جاره، في حوالي الرابعة عشر من عمري. كنت عندها صبيا عابثا، لا هموم عندي ولكن، كان لمقتل أخي وقع الصاعقة على بيتنا! فقد كان الأخ الأكبر، وهو قبلة أنظار العائلة. بعد ذلك، انتقلت زوجته وأولاده الثلاثة، للعيش معنا، فتغيرت أحوالنا، لتتحول حياتي إلى جحيم، لان أمي كانت لا تكل من مطالبتي بالثأر حتى قبل ان ابلغ سن رشدي، كان أولاد أخي أمام عينيها طوال الوقت، الأمر الذي يجعل من بكائها معظم الوقت، أمرا محتوما، ولتزداد معه ولعا بفكرة الثأر، الذي كنت أنا مطالبا به، لأني الذكر الثاني بعد المرحوم. كان القاتل قد سلم نفسه للشرطة، وتمت إحالته إلى المحكمة، حيث حكم عليه بالسجن لمدة لم اعرفها، ولكنه أطلق سراحه بعد سبع سنين، وكنت أنا قد تجاوزت للتو، العشرين من عمري. ما إن وصل خبر إطلاق سراحه إلينا، حتى قامت قيامتنا، وارتفعت رايات الحرب في بيتنا، قاومت ورفضت في البداية، حتى أني غادرت البيت فرارا من إلحاحهن، ولكني في النهاية رجعت، ثم رضخت، اتصلت بابن عمي الذي وافق فورا على مساعدتي، فرحنا نراقب القاتل خفية، ونعد عليه خطواته، حتى حانت فرصتنا في ظهيرة يوم حار، كان واقفا وهو يتحاور مع أحد أصحاب الدكاكين، في وقت كاد يخلو فيه الشارع من المارة. جهزت مسدسي وأخفيته تحت قميصي، ثم غادرت السيارة، وبقى ابن عمي ينتظرني فيها. كنت ارتجف من الخوف والاضطراب، عبرت الشارع متجها نحو فرن الخبز لاشتري عددا كبيرا من أرغفته.

-ولكن!، ما حاجتك إلى الخبز في تلك اللحظات؟!.

- لكي أغطي به وجهي، فلا يعرفني عندما اقترب منه، لأني أردت أن أكون على اقرب مسافة ممكنة، عندما أطلق عليه النار، لكي لا اخطء يء. ولكني كنت خائفا، وفاقدا للتركيز، فسحبت مسدسي و أسقطت أرغفة الخبز، وأنا على بعد غير مناسب، و أطلقت النار، طاشت الرصاصة الأولى، فيما لم يحرك هو، أو صاحبه، ساكنا، لأنهما كانا ذاهلين، أطلقت الرصاصة الثانية، فأصابت الرجل الآخر، فيما انتفض هو، وراح يتلفت من حوله، جمد الدم في عروقي لأني تصورت بأنه سيسحب مسدسه، ويقتلني، ومع ذلك بقيت واقفا في مكاني، وقد شل الخوف أصابعي!.

بانت قطيرات عرق على جبينه، وفضح ذهوله حقيقة انه كان يستعيد لحظات مخيفة في ذاكرته، قال:

ـ كان موقفا رهيبا، ولكن أتدري؟ لو كنت في غير هذا الموقف، لما حدثت إنسانا عن مدى الخوف الذي شعرت به في تلك اللحظات، أما الآن، فان هذا لم يعد يهمني، لتسمع أنت، وليسمع الآخرون. ثم سكت وغاب في لجة من التفكير ثواني ثم قال:

ـ كان الخوف يشل يدي، وأصابعي لا تستجيب لي، لم اعد اعرف ما الذي يجب أن افعله، بل لم اعد أستطيع التفكير، فلبثت جامدا في مكاني، ولكن يبدو انه كان قد أدرك الموقف عندما رآني، فركض بعيدا عني، وباتجاه الشارع، وعندها فقط أدركت بأنه لم يكن يحمل مسدسا.

ـ ولكن لماذا كنت تتوقع أن يكون مسلحا؟!

ـ لان الكثيرين اخبروني، بأنه لا يخرج، إلا ومسدسه معه، كما حدثوني عن دقته في استخدامه.

ـ وهل أخبرت الكثيرين عن نيتك في قتله؟!!!.

ـ كلا، ولكني سمعت تلك الأحاديث قبل أن يخرج من السجن.

ـ أسمعت فقط؟!

ـ نعم، عندما شاهدته يفر، استرجعت قسما من شجاعتي، فأطلقت رصاصتي الثالثة التي أصابته في مكان ما، لأنه سقط على الأرض. عندها تناسيت خوفي وركضت باتجاهه حتى دنوت منه كثيرا ورحت أطلق عليه النار حتى توقف مسدسي لنفا د الرصاصات في مخزنه. لم أحاول أن أتأكد من موته، بل أطلقت لساقي العنان، راكضا باتجاه السيارة، ولكنها كانت قد اختفت! كدت اصرخ من فرط الخوف والحنق، وتوقفت حائرا، ولكني سرعان ما سمعت صوت محرك سيارة مسرعة يزمجر، آتيا من خلفي، التفت في اللحظة التي داست فيها على الجثة الممددة في عرض الشارع. والله، لم اعلم إن كان الصوت الذي سمعته حين ذاك، هو صوت الارتطام، أم صوت تكسر عظام الرجل القتيل؟. كان ابن عمي قد قرر أن يتأكد من موت الرجل بدهسه من دون علمي، كانت السيارة ما تزال مسرعة عندما مرت من جانبي، خفت أن لا يلحظني، فيتركني وحيدا هناك ويهرب، صرخت بأعلى صوتي، ولكنه كان قد أوقف السيارة بشكل مفاجئ، فزحفت أمتارا قليلة قبل أن تتوقف، ركضت باتجاهها وصعدت إليها، لينطلق بها ابن عمي سائقا كالمجانين.

سكت ثم اطرق متأملا، كانت حركة أصابعه المتشنجة، تشي بمقدار ما يعانيه من آلام، ولكني كنت لحظتها نهبا للفضول فسألته:

ـ وكيف تم إلقاء القبض عليكما؟

ـ أنا، سلمت نفسي إلى الشرطة، أما ابن عمي، فانه ما يزال حرا، طليقا.

ـ أنت سلمت نفسك؟! لماذا لم تحاول الهرب؟ ثم، ابن عمك، لم ما يزال طليقا؟! ألم يكن شريكك في الجريمة؟.

ـ نعم، لقد كان شريكي، لأني طلبت منه ذلك، ولكني لم أشأ أن أشركه معي في العقاب، لأنه ثأري أنا. آه لكم تحملت التعذيب من اجله؟ فقد كان المحققون يعرفون بان هناك طرف ا آخر، ولكني لم أبح باسمه، ولم اعترف عليه حتى النهاية.

سكت ثم قال بشكل مفاجئ وهو يوجه إلي نظرة شك:

ـ أتقسم على أن لا تذكر هذا لأحد؟

فقلت وأنا اشعر بمرارة الأسى، عليه:

ـ كان يجب أن تطلب مني هذا، قبل أن تخبرني بهذه التفاصيل! ولكن لا بأس، فأنا لن أفعل هذا من أجلك أنت، ولكن اخبرني فقط، لماذا سلمت نفسك؟ أبسبب تأنيب الضمير؟

- بالطبع لا! بل سلمت نفسي لان الرجال من أقاربي اجتمعوا، وقرروا باني لم افعل شيئا، إلا الأخذ بثأري، ولذلك رأوا بان تسليمي لنفسي يمكن أن يدعم موقفي أثناء المحاكمة.

ـ ولكن! عن أي ثأر تتكلم؟! ألم تقل لي بان الرجل كان قد سجن بسبب جريمته؟

ـ ولكنها سبع سنين فقط!!!

ـ حتى لو كانت سنة واحدة، فأنا لا أتحدث عن العدل في العقاب، بل عن موقف القانون، ثم، لا تنسى مسألة التمثيل بالجثة، وإصرارك على التستر على شريكك! ألم تعرف بان هذا كان سيزيد موقفك سوءا؟! ألم يعرف العباقرة من أقاربك الذين اجتمعوا، ذلك، قبل أن يلفوا حبل المشنقة حول عنقك؟!.

قال بارتباك واضح:

ـ ماذا؟! ولكن هل من العدل أن يسجن قاتل، سبعة أعوام فقط، ثم يطلق سراحه؟!.

ـ فليكن ظلما إذا أردت! بل هو ظلم في الحقيقة، رغم أني اعرف بان لكل قضية ظروفها التي تحدد العقوبة في النهاية، وأنا لا اعرف شيئا عن كل هذا، ولكن القانون لا يقيم وزنا لعواطفك أو انفعالاتك أو القيم التي تؤمن بها، هو يتعامل فقط، مع الأدلة والظروف والحقائق التي تتكشف من خلال التحقيق.

كنت أريد الاستمرار في الحديث، ولكني توقفت لأني رأيت في عينيه، نظرة تنبئني بأنه لا يريد أن يفهم ما أقول! فقلت بهدوء:

ـ أنا لا يسعني إلا أن اعترف لك باني لا أقرك على ما فعلت، ولكني إذ أراك في هذا الموقف الرهيب، لا أستطيع إلا أن أتعاطف معك، ولكن، هذا لن يفيدك بشيء الآن.

حدق في عيني لبرهة، ثم قال:

ـ على كل حال، ما حدث قد حدث، ولكني حزين لأجل أمي التي ستفقد بموتي ولديها الاثنين، يا لها من مسكينة.

لم استطع هذه المرة أن أجد شيئا يمكن أن أقوله لهذا المسكين الذي يتألم للإنسانة التي أوردته موارد الهلاك بجهلها! ولو أني اعترف لكم باني لا أؤمن بان إنسانا في مثل موقفه يمكن أن يفكر بأحد، غير نفسه!!!. كنت أحاول أن أجد عذرا يتيح لي الابتعاد من دون أن اجرح إحساسه، ولكني تذكرت فجأة السؤال الذي كنت أريد طرحه عليه منذ وقت طويل، فقلت:

ـ ولكنك لم تذكر لي السبب الذي جعل أخاك يتشاجر مع جاره؟

فقال بعدم اكتراث واضح:

ـ كان خلافا على طير، فقد كان كلاهما من هواة تربية الطيور، حيث،

لم اسمع بقية حديثه، لأني غادرت مكاني مسرعا، فقد كان الاستماع بعدما سمعت، أمرا فوق طاقتي!!!.

سمعت خلال الأشهر الثلاثين التي عملت فيها مرشدا لنزلاء غرف الموت تلك، أقاصيصا تشيب لها الولدان لو صدقت، ولكني لم استطع أن أتأكد من صدقها، فرأيت بان الدوافع لكثير من الجرائم التي أدت بمرتكبيها إلى المروق، من رواق الموت، كانت تافهة، أو سخيفة، ولا تستحق أن تكون السبب في أذى إنسان، لا موته!!!.

لقد كان للمحكومين بالإعدام الحق في تقديم التماس رحمة، إلى الجهات المسؤولة، خلال فترة مكوثهم في قسمنا قبل تنفيذ الحكم فيهم، ولكني لم أر أحدا منهم يغادره حيا، كما لم أرهم ميتين!، لان التنفيذ كان يتم في الصباح الباكر، ويحضره ذوو الشأن عادة، وكان من حقي كموظف في القسم أن أحضره، جوازا، لا وجوبا، ولكني لم أجرؤ يوما على الحضور لأني لم استسغ أبدا فكرة أن يقوم إنسان طبيعي بمراقبة إنسان ينفذ فيه حكم بالموت!!!. ولكن عدد الناس الذين كانوا يتمنون طلب تسهيل ذلك لهم مني، عندما يعرفون باني يمكن أن أهيئ لهم مثل هذه الفرصة، أذهلني!!!. بل أن مرشدين من زملائي السابقين، كانوا يعاملوني بعداء، تقربا منهم لمسؤولي السابق ومسؤولهم! أبدلوا طريقة تعاملهم معي، ليطلبوا فيما بعد، هذه الخدمة مني!!! ولكن أحدا منهم لم يفز بمطلبه، فكانوا بعد رفضي، يرتدون تباعا إلى الجفاء الذي تعودوه معي!!!.

(طموح)

رأيته للمرة الأولى، وهو مكبل بالأصفاد، ويحيط به ثلاثة من الحراس الأشداء. كنت عندها أتمشى في الممرات، بعيدا عن الزنزانات التي خلت من نزلائها، الذين غادروا الحياة بمغادرتها، وأنا أفكر بالأعوام الثلاثة والعشرين التي أمضيتها في عملي هنا، في السجن!، كانت دموعه تسيل على خديه وهو يردد بأنه برئ! كان حراسه يوافقون على كلامه بهزات من رؤوسهم وهم يتغامزون فيما بينهم! ويجبرونه على المسير كلما توقف. أشفقت عليه، لأنه كان في ريعان شبابه، طويل القامة ونحيلا. أوقفت الركب الغريب لأني كنت اعرف أولئك الحراس الذين كانوا يبادلوني المشاعر الطيبة! رغم قسوتهم وصلفهم مع المحكومين! وقلت له بهدوء :

ـ حاول أن تتمالك نفسك، لأن وضعك هذا لن يفيدك.

فقال وكلماته تسابق دموعه:

ـ ولكني برئ، والله العظيم برئ.

شعرت بامتعاض منه! ولكني قلت:

ـ أنا لا أكذبك، ولكني لا أستطيع أن أغير من الأمر شيئا، فقط تمالك نفسك وخذ قسطا من الراحة الآن، وستراني موجودا لكي أقدم لك ما يمكنني تقديمه، اتفقنا؟.

أومأ برأسه إيجابا، ولكنه قال بعد ثوان:

ـ صدقني يا سيدي، أنا برئ.

ـ حسنا، حسنا، خذوه إلى زنزانته لكي يرتاح.

اخترقتني نبرة الصدق التي كانت واضحة في كلامه! فشعرت بغصة، أبدلت مزاجي، فهرعت إلى غرفتي وحاولت أن اقرأ كتابا، ولكني لم استطع أن أركز، فرميته جانبا ورحت أفكر فيه. لم يطل بي الوقت، حتى أقنعت نفسي بأنه مجرد واحد آخر من أولئك المجرمين الذين دأبوا على تأكيد براءتهم وهم مذنبون حتى النخاع!!! ولكن الشفقة بقيت سيدة عواطفي تجاهه، لأني كنت اعرف المصير الذي ينتظره جيدا. لا اعرف كم قضيت من وقت في غرفتي ولكني تنبهت أخيرا إلى أن ساعات الدوام قد أوشكت على الانتهاء، فقررت أن اذهب إليه. عندما دخلت الدهليز المؤدي إلى الزنزانات سمعت صوت نحيب! ولأنه كان النزيل الوحيد، عرفت بأنه نحيبه، فكدت أعود أدراجي! ولكني شعرت بالخجل من نفسي! أأشفق عليه، ثم اتركه وحيدا لأني انزعجت من بكائه؟ ثم، لو كنت مكانه الآن، هل كان بإمكاني أن لا أبكي؟ وماذا لو؟ لم استطع أن أواجه السؤال الأخير بهذا الوقت المبكر. لذلك أبعدته عن تفكيري على الفور. سرت قدما نحو زنزانته لكي أحاول مساعدته، ولو بكلمة طيبة!!! وللحقيقة أقول، باني لم أتعلم أبدا، كيف يمكن أن ابعث

الطمأنينة في نفوس هؤلاء المناكيد، رغم طول الوقت الذي عملت فيه هناك! ولا اعرف ان كان هناك إنسان في هذا العالم، يعرف كيف يفعل ذلك؟ ولكني لم ادع يوما، عدم إمكاني فعل ش يء بالشكل الأكمل، يمنعني من فعله.

عندما وقفت أمام زنزانته، لم يشعر هو باقترابي لأنه كان ما يزال ينتحب، وقد أدار ظهره إلى القضبان فتذكرت عندها جسّاس فزاد همي، قلت بصوت خفيض وبتردد:

ـ اسمع.

التفت إلي بحركة سريعة، فقلت:

ـ على رسلك يا بني، فقد أتيت فقط لأسألك إن كنت في حاجة إلى شيء قبل أن اخرج.

قال بصوت متهدج:

ـ وما الذي يمكن أن احتاجه؟ أنا قد انتهيت، سأموت. ولكني برئ، والله برئ، كيف يعقل أن اقتل صديقي؟ لقد كان اعز صديق لي، وكنت أحبه جدا.

كان هذا أول ما عرفته عن قضيته، ولكني لم أشأ أن اسأله شيئا عنها، لأني كنت في عجلة من أمري! فقلت:

ـ أنا قلت، أتحتاج شيئا يمكن أن أوفره لك؟.

فقال بإصرار:

ـ حسنا، أنا احتاج تصديقك، باني برئ.

كان يبدو وكأنه يستجدي هذا التصديق ولكني قلت:

ـ وما الذي يمكن ان تستفيده من هذا التصديق؟ فأنا لا أستطيع أن أغيّر حكم القاضي.

كان بإمكاني في تلك اللحظة أن أقول له باني أصدقه، ولو كذبا، إذا كان هذا يريحه، ولكني لم افعل!!! بل أضفت قائلا:

ـ ولكن قل لي، ما أسمك؟

ـ طموح!

أذهلني رده، إذ لم يكن هذا، من الأسماء المعتادة بالنسبة لي! "وإذا لم يكن بريئا، فإلى أين أوصله طموحه هذا؟" يا للمسكين!. قلت:

ـ حسنا يا طموح، ستكون لنا أحاديث في الأيام المقبلة، أما الآن فان دوامي قد انتهى، وان لم تكن في حاجة إلى شيء، فأنا ذاهب، سوف أوصي الحراس بك خيرا قبل أن اخرج.

فقال بيأس ولا مبالاة:

ـ اذهب إذا، ودعني لمصيبتي، فأنا لا احتاج شيئا.

عندما وصلت إلى البيت، كنت متعبا،قلقا ومهموما، ولكني ما إن دخلت، وسمعت صيحات أطفالي وهو يلعبون، حتى تناسيت همومي، وأسرعت إليهم. كان منقذ وايمن يتصارعان وهما يتضاحكان، وكانت ديمة، ديمتي أنا، ترقبهما بعين الاهتمام والفرح، وهي تتقافز في حضن أمها وتطلق زعقات مبتهجة. أواه لكم كان هذا المنظر البهيج ينسيني كل ما ناءت به نفسي، حتى تعودت في النهاية أن اخلع أحزاني وتوتراتي، لأتركها عند باب البيت وادخل. هرعت إلى حيث طفلتي لأحملها أضمها إلى صدري، والله لم اشعر يوما بنعمة حاسة الشم، قبلما اشعر بها، عندما استنشق رائحة طفل زكية. فلم املك بعد هذا نفسي، فقبلتها رغم إنها عبرت عن انزعاجها عندما لامست شعرات شاربي بشرتها الرقيقة، أعدتها إلى زوجتي التي ردت على بسمة التحية، التي ألقيتها عليها، ببسمة ارق. قبلت ولديّ وجلست لألعب معهم بعض الوقت، ورغم ذلك شعرت زوجتي بان هناك ما يقلقني! فقد كانت عيناها تقرآني دوما كالكتاب المفتوح، قالت :

ـ مالي أراك مهموما؟ هل حدث شيء؟

ـ كلا، لا شيء هناك، فقط اشعر بتعب.

فسكتت، ولكني كنت متأكدا من أنها ستسألني مرة أخرى فيما بعد، و أني سأحدثها في النهاية عن النزيل الجديد، وما أثاره في نفسي من شفقة، وشك لمصلحته!. ولكن ضحكات أطفالي سرعان ما شغلتني عن تلك الهموم.

بعد الغداء نام ولداي لأخذ قيلولتهما، وكانت أختهما قد سبقتهما، فانشغلت زوجتي بأعمال الخياطة التي كانت مزدهرة في تلك الأيام، راقبتها بعض الوقت وهي تعمل، فشعرت بعدم ارتياح، كما هو شأني عندما أراها تتحمل كل ذلك التعب، ومن دون شكوى، ولكني في النهاية لجأت إلى الفراش لكي أنام!.

(الدومينو)

استيقظت قبيل المغرب، كان أولادي قد سبقوني إلى الاستيقاظ. بعد شاي العصر بدأ ولداي بالدراسة لكي أستطيع ان أساعدهما عندما يحتاجان إلى ذلك، وكان هذا دأبنا يوميا. وبعد الغروب قررت أن اذهب إلى المقهى القريب، لأرى صحبي والعب معهم الدومينو، ولأني كنت، وما أزال، أجد لذة كبيرة في ممارسة هذه اللعبة، فاسمحوا لي بان أطيل عليكم، في حديثي عنها، رغم أن الكثير منكم يمكن أن يعتبرها لعبة تافهة، لا يمارسها إلا العاطلون. وهذا قد يبدو صحيحا أحيانا، ولكن الحقيقة هي أن الأمر كله يتعلق بمسوغات ممارستها! فان كان ذلك لمجرد اللهو، وقضاء بعض الوقت الزائد، فان اعتبار أغلبكم، سيكون صحيحا، ولكني أتصور باني أستطيع أن اثبت إنهم يمكن أن يكونوا على خطأ! إذا ما أقنعتكم بأنها فن السهل الممتنع، كما اعتبرها!!!. فهي سهلة المبادئ لان كل أدواتها، ثمانية وعشرين حجرا، نقش على كل منها رقمان، وهذه الأرقام تبدأ من الصفر وتنتهي عند الستة، أي إن علاقتها بالرياضيات، لا تتعدى ابسط مبادئ الحساب البابلي القديم، ولكن الإحاطة باحتمالات اللعب فيها، صعب، ولا يقدر عليه بإتقان إلا من امتلك المنطق والعقل والتنبه!. هي لعبة يختلط فيها المنطق بالحدس، ولاعبها لا يمتلك إلا التخمين سلاحا، لان الاستنتاج الصحيح، هو البديل الوحيد لليقين، الذي لا مكان له فيها!، ومثل هذا الاستنتاج عصي بالتأكيد على اللاعب الذي لا يتنبه على كل ما يدور حوله من حركات وهمسات وتعابير أوجه الآخرين، بل وحتى نبرات صوتهم المتغيرة! رغم معرفته بسياقات اللعب الصحيحة. هي لعبة يبدو أن للحظ دورا كبيرا فيها، ولكن الحقيقة هي إن العقل هو حادي النصر فيها! لان أهم ما في جولاتها هو البداية، فإذا ما لعبها صحيحة، و على وفق السياقات التي تعلمها من خلال ممارسته إياها بدعم البصيرة والرؤيا الواضحة، فانه سيجني ثمار ما فعل نقاطا لصالحه، والتي ستكون في حدها الأعلى، عندما يكون الحظ إلى جانبه، وعندما يكون الحظ محايدا بين المتبارين، فان صاحب العقل والخبرة منهم سيبدو وكأنه هو سعيد الحظ!!! أما إذا قلب له الحظ، ظهر المجن، فان العقل سيضمن له خسارة بأهون صورها، وهذا يترك له باب التعويض مفتوحا لان اللعبة تستمر جولات متعددة.

يجب على المرء أن يدرك بان اتخاذ موقف ثابت فيها، وبغض النظر عن ظروف اللعب، هو ضرب من غباء،لان التصرف في موقف معين ينبع دائما من ظروف ذلك الموقف، ولا تصورات مسبقة عن سير الأمور فيها. ولكن الحدس قد ينتاب الإنسان أحيانا، فيجعله يقرر القيام بخطوة حتى إذا كانت تنافي أحكام المنطق! وهذا أمر وارد جدا، ولكن المشكلة ستبقى هي غياب اليقين، فمن أراد الأمان، يجب عليه أن يلتزم بالمنطق والسياقات التي أتقن مبادئها خلال

ممارسته الطويلة، أما إذا قرر أن يتصرف على وفق حدسه، فان هذا من حقه بكل تأكيد، ولكنه يجب أن يدرك بأنه سيكون في ذلك مغامرا، والمغامر يجب أن يتوقع الخسارات الثقيلة ويتقبلها، مثلما يحلم بالربح الوفير، أو الانتصارات الناجزة، ولكنه إذا تصور بأنه مضطر للمغامرة لأنها فرصته الأخيرة، فانه سيكون على خطأ، لأن الحقيقة هي، أن هناك دائما وقت للتعويض، أو، للعق الجراح!.

لقد كان تاريخي مع اللعبة عبارة عن سلسلة متصلة من خسارات تصل حدود اللا معقول أحيانا! فكان لزاما علي أن انسب هذا، إلى الحظ السيئ (وهذا صحيح بحسابات الربح والخسارة الضيقة فقط). وهذا الأمر دفعني إلى التنبه والبحث الدائم عن أكثر الخطوات صحة، لأتبعها، لأنها هي الكفيلة بدفع ظلم الحظ عني!!! فكان عدم الركون إلى معونة الحظ، هو السبب في أني أتقنتها (إلى حد ما) بحسب أصولها، ولكن عقبة الحظ بقيت كأداء أمامي، فانا كنت، وما أزال، أكثر لاعب دومينو، خسارة في العالم!!! ولكن ذلك ليس لأني سيئ الحظ! بل لان الحظ لا يريدني أن أفوز! لكي انتبه على ما هو أعمق بكثير جدا من مسألة الربح والخسارة في أمر، هو أنها في النهاية مجرد لعبة!!!. أنا والله أؤمن بهذا جيدا، ولكني لا أستطيع إلا ان أثور عندما اخسر أمام أشخاص لا يفقهون من أصول اللعبة شيئا!!! لأني اشعر بمرارة عندما اخسر، وارى من لا يستحق، يمتلك كل تلك الحظوظ، وان كان هذا يعني بان مبعث مرارتي، هو حرماني، لا عدم استحقاقهم، فلا بأس، لأني في النهاية إنسان، ولأنهم بالفعل لا يستحقون. أنا عندما العب كما يجدر بي أن العب، قد اشعر بارتياح، حتى إذا ما خسرت أمام لاعبين، جيدين، أما إذا ارتكبت خطأ أثناء اللعب، فان هذا يفقدني لذة الإحساس بالفوز، حتى إذا ما تحقق، لأنه يعني باني ما أزال بحاجة إلى المزيد من الوقت للاقتراب من الكمال النسبي الذي انشده، وللحق أقول باني اخطيء أحيانا في الظروف الاعتيادية، ولكن أكثر أخطائي تكون أثناء الانفعالات غير المبررة التي تنتابني!!!.

إن لاعب الدومينو يمكن أن يفوز أو يخسر، لان الحظ يشاء ذلك، وبغض النظر عن الذكاء والخبرة!!! فإذا كان الأمر كذلك، فما فائدة الذكاء والخبرة؟! ولكن قبل الإجابة على هذا السؤال، يجب أن نحدد مفهوم الربح والخسارة تحديدا واضحا لكي لا يكون هناك لبس في النهاية، فإذا كان هذا متعلقا بالنواحي المادية، يصبح تحديد الرابح والخاسر بسيطا جدا، لأنه إن كان هناك رهان في اللعبة، مثل دفع الخاسر لثمن المشروبات التي يشربها اللاعبون، أو ما شابه ذلك، فان حسابا بسيطا يجري على مر الأيام، سيظهر إن صاحب المقهى هو الرابح الوحيد، وكل اللاعبين خاسر ون لأموالهم!!! أما إذا كان الرهان نقديا، فان اللعبة في هذه الحالة ستكون مقامرة، ولا ربح هناك للمقامر، لأنه خاسر حتى في ربحه أحيانا إذا ما حسب الأموال التي

ضيّعها هباء في مقامراته طوال عمره!!!. إن المادة لا تصلح مقياس ا للربح والخسارة، لا لان المادة غير مهمة للإنسان، بل هي في الحقيقة مهمة جدا له، ولكن لأنها لا يمكن أن توصله إلى حالة الإشباع الحقيقي، الذي لن يشعر به إلا إذا اهتم بالجوانب الاعتبارية من نفسه، فإذا أخذناها هي مقياسا فإننا يجب أن نسقط عدد المباريات التي ربحناها أو خسرناها، لان من يريد أن يعرف الربح عن هذا الطريق، يجب عليه أن يعدّ كل المباريات التي يخوضها اللاعب طوال حياته، ويحسب عدد مرات الربح والخسارة فيها، والكفة التي ستميل منها، ستكون هي صفة اللاعب! فمن يستطيع عمل ذلك؟ بل من الذي يكترث لمثل هذا الهراء؟! خاصة وإنها مجرد لعبة!!! ولذلك أقول أن الخبرة والذكاء لهما فائدة أكيدة، لأنهما يع دان في هذه الحالة رصيدا مضافا للإنسان، وحتى في مقاييس اللعبة، فهما يجعلان اللاعب ينتظر اللحظة التي يتخلى فيها الحظ عن المنافس المفتقد، لهما (وهو لا بد فاعل ذلك، لان من شيم ه التذبذب، وأقصد هنا الحظ) وعندها ستكون المهارة هي الفيصل بالتأكيد، وما الرغبة بالفوز للإنسان العاقل، إلا محاولة منه لوضع الأمور في نصابها الصحيح. ولكن ماذا لو حالف الحظ اللاعب الماهر؟ في هذه الحالة سيكون أمل الآخر في الفوز، ضربا من محال!. وحتى إذا لم يحدث هذا في النهاية، أفلا يكفي الإنسان أن يكون هو الأصح، بمقاييس العقل والمنطق؟ ولماذا يجب أن يكون الفوز في هذه الحالة هو المقياس؟ لم لا يجب أن تكون الممارسة الصحيحة، كذلك؟ فيكون ديدن اللاعب بهذا هو الخطوة الصحيحة فقط، ومثل هذا لو حدث، لاختفت من طرقنا الكثير من أشواك العسر والعناء، ولفرشت ببسط اليسر والرخاء!!! ولكن عذرا يا أحبتي لهذا الشطط! فما أنا إلا حالم لعين! لا تصغوا لما أقول، واستمروا في ألعابكم التي يستهويكم فيها، فقدانكم أعصابكم، لان هذا هو سبيلكم للشعور بـ "أنا" كل منكم، العزيزة عليه، ولا تنسوا بان الفوز يرتبط بحب التظاهر الكامن فيكم، الذي هو ابرز مظاهر أنانيتكم المفرطة!!!.

من خلال ممارستي هذه اللعبة، استطعت أن أدرك كيفية تصرف الحظ (أو هكذا أتصور) في حياتنا، لان اللاعب فيها يتمتع بالقدر نفسه من الحظوظ التي منحته إياها الأقدار في هذه الدنيا، وأنا كنت، ولجهلي، اعتبر خساراتي المتتالية حظا سيئا! الأمر الذي كان يجعلني لا اتنبه لمدى حظي، لأني أدركت، في الأقل، وإلا، أليس العقل والإدراك حظ ا أيضا؟! بل هو حظ وفير!!!. هاأنذا أفاخركم بعقلي، ولكن لا تعجبوا، لأني لو حاولت أن أبدو متواضعا في نظركم أحيانا، فلاني أريد أن اجذب تنبهكم. ولكني في الحقيقة امتلك من الاعتداد بالنفس ما يجعلني أتفاخر، بلا خوف منكم. المهم هو أني عندما أدركت، توضحت أمامي بعض تفاصيل الموازنة الدقيقة، التي تسوق الحياة أقدارنا، من خلالها، وأنا لا انوي أن أبين لكم هذه التفاصيل، لأني تعودت التعرف على اللعبة الصحيحة، حتى بالغريزة! ولكني عانيت الأمرّين في محاولاتي

إفهام الآخرين وجهة نظري! ولا رغبة عندي في معاودة المعاناة الآن، ولذلك سأقول لكم ما أراه صحيحا فقط، ولكم أن تأخذوا به، أو لا تأخذوا. نعم، إن الحياة تعطينا بإنصاف لا مثيل له والله، ولكننا لا ندرك!!!، ولاعب الدومينو الذي يلقي النظرة الأولى على الأحجار السبعة التي هي نصيبه في كل جولة، يمكن أن يصاب بخيبة أمل، لو شعر بأنها لا تبشر بخير، ولكن سير اللعب يبين أحيانا، بان الحظ كله، كان يكمن في تركيبة الأحجار، المحبطة، التي حباه الحظ بها!!! فهو يبدأ الجولة بمحاولة التخلص من الأعباء التي ابتلي بها، ولكنه يجد نفسه في النهاية فائزا!!! ومثل هذا يحدث لو شاء الحظ ذلك أحيانا، وفي أحيان أخرى يكون تحكم العقل في طريقة التخلص وتوقيتاتها، هو السبب في الفوز!!!. وإذا ما قلت لكم بان عكس هذا، يمكن أن يحدث أيضا، فلا تبدءوا بالنفاق والتظاهر، فتقولون (عسى أن تكرهوا شيئا) لأنكم تعرفون هذا، وترددونه بألسنتكم، ولكنكم لا تؤمنون به فعلا! بل لا تفقهون له معنى!!!، فانتم تريدون كل الحظوظ، وطوال الوقت!!! وما لم تنالوا هذا المستحيل تصابون بالإحباط!!!، ولكن أتدرون لم تتصرفون هكذا؟ لأنكم تهتمون بمظاهر الحظ، وتعجزون عن إدراك جوهره! نعم يا سادتي، هي معضلة المظهر والجوهر الأزلية، التي تعانون منها، وما مظهر الحظ، إلا الجانب المادي فيه، وهو فقط ما يجعل لعابكم يسيل، أما جوهره فلا شأن لكم به! رغم أنكم لو أدركتموه، لعرفتم بأنكم تمتلكون منه الشيء الكثير!!! وحتى في طلب المظاهر، انتم مخطئون، لأنكم إن تأخر عليكم الحظ قليلا، تجزعون، مع أنكم يجب أن تنتظروا نهاية المباراة، لأنه عندها فقط، يكون الحساب الصحيح، أما أنا، فقد عانيت بما فيه الكفاية من الشعور بالحظ السيئ، حتى أوصلني إلى درك التشاؤم! وعندما أردت أن أتظاهر بالتفاؤل، أقنعت نفسي بان أرضى بالقليل الذي أعطتني إياه الحياة، ما دامت تسمح لي بالاحتفاظ به!!! ولكن، ليلعنني الله إذا كان ذلك قليلا! فهو لم يكن كذلك أبدا، وأنا لا أريد أن أفاخركم مرة أخرى، لان هذا من شأنه أن يحكم إغلاق عقولكم بوجه ما أقول! ولكن، هل سأكون راضيا في الغد إذا ما شاءت الحياة أن تأخذ مني، بعض ما أعطتني إياه حتى الآن؟!!!. المهم الآن هو، أني راض بما تهيأ لي، وهذا الرضا يورثني توازنا لا بأس به، فان أردتم انتم خيركم، ارضوا بما لديكم، ولا تجزعوا إذا ما بدا لكم قليلا، فقط ارضوا، ولا تحولوا رغباتكم، إلى هواجس تقض مضاجعكم. أنا لا أدعوكم إلى الكسل والتقاعس، بل اسعوا ما شاء لكم السعي. ولكن ارضوا بما تكسبوه، ولا تقللوا من شأنه، فهو أكثر مما قد يبدو لكم، بكثير، وتذكروا بان الحظ مهما أعطى، فانه لن يجعل الناس جميعا، يوما ما أغنياء! فهذا ليس هو ما أرادته القوى التي تسيّر شؤون حياتنا، فلم لا يرضى أحدكم أن لا يرى نفسه إلا غنيا؟! لم لا يتوقع بأنه هو الذي شاء حظه أن يكون الفقير من الناس؟! يسعى، ولا يغتني، فيجزع ويفوّت على نفسه فرصة أن يدرك حقيقة ما هو متوفر له بالفعل!!! ومرة

أخرى أقول، إني لا أريدكم أن تتخاذلوا، فتمتنعوا عن محاولة تحسين أحوالكم المادية، فهذا من حقكم، ولكني أريد أن تطمئنوا في النهاية، فترتاحوا، وتريحوا.

انتم لا تحتاجون إلى ذكاء كبير لتعرفوا، باني متحامل عليكم كثيرا، ولكني مع ذلك أرجو من كل قلبي، أن لا يكون العجب قد أخذكم لأني أوردت كل ما سبق في معرض حديثي عن لعبة، قد تكون تافهة!!! لأنه إن افعل، فستخيبون ظني، ولكنكم إن فعلتم، فلا عجب، لان ظني بكم كان قد خاب كثيرا من قبل.

لقد فاتني أن اذكر لكم منذ البدء باني لا أتحدث هنا عن ممارسة اللعبة من قبل لاعبين، يلعب كل منهم لنفسه فقط، سواء إن كان عدد اللاعبين، اثنين أو ثلاثة أو أربعة، وهو الحد الأقصى لعدد لاعبيها! صحيح إن المبادئ ستبقى في هذه الحالة، هي نفسها، رغم انه نسبة الحظ في هذه الحال ستزداد، وعلى حساب المهارة والكفاءة، ولكن اللاعب في هذه الحالة لن يتعلم منها إلا طرق المراوغة، وكيفية إخفاء ما يمتلك، عن اللاعبين الآخرين، ومثل هذا لن يكون إلا مباريات في المكر والخداع، ولذلك لا يمارسها إلا الجهلة من الناس، والمتخلف ون، وهذه الطريقة، هي المفضلة لدى المقامرين!!! أما المقصود، فهو ممارستها من قبل فريقين متنافسين، يتكون كل فريق من لاعبين اثنين، وفي هذه الحالة فقط، يظهر مدى رقي الأداء الجماعي للإنسان، وكفاءة العقل المتعاون، والفريق الذي لا يفكر بطريقة جماعية، فريق خاسر، حتى إذا ما ربح المباراة بسبب الحظ في النهاية! أما الفريق الجماعي الأداء والتفكير، فيكفي أفراده أن يكونوا قد وضعوا بذلك أقدامهم على الطريق الصحيح لفهم إرادة الله الذي لم يخلق البشر إلا ليكمل بعضهم بعضا، لا لكي ينغمس كل منهم في هموم نفسه ورغباتها.

أما ابرز فائدة جنيتها من هذه اللعبة، فقد كانت معرفة الآخرين!. فقد دأبت على مراقبة لاعبي الدومينو وهم يلعبون، وبمرور الوقت أدركت بان هذه المراقبة تتيح لي أن أتعرف على حقيقتهم!!! لأنهم خلال اللعب ينسون أقنعة المظاهر التي تعودوا على ارتدائها ما داموا في حضرة نظرات المنافسين، من دون أن يعوا، و والله لو كانوا يعون، لما تجرءوا على لمس أحجار الدومينو، بل لخافوا منها خوفهم من الموت نفسه!!! ولكنهم حملوها مطمئنين، وهذا الاطمئنان أتاح لي أن أراقبهم في لحظات يتصرفون فيها على سجيتهم، من دون خشية من رقابة رقيب، لتصورهم بأنهم إنما يلعبون فقط، فكشفوا لي بذلك خفايا أنفسهم!. لقد تبين لي بان الذي يغش خلال اللعب، هو نفسه الذي يغش دائما، والذي يمارس اللعبة لأجل التسلية فقط، هو الذي لا يستطيع أن يأخذ أمور الحياة بجدية، والذي يكذب خلالها، يكذب في كل مكان. أيقنت بان الأنفس تكشف عن مكنوناتها على طاولة الدومينو، فتعرفت هناك على المتردد الفاقد ثقته

بنفسه، والكسول والعجول والمتقلب والصادق والمتعاون والأناني، بل وحتى المتخلف والراقي، والأكثر من هذا، أني اكتشفت حقيقة نفسي هناك!!! فقد سمعت من قبل الكثير عن الطيبة التي يراها الآخرون بي، حتى كدت اصدق باني طيب! ولكن العدوانية التي اعبّر عنها خلال اللعب، وثورات أعصابي المستمرة بسبب الخسارات، بل وحتى الحسد الذي اشعر به عندما أرى مقدار ما يمتلكه الآخر ون من حظ!!! جعلتني اعرف باني لست بالرمزي الطيب الذي يتصورونه، ولعلكم انتم توافقوني في هذا بعد طول ما عانيتموه من عدوانيتي تجاهكم على ظهر صفحاتي السابقة.

و أخيرا، أريدكم أن تعرفوا، بأنه ليس من حقي أن أدّع ي باني قد مارست اللعبة لأني كنت اعرف بأنها تحمل في ممارستها معاني فلسفية كما قد يبدو من كلامي، أو أني قد اخترت المقهى كعينة عشوائية (حسب مصطلحات علم الإحصاء) لكي استخرج منها البيانات التي يمكن أن تساعدني في تحليل نفسية الأفراد، والمجتمع كما ابتغي، لأني، لم أمارسها منذ البدء، إلا لأجل المتعة فقط، ولكن، ألا يغمض علينا مدى جدية الأمور في حياتنا ولا ندركها، إلا بعد تراكم خبراتنا المتأتية من سعينا الدائم وراء التسلية والتجارب اللذيذة؟!. ألم نبدأ جميعا، رحلاتنا الشخصية في الحياة بالبحث عن اللذة، ولكن، في لحظة يقظة مفاجئة، يدرك (بعضنا) بأنه قد أصبح وسط دوامة الحياة الحقيقية، الهائلة؟!.

في تلك الليلة بقى وجه طموح الباكي يلح على ذاكرتي، الأمر الذي أصابني بالتوتر وشرود الذهن، فلاحظ "نبيه"، شريكي الدائم في اللعب ذلك، وكالعادة، كان الحظ يعاكسنا في مسعانا للفوز! ولكننا كنا نستفيد من أخطاء الفريق المنافس الكثيرة، وفي بداية الجولة الأخيرة كانت النتيجة متقاربة جدا، ولكن نبيه ارتكب خطأ فادحا لأنه لعب عكس المنطق واعتمادا على الحظ! شعرت بان الخسارة أصبحت واقعة، ولكني جاريته في مسعاه على أمل!، وعندما حدث ما توقعته بالفعل، اشتطت غضبا، فوجهت له كلاما قاسيا، فراح يحاول أن يثبت لي بان لعبته في نهاية الجولة كانت اضطرارية، متوهما بأنها هي، سبب غضبي، لمته بسبب بدايته الخاطئة، ولكنه لم يفقه ما أقول، وظل متشبثا برأيه! الأمر الذي زاد غضبي، فقررت أن أتوقف عن اللعب (على غير عادتي عندما اخسر). انزويت بعيدا عنهم وأنا اشرب الشاي، وأتأمل. لم يكن تشاجري مع نبيه أحيانا، ليؤثر على علاقتنا، فقد كان قد تعود ثورات غضبي، ويعرف بان الإهانة هي آخر مراميها، ولأنه يمتلك من العقل ما يؤهله لان يكون لاعبا جيدا عندما يمتلك الممارسة الكافية، كان اختياري له من دون الآخرين.

اقترب مني وأنا في مجلسي المنفرد، جلس إلى جانبي وقال بدون مقدمات:
ـ لماذا توقفت عن اللعب ؟ كان بإمكاننا الفوز في المباراة التالية.
ابتسمت له و أجبته:
ـ لقد كان ذلك بإمكاننا دوما، ولكننا ما زلنا نخسر!.
ـ ولكني لم أكن مخطئا في هذه المرة.
ـ إذا، أنت لم تفهم ما قلته لك، لقد غضبت بسبب الاختيار الذي فرضته علينا، في بداية الجولة.
ـ ولكن، أما كان بإمكانك ان تنبهني إلى ذلك، باختيارك المعاكس؟!
ـ كان ذلك سيكون خطأ أسوأ، لان اللعب عكس اختيارات الشريك، هو أسوأ ما يمكن ان يفعله اللاعب.
ـ ولكنها كانت مجرد بداية!.
ـ ألم تفهم يا نبيه بان السر كله يكمن في تسلسل الخطوات الذي تفرضه البداية، لأنك عندما تمتلك حق الاختيار، فان أيۣ خطوة تخطوها، سيكون لها تأثير على مجرى اللعب يختلف عن تأثير الخطوات المغايرة، ثم لا تنس بأنها كانت الجولة الأخيرة، أي انه لم يكن هناك المجال للتعويض بها، وحتى إذا لم تكن كذلك، فان الحظ عندما يلعب ضدك، يمكن أن يعني أن خطأ واحدا يتسبب في خسارة جولة، يمكن أن يؤدي في النهاية، إلى خسارة المباراة، لان الجولات متسلسلة النتائج ومترابطة، لان مسألة من يلعب أولا، وما سيلعب، مهمة جدا. ولذلك حاول دائما ان تأخذ زمام المبادرة بخياراتك الصحيحة، ولا تدعه بيد الحظ الذي يمكن أن يقودك إلى حيث لا تسعد.
ـ أنت تتكلم وكأننا لم نضطر عشرات المرات إلى لعب مباريات ليس لنا فيها، مجال للاختيار من البداية للنهاية!!!
ـ نعم، ولكن هذا هو الاستثناء وليس القاعدة، وأنا لا أتحدث عنه، بل عن الخيارات الموجودة، وهو أمر آخر بالتأكيد. لأنك عندما تلعب ضد الحظ، فان الاختيار الصحيح يكون هو املك الوحيد، لأنه هو الذي يقلل من خسارتك، ويؤهلك للاستمرار ومحاولة استثمار أخطاء الخصم، وتحويل الخسارة إلى فوز. إن ما أقوله يا نبيه، أمر لا يُعلّم، بل يُحس ويُفهم من خلال الممارسة، وان ممارستي أطول، ولذلك عندما نختلف، حاول أن تتذكر هذا. أنا لا أنكر إمكانية أن أكون مخطئا أحيانا، الأمر الذي يكلفنا غاليا، ولكن صدقني عندما أقول لك باني لا أتردد بالاعتراف بخطئي.
ـ حسنا، ولكنك تعتمد كثيرا على أخطاء الخصم، فماذا لو كان لا يخطيء؟!
عندها ضحكت وقلت:

ـ في هذه الحالة، تكون خسارتنا، أنا وأنت، مضمونة، لان الفيصل عندها سيكون الحظ، وأنت تعرف قصتنا معه، ولكن مثل هذا الخصم في الأقل، يكون مستحقا لفوزه.

ابتسم وهو يهز برأسه موافقا على كلامي. ولكنه سألني فجأة:

ـ ولكن، قل لي ما الذي حدث لك اليوم؟ فقد لاحظت بأنك كنت مهموما، وشارد الذهن أثناء اللعب.

ـ في الحقيقة، اشعر ببعض الضيق.

ـ ولكن، لماذا؟

كان نبيه من القلائل الذين أحدثهم عمّا يعتمل في داخلي، ولذلك حدثته عن طموح، فكان ذلك بداية لنقاش طويل بيننا ولا ادري أي شيطان زيّن له أن يقول فجأة:

ـ ولكن، ألا يمكن أن يكون بريئا بالفعل؟!

لو كان مثل هذا التساؤل قد صدر عن إنسان لا يعنيني أمره، لما كان له تأثير علي، ولكني عندما سمعته من نبيه، شعرت وكأن أنفاسي قد ضاقت، وانتابني دوار مع الأسئلة الحيرى التي تتالت بعد تساؤله! "ألا يمكن أن يكون طموح كذلك؟" فقد حدثت أخطاء كثيرة، أدت بأبرياء إلى حبل المشنقة!!! ولكنه إذا كان،" فكيف يجب أن أتصرف؟!" من الطبيعي أن أقف إلى جانبه و أحاول مساعدته، نعم هذا طبيعي، ولكن،" كيف؟!" و"ما الذي أستطيع أن أقدمه له؟" لم اعرف، "فهل يجب أن أتصرف بسبب ذلك، وكأن الأمر لا يعنيني؟!" ولكن، "كيف يمكنني ذلك؟".

محملا بهذه الأسئلة التي كانت تتآكلني، غادرت المقهى عائدا إلى البيت! وهناك حاولت النوم، ولكني لم أوفق، لان إحساسي بالعجز، جعل الأفكار المجنونة تقتحم أبواب عقلي، واه لو تعرفون مدى جنونها!!! وقبل الفجر بقليل، غفوت!.

(استبيان)

رغم نومي المتأخر، وصلت في اليوم التالي إلى مقر عملي مبكرا! سارعت إلى زنزانته، فوجدته نائما بعمق!!! لم أشأ أن أوقظه، فسألت الحارس الموجود، عن أحواله خلال الليل، فاخبرني بأنه قد قضى معظمه باكيا، ولم يهدأ إلا قبيل الفجر، فنام!!!. أويت إلى غرفتي لأني لم أجد في نفسي الرغبة في التجوال، رحت أتفحص الملف الخاص بقرار الحكم الذي صدر بحقه قليلا، ثم ذهبت إليه بعد ساعتين، فألفيته مستيقظا وقد بدا عليه الهدوء، بعد التحية، قلت له:

ـ حدثني عن نفسك قليلا؟

ـ أحدثك عن نفسي؟! لماذا؟!!!

ـ حسنا، أنا أرى بأنه عندي استعداد لتصديقك، ولكن عليك أن تحدثني عن نفسك، لكي استبين بعض الأشياء.

- وما فائدة ذلك؟ هل تستطيع أن تساعدني؟

قالها بصلف فاجأني، فقلت بخجل:

ـ لا اعرف، ولكن حدثني ولنر ما سيكون من امرنا بعد ذلك.

بدت عليه إمارات التفكير لوهلة ثم قال:

ـ وما الذي تريد أن تعرفه؟

ـ أشياء كثيرة، ولكن قل لي أولا، ماذا كنت تعمل؟

ـ لقد كنت طالبا، في كلية الهندسة.

فاجأني قوله، لأنه يبدو اكبر من أن يكون طالبا! قلت:

ـ أي إن اهلك كانوا يتكفلون بنفقاتك؟.

ـ نعم، ولكني كنت اعمل أيضا

ـ أي نوع من الأعمال؟

ـ البيع والشراء، خاصة الأجهزة الكهربائية التي كنت أتقن كيفية نصبها، فأحقق بذلك أرباحا لا بأس بها.

ـ وما هي مهنة والدك؟

ـ لقد كان معلما، ولكنه توفي قبل مدة وجيزة، ولكن أمي وهي معلمة أيضا، كانت هي التي تدير شؤون حياتنا، وكانت ثروة قد آلت إليها عن طريق الإرث، فساعدها ذلك على تهيئة معيشة لا بأس بها لنا.

ـ لا بأس بها، أم جيدة؟

ـ حسنا، جيدة، إذا أردت الحقيقة.

ـ وهل لك اخوة؟

ـ نعم، أخ يصغرني بعامين، وأخت هي أصغرنا، وكلاهما طالب جامعي.

ـ حدثني عن عائلتك؟

لاحت نظرة شك في عينيه، ثم قال بخشونة ظاهرة:

ـ ولكن لماذا تسألني كل هذه الأسئلة؟

شعرت بحرج كبير عندما سألني، إذ لم أكن أتوقع هذا الشك، وأنا أسعى إلى ما أسعى إليه، قلت:

ـ قلت لك، أنا أريد مساعدتك، ألا تصدقني؟!

ـ لا ادري، فأنا أكاد لا اصدق الوضع الذي أنا فيه!.

ـ أنا اقدر وضعك، ولكنك يجب أن تسهل علي أمر مساعدتك.

ـ وكيف يمكنك أن تساعدني؟

ـ لقد قلت لك أنا لا اعرف في الوقت الحاضر، ولكني سأفكر بطريقة ما.

ثم سكتّ ورحت أفكر في اضطراب مشاعري وتناقضها، شعرت باني في حاجة إلى يقين، فقلت باندفاع:

ـ أتقسم لي، على براءتك؟

فقال فورا، وبلهجة صادقة لا تدع مجالا للشك!:

ـ والله العظيم أنا برئ.

عندها اندحر الشك، ليسلم ميدان نفسي، إلى يقين مريح! تبدلت حالتي النفسية عندما رأيت بان ما كنت أتمناه، حدث سريعا!!! فعمّني شعور بالارتياح، ولكنه سرعان ما زايلني عندما بدأت أفكر بعظم المسؤولية التي ألقيتها على عاتقي!!! وفيما أنا أفكر صامتا، تنبهت على انه كان يراقب وجهي بقلق! فشعرت بخجل من نفسي، وقلت على الفور:

- حسنا أنا أصدقك الآن، ولكن قل لي فقط، لماذا اتهمت أنت بهذه الجريمة؟ ألم يكن القتيل صديقك المقرب؟ فلماذا أنت؟

ـ لا ادري، لقد جرت الأمور بسرعة شديدة، ولم ات ىبه إلا وأنا في قاعة المحكمة اسمع قرار الحكم.

أقلقني غموض ما يقول، فهل كان مخدرا طوال الوقت، أم يعاني من مرض؟ أم إن إلقاء القبض عليه والتحقيقات معه والمحاكمة جرت كلها في يوم واحد، كان هو مريضا خلاله؟!!! لم يكن ما قاله يعقل!!! فقلت:

ـ ولكن هذا غير معقول! ثم قل لي بالضبط، ما دمت بريئا، لماذا اتهمت أنت بالذات؟!.

ورقة مفقودة

صعبة، كنت أتراكض خلالها من مكان إلى آخر كالمحكوم، كان مصير طموح قد تحول إلى هاجس يؤرقني، ويطرد عن بالي الهدوء، فتفقد بذلك نفسي سكينتها، فقد كان قد قدم التماس الرحمة على أساس انه مذنب، لأنه لا يمكن أن يُقدّم إلا على هذا الأساس!!! لأنه كما قال، يخشى أن يعدم، قبل أن يستطيع إثبات براءته، والالتماس في حالة قبوله، يعتبر كسبا للوقت، حتى يحقق غايته!!! ولكني لم اسمع يوما بأنه(الالتماس) قد جنب مقدما له مصيره المحتوم! ولذلك كنت جزعا وأنا أرى إن الوقت يدركنا، وقلقا وأنا أرى جهودي تذهب أدراج الرياح! ومهموما إذ أرى الآخرين لا يكادون يعو ن ما أقول، ولا يهتمون لمصير إنسان برئ يكاد يعدم بذنب غيره!!! في تلك الأيام كنت لا أكاد آكل ما يسد رمقي، لأني كنت مشغول البال طوال الوقت، فاقلق حالي هذا، زوجتي، و أثار مخاوفها، لأني لم أكن قد حدثتها بالأمر، رغم مرور خمسة أيام كاملة على انشغالي به!

بعد الغداء قالت لي مبتسمة:
ـ لم أنت مهموم هكذا، وقلق، منذ أيام؟ ما الذي حدث؟ ألا تريد في هذه المرة أن تنبئني عما يشغلك؟ أم انه سر رهيب؟.
ابتسمت لها بالمقابل وقلت:
ـ لا، ليس هذا، ولكني لم أود أن أشغلك بهمومي.
ـ ولكني لن ارتاح، وأنا أراك تعاني وحدك، الست أب أطفالي؟
ـ أبو أطفالك، فقط؟
فقالت ضاحكة:
ـ هيا، اخبرني الآن بما تنوء به.
ـ لا اعرف يا عشتار كيف اشرح لك الأمر، فأنا محتار، ويكاد العجز، عجزي أنا، يبكيني.
ـ ولكن، عن ماذا أنت عاجز؟!.
ـ عن مساعدة شخص يهمني أمره، وهو في خطر.
ـ ولكن، من هو هذا الشخص؟ وبم هو مهدد؟!
ـ هو شخص لا تعرفينه، ولكنه مهدد بالموت.
ـ أتقصد بأنه واحد من المحكومين بالإعدام؟!

ـ بلى، وهو شاب برئ.

ـ برئ؟! هذه هي المرة الأولى التي أسمعك تقول فيها مثل هذا القول، بهذا اليقين!!! ولكن، كيف تكون متأكدا هكذا؟!.

ـ هكذا، متأكد فقط، ولا تسأليني كيف، لأني متعب وتفكيري مشوش بما فيه الكفاية. المشكلة هي أني أرى بان الفرص ضئيلة، أو تكاد تكون معدومة أمامي، في أن أتمكن من مساعدته.

كانت جالسة أمامي، تحدق في عيني مباشرة، أواه لكم أحب عينيها المعبرتين، عرفت بأنها تتهيأ لقول شيء يمكن أن يزعجني! فأنا اعرف ذلك من تعابير وجهها، قالت:

ـ حسنا، انه شيء رائع أن يحاول الإنسان مساعدة الآخرين عندما يحتاجونه، وأنا لا ألومك لما أنت فيه الآن، ولكني كنت اجزع عندما كنت أنت تجزم بجرم المحكومين الذين كنت تتحدث عنهم في السابق، و أتساءل في نفسي عن السر في يقينك ذاك، وهاأنذا الآن محتارة في سر يقينك المعاكس هذه المرة!!!.

ـ أنا لم اجزم لك بجرم أحد من قبل، بل كنت اصف لك مشاعري فقط، وإذا كنت أنت قد تصورتِ شيئا لم اقله أنا، فان هذا ليس خطأي.

ـ ولكني لم اتهمك بارتكاب أخطاء! بل، حسنا دعنا من هذا النقاش، فأنا أريد فقط أن أقول بان مساعدة هذا الشخص، أمر جميل، ولكن تذكر يا رمزي بأنك مسؤول عن عائلة وأطفال، ويجب أن تعرف بان الشخص الذي يهب نفسه ويضحي براحته ووقته من اجل فكرة يؤمن بها، يكون في العادة، واحدا من اثنين، إما شخص وصل إلى أقصى درجات المثالية، أو آخر اشبع كل احتياجاته الإنسانية، ووصل إلى مرحلة يتخطى بإدراكها، حدود اعتيادية البشر، وأنا لم أر يوما واحدا من الاثنين فيك، فأحذر يا رمزي، أحذر، إكراما لنا، أنا وأطفالك.

لله درك يا امرأة! فكم مرة غلبتني بمنطقك؟ أنا الذي أفاخر الآخرين بمنطقي!!! قلت مطمئنا إياها:

ـ لا تخافي يا عشتار، فأنا لن أنسى يوما، بان أطفالنا هم واجبي الأول في هذه الدنيا، أما أنت، فأنت حبيبتي، ولن أقول أكثر من هذا، ولكني لن ادّخر وسعا في مساعدة الآخرين إذا ما تمكنت، وحبذا لو كنت أستطيع أن أساعدهم حتى إذا كان ذلك على حساب واجبي تجاهك، أو تجاه أطفالي! لان هذا هو معنى الجود الحقيقي، ولكنك تعرفيني جيدا، فأنا للأسف، لا أستطيع ذلك.

ـ إذا، خذ قسطا من الراحة الآن، ثم اذهب بعد ذلك إلى المقهى لكي تلاقي أصحابك فأنت لم ترهم منذ أيام. ارتح، وهوّن على نفسك الآن، ثم حاول أن تفكر بروية وهدوء.

(صفاقة)

في المقهى تلقاني صحبي بالترحاب. كانوا قد أصبحوا بعد كل ذلك الوقت الذي مر على صحبتنا، ولعبنا للدومينو لا يشعرون بطعم الفوز إلا إذا ما فازوا علي، أنا! رغم إنهم غالبا ما كانوا يفعلون! ولا يتمتعون باللعب، إلا إذا كنت أنا خصمهم! لان إمارات الغضب على وجهي، وثوراته في نفسي، عندما اخسر معهم، كانت تسليهم. إنهم لم يفهموا يوما باني كنت اغضب لأنهم لا يستحقون الفوز، لا لأني اخسر. كنت أحبهم، أحبهم جميعا، ذكيّهم وغبيهم، صادقهم ودعيّهم، لاهيهم وجديّهم، أحبهم، لأنهم أصحابي الذين ارتاح معهم، رغم أني قد اشعر بارتياح أعمق إذا ما استطعت أن اهزم حظهم القوي!!! بفهمي لأصول اللعبة، وحسن تدبيري، ولكن هذا وللأسف لم يكن يحدث كثيرا. كان استقبال نبيه لي،هو أكثر ما أسعدني، فقد فرح برؤيتي وطالب باللعب فورا! بدا انه لم يزل راغبا باللعب معي، ضدهم، رغم طوال معاناته مع سوء حظي في اللعب!!! لقد كان بإمكانه أن يفوز بسهولة اكبر إذا ما شارك غيري باللعب، وخاصة إذا كنت أنا خصمه! ولكنه كان يريد أن يلعب من اجل متعة اللعب، لا من اجل الفوز فقط، وهذا ما كان يزيدني تقديرا له.

لم يكن ذلك اليوم، يوم سعدنا مرة أخرى، ومما زاد الأمر تعقيدا علينا أني لم أكن أستطيع التركيز، لشرود ذهني. سألني نبيه بعد انتهائنا من جولة خاسرة:

ـ أما زال الموضوع إياه يشغل بالك؟

أومأت برأسي، نعم، فقال:

ـ ولكن دعنا منه الآن، وركّز معي.

أومأت برأسي مرة أخرى، ورحت أحاول أن العب بجدية اكبر، ولكن الحظ السيئ أبى أن يفارقنا، فبدأت ثورة أعصابي التي كان يزيدها احتداما بالتدريج، تعليقات المتفرجين الذين يجب أن يبقوا ساكتين، ولكنهم لا يستطيعون إلا أن يكشفوا خفايا اللعب، بتدخلاتهم! بدأت المناوشات المعتادة، ولا أخفيكم باني أستطيع أن أكون سخيفا، عندما اسمح لنفسي بان تثور لأسباب تافهة!!! كان "عناد" أحد الخصمين، وهو شاب لطيف، ولكن نفسه تطوي في ثناياها تناقضا غريبا، فهو رغم حيائه ودماثته، يعبّر أحيانا عن عناد يقربه من حدود الجهل، رغم انه كان قد أنهى د راسته الجامعية، وينتظره في الوظيفة مستقبل جيدا!، ورغم أننا كنا الخاسرين في إحدى الجولات، إلا انه غضب فجأة لأني قلت، بأنه محظوظ!!!، فقال، موجها كلاما لي:

ـ ولكن، لم لا تعترف بالخسارة؟ .تتصرف وكأنك اللاعب الأوحد، ولا يعرف غيرك أصول اللعب!.

أذهلني قوله، لأني لم أتحدث سوى عن الحظ، ولم أدّع شيئا لنفسي، رغم أنه لم يجانب الحقيقة بقوله! فقلت:

ـ ولكني تحدثت عن حظك، لا عن طريقتي في اللعب!.

ـ ولكن، ألم يكن قصدك باني لا اعرف اللعب، وانك أنت اللاعب الماهر؟!

ـ حتى إذا كان هذا قصدي، فليس من حقك أن تحاسبني على نيتي، لان حساب البشر يكون على القول والتصرف فقط!.

كنت أجاهد نفسي، لكي اكبح ثورة غضبي، فأكملت قائلا:

ـ وعلى كل حال، فما دمت قد تحدثت عن طريقة اللعب، فدعني أقل لك بأنك قد أخطأت للتو، ومع ذلك كسبت الجولة.

قال وهو يزداد إصرارا على رأيه:

ـ هيا، علّم نفسك، ولا تحاول أن تعلّمني.

كان قد بدأ بممارسة اللعبة منذ أشهر قليلة فقط، فقلت:

ـ ولكن لماذا لا أحاول أن أعلمك؟ فأنت لم،

قاطعني قائلا بغضب:

ـ لماذا؟! الجواب بسيط، لأني أذكى منك.

عندها أرعد الغضب في أرجاء نفسي، ولكني تمالكت أمره، غمز نبيه بعينه لي محاولا تهدئتي، ولكني كنت قد ألقيت حجارة الدومينو التي كانت في يدي، وقلت بأقصى ما أستطيع من هدوء، لأني كنت قد بيتّ أمرا:

ـ أذكى مني! بكم؟

قال وهو يتصنع الهدوء مثلي:

ـ بكثير.

ـ اعرف بكثير، ولكن بكم مرة؟

ـ عشرات المرات.

فقلت بصوت ما زال هادئا! رغم أني كنت بالكاد أستطيع أن أسيطر على غضبي:

ـ أو تدري، أمام الغضب يتقهقر العقل ويغور المنطق، ولكني الآن أحاول أن اهدأ، لكي أستطيع أن أرد عليك بما تستحق.

فقال بتراجع مفاجئ:

ـ ولكني لم أشأ إغضابك.
ازداد عندها غضبي! رغم أني لاحظت بأنه كان لا يريد أن تتطور بيننا الأمور، فقلت:
ـ لم تشأ إغضابي! أهكذا؟ بالكلام غير المنطقي، قل لي، كيف عرفت بأنك أذكى مني؟ وأنت لم تختبر ذكائي، لتعرف مداه!.
ـ ولكن هذه وجهة نظر شخصية.
ـ لا دخل لوجهات النظر بهذا الموضوع، بل إن هناك اختبارا للذكاء، تحدد على أساسه درجة ذكاء كل شخص، فهل تعرف أنت درجة ذكائك؟
ـ كلا لا اعرفه، ولكني لا احتاج إلى ذلك، لأني متأكد من نفسي.
فقلت وقد احتدّ صوتي:
ـ لا تعرف! وتتحدث عن ذكائك، وذكائي!.
ـ ولكن لماذا أنت منفعل؟! فقد قلت لك بان هذا هو رأيي الشخصي.
كان يحاول أن يهدئ الأمور، من دون أن يخسر، أو يتراجع، وكان هذا لا يزيدني إلا غضبا، قلت وأنا لا أحاول أن أداري سخريتي:
- ولكن الآراء التي لا تستند إلى أساس منطقي، لا وزن لها يا أيها الذكي!
احمرّ وجهة وقال:
ـ وكيف تثبت أن رأيي لا أساس منطقي له؟
بدا وكأنه قد بدأ يتخبط في الوقت المناسب، لان الحوار كان قد بدأ يأخذ الوجهة التي أردتها! فقلت:
ـ لان الأساس في هذه الحالة، هو اختبار الذكاء، وأنت لم تسمع به!
ـ أنا لم اقل أني لم اسمع به.
ـ حسنا، سمعت به، ولكنك لا تعرف درجة ذكائك!.
شعرت بارتباكه، ولكني لم أعره اهتماما، لأني كنت مشغولا بساديتي! وكذلك لم اهتم لبقية صحبي الذين كانوا ما بين مستهجن لما يحدث، وغير مبال به، ومتابع له بشغف! قال:
ـ ولكنك تعرف جيدا بان هذا الاختبار غير مهم عندنا، لأننا لا نستخدمه في مجتمعنا!
ـ بل أنت على خطأ، ولكن مع ذلك، مهم أو غير مهم، كان يجب عليك أن تكون مستندا إلى أساس علمي للقياس، عندما تقارن ذكاءك بذكاء غيرك، لا إلى آرائك الشخصية، لأنها لا وزن لها في هذه الحالة.

عندما سمع كلماتي الأخيرة علا وجهه الاحمرار، كان من النوع الخجول الذي لا يستطيع أن يمنع حمرة وجهه من كشف انفعالاته، وأنا أحب هذا النوع من البشر كثيرا، ولكني مثلكم، لا اسمح لرقة العواطف أن تظهر في ساعات غضبي!!! قلت:

ـ حسنا يا أيها الذكي، إذا كنت لا تعرف، فان متوسط ذكاء الأشخاص الاعتياديين يكون بين 85-115 حسب اختبارات الذكاء المتفق عليها عالميا،أما درجة العبقرية التي تدعيها لنفسك فهي أكثر من 130، مقابل اقل من عشرين للمتخلف الحقيقي. وبالاستناد إلى هذه الأرقام يكون العبقري، واكرر، العبقري، أذكى من المتخلف بستة أو سبعة مرات فقط، فكيف تكون أنت أذكى مني بعشرات المرات؟!.

أنا الآن أدرك كم كنت دعيّا حينذاك، بل كنت والحق يقال، اعرف لحظتها باني قد اقتربت من حدود الكذب بما قلت، لان الذكاء لا يمكن أن يقارن بالبساطة التي ذكرتها! بل لم أكن متأكدا حتى من صحة الأرقام التي أوردتها! ولكن إيماني بأنه كان هو الذي ورط نفسه بكل هذا، جعلني أتلذذ بهذه الفرصة التي أتيحت لي للانتقام من أحد المتبجحين!!! قلت مستطردا:

ـ وعلى كل حال ، وللافتراض فقط أقول، بأنك أذكى مني، و بغض النظر عن درجات الذكاء هذه، موافق؟

كان يجلس أمامي، و قد علا الوجوم وجهه، ولكنه تململ عندما سألته و لم يجبني، تصورت بأنه كان يتأهب لمغادرة المكان فقلت متحديا لكي أفوّت عليه فرصة الانسحاب:

ـ إذا كان لديك ذرة من كرامة، فلا تغادر الآن

عندها انتفض وقال:

ـ ولماذا أغادر؟ فأنا مازلت مصرا على رأيي.

ابتلع المسكين الطعم و ظل قابعا في مكانه، قلت:

ـ فلتكن أنت أذكى مني ، ولكن هذا لا يعني الشيء الكثير، إذا ما تذكرنا بأن الذكاء هو هبة الطبيعة و لا حيلة لنا في أمر النسبة التي تكون هي نصيبنا منه، أما الذي نمتلكه بالفعل فهو إمكانية شحذ ذكائنا بالتنبيه، و فتح أبواب عقولنا على مصاريعها أمام كل ما يمكن أن يزيد من خبرتنا التي هي إضافة إليه، بكل تأكيد. فلئن كنت أنت أذكى مني بالفطرة؟ فأنا أكثر حنكة لأني اكبر عمرا ، و لا اقصد عدد سنين عمرينا هنا، بل اقصد تجاربي الكثيرة في الحياة التي تجعل مما عشته أنت، شيئا لا يكاد يذكر.

لم يلحظ المسكين مدى بعدي عن المنطق لحظتئذ لأني تحدثت عن تجاربه الشخصية التي لا اعرف عنها شيئا، بهذا اليقين!!! ولكن أحد الحاضرين قال فجأة:

ـ و لكنها مجرد لعبة! فلم هذه الخلافات التي لا داعي لها؟

قلت بغضب:

ـ و لكني لا أتكلم الآن عن الدومينو أيها الغبي، فأن كان الحديث لا يعجبك، غادر و أرحنا.

لم يتحرك من مكانه، لأنه كان قد تعود على أسلوبي هذا عندما أكون غاضبا، كالآخرين!. بعدها قلت مخاطبا عناد مرة أخرى:

ـ قلت بأنك أذكى مني، لا بأس، لان هذا لا يعني أبدا بان آراءك يجب أن تكون الأصوب لأن ذكاءك لم يأخذ حتى الآن كل مداه، فهو ما يزال في الجانب النظري، فأين ضمانه التطبيقي؟

كنت أتمعن في وجهه و أنا أقول كلماتي الأخيرة، و عندما أحسست بمدى الإحراج الذي كنت اسببه له بوضعه في ذلك الموقف، أدركت فجأة بأني قد تجاوزت حدود المنطق ، قلت بلين مفاجئ:

ـ في الحقيقة يا عناد، أنا لم اقصد إحراجك!!! و قد ذكرني هذا السخيف، بأننا قد بدأنا هذا بسبب الدومينو، وهذا صحيح، ولكن ما حدث كان ذنبك أنت ، لأنك لو كنت قد أجبتني عندما سألت عن مقدار الفرق بين ذكاءينا ، لعرفت بأني أقصد بأنك حتى لو كنت أذكى مني بسبع مرات كما افترضت، لاحتجت إلى سبع ما احتاجه أنا من وقت، لإتقان اللعبة، فأن عرفت بأني قضيت في ممارسة هذه اللعبة اللعينة أكثر من ربع قرن و قارنته بالأشهر التي مضت علي ك و أنت تمارسها لأدركت بأنك،

عندها قاطعني فجأة ليقول:

ـ و لكن الذكاء و التجربة لا يقاسان بالعمر!.

انفجرت عندها ضاحكا، و بقيت اضحك بلا توقف ليغادر هو المكان غاضبا!.

كنت اعرف باني لن ارجع إلى البيت قبل أن استرضيه، و لكني كنت منتشيا في تلك اللحظات بدحري إياه و على مرأى و مسمع من الآخرين!!!

(نبيل)

بعد ذلك شعرت بالخجل من نفسي لأني اندفعت كالأهوج في القسوة على شخص هو في النهاية ، طيب و خجول! ألا يجعله هذا أحسن من الكثير من الآخرين؟ فلم لا أسمح له بأن يخطيء، في الوقت الذي لا يجد فيه الآخرون الذين يقترفون أسوأ الأخطاء، من يحاسبهم؟! تسللت من بين الجالسين و انزويت في ركن بعيد، و هناك تردّيت في هوة من أفكار محبطة، بعدما تذكرت طموح مرة أخرى، مما ذكرني بضيقي و عجزي و قلة حيلتي، وفيما أنا أعاني في درك الشعور بالخيبة و الإحباط، دخل نبيل المقهى فجأة لينتشلني مما أنا فيه! فقد كان آخر صديق اصطفيه لنفسي، و كنت أحبه كثيرا، لأنه ذكي و ذو روح مرحة ، كان هوائي المزاج، و لكنه صادق و مثالي في أفكاره، وأنا لم أحب أحدا في حياتي، كما أحب المثاليين، رغم أني أرى أن ضعفهم يكمن في مثاليتهم!!! كان رشيقا، طويل القامة، تكاد تميز حركته الخفيفة عن بعد، اسمر الوجه، مثلثه، وابرز ما فيه، عيناه المعبرتان . يميل إلى المشاكسة أحيانا، و لكن لأني اعرف بأنه رغم ذلك، عطوف و حنون، فقد كنت أتقبل مناكداته بتسامح!. اقبل علي عندما رآني و ابتسامته اللطيفة تسبقه، قال:

ـ صديقي أبو الرموز، كيف الأحوال؟

أجبته على الفور و بدون تردد:

ـ ليست جيدة

ـ ولكن لماذا؟! هيا اخبرني ، اخبر نبيل منقذك الوحيد.

جلس إلى جانبي ورحت أحدثه عما كان يشغلني ، تحمس كثيرا وساندني في موقفي و قال:

ـ مادمت أنت، سيد الشكوك، متأكد من براءة هذا المسكين ، فأنا أيضا أومن بهذا!

سكت بعدها ثم قال بعد برهة:

- هل فكرت في اللجوء إلى محام؟

ـ بالطبع، لقد حاولت مع عدد منهم و لكني لم احظ بشيء منهم.

ـ لا، أنا لا أقصد المحامين الاعتياديين، فهم لا فائدة منهم في مثل هذه الحالات، بل اقصد أولئك الذين يستطيعون إدارة رأس الشيطان، إذا أرادوا.

ـ ولكن، من أين لي مثل هؤلاء؟

قال و ابتسامة مشرقة تعلو شفتيه:

ـ و إذا قلت باني اعرف واحدا منهم؟

عندها صحت بلهفة:

ـ أتني به إذا!.
ـ هذا هو، ما سأفعله، ولكن أمهلني فقط حتى أرتب الأمور، فهو أبو واحد من أصدقائي . و لي علاقة جيدة بالعائلة، ولكني لم اطلب يوما منه شيئا كهذا، فدعني استطلع ردود فعله قبل أن نطلب منه شيئا.
شعرت وكأن هما ثقيلا قد بدأ ينزاح عن صدري، قلت:
ـ رحماك يا نبيل، ابذل أقصى جهدك، و أرحني من هذا العذاب.
ـ ولكن، أي عذاب؟! أهو أنت الذي سيعدم، أم ذلك المسكين؟.
ـ و الله إن رؤية بريء يعدم، من دون تحريك ساكن، لهو عذاب اليم.
ـ في هذا، أنت على حق، و أنت يا رمزي، صديق عزيز، و لكني سأبذل جهودي، من أجله هو، لا من أجلك.
ـ سواء عندي إن فعلته من اجلي، أو من اجله، أو حتى من اجل من تريد، فقط افعله، و ارحمني.
وبعد الاتفاق على أن يتصل بي في الغد ليخبرني بنتائج مسعاه، غادرنا المقهى، و افترقنا، لأمضي إلى البيت وحدي، و أنا آمل أن أحظى بنوم مريح، بعد تلك الأيام العصيبة التي مرت بي ولكن الكرى أبى مرة أخرى، إلا أن يناكد عيني المسهدتين!.

و أنا مغمض العينين، شعرت بالعذراء قريبة مني!، واقفة في مكان ما من الظلام المحيط بي، تتطلع إلي، غمرني شعور عميق بالارتياح، فقد كنت منذ طفولتي، و ما أزال، أحبها كثيرا. تعودت على التعاطف معها، كلما طرق أسماعي شيء من أخبارها القديمة، فكنت أود، وبكل صدق طفولتي لو استطعت أن أمد يد العون لها، وهي في غمرة خوفها على جنينها العجيب.
في تلك الليلة، شعرت بنظراتها تفيض رقة و حنانا و هي ترنو إلي، كنت أريد أن أشكو إليها يهوذا الخائن الذي لم يمت، بل خلد في ضمائرنا، يقتلع غروس والسلام و الوئام في نفوس البشر الضالين، يطارد آثار تعاليم السماء، و يحمّلنا ألف صليب و صليب، و نحن نمشي في دروب التيه، حتى نصلب في النهاية بخطايانا، من لعابه الذي سال، عندما رأى قطع الفضة الثلاثين، يولد في كل لحظة آلاف البشر الذين يريدون أن يطفئوا كل أنوار الحياة الحقيقية، فينا، فيما يولد كل دهر من قطرات الدماء التي سالت من جروح الأنبياء و الصالحين، رجل يوقد للمحبة و السلام شمعة. ولكني خفت أن يهرب طيفها لو حاولت أن أتكلم، أو أن تنساب كفها من بين أصابعي لو مددت يدي إليها، ففضلت أن أبقى كما أنا، راقدا في فراشي، مغمضا عيني، و أن اكتفي بشعور مريح، لقربها مني، و لدفئها السماوي الذي يتسلل إلي.

(اكتشاف)

أقف على عتبة الذاكرة، و أتأمل في أعماق الوجدان، وبين زحمة مكنوناته ابحث عن كلمات يمكن أن تصلح لترجمة الأفكار ورسم الأحاسيس! كثيرة هي الأفكار أحبتي، جمّة هي الأحاسيس، ولكن عاصية هي الكلمات أحيانا، وصعب جدا ما أريد، فأنا أريد قول الحقيقة كما هي، أو، كما أراها أنا في الأقل، ويبدو أن هذا فوق طاقتي، ولكن صدقوني إذا ما قلت لكم باني رغم هذا، حريص على أن أبقى صادقا في ذكر ما يتيسر لي، ولن أتكلف عناء في أن ابحث عن تنميق لكلماتي، أو تزويق لجملي، و إن رمت متانة للجمل، أو حلاوة للكلمات، فلتظليل ما ارسم إبتغاء لمسحة جمال واقعي، لا للتضليل.

عندما وصلت إلى السجن في اليوم التالي، هرعت فورا إلى زنزانته، كان مستيقظا وبدا انه لم ينم ليلته! كان منظره مزريا، ويحزن المرء مرآه، يكاد القلق يقتله ، قبل أن يشنقه الجلاد! فتسرب بعض قلقه إلى نفسي، بادرني قائلا حين رآني، ومن دون مقدمات:

ـ هل من جديد؟!.

ـ إن شاء الله، سيكون خيرا.

ـ أيعني هذا بان شيئا قد استجدّ؟ أخير هو، أم شر؟

كنت قد قررت أن لا امنحه آمالا كاذبة، ولذلك آثرت أن لا أحدثه عن أية تفاصيل، حتى تصبح حقيقة، فقلت:

ـ لقد قلت لك سيكون خيرا، ولكن لا تلح الآن في طلب أية تفاصيل، فقط دعني افعل ما أستطيعه، قل لي، ألا تثق بي؟

فقال بحرارة لم أعهدها فيه من قبل:

ـ بل أثق بك أكثر من أي شخص في العالم الآن، ولكن اعذرني لإلحاحي لان حياتي هي المهددة.

كان علـــى حـــق فيما قـــال ولكن تأكيده على انه يثـــق بي كثيرا أفرحني.

ورقة مفقودة

مستبشرا وسعيدا وأنا في طريقي إلى مقابلة حكيم صديق طموح الذي حدثني عنه ودلني على مكان عمله، لأطلب منه أن يشهد لصالحه فـي حالة إعادة المحاكمة كما طلب مني المحامي،

لم اعرف بالضبط ما الذي كان يخطط له هذا الرجل ولكني وثقت به كثيرا، ولكن! توقفت فجأة! ماذا عن الأموال اللازمة؟ فقد تحدث عن أرقام كبيرة !!! فكيف يمكن تدبيرها؟ أليس الأجدر بي أن أفكر أولا بهذا الأمر، قبل أن أخطو بأي اتجاه آخر ؟. غاضت سعادتي واحترت في أمري! ولكني لم البث في موقفي ذاك سوى ثوان معدودات، حتى واتتني فكرة، قررت أن أنفذها على الفور، لأني كنت اشعر حينها وكأني في سباق ظالم مع الزمن!. كان طموح قد كلمني عرضا عن بيتهم وتصورت باني يمكن أن اهتدي إليه بنفسي لو سألت عنه قليلا في المنطقة التي يقع فيها!.

وكان تصوري صحيحا لأني استطعت بعد لأي أن اصل إلى ضالتي. ضغطت زر الجرس، وفيما أنا انتظر، رحت أتأمل البيت الذي كان بناؤه جيدا ويدل على سعة عيش بانيه وان كان لا ينم عن حسن ذوقه!. بانت من خلال الباب الداخلي الذي فتح، فتاة مهلهلة الثياب راحت تقترب مني على مهل. كانت شابة صغيرة، لطيفة المحيّا، ولا ادري لماذا شعرت بان ملامح السذاجة التي تلوح على وجهها تنبئ بذكاء قليل!. كانت ملابسها المغبرة، والخرقة التي شدت بها شعرها تدلان على إنها كانت تؤدي عملا منزليا شاقا. وقفت بعيدا عني خلف الباب المغلق وقالت متسائلة:

ـ نعم

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم السلام!

ـ عذرا ولكني أردت أن أرى عجيلا، هل هو موجود؟

ـ كلا، انه في الخارج!

ـ إذا، هل الوالدة موجودة؟

ـ نعم! ولكن، ماذا تريد منها؟ ومن أنت؟

كدت ابتسم عندما واجهتني بتلك الصلافة غير المقصودة، ولكن شعوري بالحرج منعني من ذلك فقلت:

ـ أنا صديق لطموح.

تغيرت تعابير وجهها على الفور وقالت:

ـ أهلا وسهلا، لحظة من فضلك.

رجعت أدراجها إلى داخل البيت، فيما بقيت أنا واقفا أمام الباب الخارجي الذي لم يفتح. تملكتني مهابة لقاء أم رزئت بمثل هذه المأساة، فرحت أتشاغل عن أفكاري بتفحص حديقة المنزل التي كانت متنوعة النباتات، ولكن يعوزها التنظيم، ومع ذلك شعرت باني كنت سأبتهج بالتأكيد فيما

لو قضيت فيها بعض الوقت، لولا هذه الظروف اللعينة. فتح الباب الداخلي مرة أخرى وبانت من خلاله امرأة. تخطت منتصف العمر، بدت حسنة الهندام ونظيفة الثياب! سارت باتجاهي بثبات وأنا أحاول أن أتفادى النظر إليها خشية أن تفضح عيناي اضطرام مشاعري، اقتربت هي من الباب كثيرا ولكنها لم تفتحه وقالت:

ـ تفضل؟!.

ـ السلام عليكم

ردت على سلامي بإيماءة من رأسها، وعندها فقط رنوت إليها فلم أجد في وجهها غير علامات التساؤل والاستغراب! فأذهلني أني لم أتعرف فيه على الحزن الكبير الذي توقعته!!! كانت امرأة جميلة، زرقاء العينين وشقراء، قلت:

ـ أنا رمزي غريب، موظف في السجن المركزي، تعرفت هناك على ابنك و آمنت ببراءته، وكنت طوال الأسبوع الذي مضى أحاول أن أجد له مخرجا ممكنا، حتى قابلت محاميا اليوم أكد لي بان هناك طريقة لإعادة المحاكمة ومحاولة تبرئته، ولكن الأمر يحتاج

تلعثمت وتعذر علي إكمال جملتي! فقالت هي بنفاد صبر:

ـ يحتاج إلى ماذا؟

عندما تكلمت هذه المرة بانت أسنانها الصفر الأمر الذي ينبئ بأنها مدخنة! ورغم أني دخنت منذ مراهقتي، إلا أني كنت لا أثق بالنساء المدخنات!!! ولكني لم اعر الأمر اهتماما في لحظتها لان اللامبالاة التي بدت واضحة في طريقة كلامها، أذهلتني! مثلما أحرجتني نبرة الشك فيه! خمنت بان مظهري غير اللائق هو سبب عدم ثقتها بي، فعذرتها رغم ألمي وقلت:

ـ يحتاج إلى أموال، ولا ادري ان كنت تستطيعين تأمينها؟.

فقالت متجاهلة سؤالي:

ـ وهل يعرف طموح بأنك ستأتي إلينا؟

نزل علي السؤال كالصاعقة! فأنا لم أكن أريد أن اكذب، ولكن قولي باني أتيت بدون علمه سيجعلها تشك بي أكثر!!! لم اعد اعرف كيف أتصرف، تأتأت قائلا:

ــ في، الحقيقة،

ثم سكتّ، لأني أصبحت عندها مشتت الذهن، وكان اضطرابي يزيد في كل لحظة تمر علي وأنا في ذلك الموقف المحرج الذي لم احسب له حسابا! كانت الفتاة التي لم الحظ خروجها مرة أخرى قد اقتربت منا كثيرا، وقد ارتسمت على وجهها علامات الاستطلاع! التفتت إليها أمها بعصبية وأمرتها بصوت لم تشأ حتى أن تخفي ما فيه من خشونة ونفاد صبر!:

ـ ما الذي تفعلينه هنا؟ هيا اذهبي لتكملي أعمالك.

حانت منها نظرة باتجاهي، فالتقت نظراتنا، اكتسى وجهها بحمرة قانية! ولكنها سرعان ما امتثلت للأمر وهي محنية الرأس! وعندها شعرت بالغضب من هذه المرأة التي جرحتها بلامبالاة أمامي! وكان هذا كفيلا بإنقاذي من بعض ما ابتليت به من إحراج!. التفتت إلي المرأة وقالت:

ـ حسنا، أريدك أن تعرف باني لن اترك ولدي وحيدا في مأزقه!. ان لدينا معارف من ذوي النفوذ وعدوني بالمساعدة، وأنا قد أنفقت حتى الآن أموالا طائلة من اجله، ولن ابخل عليه بالمزيد منها من اجل إخراجه من هناك، فلا تتعب نفسك.

لم افهم ما الذي كانت تعنيه بالأموال الطائلة التي أنفقتها لأجله! ولم أفكر بسؤالها، لأنها كانت تخاطبني وكأنها تؤنب طفلا صغيرا اقترف ذنبا!!! فيما كان الشك ينضح من تعابير وجهها ونبرات صوتها! كان هذا هو ما احتاجه للتخلص مما تبقى من شعوري بالإحراج، فقلت وأنا أكاد أن لا اخفي غضبي:

ـ حسنا

ثم غادرت مكاني من دون أن انظر إليها، وانطلقت لا الوي على شيء، وأنا العن نفسي والعنها، العن طموح والعن كل شيء! فليذهب إلى الجحيم، فما شأني أنا؟ ولم هذا العذاب الذي لا يريد أن ينتهي؟ لم هذا القلق؟ ولم ذاك الألم؟ و الآن، هذا الإحراج وهذه الإهانة؟!!!. لا ادري كم لبثت وأنا أسير غضبي الذي لا ينفثيء؟. كنت أسير بلا هدى حتى وجدت نفسي واقفا أمام مقهى، دخلت وطلبت لنفسي قدح شاي، سرعان ما شربته. أشعلت بعدها لفافة تبغ كان تدخينها السبب في هدوء أعصابي بالتدريج. ترى، ما الذي كنت افعله أنا، لو وجدت نفسي مكان تلك المرأة؟ أنا اعرف باني لم أكن لأتصرف مثلما تصرفت هي، ولكني كنت سأشك بالتأكيد، مثلما فعلت!!! فبدأت أسوغ لها تصرفاتها، ولا ادري أي شيطان زين لي ذلك؟! فقد كادت الصورة أن تتوضح أمامي بمقابلتها، ولكني أبيت إلا أن أغمض عيني!!! فلم نتصرف هكذا أحيانا؟ تدفعنا نزوة إلى أن ننفذ ما عنّ لبالنا على الفور!!! فيكون هذا هو السبب في أننا نقترب من الحقيقة، ولكن عواطفنا تمنعنا من إدراكها!!!. المهم هو أني أقنعت نفسي في ذلك اليوم باني لم أكن ابذل جهودي من اجل تلك المرأة التي كرهتها، ولا ادري ان كنت قد توقفت عن ذلك بعد ذلك اليوم!!! بل كانت من اجل طموح، ويجدر بي من اجل هذا أن احتمل كل ما ألقاه في دربي، لأني يجب أن أتصرف على وفق المثل التي أصدع رؤوس الآخرين بالتحدث عنها! وإلا ألم يكفني لعن الظلام؟ ألم يحن وقت إيقاد شمعتي؟ فقررت أن أكمل ما نويت عمله حتى النهاية، دفعت ثمن الشاي الذي شربته وخرجت من المقهى، أومأت إلى أول سيارة أجرة صادفتني، أعطيت السائق عنوان حكيم فانطلق بي إلى وجهتي.

(صادق)

انتابني إحساس بالراحة وأنا ادخل مكتبة حكيم، الجميلة الواجهة والحسنة الترتيب في الداخل، تذكرت عندما رأيت كل تلك الكتب من حولي، بأنه قد مضى علي زمن طويل لم تطأ خلاله قدماي ارض مكتبة، فقد حرمت على نفسي ذلك لأني لم أكن أستطيع أن أجد أمامي كتابا لم اقرأه، ولا اشتريه!. كانت أربع عيون تتطلع إلي وأنا أتقدم إلى حيث كان يجلس شخصان، أحدهما يناهز عمره، عمري، والآخر شاب حسن المظهر، حسبته حكيم ا، كنت أسير باتجاههما بثبات، لان حماستي الكبيرة جعلتي أتناسى خجلي الطبيعي الذي كان يجعلني أتردد وارتبك، عندما أقابل أناسا غرباء، للمرة الأولى، ألقيت السلام عليهما، فردّا علي بكل أدب، قلت:

ـ عفوا، أستاذ حكيم؟

فرد علي الأكبر عمرا، قائلا:

ـ تفضل!

عندها دهشت لأني لم أتوقع أن يكون هو، لان طموح حدثني عنه بطريقة جعلتني أتصور بأنه صديق مقرب له، وهو ما يبعد احتمال فارق العمر الكبير بينهما، قلت:

ـ أنا رمزي غريب، وقد أتيت لأحدثك في أمر مهم.

ـ أهلا وسهلا، تفضل اجلس.

جلست في المقعد الخالي الموجود أمامي، قال حكيم:

ـ لنر الآن ما عندك يا أستاذ؟.

عندها نظرت بقلق إلى الشاب الجالس أمامي وقلت:

ـ عفوا، ولكنه حديث خاص ولا يسعني أن أتكلم به أمام أحد.

أردفت كلامي بابتسامة اعتذار قدمتها خجلا للشاب الذي تململ في مكانه وبدا عليه الإحراج! وكذلك كان حال حكيم، فقلت:

ـ اعتذر للإحراج الذي سببته، ولكنها الظروف فعذرا

عندها ابتسم حكيم وقال :

ـ لا بأس، لا بأس فان صادق، صديق عزيز ولا كلفة بيننا.

نهض الشاب من مكانه وهو يبتسم بعدما تجاوز الشعور بالإحراج بفضل سرعة بديهة حكيم، وقال:

ـ إذا سأذهب وأترككما لموضوعكما الخاص.

نهضت من مكاني مبتسما وقلت:

ـ عذرا مرة أخرى، ولكن الموضوع يمس شخصا آخر غير موجود معنا.
صافحنا صادق بأدب وغادر، عندما جلست، تنبهت إلى هدوء حكيم، وخلو وجهه من علامات القلق، أعجبني ذلك منه، لان الكثيرين غيره كانوا سيوجسون خيفة من حديث خاص ومفاجئ مع شخص لا يعرفون ! وهذا ما يشي بخلو ضميره من الخوف من اللامتوقع، وهو ما ينبئ بشخصية واعية ومتزنة. قال بعد قليل:
ـ و الآن؟!
ـ حسنا، في الحقيقة يا أستاذ حكيم، أنا موظف في السجن المركزي، وهناك تعرفت إلى شخص يقول بأنه صديقك، وقد جئت لأحدثك بأمر مهم جدا.
هنا فقط بدا الاستغراب واضحا عليه! أدركت فورا بأنه لم يعرف من كنت اقصد، فأضفت قائلا:
ـ اسمه طموح.
ـ آه، طموح، ولكني لم أتصور بأنه سيكون في السجن المركزي الآن!.
ـ وأين يمكن أن يكون إذا؟
ـ لا ادري، ولكن ليس في السجن!.
سكت قليلا قبل أن يضيف:
ـ في الحقيقة، أنا لا اعرف أي شيء عن المحاكم والسجون، وهذه هي المرة الأولى التي اعرف فيها ان المحكومين بالإعدام يوضعون في السجن، لا في مكان خاص بهم!.
ـ هو مكان خاص بالفعل، ولكن داخل أسوار السجن.
ـ آه، الآن فهمت، يا للشاب المسكين.
شجعتني ملاحظته الأخيرة، فقلت باندفاع :
ـ في الحقيقة، أنا أرى انه برئ، وقد عانيت الأمرّين طوال الأسبوع المنصرم وأنا أحاول إيجاد وسيلة لمساعدته، وقد حانت الفرصة اليوم بعدما رأيت محاميا بارعا أكّد لي بأنه يستطيع أن يجد له مخرجا، لو كان بريئا بالفعل. ولكنه طلب مني أن أهيئ له شهودا، فهل تستطيع أن تشهد لصالحه في المحكمة؟.
بدا وكأنه قد فوجئ تماما بكلامي واتسعت عيناه دهشة، قال:
ـ ولكني، لا أستطيع أن اشهد بشيء، لأني لا اعرف شيئا عما حدث، غير ما سمعته فيما بعد، هذا، بالإضافة إلى أني لم أكن أراه طوال تلك المدة، أنا لا أستطيع أن انفي، أو اثبت شيئا،
ثم قال بعد تردد:
ـ إلا إذا كان، قصدك
ولكنه سكت وقد علا الاحمرار وجهه، فهمت قصده، فقلت على الفور:

ـ كلا، كلا، بل قصدت بان تشهد له بحسن السيرة والسلوك، وفي حال إعادة المحاكمة فقط.

فقال باستغراب:

ـ ولكن، كيف يمكن أن تفيده هذه الشهادة؟! السنا نتحدث عن جريمة قتل هنا؟

ـ نعم، وفي الحقيقة، أنا لا اعرف شيئا عن المحاكمات وفنون الدفاع فيها، ولكني أحاول أن أنفذ ما طلبه مني المحامي، وهو تهيئة أكثر من شخص لأداء مثل هذه الشهادة ! وأنت كنت أول من تبادر إلى ذهني، أمر مفاتحته.

فجأة بدا لي حديثه عن جدوى هذه الشهادة معقولا! فتسرب شك إلى نفسي! ماذا لو كان المحامي يحتال علي؟ فأنا قد سمعت الكثير عن إحتيالات بعض المحامين، واستغفالهم للناس! ولكن، عمّ أتحدث؟ ألم يدلني نبيل، عليه؟ ألا يكفي هذا لإبعاد الشكوك عنه؟ ثم كيف يمكن أن يستغفلني؟ وما الذي سيستفيده؟!!! وهكذا ابتعد الشك عن خاطري، قال حكيم:

ـ ولكن، ما الذي جعل طموح يحدثك عني؟! فأنا لم أره قبل ما حدث، بأكثر من عامين، منذ أن.

سكت فجأة وقد بان على وجهه التردد، شعرت بان سبب تردده كان حرصه على عدم ذكر ما قد يشين طموح، فعرفت بأنه بالفعل، كما توقعت، إنسان مهذب وحساس، كان يزداد إقترابا من نفسي، لأني شعرت منذ البدء باني اعرفه، أو على الأقل، يذكرني بشخص اعرفه، ولكني لم اعرف من هو! شعرت بان وقت سكوته قد طال، فقلت متسائلا:

ـ منذ أن؟!

فهم ما اقصده، فقال بتردد:

ـ في الحقيقة، أني، أني، طلبت منه أن لا يأتي بعدها إلى المكتبة في ذلك الوقت.

شعرت بغصّة عندما سمعت ما قال، فقلت وأنا أحاول أن أتصنّع الهدوء:

ـ ولكن، لماذا؟ إذا كان يحق لي السؤال.

ـ لا بأس، اسأل ما شئت، ولكني لا أريد أن أغيّر رأيك فيه.

عندها شعرت بأنه يحاول أن يخفي أمرا قد يهمني، فقلت:

ـ أرجوك يا أستاذ حكيم، صارحني بما تعرفه عنه، فأنا قد عانيت كثيرا منذ أن اقتنعت ببراءته، أتصور بأنه حق لي، أن أتأكد من صحة قناعتي.

ـ ولكني لا أريد أن أزعزع قناعتك.

ـ ولكنك قد فعلت ذلك سلفا بكلامك هذا، فقط هات ما عندك ودع الحكم لي، فأنا لا افترض وجود إنسان كامل، فكلنا خطّاءون، وما يفصل بيننا، هو نوعية الأخطاء، ومداها، فقط اخبرني الآن لماذا طردته؟

ـ حسنا، لقد طلبت منه عدم المجيء إلى المكتبة، لأن وجوده كان قد بدأ يتسبب في مشاكل أنا في غنى عنها.

ـ أي نوع من المشاكل؟!

ـ كانت مشاكل مع أقرانه، وأنت تعرف كيف يتصرف الشباب بنزق أحيانا، وبلا رقابة من ضمير في أحيان أخرى، وللحقيقة أقول أن تلك المشاكل كانت تحدث بعيدا، ولكن آثارها بدأت تصل إلى هنا معه، وأنا حريص على سمعة مكتبتي التي أحبها كثيرا، أما ما هي تلك المشاكل فأنا لم اعرف شيئا محددا عنها، لأنها كانت تحدث بعيدا كما قلت، وهو كان يحرص على إخفائها عني، لأني كنت كثير الانتقاد له.

ـ ولم تعرف شيئا عن تفاصيل تلك المشاكل؟

هز برأسه نافيا، في تلك اللحظات، كنت على يقين من انه يداري شيئا ما، وانه يعرف أكثر مما يصرح به! قررت أن أحاول استنتاج الأشياء بشكل غير مباشر! فقلت:

ـ حسنا حدثني عن علاقته بك.

ـ أنت تعرف بأنه كان اصغر مني بكثير، ولكنه كان يتردد على مكتبتي مع مجموعة من أصدقائه، وفيما بعد، أكثر من التردد بمفرده، حتى أصبح بمرور الوقت، جزءا من المكتبة، يساعدني في إدارتها، ويحل محلي أثناء غيابي أحيانا.

ـ أي انه اخذ يعمل معك؟

ـ كلا، بل يساعدني فقط.

ـ إذا، كان يهوى المطالعة بكل تأكيد.

ـ بل كان ابعد الناس عن ذلك.

ـ عجيب! ما الذي كان يجذبه إلى المكتبة إذا؟

ـ التأثر بالآخرين، فأنت لا تعرف بان مكتبتي هذه لها سمعة طيبة في هذه المنطقة، و أصبحت بسبب ذلك ملتقى الطبقة المثقفة فيها، وكان يأتي بصحبة مجموعة كبيرة من الشباب لم يكن بينهم سوى اثنين، من عشاق الكتب والمعرفة.

ـ آه، فهمت، ولكن كيف كنت تعامله؟

ـ في الحقيقة، لقد أحببته كثيرا في البداية، لأنه بدا لي مؤدبا في الأقل، فعاملته معاملة الصديق، ولكني بدأت اعرفه أكثر فيما بعد، فتغيرت معاملتي له.

ـ وما الذي بدأت تعرفه؟!

ابتسم لي، ولكنه لم يجبني، فقلت:

ـ حسنا، وكيف كان ينظر هو إلى علاقتكما؟

ـ لا اعرف، ولكني كنت اشعر بأنه كان بحاجة ماسة إلى شخص اكبر منه، كان بحاجة إلى، أب.

ـ ولكن لماذا يكون بحاجة إلى أب؟! ألم يكن والده على قيد الحياة في حينها؟

ـ نعم، ولكن علاقته به لم تكن على ما يرام.

عندها تذكرت أمه، وما أفصحت عنه من ميل للتسلط ورغبة بالتحكم، بتصرفاتها!!! ولكني سرعان ما أبعدتها عن تفكيري، لان حكيم قال فجأة وقد أشرقت أساريره:

ـ على كل حال، أنت بحاجة إلى سماع رأي من يعرف طموح جيدا، ولذلك سأتصل بصادق، الشاب الذي غادرنا منذ قليل، فهو صديق طفولة له، ويعرف الكثير عنه، ولحسن الحظ إن بيتهم قريب منا، سأتصل به عسى أن ألقاه هناك.

بدا وكأنه قد توصل إلى مخرج من المأزق الذي وضعته فيه، بأسئلتي، شعرت بامتعاض قليل من فكرة استدعاء صادق، لأني كنت أريد أن اسمع آراءه هو، رغم طيبته التي يمكن أن تجعل من إمكانية إبداء رأي محايد في شخص سيئ، أمر ا مستبعدا! ولكني كنت ما أزال افترض إن طموح، شخص جيدا! لم استطع أن اعترض، بل تركته يتصل بصادق ويطلب منه المجيء بسرعة، كنت اشعر برغبة قوية في التدخين، ولكني كنت محرجا لنظافة المكتبة، ولأنه كان من الواضح، انه لا يدخن، قاومت رغبتي وهو الأمر الذي أطال صمتي فقال هو فجأة:

ـ أتسمح لي بسؤال يا أستاذ رمزي؟

ـ تفضل

ـ ما الذي يجعلك متحمسا هكذا، في أمر لا يهمك؟

ـ أمر لا يهمني!!! ألا يهمني أن أرى إنسانا بريئا يشنق، من دون ذنب اقترفه؟!

ـ يبدو أني قد أخطأت في صياغة السؤال، لأني قصدت

تلعثم في كلامه وسكت، ولكني كنت قد فهمت ما يعنيه، فقلت:

ـ أتدري ما هو أسوأ ما نعانيه في مجتمعنا؟

ـ ما هو؟!

ـ هو اللامبالاة التي عمّت! فأصبح الأفراد لا يحركون ساكنا للتصدي للأخطاء حتى تمسهم!.

تمعن في وجهي قليلا، قبل أن يقول:

ـ ولكنك بهذا، تتحدث عن النتيجة، وتتناسى السبب!

ـ وما هو السبب برأيك؟

ـ هو الجهل، أو قلة الوعي في الأقل، الذي يجعل الأفراد لا يبالون بالأخطاء التي تحدث أمامهم، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوا بأنها عندما تعم، فإنها ستمس الجميع في النهاية.

ـ في هذا، أنا اتفق معك، بل إن ما قلته أنت عن النتيجة والسبب، هو الأصح.
ـ أتدري؟ عندما كنت أكثر شبابا، كان يراودني أمل في أن أرى اليوم الذي يتبدل فيه المجتمع، أما الآن، فانا متشائم.
تساءلت بحيرة:
ـ ولم هذا التشاؤم؟
ـ لان الوعي يا صديقي لا ينمو فجأة، بل هو كالنبتة، ينمو بالتدريج، ولن يكون هذا النمو إلا إذا بدأنا بالطفل، وأنا أرى إن العيب، كل العيب، يكمن في طريقة تعاملنا مع أطفالنا، وتربيتهم. إن أولى مهامنا في هذا المجال، هو أن نجعل أطفالنا أحسن منا، ومن جميع النواحي، لكي يستطيعوا هم أن يربوا أطفالهم بطريقة تجعلهم أفضل منهم، وهكذا، حتى يأتي اليوم الذي يصبح فيه المجتمع أحسن حالا، لان أفراده أصبحوا أحسن، ومثل هذا إذا بدأ اليوم، فانه يحتاج إلى أجيال متعددة، حتى يصبح حلم الغد الأفضل، حقيقة واقعة، ونحن ل م يتبق أمامنا أكثر من جيل أو جيل وريف نسريطيع أن نكون شهودا لها، والمحزن في الأمر، انه لم يبدأ بعد.
ـ ولكن من قال بان هذا لم يبدأ؟
ـ لا، لم يبدأ بالشكل المطلوب، أنا اعرف ذلك.
ـ ولكن لم هذا الانتظار، ألا يمكن تغيير الأفراد أنفسهم؟
كنت اعرف بان هذا غير ممكن ولكني أردت استدراجه إلى مزيد من البوح، قال:
ـ كلا، لا يمكن تغيير الأفراد جذريا، وأنت تعرف ذلك .
ابتسمت لملاحظته الأخيرة، ولكني قلت:
ـ حسنا، وماذا عن التربية ؟ لماذا تجزم بأننا لا نربي أبناءنا التربية الصحيحة؟.
ـ لأننا ما زلنا نتعامل مع أطفالنا، بعواطفنا فقط! فنحن نحب أطفالنا، بل نحبهم كثيرا، ولكن الحب بدون عقل لا يفيد، بل هو ضار في الحقيقة، والتربية لا تكون إلا بالعقل، آه يا رمزي لو تدري كم نحن مجحفون بحق أطفالنا ؟، الديك أطفال؟
عندما ناداني باسمي المجرد فرحت، لأني كنت أزداد ميلا إليه، في كل دقيقة نقضيها معا، أومأت برأسي إيجابا، ردا على سؤاله، فقال:
ـ إياك أن تخطيء في تربيتهم، فهم الأمل، أملنا نحن في التغيير الذي لن يبدأ إلا بهم، يجب أن يكون لهذا التغيير بداية، وهذه البداية لن تكون إلا محاولات فردية يقوم بها بعضنا، وعندما يوجد هذا البعض، سيكون هناك أمل، لا تنتظر يا رمزي أن ترى ثمار ما تزرع لأنك لن تراها! أنا اقصد على مستوى المجتمع، ولكن ثق بان رعايتك لأزهارك ستؤتي ثمارها في النهاية.
سكت لوهلة ثم قال متابعا:

- هل لاحظت أطفالك، هل لاحظت كم هم أذكياء ؟ أنا لم أرهم، ولكني متأكد من أنهم أذكياء، هل لاحظت طاقاتهم وحيويتهم؟ أنا لا اصدق بان الطفل في العالم الغربي مثلا، يمكن أن يكون أذكى منهم أو أكثر طاقة وحيوية، ولكن انظر إلى ما يحدث لأطفالنا عندما يكبرون؟! إياك أن تكابر وتقول، بأنه لن يكون أحسن منهم، على مستوى الإنجازات الشخصية في الأقل! فهل سألت نفسك يوما، لماذا يتحول ذكاؤهم الوقاد إلى بلادة، وعدم قدرة على الفهم؟ أنا لا أقول أنهم يصبحون جميعا كذلك، ولكنهم عندما يكونون صغارا تكون صفة الذكاء هي الغالبة، فلماذا نستطيع عدّ الأذكياء القليلين منهم، بكل سهولة، عندما يكبرون؟ كيف تستنزف كل تلك الطاقات، وتتحول إلى إخفاقات مستمرة، وإحباطات؟ أين تختفي حيويتهم؟ قل لي ما هي الأخطاء التي يمكن أن تسبب مثل هذه الكارثة؟ صدقني بان ما يحدث هو كارثة، هو مأساة يعاني منها مجتمعنا، ونحن لا ننتبه لها لتبلد أحاسيسنا، وقلة إدراكنا! لأنها بكل بساطة، التربية الخاطئة.

- ولكن الظروف

لم يعطني أي مجال للمتابعة! بل صاح بي:

- إياك أن تتهم الظروف، لأننا نحن من يصنعها، أنا لا اقصد الأفراد هنا، بل نصنعها مجتمع ين، أو في الأقل، نستطيع أن نخفف من وقع قسوتها علينا، بتحسين ما يمكن تحسينه.

عندها تذكرت فجأة وجه نبيه!!! قلت:

- تقصد أن نلعبها بالشكل الصحيح؟

تمعن في وجهي قليلا، ثم قال:

- نعم، كما تريد، نلعبها بالشكل الصحيح الذي لن يكون إلا إذا أخذناها على محمل الجد، طوال الوقت.

سكت وغاب في نوبة تفكير صامت وهو يهز برأسه ثم قال بحزن:

- يولد الطفل عندنا، ليكون وهو صغير، ملكا غير متوج علينا، لا يرد له طلب، ولا يبخل عليه بشيء، حتى نصل في عطائنا له، إلى حدود الإفساد!!! وفجأة! يتحول من آمر إلى مأمور!!! من مليك إلى مملوك!!! وليجد نفسه وحيدا، بعدما كان قبلة الأنظار! هكذا، بدون تفسير! بل بدون رحمة! وتبريرنا، هو أننا بدأنا بذلك، نربيه! وكأن التربية لا تبدأ إلا بعد السادسة!!! أما السنوات التي تسبقها، فهي زائدة بحسابات التربية، لأنها ليست هي السنوات التي تحدد شخصية الإنسان فيما بعد، وتلقي بظلال أحداثها على حياته، حتى الممات!!!، أواه لكم احزن عندما أرى طفلا، إنسانا صغير ا، مطالبا بان يتصرف مثلما يتصرف الكبار!!! أن يفهم!!! وان يحاول بعقله الصغير أن يسترضي الكبار، الذين يعطونه كل ش يء، ثم يفرضون عليه فجأة، كل المحرمات والممنوعات؟!!!.

سكت قليلا وهو يحاول استرداد أنفاسه التي تقطعت، بسبب حماسته وانفعاله، ثم قال:
ـ كل هذا يحدث، إذا شاء الأهل أن يكبر الطفل، قبل أن يقرروا إنجاب طفل آخر، أما إذا ولد ذلك الطفل، بعد ولادة الأول بقليل، فان المأساة ستتضاعف، لان الأول سيهمل، وسيكون فوق ذلك مطالبا بان يحب أخاه الصغير، والأسوأ من ذلك، أن يرعاه عندما يكبر قليلا!!!
ـ عذرا يا أستاذ، ولكني أرى بان تعليم الطفل الأكبر، كيف يرعى أخاه ويحبه، أمر معقول.
ـ تعليمه على أساس انه شيء مرغوب، ولا يتعدى ذلك حدود التعليم فقط؟ نعم، أما إجباره على ذلك، فلا، لم لا ندرك بان الطفل يشعر بالأنانية أصالة عن نفسه، وهي إحدى أسس شخصيته التي يجب أن نحسب لها حسابا، ونترك للزمن أمر تشذيبها؟ ومن السخرية أننا نرى دوما رجالا لا يستطيعون أن يتنازلوا عن رغباتهم الشخصية حتى من اجل أطفالهم!!! فكيف نجرؤ أن نطلب من الطفل أن يكون أكثر قدرة على التضحية من الرجال؟!!!.
سكت وزفر زفرة حرّى ثم قال:
ـ عذرا لهذا الشطط يا رمزي، ولكن النفس التي تعودت كظم غيظها ووأد تطلعاتها، لن تكون إلا هكذا عندما تنفس عن أنينها المكبوت، وتلفظ مكنونها المتراكم، انه ش يء أشبه بنك ء القروح، وان تنكأ جرحك بنفسك، فإن هذا يجعلك تتألم، ولكن في أعماق ألمك سيكون هناك شعور غامض بلذة!!! ولم اعرف يوما إن كانت هي لذة إيلام النفس، أم هي شهوة إيذاء الآخرين التي لم تشبع في دواخلنا، ما يجعلنا نشعر بهذه اللذة؟، المهم هي موجودة، وهذا هو ما يجعل من حديثي مجرد انفعالات، لا حديث عقل، كما كان يجدر به أن يكون، عندما يتعلق بمثل هذا الموضوع الخطير.
ـ بل أنا أيضا يؤلمني هذا الموضوع، ويقلقني، وهذه هي المرة الأولى التي أقابل فيها شخصا يهتم بما تناساه الجميع بإصرار، ويعبر عنه بهذا الوضوح والصدق، أما حديث العقل كما تقول، فانه لا ينص إلا على أساسيات التربية، وهي كما تعرف، الحب غير المشروط والشعور بالأمان والثبات، وأنت قد ذكرتها جميعا، وان لم تسمها ب مسمياتها، أنا اعرف الكثيرين ممن عرفوها، سواء من قراءاتهم أو حتى من دراساتهم! ولكنهم لم يفقهوا معناها الحقيقي! لأنهم يسمون الدلال المفرط، حبا غير مشروط! وتهيئة الألعاب وضروريات الحياة لأطفالهم، شعورا بالأمان! ويعدون المعاملة الخشنة وقلة الاهتمام، ثباتا!!! تحدثهم عن ضرورة الاهتمام بأطفالهم، فيصرخون ومالهم أطفالنا؟ انظر إليهم، ألا يبدون كالورود؟ ألا نهيئ لهم كل متطلباتهم من مأكل ومشرب وملابس وألعاب؟ أواه لكم أتألم عندما اسمعهم يتكلمون هكذا! وكأن الطفل يمكن أن يدرك القيمة المادية للأشياء كما يفعلون؟! متى يدركون إن محاولة فهم نفسية أطفالهم هو المهم، لا تلبية حاجاتهم فقط؟، ترى، ما الذي يمكن أن يفهمه طفل من طعامه المميز أو ألعابه غالية

الثمن؟! بل، ما الذي تغيره حقيقة إن ملابسه تشترى له من أرقى المحلات، لو لم يكن سعيدا، أو لو كان يعاني من قلق أو عدم شعور بالأمان

كان يتابعني باهتمام عندما كنت أتحدث، ويهز برأسه موافقا على ما أقول، وما أن سكتّ حتى قال:

ـ أتدري؟ سنبقى في خطر ما دامت التربية عندنا تعني إلقاء المحاضرات، ومحاولة تكديس الحكم والمواعظ في عقول أبنا ئنا!. نطالبهم بان يكونوا صادقين، ونحن نمارس الكذب معهم، وأمامهم في كل حين! وأنا اذكر الكذب بالتحديد لأنه مصدر الشرور كلها، نحن نتصدى لتربيتهم ولا نفقه منها شيئا! متى نتعلم كيف نحدث الطفل ؟ وكيف نجعله يعبر عن نفسه خير تعبير؟ متى نستطيع أن نمتص أنانيته من دون أن نؤذي مشاعره أو نمحق شخصيته؟، نحن لا نفعل شيئا مع أطفالنا غير الوقوف على قمة جبل مرتفع والصراخ عليهم، طالبين منهم أن يتسلقوه لكي يلتحقوا بنا!!! لم لا نقف على السفح مؤقتا، لكي نمد إليهم أيدينا ونساعدهم على الارتقاء بالتدريج؟ والغريب أننا عندما يحرجنا طفل لنا بتصرف أمام الآخرين نلقي باللوم عليه لأنه هكذا، بطبعه!!! أو ندين صحبته للآخرين!!!.

عندها شعرت فجأة وكأنه كان يعني شيئا محددا! فتساءلت:

ـ هل ترمي إلى شيء محدد؟

بدا وكأنه سيقول شيئا، ولكنه تردد وابتسم لي وراح يحاول ترتيب مكتبه المرتب أصلا! قال بعد صمت لم يطل:

ـ لا تنس يا رمزي إن حديثنا هذا يتعلق بالأطفال عامة، ولكنه عندما يخص الإناث منهم فان المأساة ستبدو اكبر بكثير.

وفيما أنا في سبيلي إلى الرد، دخل علينا صادق مسرعا وقال لحكيم، بعد السلام:

ـ خيرا يا أبا سعيد، ما الذي حدث؟

ـ خير إن شاء الله، إن الأستاذ رمزي مهتم بقضية طموح، ويريد أن يسألك بعض الأسئلة عنه.

قال صادق موجها كلامه إلي وبصوت لم يحاول أن يداري الشك الذي بدا فيه:

ـ وما الذي تريد أن تعرفه؟

ـ أولا، لاحظ باني لا أريد أن أحقق، بل اسأل فقط، وحتى إذا كنت محققا، فما الذي أريده؟ أأستطيع أن احكم محكوما بالإعدام مرتين؟!!

ـ ولكن لماذا أنت مهتم بالسؤال عنه؟

ـ أنا مهتم به و أريد مساعدته.

ـ مساعدته؟! ولكن كيف؟

ـ دعك من هذا الآن وقل لي، هل تستطيع أن تكون صادقا معي؟
عندها ابتسم وقال:
ـ لاحظ إن اسمي صادق.
ـ حسنا يا صادق، أنت صادق، ولكن هناك صادقون لا يستطيعون أن يكونوا صريحين، ولأسباب مختلفة!.
قلت هذا وأنا انظر مباشرة في عيني حكيم الذي ابتسم، قال صادق:
ـ سأكون صريحا إن شاء الله.
ـ حسنا، حدثني عن طموح وما تعرفه عنه.
ـ في الحقيقة هو إنسان جيد ولطيف، وقد كان صديقا لي منذ الطفولة.
لم يكن هذا هو ما أريد سماعه فقلت:
ـ يا صادق، أرجو أن تبتعد عن العموميات عندما تتكلم.
ـ لم افهم.
ـ اقصد، عندما تقول عنه بأنه لطيف مثلا، فاذكر لماذا هو لطيف، وهكذا رجاء.
ـ في هذه الحالة، أنت تحتاج إلي محلل نفساني، لا إلي!
أفحمني هذا الجواب، فقلت:
ـ حسنا، حاول أن تكون أكثر تحديدا، لو سمحت.
ـ لا بأس، ولكن أتسمح لي بسؤال؟
ـ تفضل!
ـ لماذا تريد مساعدة طموح؟ رغم أني لم أفهم حتى الآن كيف يمكن أن تساعده بعد أن أدين بالفعل!!!
ـ لأني اشعر بأنه برئ.
ـ تشعر فقط، أو تؤمن؟
ـ هو شيء اقرب إلى الإيمان!
ـ فلماذا تسأل كل هذه الأسئلة عنه إذا؟
احترت وأنا أواجه بهذا السؤال الذي لم يخطر لي ببال! ولكنه كان منطقيا جدا،وبهذا يكون قد أفحمني للمرة الثانية خلال ثوان معدودات!. فقلت مراوغا!:
ـ يا صادق، أنا الذي اسأل، وان كنت تريد مساعدة صديقك، أرجو أن تجيب.
ـ ولكن طموح كان شخصا اعتياديا، له إيجابياته وسلبياته، وأنا لا اعرف من أين ابدأ.
ـ حسنا، لم لا نبدأ من طموحاته، على أساس إن اسمه طموح.

ـ كان طموحا جدا، ولكنه لا يمتلك الإمكانات اللازمة، فهو فوضوي وغير مرتب ولا يعرف أهمية التخطيط، بل يندفع وراء كل فكرة تلوح له ومن دون أي تفكير.

أقلقني ما سمعت ولكني لم أقاطعه وهو يسترسل قائلا:

ـ كان يريد ويريد، ولكنه لا يعرف كيف، فأضاع في النهاية حتى الذي كان متوافرا لديه.

ـ وما هو هذا الذي أضاعه؟

ـ ألم يكن طالبا بكلية الهندسة؟ ألا يعني ذلك مستقبلا جيدا؟ فلماذا فرّط بدراسته؟.

ـ أو فعل ذلك؟!

بان الاستغراب عليه وقال:

ـ ألم تعرف بأنه كان قد فصل من الكلية بسبب تكرار فشله في النجاح؟!

ـ كلا، ولكن لماذا فشل؟

ـ لأنه كان يؤمن بان الدراسة لا تجدي نفعا في بلدنا! وكان يحاول أن يؤمن لنفسه رأس مال كبيرا يحقق به أحلامه. كان متعجلا ويتخبط بين أعمال متعددة لم تزده إلا خسارة على خسارة، حتى أضاع الخيط والعصفور!.

بدت السخرية واضحة في كلماته الأخيرة! فقلت:

ـ ولكن، لماذا لم تحاول أن تنصحه؟ ألم يكن صديقك؟ فلم تركته يتخبط؟

ـ أنصحه؟! لا لم أحاول، لأنه عنيد ولا يمكن أن يصغي لأحد.

كان ما يقوله صادق يتناقض كثيرا مع الصورة التي تكونت في بالي عن حقيقة طموح! أزعجني هذا الأمر جدا، وشغلني عن متابعة ما قاله صادق بعدها، وبقيت منشغلا بأفكاري رغم استماعي إليه حتى قال:

ـ ولكن مفترق الطرق في علاقتنا كان، عندما تعرف على غافل، انغمس هو في تلك العلاقة التي لم أجاره بها لأني لم أكن أحب غافلا أبدا، وبمرور الوقت أصبح كل الذي يربطنا هو التحية التي كنا نتبادلها عندما نتقابل مصادفة.

ـ ولكن، من هو غافل؟

فقال باستغراب واضح:

- ماذا؟! لا تعرف غافل!!! ولكن، ما الذي تعرفه عن طموح إذا؟! كيف تريد ان تساعده وأنت لا تعرف اسم القتيل الذي قتله؟!.

ـ آه، هو القتيل إذا، ولكن كيف تعرف عليه؟ بل، من كان غافل هذا؟

ـ كيف تعرف عليه؟ أنا لا اعرف، ولكنه كان ثريا وهذا هو السحر الذي جذب طموح إليه، وقد توثقت العلاقة بينهما سريعا، ولكني لا اعرف أية تفاصيل عنها.

ومع الأسئلة التي كانت تتقافز في ذهني وكانت تزداد تشتتا في كل لحظة، لم اعد أستطيع أن أصغي كما ينبغي، أو أن أتحدث كما أريد، ولكني قلت بعد حين متسائلا:

ـ وأمه؟

وضح الشك الذي بدأت أعتاده، في عيني صادق، وقال بصوت خفيض وقد تغضن جبينه:

ـ وما لها أمه؟!

ـ لقد قلت أنك تعرفه منذ الصغر، وهذا يعني أنك تعرف العائلة جيدا، فما رأيك بأمه؟.

ـ عذرا، ولكن هذا حديث لا أريد الخوض فيه.

ـ هيا يا صادق، أرجوك، فأنا أريد أن اعرف كل الحقيقة.

فقال بعد تردد:

ـ حسنا، إنها امرأة غريبة، نوعا ما.

ـ غريبة! ما يعني ذلك؟ هلا توضح لي من فضلك.

حانت منه إلتفاتة سريعة إلى حكيم الذي حافظ على صمته طوال الوقت، ثم قال:

ـ لكي أكون صريحا معك، يجب ان اعترف باني لا أميل إلى هذه المرأة، لأنها، متسلطة، و، و، طفيلية، لا تستغرب، فقد عرفتها منذ طفولتي ولم تكن لتفوت فرصة تسنح لها لاستغلال علاقاتها بالآخرين، فهي تميل إلى حيث تكون مصلحتها، بلا رادع من ضمير ولا حساب للكرامة، تتحدث طوال الوقت عن حبها الكبير لأطفالها اليتامى رغم وجود أبيهم، ولكنها لا تحب إلا نفسها.

ـ ولكن، حتى إذا افترضنا إن ما تقوله عن كونها متسلطة وطفيلية صحيحا، فكيف لا تحب أطفالها؟!.

ـ نعم، لا تحبهم، بكل بساطة، وإلا ما قولك عن أم تترك أطفالها طوال ساعات وحدهم في البيت؟ كان طموح صديق طفولتي المقرب، وكنت أحبه كثيرا وكم من مرة حرمت من اللعب معه، لأنها كانت تقفل عليهم باب الدار بالمفتاح، وتأخذه معها إلى عملها، أوالى الأسواق التي أدمنت ارتيادها مع صديقاتها، وتترك مسؤولية رعاية عجيل واحلام الصغيرين لطموح الذي لم يكن عمره يتجاوز الستة أعوام! اعذرني لقسوتي يا أستاذ، ولكني لم أر فيها طوال حياتي إلا مثالا لأسوأ أم!.

ـ ولكن، أين كان أبوهم من كل هذا؟!

بان الاستخفاف في بسمته وهو يقول:

ـ أبوهم ! لقد حجمت هي دوره منذ البداية، لأنها كما قلت، كانت امرأة متسلطة، فتركته لخمرته يعبّ منها ما يشاء ما دام ملتزما بعدم التدخل في شؤون البيت أو بالأحرى، تنفيذ ما تشاء هي

لأنها كانت المسؤولة ع ن كل شيء في البيت، وكانت تأخذ منه حتى راتبه في بداية الشهر وتعطيه منه ما يغطي مصروفاته فقط، كان رحمه الله من النوع الذي يجعجع كثيرا عندما يغضب ولكنه سرعان ما يستكين ويسكت على مضض. أتدري؟ كان طموح وأخوته يكادون لا يعرفون شيئا عن أقارب أبيهم الذين أبعدتهم هي عن حياتهم!، وأنا لن أنسى ما حييت منظرها وهي تخرج فجأة إلى حيث يجلس الرجال المعزون بوفاة زوجها، في حديقة الدار وتطرد أخوته الذين أتوا للمشاركة في مأتم أخيهم، شرّ طردة!. هي امرأة هستيرية وانفعالية ولا تمتلك ذرة من حصافة أو منطق، والغريب إنها ورغم كل طموحاتها الهوجاء كانت كسولة جدا! فقد كان الكسل من ابرز الأشياء التي أورثتها لأولادها، أنا لا أتذكرها إلا نائمة أو جالسة تتحدث بالهاتف، ولفافة التبغ لا تفارقها معظم الوقت عندما لا تكون في الخارج، هي مدخنة شرهة ولكنها لو شعرت بتوعك وان كان خفيفاً فإنها تقلب البيت رأسا على عقب، وتروح تتلوى من الألم، بل وتتدحرج على الأرض أيضا، مثل الأطفال! والله لقد رأيتها بعيني تفعل ذلك مرات عديدة.

سكت وبدا وكأنه يفكر بأمر ما، ثم قال:

ـ اعتذر لاندفاعي هكذا، ولكنها هي المذنبة، لأنها أنانية جدا، والأسوأ من ذلك، مدعية. إذ دأبت على القول بأنها قد نذرت نفسها لأطفالها! والحقيقة إنها لم تستطع أن تقدم لهم ولو نصف ما يمكن أن تقدمه بقية الأمهات لأطفالهن، كانت عندما تريد أن توجههم للعمل في البيت، ومن الطبيعي أن كل هذه الأعمال كانت من مسؤولياتهم، تطلق الأوامر ثم تذهب إلى الحديقة لترشها، أما إذا كانت السماء تمطر في حينها، فإنها لن تعجز عن إيجاد عذر تستطيع أن تنتحله للتسلل إلى فراشها وتتركهم يعملون، كان رش الحديقة هو العمل الوحيد الذي تؤديه.

سكت مرة أخرى قليلا قبل أن يستدرك:

ـ هذا فضلا عن الطبخ طبعا، وهي أسوأ طباخة على الإطلاق، ولطالما عددت اضطراري للأكل في بيتهم عقوبة، وحتى هذا أصبح من مسؤوليات أحلام عندما كبرت. أنا اعرف بأنك تتصور أني قد بالغت قليلا، ولكن صدقني بان هناك تفاصيل كثيرة أغفلتها لأني كنت شاهدا على معظم ما يحدث في بيتهم، وكنت اضطر أحيانا لمشاركة أولادها في أعمالهم بعدما تخجلني بملاحظاتها، ولا اذكر إن أحدا زارها في بيتها ولم تكلفه بعمل.

ـ ولكن، لم تصر على الحديث عنها بصيغة الماضي؟!

ـ هذا لأنها أصبحت كذلك بالنسبة لي، لأني كنت قد امتنعت عن الذهاب إلى بيتهم حتى قبل أن تفتر علاقتي بطموح، ولعلمك كانت هي أحد أسباب هذا الفتور.

كان ما ذكره قد جعلني اشعر بالارتياح، لأنه برر لي نفوري منها بعدما حدث بيننا عصر ذلك اليوم، وقد تصورت بان صادق قد اكتفى بما قاله عنها، ولكنه قال فجأة:

ـ أتدري ما هو أسوأ ما فيها؟ هو حسّها المتدني بالعدالة! فهي لم تكن منصفة بين أولادها أبدا، كانت تميل بشكل واضح إلى عجيل وتفضله على طموح رغم انه بكرها، لا تسألني كيف اعرف ذلك ؟ فهذه أشياء تحس، كان عجيل ضعيف الصحة منذ طفولته وكان هذا هو الم سوغ المعلن لها، للعواطف التي تغرقه بها! ولكنها في الحقيقة كانت تميل إليه لأنه يشبهها، فقد نجحت في أن تجعله النسخة الذكرية لها، وكان عدم إنصافها هو السبب في الخلافات المستمرة بينهما لان مشاعر الغيرة استفحلت عندهما، وأنا أستطيع أن افهم سبب غيرة طموح من عجيل، ولكن الذي لم استطع فهمه هو غيرة الثاني من الأول، فقد كان هو المدلل وكان لا يكل من محاولات كسب المزيد من المواقع عند أمه على حساب أخيه.

عندما أضاف الملاحظات الأخيرة تنبهت على حقيقة انه يمكن أن يكرهها لسبب شخصي أيضا، تذكرت وجه الفتاة الجميل المحيا، فقلت:

ـ هاأنتذا تفصح عن إمكاناتك في التحليل النفسي! فهلا تحدثني عن الأخت قليلا.

ابتسم لممازحتي ولم ينتبه على غرضي من السؤال، فقال:

ـ أحلام، هي شيء آخر، لأنها طيبة وساذجة ولا تمتلك من الذكاء ما يؤهلها لتأويل ما يدور حولها تأويله الحقيقي، كانت تتصور بان ما يحدث في بيتهم إنما هو طبيعي في كل البيوت، فلم تدرك يوما بأنها كانت تعيش تحت ضغط ظروف غير طبيعية، كانت الأم لا تكل من إظهار عواطفها تجاهها، وتقبّلها طوال الوقت، ولكنها تستغلها أسوأ استغلال، فقد جعلتها تقوم مقامها في معظم أعمال البيت منذ طفولتها، وعندما كبرت سلمتها ما تبقى من مهامها وراحت تدلل ولديها على حساب ابنتها، لأنها كانت تجلس وتدخن وتطلب من المسكينة أن تجلب الطعام إليهما، وان تكوي ملابسهما وحتى تصبغ أحذيتهما أحيانا!!! كان هذا يحدث يوميا، أما خلال التهيؤ للمواسم، فإنها كانت تدفعهم هم الثلاثة للقيام بكل ما يتطلبه التهيؤ من أعمال، ولكن عجيلا كان يستطيع أن يتخلص أحيانا، منها وهذا ما لم يستطعه طموح يوما. أنا لم أر في حياتي فتاة كانت تتعب بقدر تعب أحلام، وللحقيقة أقول إن طموح كان يشعر بتعبها أحيانا ويحاول أن يخفف عنها قليلا، أما عجيل فهو مخلوق بلا أحاسيس وكان يستغل أخته بالضبط كما كانت تفعل أمه، أتدري؟ لقد تشاجرت أنا معه مرة بسبب إسرافه في طلباته المتكررة منها، وإصراره على تكليفها بأعمال تافهة وهي تكاد لا تستطيع الوقوف على رجليها بعد كدح النهار الطويل! أنا اعرف بأنه لم يكن من حقي أن أتصرف على هذا النحو وأنا في بيتهم، ولكني لم استطع أبدا أن احتمل تلك الأنانية السمجة.

من لين لهجته عند ذكر أحلام، رجحت احتمال أن تكون هي السبب بالفعل في موقفه من الأم! ولكني لم أكن أستطيع أن اسأله عن هذا الموضوع بشكل مباشر!أما حكيم فان صمته طوال

الوقت جعلني اشك لوهلة بأنه قد تعمّد أن يكون صادق هو المتكلم لكي يقول ما يعجز هو عن قوله، ولكن الطيبة الظاهرة على وجهه جعلتني أتراجع عن شكي، ولكني مع ذلك كنت اعرف بان هناك أشياء أخرى لم اعرفها عن طموح بعد، ولكن الذي لا اعرف كان هو كيفية استيضاح ذلك، قلت لصادق :

ـ من الواضح جدا انك لا تحب تلك المرأة.

ـ لا أحبها! بل اكرهها.

ولكنه سكت محرجا، وقال بعد قليل:

ـ اقصد، لا أحبها بالفعل.

ثم سكت مرة أخرى وبدا كمن يريد أن يقرر أمرا، ليقول أخيرا:

ـ لقد قررت منذ البدء أن أكون صريحا معك، ولهذا أقول باني قد طلبت يد أحلام ذات مرة، ولكن تلك المرأة وقفت بوجه طلبي بإصرار، فلم أنل مرادي بسببها، فأنا لم أكن بالرجل الذي كانت تحلم بان يكون زوجا لابنتها، لافتقادي الشروط التي تطلبها.

فقلت باهتمام:

ـ وما هي تلك الشروط؟

ـ الجمال والمال والأخلاق الحسنة، هكذا، بهذا الترتيب بالضبط.

ـ الجمال!!! ولكنك تتحدث عن رجل هنا، أليس كذلك؟

ـ نعم، ولكنها كانت تريده جميلا.

ـ حسنا، ولكنك شاب حسن المظهر!.

ـ شكرا يا أستاذ، ولكني لست بالأشقر، طويل القامة والرياضي الجسم الذي تريده، وحتى إذا كنت كذلك، فلم أكن لأنال مبتغاي لأني لا امتلك ثروة، وفي الحقيقة أنا اعتقد بأنها كانت تضع شرط المال قبل الجمال، رغم ادعاءها غير ذلك!.

ـ ولكن! إذا كانت هذه شروطها، فلم أردت الزواج بها؟ فان المرأة التي،

قاطعني هو قائلا:

ـ عفوا يا أستاذ، ولكن هذه شروط الأم، لا شروط الفتاة التي لم اعرف يوما ما تريد.

ـ ولكن! هذا غير معقول! فبأي حق تحدد هي الشروط؟

ـ لا اعرف بأي حق، ولكن هذه هي الحقيقة، وهي على كل حال، امرأة لا سلطان للعقل عليها.

أردف كلامه هذا برفع كتفيه كعلامة للاستغراب فقلت:

ـ حسنا، كفانا حديثا عنها، فأنا كنت أريد أن نتحدث عن طموح نفسه.

ـ ولكنك أنت الذي سألتني!.

ـ نعم، ولا بأس لأنك ألقيت بما قلت ضوءا على شخصية طموح.
ومع قولي هذا تـنبهت على إن حماستي لمساعدته قد فترت! شعرت بارتباك وضيق ولكني تذكرت عندها سؤالا كنت أريد أن القيه منذ البداية، ولكنه توارى في خضم النقاش، في تلافيف الدماغ، فقلت على الفور:
ـ اجبني بصراحة يا صادق، هل تعتقد بأنه قد قتل غافلا بالفعل؟
ـ لقد قلت لك بأنه قد قتله، ولكنك لم تنتبه، ومع ذلك، نعم أنا اعتقد ذلك لان كل الأدلة تشير إليه.
ـ إذا أنت تعتقد بأنه يستحق العقوبة التي تنتظره؟
ـ بالتأكيد.
والله، كنت في تلك اللحظة أتوقع هذا الجواب! ولكنه صدمني عندما سمعته! فقلت ممتعضا:
ـ ولكن، هذه قسوة منك!.
ـ قسوة!!! أية قسوة؟ يقتل هو صديقه فيحكم عليه بالإعدام، واتهم أنا بالقسوة لأني قلت بأنه يستحق عقوبته!!!.
ـ أولا، أنا اشك بان يكون هو القاتل، كما إن القسوة التي اقصدها تكمن في أن تنصب نفسك قاضيا عليه، فهو قد أدين ولا أتصور بأنه من حقنا أن ندينه مرة أخرى، ثم انك صديقه.
ـ ولكني لم انصب نفسي قاضيا عليه، بل أعطيت رأيي، والحقيقة انه كان هو من حكم على نفسه، أما عن كوني صديقه، فإني وان كنت لا أحبه الآن، إلا أني لا اكرهه أيضا، ولكني أرى فقط بأنه يستحق ما جنته يداه، وهذا أمر لا علاقة له بالعلاقات التي تربطنا.
كانت هذه وجهة نظر معقولة، فلم اعلق بشيء، ولكنه قال بعد حين:
ـ أنا أرى بأنك يجب أن تتحدث إلي النقيب حازم لكي تقطع الشك باليقين في مسألة ارتكابه الجريمة.
ـ ومن يكون النقيب حازم هذا؟!
ـ هو ضابط الشرطة الذي ألقى القبض عليه، للمرة الثانية.
عندها شعرت وكأن المكان يدور بي! فقلت كالمصعوق:
ـ للمرة الثانية؟!!!.
لم يجبني صادق، بل نظر إلي باستغراب، ولا ادري الآن، لربما كان ممزوجا باستخفاف؟! قال حكيم:
ـ ألا تعرف بأنه كان قد القي القبض عليه، وبقى قيد التحقيق أشهر، ثم أخلي سبيله لعدم كفاية الأدلة؟ ولكن النقيب حازم الذي كان متأكدا من انه القاتل بذل أقصى الجهود خلال الأشهر التي

قضاها طموح خارج السجن، حتى استطاع أن يجمع من الأدلة ما يكفي لإلقاء القبض عليه مرة أخرى؟!

لم اجب بشيء، فقد كنت في أقصى درجات حيرتي وارتباكي بعدما تأكدت من أن طموح كان قد كذب علي، لأنه لم يذكر كل هذا لي، شعرت باني ما عدت أستطيع المكوث معهما وقتا أطول، فشكرتهما بسرعة، واعتذرت لتطفلي، ثم انسحبت!.

(أنيس)

كيف أستطيع أن اصف لكم مشاعري وأنا ابتعد عن المكتبة سيرا على الأقدام بعدما سمعت؟. أنا اعترف بان مقدرتي على التصوير عاجزة عن ذلك!!! ولكني أتذكر الآن باني لم أجد في نفسي الرغبة في العودة إلى البيت، رغم إن الظلام كان قد حل! وكنت أسير في شارع تجاري يزدحم رصيفه بالمارة، فقررت أن أتشاغل عن حيرتي بمراقبة الناس والتمعن في وجوههم! ولكن، لم يمض علي وقت طويل حتى أيقنت باني لن أستطيع التغلب على شعوري بالضيق بهذه السهولة، فانشغلت عن الناس بما كان يدور في بالي!!! فأدركت بعدها بان المبرر الذي دفع النقيب حازم إلى الإصرار على جمع الأدلة، هو الذي يفصل ما بين ذنب طموح وبراءته! ولكن، من هو حازم هذا؟ وكيف يمكن أن التقي به؟. قررت أن أعود إلى حكيم للسؤال عنه! نعم، يجب أن أعود، لأني لم أف حكيم حقه من الشكر، وأنا أغادر بتلك الطريقة التي تنقصها اللياقة! رغم انه كان طيبا وودودا، يا لدماثة أخلاقه التي تذكرني بأنيس!!! . إذا، كان يذكرني بأنيس طوال الوقت!!! أنيس، صديقي العزيز الذي لم أره منذ وقت طويل، قررت فجأة أن اذهب لزيارته في محله الذي لم يكن يبعد كثيرا، وان أؤجل زيارتي لحكيم إلى وقت آخر.

تلقاني أنيس بوجه باسم ويد ممدودة، فأنساني ما كنت أعانيه مؤقتا، كان ابيض الوجه، مدوره، لحيته شقراء وخطها الشيب، لتذكرني بان مشيبي قد آن أوانه، لأنه كان يصغرني بعام. كنت قد تعرفت عليه خلال خدمتي العسكرية، ومنذ ذلك الحين لم تنقطع علاقتنا، ولم يسدها الفتور يوما. هو مثال راق لأبناء العوائل الميسورة، أدب جم ودماثة قل أن نراها في هذه الأيام، حالم وحساس ويتميز بعفوية محببة. غمرني بسيل من عبارات الترحيب التي كان يتقن استخدامها بشكل لافت للنظر، وخاصة من قبل شخص لا يجيد استعمال عبارات الترحيب والتهنئة والعزاء مثلي! ما أن جلست بقربه حتى راح يسرد علي كل النكات التي كان قد سمعها خلال الأيام الماضية كما هو ديدنه.

ولكنه تمعن في وجهي فيما بعد وقال:

ـ مالي أراك متعبا؟!

كان تعبي قد وصل إلى الحد الذي يشي به وجهي إذا!!! ولكني لم أكن ارغب أبدا في أن أتحدث بالموضوع الذي أتعبني، فقلت:

ـ نعم أنا متعب، ولكني أتيت إليك لارتاح، لا لكي أحدثك عن شجوني.

ـ ولكنك تعودت أن تحدثني عما يشغل بالك!

ـ صحيح، ولكني لا أريد أن أثقل عليك هذه المرة.

ـ تثقل علي! أنت! لا والله يا رمزي، فأنت لم تثقل علي يوما، ولن تفعل الآن، هيا بح بما تريد.

كنت قد تعودت بالفعل بثه همومي، رغم انه لم يكن يجيد الإصغاء! فقلت من دون تفكير:

ـ أنت تعرف يا أنيس باني قد عشت حياة هادئة وفي ظل ظروف، اقل ما يقال عنها، إنها كانت محايدة، فلم تعطني كثيرا، كما لم تأخذ مني الشيء الكثير، ومثل هذا كان كفيلا بان يرسخ القناعة في داخلي، ويكفيني شر معاناة البحث عن معنى آخر للحياة، ولكن من أين القناعة، وأنا إنسان؟! فرغم الهدوء الظاهري، كانت نفسي معذبة طوال الوقت، كانت كالمرجل الذي يكاد أن ينفجر لتزايد الضغط في داخله.

سكتّ فجأة لأني تنبهت على أني دخلت بهذا مدخلا لم أتهيأ له مسبقا! فأنا لم أكن أريد مناقشة شيء بجدية خلال زيارتي هذه، ولكنه طبعي اللعين الذي يجعلني أتصرف هكذا، فبقيت صامتا ثواني طوالا قبل أن أتابع:

ـ لاحظ باني أتكلم عن مرحلة من حياتي مضت عليها سن ين طوال كان خلالها الشك عذابا، واعترف بأنه ما يزال كذلك لحد الآن، ولكنه كان آنذاك أكثر عذابا واشد قسوة، دفعني هذا إلى تحطيم كل المسلمات والبديهيات التي قيدني بها آخرون، وقبل أن أع ي نفسي! ولكن مأساتي كانت في أن هذا التحطيم سبق اهتدائي إلى البدائل، وكان هذا يهدد بالضياع، الذي عانيت منه طويلا! أواه لكم كنت نزقا حين أحلت دنياي إلى حطام مبعثر، وأنا مبهور بإتقاني الهدم! لم أكن اعرف بان هذا هو ما يتقنه الجميع، أما سر النجاح فهو يكمن في البناء الذي لا يتقنه إلا القليل من الناس، ولكني كنت مراهقا مغرورا، فأمسكت بمعول الشك لأحول به دنياي إلى حطام، وأنا ابحث عن الحقيقة! ولكن، أين هي الحقيقة؟ أنا لم اعرف أين هي في ذلك الوقت، ولكن صدقني الآن حين أقول لك بأنها كانت تكمن في كل جزء من ذلك الحطام! وأنا لم اهتد إليها، لأني لم أكن مؤهلا لذلك، لأنها لا تسفر عن وجهها لمراهق. وعندما بدأت أولى خطواتي الرجولية، أرعبني ذلك الحطام الذي أورثني إياه رمزي القديم، ولكي أكون واضحا فيما أقول، يجب أن تعرف باني اعني بالرجولة هنا سن ما بعد الثلاثين، لا تعترض الآن، بل اسمعني يا أيها الصديق، لأني في تلك الأيام الغابرة شعرت للمرة الأولى باني قريب من الحقيقة، بقدر ما أنا بعيد عنها! ولكني لم أكن أستطيع أن أدركها قبل أن أعيد بناء دنياي وإقامتها بنيانا راسخا يستند إلى الشرعية المنطقية، أنا اعرف الآن بان السمو كان كفيلا بجعل الرؤية أفضل، ولكني كنت أغوص عميقا في الأرض!!! كنت أتعذب، ويؤلمني وعي منتفخ كالورم أحيانا، وفارغ كضرع شاة عجفاء، في أحيان أخرى! فعرفت باني يجب أن افرغ نفسي من كل ترسبات الماضي البائد، ومن ثم ابدأ من جديد محاولة الوصول إلى المعنى والحقيقة، ولكن النفس المناكدة كانت ترفض

التنازل في كل ما يربطها بالماضي، لأنها تحمل في طياتها وريث ذلك الماضي، اللاشعور! حتى تمنيت يوما لو أصاب بنعمة فقدان الذاكرة!.

كنت في تلك اللحظات قد بدأت أتكلم باندفاع ووضوح، ولكن الغريب أني لم أكن اعرف ما الذي أريد أن أبينه!!! كنت أريد فقط أن أتكلم عسى أن يخفف هذا من شعوري بالتعب والكآبة! وهو يفعل ذلك أحيانا، ولكن الحقيقة التي اكتشفتها الآن، وأنا أحدثكم، هي أني كنت أريد أن ابهر محدثي!!! تابعت قائلا:

- أواه، لكم نكون ساذجين أحيانا، ونحن نتصور باننا قد وصلنا إلى قمة نضجنا!!! أريد أن انتزع لاشعوري، بفقداني الذاكرة!!! هل سمعت يوما بمثل هذه السخافة؟!، كان الذي أريده هو فقدان الذاكرة الاجتماعية، أي اغتيال الأنا العليا التي فرضت علي!!! وابتداء الطريق من خلال الأنا الواعية، وصولا إلى مد الجسور المتينة بالعالم، وعلى أسس ذاتية راسخة وبعيدا عن المسلمات التي تفرض، والأحكام السابقة التي تورث!.

وعندها قال، بعد ما كان ينصت إلي صامتا:

- ولكن، ألا يبدو تحقيق ما تقول، صعبا جدا؟!

- بل هو مستحيل يا صديقي، إن هي إلا أحلام جامحة، لا أراني وقد تورطت في سردها عليك، إلا طالبا لليسر والسهولة في الدرب الصعب الذي يجب أن أسير فيه، هي إشفاقة على النفس المتعبة من آلام البحث الرهيبة. أنا سرت في هذا الدرب العسير، وما أزال كذلك، لا مختارا كما قد يتبادر إلى ذهنك، بل محكوما بأهواء النفس، وقدر غامض ومفروض يجعلني لا استسيغ تفاهات الركون إلى القناعات التي يفرضها علينا الآخرون. تصور مثلا بان هناك من يقول بان الحياة مسرحية معدة سلفا، ولنا فيها دور مرسوم!!! السنا نحن موجودين؟ ونحن من نعاني؟ فكيف تكون الحياة كذلك؟ أليس هذا ش يئا محبطا وسخيفا جدا؟ هكذا، بكل بساطة! حياتنا بلا معنى!!! بل، أليس هذا رهيبا، ومفزعا جدا؟ لا يا صديقي، لم يكن هذا يرضيني، فكان لا بد من البحث، وكان لا بد من بداية. كانت البداية في التصدي لشعور خانق بالآثام والذنوب! كان يكبلني، ويدعني نهبا للشعور بدونية مدمرة تكبح كل محاولة للسمو الذاتي وتمنع النمو الفكري الطبيعي، لا تشك بي يا أيها الصديق، فأنا لم اقترف الكبائر، ولا أسرفت في الموبقات، بل أنا أتحدث عن مرحلة أعقبت المراهقة الرهيبة، التي تمتد عندنا حتى الثلاثين!!!. والله لو سمعني إنسان غربي وأنا أتحدث عن أخطاء المراهقة بهذه الجدية! لسخر مني، واستغرب طريقة تفكيري، ولكن حمدا لله فأنت مثلي ويجب أن تفهمني. وقد استطعت أن اعي بعد لأي! بان كل ذنوبي وآثامي لم تكن إلا ردود فعل طبيعية لكل مراهق مكبوت، بل كانت في الحقيقة اقل بكثير مما هو جدير بمراهق طبيعي أن يفعله! لأني كنت خجولا، أي إن الذي آلمني طوال سنوات،

إنما كان تصرفات طبيعية لإنسان صغير يرزح تحت نير الحرمان، تصرفات تحولت إلى ذنوب لمجرد أنها ارتبطت من ناحية اجتماعية ببعبع المحرمات!!! فهل يستطيع الغربي أن يعي ما أقول؟!. المهم هو أني وبعيدا عن حسابات الصح والخطأ، تخلصت بهذه البداية من أولى معرقلات الولوج إلى آفاق أوسع في مجالات الوعي والمعرفة الذاتية، وكنت اكتشف طوال الوقت معاني واضحة، ولكني لم أدركها لقصوري، فكان هذا بداية الطريق، ولكن أي طريق.
يا لله لكم كنت دعيا في تصوير بعض ما قلت، رغم الصدق الذي كنت أتوخاه!!! ولكن الذي كان يحيرني هو أني لم أكن أستطيع أن أتكلم بمثل هذا الوضوح، حتى وأنا في أحسن حالاتي! فكيف استطعت ذلك وبي ما بي من ضيق وحيرة وتمزق؟!!! ولكن لِمَ يهمني ذلك ما دمت أستطيعه الآن؟ فلأتكلم وأقول ما عندي ولو لشخص واحد، ولمرة واحدة في حياتي! خاصة وان حماستي وطريقة كلامي كانتا قد أثرتا به جدا، فكان يصغي إلي وكما لم يفعل من قبل أبدا، قلت:
ـ كان ذلك الطريق عبارة عن متاهة من أسئلة! كل سؤال منها يسلمني إلى المزيد منها، وكنت أخاف وأنا في تلك المتاهة، ميناتورا رهيبا كان يكمن لي في ثناياها، ليجعل من إيجاد المخرج مستحيلا، ولم يكن ذلك الوحش غير اللاجدوى!!! وإزاء عبثية اللاجدوى كان لا بد من هدف، ولكن هذا المنقذ كان يحتاج إلى الباعث والدافع ! ولم استطع أن أقدم لنفسي شيئا في هذا المضمار إلا بعد أن توفر لي الباعث الحقيقي، ولم يكن هذا الباعث إلا أولادي، وبسبب رغبتي في أن أقدم لهم ولو شيئا معنويا، بعدما تأكدت من عجزي عن تقديم شيء مادي مهم لهم، ومثل هذا العطاء لن يتحقق إلا إذا وجدت طريقي الخاص إلى الحقيقة. فرحت ابحث بدأب عن المعنى في نفسي، في بطون الكتب، في تصرفات الآخرين، في أفكارهم، في المتاح من مظاهر الحقيقة وفي الأسرار واحتمالاتها!. كنت اسقط المعاني التي استشفها من الخارج، على الحقائق التي اكتشفها في الداخل، لكي أنمي تصورا عن المعنى الحقيقي للأشياء، وهذه هي المعرفة التي توصل إلى الحقيقة كما أعيها أنا!.
أنا لم أكن يوما بالمتطرف، وإذا ما استسلمت لفكرة أو إحساس فإني لن اسمح لهذا بان يقودني إلى ما لا نهاية!، ولهذا أدركت فجأة باني إذا ما تماديت في الادعاء، وان كان في الصور المعطاة، فان ذلك كفيل بان يخرجني من حدود الصدق، فكان لا بد من استدراك!. أشعلت لفافة تبغ، وتركت دخانها يدخل إلى أعماقي، ثم قلت:
ـ قبل أن استرسل، ولاني أتحدث عن الحقيقة، أريد أن اعترف لك باني أدرك إن الباعث الحقيقي لأي تصرف يقوم به إنسان لا يمكن أن يكون لسبب واحد! بل يكون هناك دائما أسباب كثيرة منها المثالي، وهو المعلن في معظم الأحيان، والأناني الذي نحرص على إخفائه عن الآخرين، وأخرى تكمن في الوسط ما بين هذا وذاك، وأنا عندما صرحت بان أولادي كانوا هم

الباعث على سعيي الدءوب وراء الحقيقة، كنت منحازا إلى رغبتي في البقاء في منطقة الوسط.
أنا لا أفكر في إنكار ذلك السبب الأناني الذي يرقد في أعماق اللاوعي، أو حتى في الوعي عندي، ولكن اسمح لي بان أكون مثاليا وادّعي أمامك باني أريد أيضا أن أدلو بدلوي في الجهود الإنسانية التي تريد أن تخرج كل فرد من متاهته.
سكتّ لكي أحاول أن استطلع ردود فعله، فقد كان صامتا يتأمل وجهي وأنا أتحدث، ولكنه قطع سكوته فجأة ليقول:
- لا ادري لماذا تصورت بأنك كنت تريد أن توضح لي أمرك، بهذا الحديث؟!
- ولكن، هذا هو ما أريده بالضبط!.
- عجيب! ولكنك لم تزد الأمر إلا غموضا!.
عندها ضحكت، وقلت:
- مع أني قد تصورت باني وصلت في توضيحي لنفسي، لك، إلى درجة تقرب من الكمال!.
فقال بطريقة ساخرة ولكنها محببة عندي:
- و ياله من وضوح؟!
ولاني كنت اشعر بارتياح نسبي بعدما عانيت، قررت أن أناكده قليلا، فقلت:
- حسنا، إذا كنت لم تفهم؟ فدعني أقله لك بشكل آخر لعلك تفهم هذه المرة؟ أنا، كما تعرف خلية واحدة من هذا النسيج الهائل الذي هو العالم، وما يحدث فيه، هو صورة مكبرة لما يحدث داخل نويتي، من هدوء نيوتروني، وتوافق مع إيجابية بروتوناتي، ولكن الخلية لا تتكون من نويات فقط، بل هي ذرات أيضا ، وهذا يلقي الضوء على قوة أخرى تتحكم بي، وهي سلبية الإلكترونات، فيكاد يفضحني تجاذب السلب و الإيجاب في داخلي، لان الاستاتيكية النيوترونية تتنحى جانبا لتفسح المجال أمام ديناميكية متغيرة ومحيرة، هي حقيقة كل إنسان! فهناك دائما مدارات متعددة تتزايد بتزايد الخبرات التي قد تكون خيرة أو شريرة! إلكترون، أو بروتون اخر، مدار زائد أو مدار ناقص، حيرة تتزايد أو يقين يتغلب! كل هذا، وأنا في انتظار الانفجار الذي يشطر نويتي ليطلق طاقاتها! فمتى يأتي ذلك الانفجار؟ فإما خير عميم أو شر وبيل! أنا، هو العالم بكل تناقضاته! والعالم هو أنا! فقط لو استطعت أن أضع حدا للانهائيته الانطباعية، بالوعي والمعرفة، لان هذا من شأنه أن يضع حدا لصغري المتناهي، واتساعه اللانهائي، ليبدأ عند ذاك عطاء الاندماج!.
وسكتّ، فقال مبتسما:
- ياله من حديث رائع؟! بروتوني النكهة، إلكتروني المذاق! ولكن، ألا تستطيع أن تكون أكثر تحديدا وتخبرني عن الأكثر نفعا في هذه الحالة، أهي طاقة الاندماج، أم طاقة الانشطار؟!.

عندها ضحكت وقلت:

ـ ها قد بدأت السخرية!

فضحك ملء شدقيه هو أيضا وقال:

ـ لا والله، ولكني أحاول أن أتحدث بالطريقة التي تتحدث أنت بها!.

ـ لك أن تسخر ما تشاء، ولكني سأتابع الحديث.

كنت قد بدأت حديثي الإلكتروني هذا لأجل المزاح، ولكنه بدا لي فجأة، معبرا عن بعض ما أريد قوله بوضوح!!! فتابعت:

ـ هل سمعت عن المسارعات الإلكترونية التي تزيد من سرعة الإلكترونات حتى تتضاعف كتلتها وينكمش حجمها كما تدّعي النظرية النسبية؟

ـ بالطبع

ـ أما أنا فقد اكتشفت مضخّم ا للبروتونات من دون أن يحركها، ورغم ذلك يضاعف كتلتها كما يضاعف حجمها.

ـ وما هو هذا المضخّم يا آينشتايني العزيز؟

ـ هو الحب يا صديقي الساخر، الحب الحقيقي الذي يبذله الفرد للآخرين، وللأشياء من حوله، فيسمو به عليهم، وللحق فقط اعترف باني اكتشفت هذا فقط، أو بالأحرى أعدت اكتشافه، لأنه مكتشف منذ أن وعت الإنسانية نفسها! ولكني لم استطع أن افرض الالتزام به على نفسي كما يجب! لأني ما زلت إنسانا يتخبط في مستنقع العادية، ومع ذلك فان مجرد الاكتشاف هو خطوة إلى أمام، لان إلكتروناتي عندما تمنع بروتوناتي من إضفاء إيجابياتها على العالم، وبعدما تكون نفسي قد عافت كل التردد اللا مجدي، والتجوال الأعمى بين الحلول غير الناجعة، يصبح لزاما على خليتي، إذا ما كانت تنشد التوافق والانسجام حقا، أن تتخذ موقفا لا بد منه، موقف أساسه الخير المطلق الذي يقطع الشك باليقين، ولن يكون هذا الموقف إلا التطرف في الحب، حب جميع الناس وكل الأشياء.

فقال هو وقد بدا الجد على وجهه:

ـ في هذا، أنا أوافقك.

ـ بل يوافقني كل من يسمعني، ولكن الجميع يشترك معي في عدم الإيمان بجدوى الحب عمليا!!!.

ـ ولكني

ـ عذرا يا أنيس، فأنا لا أقصدك أنت، لأني اشعر، وبصدق، بأنك أكثر مني مقدرة على الحب، ولكني اقصد هنا الحب المطلق الذي لم نقترب منه حتى الآن.

هز برأسه موافقا بصمت، بدا عليه وكأنه يفكر بأمر ما، ثم قال:

ـ وكيف تعرف باني أكثر منك قدرة على الحب؟.

ـ لأنك متدين بصدق، والمتدين الحقيقي يحب الله، أي انه يعرف الحب المطلق، وهو واصل في النهاية إلى حدود الموقف الذي تحدثت عنه.

فقال متعجبا:

ـ والله يا رمزي أنت تحيرني أحيانا!!!

ـ وكيف أحيرك؟!

ـ انظر إلى نفسك الآن كيف تتكلم عن التدين بحب، فيما تعطي الآخرين انطباعا بأنك ملحد، معظم الوقت!.

ـ ويحك! هل قلت لك يوما أني ملحد؟.

ـ لا، ولكنك

ـ ولكني ماذا؟ أنا أؤمن بالله بدون قيد أو شرط، لأني لا أستطيع إلا أن أؤمن بان عملية الخلق لا يمكن أن تكون مجموعة من المصادفات، هكذا بكل بساطة، يجب أن يكون هناك خالق لان الحياة التي بدأت في لحظة ما وفي مكان ما كان لا بد لها من خالق، ولا شك عندي في هذه الحقيقة، ولكن السؤال هو، لماذا غمض علينا كنه هذا الخالق؟ ولم ضاع إحساسنا به، في متاهات الخوف والتحريم؟ ولماذا رضي الإنسان بالدجل والشعوذة، في التزلف إليه، والتقرب منه؟ أتدري، تمر بي لحظات اشعر فيها باني قريب جدا منه، ولكني سرعان ما أهوي، حتى يستحيل أمر قربه سرابا مستحيلا!!! ولكنه موجود، بل يجب أن يكون موجودا، وإلا، ماذا سيكون شأن أرواحنا؟ هذه القوى العظيمة التي نبقى نجهل حدود إمكاناتها مهما اكتشفنا من مجاهلها، تنبّه، أنا لا تحدث الآن عن النفس التي يصنعها العقل الإنساني، بل عن الروح التي لولاها لكنا الآن مجرد عناصر تائهة في سديم الكون الفسيح، ماذا سيكون أمر الطاقات الهائلة التي لا تفصح عن نفسها إلا في لحظات تجلٍّ نادرة؟ فإذا كان هو محض خيال ابتدعناه نحن لكي نستطيع ان نعيش، فان حياتنا نفسها ستكون عدم ا هائلا لا معنى له!!! كلا يا صديقي، هو موجود، ولكن ليس بالصورة التي يريدها عمي البصيرة، انه موجود ويدركه كل مبصر يروم الحقيقة، ولكنه اشد رحمة مما يدّعون وأكثر إنصافا، انه هائل لا تحده التصورات، ولكنه ليس بجبار متغطرس، انه قوي ولكنه ليس بالشديد القاسي، انه رحوم، رؤوف وعطوف، ينتظرنا بصبر ما بعده صبر، لأنه صبر الآلهة، يدعنا نخطيء ولا يحاسبنا فورا لأنه يريد منا أن نصحح أخطاءنا بأنفسنا، يتابعنا خطوة بعد خطوة ونحن نرتقي إليه، هو لا يريد منا خوفا، بل يطلب منا فهما، فهما لإرادته! هو يمد يده إلينا دائما، ولكننا لا نراها، لأننا نعجز عن ذلك ونحن مشغولون

بتفاهاتنا. أواه يا أنيس، أنا لا أستطيع أن احتمل فكرة أن لا اله لهذه الدنيا، لأنها تحمل في طيّاتها معنى الفناء، فهي تعني أن لا روح عندي! بل هو العقل فقط، والعقل كما تعرف يموت في النهاية، فلا يبقى بعد ذلك غير العدم.

كان يتابعني باهتمام وصمت، ولكني كنت اعرفه جيدا، فقد عرفت من حركة عينيه بان شيئا يشغله، وعندما سكتّ، قال هو على الفور:

ـ كلام جميل جدا، ولكن هذا لا يعفيك من مسألة أداء واجباتك الدينية.

كان هذا هو الأمر إذا، كان يريد أن يقول شيئا قد لا يعجبني، وكان هذا يزعجه لأنه ألطف من أن يقول ما لا يعجب الآخرين بلا مبالاة، حتى إذا كان يتصوره حقا، وكان هذا ما يجعلني أحبه كثيرا، قلت:

ـ حسنا، ليكن الأمر كذلك، ولكن هذا لا يعني بان ما أقوله غير صحيح

ـ بل هو صحيح، ولكن لا يحق لك أن،

ـ صبرا علي يا أنيس، دعني فقط أكمل ما أريد قوله، وقل بعدها ما تريد. افهم باني أتناول الأمر كله من وجهة نظر اجتماعية فقط، ثم، ألا تعرفني؟ هل بدوت لك يوما وكأني أناقش فقط لتسويغ شيء ما في نفسي، لا دفاعا عن الحقيقة؟ أفلا تثق بي؟.

ـ بل أثق بك كثيرا، لأني والله لو سمعت هذا الكلام من غيرك لما تصورت إلا انه يريد أن يغطي على ما خفي من أمره، أما أنت ، فشيء آخر، أنت، أثق بكلامك، حتى إذا كان على النقيض مما أؤمن به، أنا أستطيع أن أتصورك مخطئا، ولكن أن تكون كاذبا أو مدعيا، فلا و ألف لا.

ثم ابتسم و أضاف:

ـ أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم.

وبسماعي رأيه الجميل بي شعرت باني مطالب ببعض التوضيحات، فقلت:

ـ تذكر باني لم ادّع يوما أني بلا أخطاء، بل الحقيقة هي أني كنت فريسة لها في كل مراحل حياتي، و ما زلت، فهذا جزء من إنسانيتي، وهي تسبب لي الألم عندما أتذكرها، ولكني أستطيع أن اقسم لك بأنها لم تكن من الضرب الذي لا يغتفر، لأنها لم تسبب أذى للآخرين، وان تركت عندهم انطباعات سيئة عني، فإني أتمنى لو كانت ذاكرتهم سجلات مكتوبة، لكي أستطيع أن اشطب منها ما أشاء، ولكن، لا عزاء، بل إن الأيام ونعمة النسيان هما شفيعاي، ولكن، قل لي

ورقة مفقودة

فاغر فاه وهو لا يكاد يصدق ثورتي المفاجئة تلك، حتى قلت:

- ثم لماذا لم تخبرني بأنك كنت قيد التحقيق، و أطلق سراحك ثم القي القبض عليك مرة أخرى؟ ومن هو النقيب حازم؟ ولماذا كان مصرا على انك القاتل، لا غيرك؟!.

عندها بان الارتباك الشديد عليه ولم يستطع أن يجيبني بشيء، بقى صامتا يحدق في وجهي كالأبله! بدا وكأنه قد فوجئ تماما! ولكن، لماذا تفاجأ؟ ألم اقل له باني سأقابل أصدقاءه؟ بل كان هو الذي دلني عليهم!!! فلم افترض بأنهم لن يكلموني عن التفاصيل؟! وكيف اعتقد بان الحقيقة ستبقى مخفية؟ كيف؟ ولماذا؟ ثم، كيف ولماذا؟ لم استطع أن استوعب طريقة تفكيره! وكانت أعصابي تزداد ثورانا مع كل سؤال جديد اعجز عن نيل إجابة عنه! أكان مثل هذا الشخص العاجز، الواقف أمامي، مؤهلا لان يخطط لجريمة قتل، وينفذها بأعصاب باردة؟! ولكن من الذي قال بأنه قد خطط لها، أصلا؟ أذهلني اليقين الذي سار بأفكاري بهذا الاتجاه فجأة!!! ولكن هل كان بإمكاني غير ذلك، وأنا أتعرف على ذلك الذهول المصطنع الذي يغلّف الكذابون به وجوههم عند اكتشاف كذبهم؟!!! تهاوى ش يء ما في داخلي، ولكني قاومت التداعي الجديد لأفكاري!!! فزادني هذا غضبا، قلت بنفاد صبر:

- هيا تكلم، لماذا تبقى صامتا؟ قل شيئا.

بدا وكأنه قد تدارك نفسه وقال:

- ولكني، ولكني

ثم سكت!، فصرخت به:

- ولكنك ماذا ؟ ألم تقل بان الأمور كانت تجري بسرعة، وانك لم تجد الفرصة للدفاع عن نفسك بسبب ذلك؟ فلماذا كذبت علي؟

- ولكني لم اكذب، فأنا لم اقل ما قلته لتوك، بل أنت الذي تصور شيئا غير موجود.

تنبهت عندها على إن بعض ما فكرت فيه كان مجرد تخمين من جانبي!، ولكن هذا لا يعفيه من تهمة الكذب لأني كنت متأكدا من حديثه عن سرعة جريان الأمور! قلت:

- ولماذا لم تخبرني عن النقيب حازم؟! ألم نمض أوقاتا طويلة، نتحدث فيها معا؟ فلماذا لم تخبرني عنه؟.

- ولكنك لم تسألني.

أذهلتني سخافة جوابه، فقلت ساخرا:

- وكيف أسألك عن شيء لا اعرفه؟!

فقال بصوت بدا الصلف في نبراته واضحا:

ـ ولماذا أحدثك عن شيء، أنا غير مضطر لقوله؟.

يا للنفس الإنسانية وألغازها؟! اقسم لكم بان مثل هذا الموقف كان جديرا بان يجعلني اغضب غضبتي الأخيرة، واطلب منه أن يذهب إلى ال جحيم، واتركه! ولكني، ولعجبي شعرت في تلك اللحظة بالشفقة عليه!!! أشفقت عليه لأنه لم يستطع أن يدرك بان كل ما بيننا يعتمد على الثقة فقط، وانه إن كان قد كذب علي، أو أخفى عني شيئا، فان كل ما بيننا ينهار دفعة واحدة! ولكن! ها هو قد كذب علي! وها أنذا أفكر في إعطائه فرصة أخرى!!! ولكن على شرط أن يثبت لي براءته!!! ألم اقل لكم بان عواطفنا تجعلنا ننسى أحيانا العقل والمنطق؟! ولكن، بدا وكأنه يريد أن يغوص عميقا في اليأس! لأنه قال في ثورة غضب مفاجئة:

ـ ثم لماذا اضطر إلى شرح شيء لك؟ من أنت؟ وما الذي يمكن أن تقدمه لي؟ أنت مجرد حارس سجن، ولا تستطيع أن تعمل شيئا، وهل تتصور باني قد تأملت منك خيرا بالفعل؟ هيا، اتركني واذهب.

عندما سكت، كانت شياطين الغضب التي كبحتها الشفقة قبل قليل، تمنعني من إيجاد ما يمكن قوله ردا عليه، وفيما كنت مكبلا بذهولي، قال بعد ثوان قلائل:

ـ ولكن تذكر فقط بأنك ستكون شريكا في الجريمة التي ارتكبت بحقي.

عندها لم أر بدا من الابتعاد عنه، ولكني لم اخط سوى بضع خطوات حتى سمعت صوته يستعطفني قائلا:

ـ رحماك يا أستاذ، هل ستتركني وحيدا؟

عندما أتذكر الآن التناقضات التي جعلني أسيرا لها، وكيف جعلتني اقطع شوطا آخرا معه، رغم وضوح الحقيقة؟!!! أخاف من احتمال أن يكون متقصدا ذلك! لان هذا يعني أنه كان خبيرا كبيرا في النفس الإنسانية!!! فهل كان كذلك؟ أنا لا اعرف! ولكني عندما سمعت كلماته الأخيرة التفتّ إليه وصحت به:

ـ اسمع يا أيها اللعين، لقد اكتفيت منك، قل لي على الفور، ما الذي تريده مني؟ أو لتذهب إلى السعير.

ـ أنا والله، العن من لعين، بل أنا خادمك الأمين، ولكنك أنت الذي قلت بأنك ستساعدني.

ـ أساعدك، على أساس انك برئ.

ـ وأنا برئ.

ـ والنقيب حازم؟

ـ النقيب حازم! حسنا، انه، ولكن صدقني أنا برئ، والله العظيم برئ، وما حازم إلا شخص دنئ، كانت بيننا خلافات سابقة حقد علي بسببها، فكاد لي في هذه القضية.

ـ وهل من المفروض أن أصدقك الآن؟

ـ أنا لا اجرؤ على طلب ذلك، ولكنها الحقيقة والله

ـ حسنا، أنت تعرفه إذا، قبل القضية؟!.

ـ نعم

ـ وما هي الخلافات التي تحدثت عنها؟

ـ إن شرح هذا يطول، ولكني سأحدثك عنه لاحقا، أما الآن، فاعذرني لان تفكيري مشوش بسبب الوقت الذي يمضي بسرعة، أنا يا سيدي سأكون لك خادما طوال عمري، فقط ساعدني.

صدقوني لو قلت لكم باني لم اشعر بآلام الحيرة في حياتي، كما شعرت بها في تلك اللحظة، وأنا واقف كالتمثال أمامه!!! كانت الشفقة تعتصر قلبي وأنا أراه يستعطفني، وكأني القاضي الذي سيصدر عليه الحكم!!! كنت العن نفسي لأنها ورطتني بما لا قبل لي به، ولأنها تجعلني اشعر بتفاهة شأني لأني لا أستطيع أن أقدم له شيئا!!! فمن أنا؟ عندذاك راحت دبابيس الغضب تلهب وجهي، لأني تذكرت إهاناته غير المبررة!!! ولكني كبحت نفسي لأني تذكرت بأنه ليس إلا مسكين يتعرض لضغط ساحق لا يرحم!!! حاولت أن أطمئنه، ولكن حماستي القديمة كانت قد غارت!!! فقلت بصعوبة:

ـ لقد قابلت محاميا بالأمس و أكد لي بأنه من الممكن إعادة المحاكمة.

عندها صاح وكأن مسا من الجنون قد أصابه:

ـ يا للسماء! إعادة المحاكمة؟ أي شخص مبارك أنت؟ بل أنت والله ملاك، أنت

قاطعته بضجر قائلا:

ـ مهلا، مهلا، أنا لم اقل بأنهم سيعيدون المحاكمة، بل قلت إن هذا ممكن، وشتّان ما بين القولين، ولكننا مع ذلك يجب أن نتدبر أمورنا، وان نبذل قصارى جهودنا لكي نجعل ذلك ممكنا، و أول ما يجب تدبيره، هو الأموال اللازمة لان المحامي طلب الكثير منها، لكي يعدّ للأمر عدّته.

فقال بحماس كبير:

ـ الأموال، إن شأنها بسيط، ستتدبره أمي.

سكت قليلا ثم قال:

ـ لم لا تذهب إليها اليوم وتخبرها بكل هذا، ستجعلها تفرح، وفي الوقت نفسه تجعلها تهيئ لك ما تريد؟.

عندما ذكر أمه شعرت بقرف كبير!!! فقلت:

ـ في الحقيقة أنا ذهبت إليها بالأمس، بعد أن قابلت المحامي، ويبدو إنها لم تفرح برؤيتي كما تقول؟! ولكن لا بأس، لأني يمكن أن أكون قد تسرعت بالذهاب إليها لأنها لا تعرفني، وبالمناسبة فقد تحدثت عن محاولات يقوم بها أشخاص من معارفكم وهم من ذوي النفوذ.

ـ نعم، نعم، ولكن يجب أن تتعدد المحاولات، فقط قل لي كم يريد المحامي وسنرى كيف نتدبر الأموال اللازمة، أو، اذهب إليها، اذهب إلى أمي مرة أخرى، وقل لها،

قاطعته بحزم قائلا :

ـ كلا، بل اتصل أنت بها، وسأهيئ أنا القلم والأوراق لك لكي تكتب لها ما تريد، وسأكلف شخصا ما، بحمل رسالتك إليها.

قال وقد بان القلق عليه:

ـ ولكن لماذا، فهي لو

مرة أخرى، قاطعته قائلا:

ـ بلا نقاش، اتصل بوالدتك كما تريد، ولكن أبقني أنا خارج الموضوع، اقصد في موضوع المال، أهذا واضح؟.

لم يجرؤ على الاعتراض مرة أخرى، وبعد ذلك رحنا نتكلم في تفاصيل غير مهمة أخرى، وقد حاول أن يستفسر أكثر عن المحامي، ولكني لم أشأ أن اجعله يتصور الأمل الضئيل، وكأنه حقيقة واقعة، فلم اقل له أكثر مما قلت.

(حكيم)

في تلك الليلة، عندما وقفت أمام مكتبة حكيم! ترددت كثيرا في الدخول! ولكن ابتسامة الود التي ارتسمت على شفتيه عندما رآني من خلال زجاج الواجهة، جعلتني أتناسى ترددي فدخلت.
كان وحيدا يطالع كتاباً نحّاه جانبا ونهض واقفا ليستقبلني بكل أدب، وقال:
ـ أهلا يا رمزي، أهلا ومرحبا، تفضل بالجلوس
وبعد عبارات المجاملة التقليدية التي تبادلناها قال:
ـ أرجو أن لا تكون قد أتيت لتطالبني بان أكون شاهدا، مرة أخرى، لأني لا أستطيع أن
قاطعته قائلا:
ـ كلا، ليس هذا سبب مجيئي، بل الحقيقة هي إن هذا هو آخر ما يمكن أن يدفعني لزيارتك الآن.
تطلع في وجهي مليا قبل أن يقول:
ـ غريب! هل حدث طارئ جعلك تغيّر وجه نظرك؟
ـ وكأنك لا تدري! ولكن، أرجوك يا حكيم، فأنا لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع، بل أتيت إليك لكي ارتاح من أفكاري التي تكاد تهدّ كياني.
ـ هو ثقل الشعور بالمسؤولية إذا؟!
ـ هو شيء كهذا، ولكني لا أريد التحدث عنه، أبدا.
ابتسم لي عندها وهز برأسه موافقا، ثم بقينا صامتين حتى قال:
ـ أنا أتوقع انك قد أتيت باحثا عن أجوبة لتساؤلات خطرت ببالك عني.
أدهشني صواب توقعه، ولكني تظاهرت بالاستغراب وأنا اسأله:
ـ أية أجوبة؟ وأية تساؤلات؟.
فركز نظراته في عيني، وبدا وكأنه لا يصدق استغرابي! ثم قال:
ـ هل تتصور باني لم انتبه لنظراتك بالأمس، أو لتلميحاتك عن الصدق والصراحة، وأنت تتحدث مع صادق؟
أدركت أنه لم يعد هناك مجال للإنكار فقلت:
ـ في الحقيقة، لقد كنت أقصدك بذلك، ولكني أستطيع الآن أن افهم مسوغاتك.
ـ يا رمزي، أنا لي آراء فيما يدور حولي، حتى إذا ما بدا علي عدم الاهتمام، ولكني غير مستعد أبدا للتصريح بها ما دامت لم تخرج من نطاق الحدس، فأنا لن أصرح إلا بما أنا متأكد منه، أما آرائي فإني احتفظ بها لنفسي.

ـ حسنا لقد توقعت هذا، وأنا لا ألومك، ولكني أتيت اليوم لأني شعرت بان لديك الكثير مما يمكن أن يُسمع، وأنا كلي آذان صاغية، فقل ودعني اسمع

ـ ولكن!!!

ـ عذرا لإحراجك، ولكني اقصد سماع آرائك العامة لا غير.

فابتسم وقال:

ـ ولكن عن أي شيء تريد أن نتحدث؟

ـ عفوا، تتحدث أنت فقط، إن أردت، أما أنا، فإني لست في حال تتيح لي الكلام.

ـ ولكن! ما الذي تريد أن تسمعه بالتحديد؟

ـ أي شئ، مادام حديثا ينشط العقل ويغني الفكر.

ـ وهل تتصور بان مثل هذا الحديث يمكن ان يكون بمجرد ضغطة زر؟!

ـ كلا، ولكن الحديث مع العاقل مكسب، وأنا حريص جدا على مثل هذه المكاسب.

ـ يالله، انك تحرجني ولا ادري إن كنت جديرا بما تظنه بي!.

ـ دع تقدير ذلك لي، و أرجو أن لا تكون ضنينا علي بأفكارك.

شعرت باني أحرجه كثيرا، ولكن الرغبة في الاستماع إليه كانت قد تحولت إلى ش يء أشبه بالهاجس، قلت:

ـ لنبدأ مثلا بما تقراه الآن، أيزعجك أن تطلعني على عنوان كتابك؟

أدار الكتاب الموضوع على المكتب حتى أتمكن من قراءة العنوان، كانت رواية لكاتب روسي، فقلت:

ـ آه، أنت من هواة قراءة الروايات الروسية إذا.

ـ أوه كلا، فأنا لم اقرأ روايات منذ زمن طويل، ولكني كنت معجبا طوال عمري بهذا الكتاب، وما قراءتي هذه إلا إعادة اكتشافه بالنسبة لي.

ـ وهو كاتب كبير بالفعل، لأنه سبر أعماق النفس البشرية، وكشف تناقضاتها، والبديع في كتاباته انه تحدث فيها عن شخصيات ما تزال تعيش معنا، وبمعزل عن الزمان والمكان الذين كتب فيهما!.

ـ أنت معجب به إذا، وهذا يعني بأنك قارئ نهم مثلما توقعت، قل لي يا رمزي لماذا تقرأ؟.

ـ لماذا اقرأ؟! لم افهم!!!

ـ قصدي، ما الذي يدفعك إلى القراءة؟

ـ لا ادري، لقد ولدت وأنا هكذا.

ضحك لقولي وقال:

ـ ومع ذلك، فانك حين تقرر أن تقرأ في لحظة، فان شيئا ما يدفعك إلى ذلك.
ـ حسنا، في البدء كانت المتعة، أما الآن فان حكم العادة هو الذي يدفعني إلى البحث عن المزيد من الكتب لقراءتها.
ـ وهل تشعر بوجود ما هو أهم من القراءة في حياتك، ما عدا حياتك العائلية بالطبع، والقيم والمثل العليا في حياة الإنسان.
ـ لا والله، لا يوجد ما هو أهم منها.
ـ ألم تقرأ يوما لتحاول أن تبهر الآخرين بمعلوماتك؟ أو أن تقرأ لكي تستطيع بالمعلومات التي توفرها القراءة لك أن تنتصر في مناقشاتك معهم؟
ـ ماذا، لا، بالطبع لا
ـ حسنا، بقى لدي سؤال واحد فقط.
ـ عذرا يا صديق، ولكن لم هذه الأسئلة؟!
ـ اجبني فقط الآن، ما هو الموضوع الذي تبحث عنه عندما تريد القراءة؟
ـ أنا لم أتحدد بموضوع يوما ما، فكل كتاب هو مشروع صالح للقراءة بالنسبة لي، والخوض في خضم صفحاته هو الذي يحدد مسألة إنهاء قراءته من عدمها. ولكن ما هذا؟! أراك تدفعني إلى الكلام وأنا لم آت إلا لكي أصغي!.
ـ لا بأس يا رمزي لأني أريد أن أعرفك قبل أن أحدثك، وأنا لن أستطيع أن أكون صادقا فيما أقول إلا إذا عرفت من أنت بالضبط، وهو ما عرفته من خلال معرفة ما تقرأ، وكيف، وأنت لم تخيب توقعاتي أبدا، فأنت كما تصورتك بالضبط.
ـ ولكن، لماذا لا تستطيع أن تكون صادقا، إلا إذا عرفتني؟!
ـ لأني إذا لم أعرفك، أو شككت في سلامة عقلك، فإني لن أقول سوى نصف ما اعرفه من حقائق، إن الأفكار يا صديقي مسؤولية، والتصريح بها مسؤولية اكبر، لأنها يمكن أن تؤثر سلبا في حال عدم فهمها، وخاصة عندما نقترب من حدود الشعرة التي تفصل بين الشيء ونقيضه، وهذه الحدود هي هدف كل باحث عن الحقيقة، فهل تتصور باني على استعداد لان أعطي انطباعا خاطئا عن نفسي لمجرد الرغبة في الثرثرة؟ لا يا رمزي، فأنا حريص على الصدق في أقوالي، ولكني لا أريد أن أُصدم بردود فعل سلبية من الآخرين لأنهم لم يستطيعوا فهمي، أو أن أتحمل مسؤولية تأويلهم الخاط ىء لما أقول، وبالتالي تأثير ذلك عليهم. أما أنت، فقد جعلتني اطمئن لان ردودك كانت صحيحة، ولذلك سأكون صريحا معك، و أرجو أن لا تجعلني اندم على ذلك.
سكت وهو ينتظر ما أقول ولكني بقيت صامتا فقال بعد قليل:

ـ هل لاحظت بان معظم الكتب الموجودة في المكتبة تتعلق بالتاريخ؟

ـ لا، لم الحظ، ولكن! لماذا التاريخ بالذات؟

ـ الذي يجب أن تعرفه هو أني لم أحدد لنفسي خطا للقراءة في البداية، كما فعلت أنت، ولكني ازددت بمرور الوقت تعلقا بالتاريخ، لأنه هو المنظار الذي يجعلنا نرى تفاصيل التطور الروحي والفكري للبشر، أحببته لأنه القصة التي تروي لنا نشوء وتطور الإنسانية حتى أصبحت الآن ما هي عليه، والإطلاع عليه يمكن أن يعطينا فكرة عما يمكن أن نصل إليه في المستقبل، التاريخ يا رمزي هو عرض مستمر لتحولات لا نهائية تطرأ على إنسان هذا الكوكب لتقوده في النهاية إلى حيث يجب أن يصل. ولكن قبل أن أتابع يجب أن أنبهك إلى أني ثرثار عندما أبوح، فهل تدرك أي باب فتحته على نفسك.

عندها ضحكت وقلت:

ـ أنا راض بهذه المغامرة، ولكن قل لي هل درست التاريخ في الجامعة؟.

جعلته سذاجة سؤالي يبتسم!، ولكنه قال بأدب:

ـ في الحقيقة، أنا مهندس، وما التاريخ إلا ولع تملكني، ويجب أن تعرف بان دربنا إذا ما خضنا في تفاصيل ما احمله من آراء بشأنه سيكون شائكا، فهل أنت راغب في سماعها؟.

ـ بالطبع أنا راغب، ولكني استغرب كونك مهندسا، ومع ذلك تعمل في هذه المكتبة؟!.

ـ في الحقيقة أنا موظف حكومي، وما هذه المكتبة إلا وسيلة لأسباع نهمي إلى القراءة، وفي الوقت نفسه، هي تدر علي واردا لا بأس به يضاف إلى راتبي.

ـ فهمت، ولكن ماذا بشأن التاريخ؟ إذا كنت ترى كل هذه الأهمية فيه، فلماذا لم تحاول در استه أكاديميا، بعد حصولك على شهادة الهندسة؟

ـ هذا لأني أرى أنه لا يمكن أن يُدرّس.

ـ ماذا؟! لا يُدرّس! كيف، وهو علم قائم بذاته؟

ـ أما عن كونه علما، فأنا لا أرى ذلك، ولكن قل لي أنت أولا، كيف يمكن أن يكون علما؟

ـ أنا لا اعرف، ولكن المؤرخين درجوا على تسميته كذلك.

ـ لهم أن يسموه ما شاءوا، أما أنا فاسميه فلسفة لأني أرى إن من يستطيع أن يقرأه بالشكل الصحيح يجب أن يكون فيلسوفا، وأنا اعني بالقراءة هنا، الاستشفاف، لان التاريخ الحقيقي ليس كتابا يقرأ، بل هو حقائق متناثرة تغوص بعيدا عن سطح الأحداث الهامة فيه، وتحديداتها، أنا اعترف بان بعض العلوم لم يكن لها أن تكون، لو لم تكن للإنسان قابلية الاستشفاف، ولكن هذا يكون في البداية فقط، أما بعد ذلك، فان العلم لن يقوم إلا على الاستنطاق والاستنتاج اللذين يوصلانه إلى اليقين الذي يجعل من الحدس علما. ولكن التاريخ الحقيقي لم يغادر مملكة

الاستشفاف يوما، وإلا قل لي، أين هو اليقين فيه؟ هل تتصور بأننا نعرف ما يكفي عن الإنسان القديم؟! هل نعرف شيئا عن حياته وتطلعاته وأسلوب تفكيره؟ بل ما الذي نعرفه عن علوم الغابرين الذين نتصورهم لا علم لهم؟!!! ما الذي يوجد لدينا عنهم؟ مجرد نظريات! وأين النظريات من يقين العلم الذي كشف كل تفاصيل المو ضوعات التي يعالجها وجزيئاتها ولم يتبق أمامه الشيء الكثير! لا يا رمزي، لا يمكن للتاريخ أن يكون علما.

ـ ولكن المؤرخين،

ـ عن أي مؤرخين تتحدث؟ عن الأجانب بالطبع، أليس كذلك؟! لان مؤرخينا ليسوا إلا نسخ ا ناطقة بالعربية، لهم!!! فأولئك يقولون ما بدا لهم، وهؤلاء يصدقون بلا قيد أو شرط! لا تحاول أن تعترض، فأنا لا أتحدث هنا عن زمن ابن خلدون، بل اقصد زمننا هذا ودعنا لا نكابر، فالغربيون هم من وضعوا أسس علم التاريخ كما يسمونه، ولكن عن أي تاريخ هم يتحدثون؟ هل لاحظت يوما بأنهم يتحدثون عن تاريخهم هم، عندما يدّعون بأنهم يتحدثون عن تاريخ العالم؟!!! فهل المطلوب مني هو أن اصدق ادعا ءهم وان انتظم في مقاعد الدراسة لكي اسمع مثل هذه التفاهات؟! لا، أنا لن احتمل هذرهم هذا، لأنهم لو كانوا يمتلكون مقدار ذرة من الإحساس بالعدل لاعترفوا بان تاريخهم نفسه لم يكن ليكون، لولا اللحظة التاريخية التي تزاوجت فيها اللغة الكنعانية بصور الخط الهيروغليفي هنا في سيناء، وليلدا الأبجدية التي جعلت تدوين لغات العالم الآن، عملية ممكنة!!! فلولا الكتابة، لكان تاريخهم حتى الآن ليس إلا أساطير هيرودوت، وخرافات هوميروس! ولكن، لم العجب؟! وهم ورغم ادعائهم التزام المنطق وتحكيم العقل فيما يذهبون إليه، جعلوا التوراة مرجعا مهما من مراجع التاريخ؟!!!.

ـ ولكن، أليست هي كذلك؟

ـ أساذج أنت يا رمزي؟ أم مخدوع؟ كيف يمكن لكتاب وضع خلال القرن السادس قبل الميلاد حسب قول الغربيين أنفسهم! أن يكون مرجعا لتاريخ العالم الذي بدا قبل ذلك بعشرات الآلاف من السنين؟ هل تعرف كم هو عمر أقدم نسخ للتوراة اكتشفت لحد الآن؟

ـ لا اعرف، كم؟

ـ إنها تعود إلى القرنين الأول والثاني قبل الميلاد، تصور! مائتي عام قبل الميلاد فقط!!!

ـ حسنا، يبدو كلامك منطقيا بالفعل، لأنه ما علاقة كتاب ديني بالتاريخ؟!

ـ حتى في قولك هذا، أنت على خطأ، لان من يتصور إن فصول التوراة قد حررت لبيان التعاليم اليهودية، واهم كبير، فالديانة اليهودية، ديانة كهنوتية بالكامل، ولا يحتاج المرء فيها إلى قراءة تفاصيل دينه لان هذه مهمة الكهنة، وهم موجود ون في كل زمان ومكان، والحقيقة هي إن

التوراة كتبت أساسا لتزوير تاريخ العالم الذي كان و ما يزال، لا يتلاءم مع اطروحات اليهود،التي بدلا من أن يحاولوا تغييرها، حاولوا أن يغيروا العالم!.

ـ ولكن بني إسرائيل

ـ دع بني إسرائيل وشأنهم، فأنا اقصد هنا اليهود فقط، وهم إن كنت لا تعرف سبايا نبوخذ نصر من دولة يهوذا التي دمرها حصرا، وهم يشكلون سبطا واحدا من أسباط بني إسرائيل، وقد أضاعت التوراة آثار الأسباط الأحد عشر الباقين!!! فهل يعقل هذا؟ ولذلك أقول باني عندما اذكر اليهود، لا اقصد بني إسرائيل، فهؤلاء غير أولئك! ولكن الكهنة الذين كتبوا التوراة نجحوا، والحق يقال، في فرضها بذكاء على الناس في تلك العصور الغابرة، التي كان يغيب فيها البحث العلمي، ولكن ما لعلماء اليوم يتناسون إن الأساطير التي وردت فيها لا يمكن أن يؤبه لها؟ بعدما برهنت الأبحاث الأثرية على عدم صحتها، حتى الآن!.

ـ ولكن، ألم يرد ذكر غزو الآشوريين لهم فيها؟ وكذلك سبيهم من لدن نبوخذ نصر؟ أليست هذه وقائع حقيقية كما أثبتها التاريخ؟!.

ـ يا رمزي ! يا رمزي ! أرجوك، لا تتعبني، لقد قلت لك بان التوراة كتب معظمها خلال القرن السادس قبل الميلاد، وفي بابل بالذات كما يؤكد معظم الدراسات الحديثة، وكون هذه الوقائع صحيحة متأت من حقيقة أن وجودهم هناك كان نتيجة مباشرة لتلك الأحداث، أما غير هذا، فهو إما ملفق، أو مقتبس من أساطير قديمة تسربت إليهم من الكنعانيين في فلسطين، أو الآشوريين في نينوى، أو الكلدانيين في بابل، أو غيرهم من الأقوام التي كانت تسكن تلك البقاع. ولكن الكهنة الذين شاركوا في كتابة التوراة لم يستطيعوا، ورغم الجهود الهائلة التي بذلوها، أن يتجنبوا الوقوع في مأزق التناقض المفضوح مرارا، لان ذلك كان حتميا.

ـ أنا يا حكيم، اشعر بصواب الكثير مما تقوله، ولكن لا يسعني إلا أن اعترض على بعضه، ولقول الحقيقة أقول، باني قرأت أكثر من كتاب غربي فيه أفكار تقترب مما تقوله أنت الآن، ولكني

ـ بل هناك الكثير ون من الغربيين الذين يقولون هذا الذي يجب أن يقوله كل صاحب عقل وضمير، ولكن الكثير ين منهم أيضا يعرف ون هذا، ولكنه م يتأثر ون في النهاية باطروحات التوراة، خذ مصطلح السامية مثلا،

ـ ما هذا؟ أتريد أن تقول بأننا لسنا ساميين؟!

ـ يا رمزي! إن السامية أصلا لا يمكن أن تعني عرقا، لأنها لو كانت كذلك، فان المعني بها سيكون ثلث سكان العالم، لان نوحا لم يكن له سوى ثلاثة أولاد، كان سام واحدا منهم فهكذا تقول التوراة! ولكنها مع ذلك أُطْلِقت على الشعوب التي نزحت من الجزيرة العربية منذ أقدم

العصور على أساس إنها من صلب سام بن نوح!!! وحتى لو فرضنا جدلا بان هذا صحيح، فان التوراة تناقض نفسها لأنها أدخلت في حضيرة هذه الشعوب، شعوبا لا تمت إليها بصلة، فيما أبعدت عنها شعوبا كانت هي الأحق بإطلاق هذه التسمية عليها، إن كانت صحيحة. إن هذا المصطلح في الحقيقة قد ظهر خلال القرن الثامن عشر، وأنا أستطيع أن افهم لماذا استخدم في ذلك الوقت، ولكني لا استسيغ أبدا أن يصر الغربيون على استخدامه الآن!!! وهم يدّعون العلم الذي لا تبنى أحكامه إلا على حقائق منطقية!!! فمالهم سقطوا في فخ الاستعارة من القصص الخيالية والأساطير، فيقولون لغة سامية، وشعب سامي، وهما شيئان لا وجود لهما بنظري؟

ـ وما هو البديل بنظرك؟!!!

ـ لم لا نقول عربية وعربي مثلا؟!

ـ عجيب! ولكن كلمة عربي لم تستخدم إلا قبيل الميلاد على ما اعرف؟!

ـ كلا، بل وردت قبل ذلك بكثير في الكتابات البابلية والآشورية، وحتى إذا كان ما قلته صحيح ا، فان هذا لا يمنع أن تكون تلك الشعوب عربية حتى لو لم يطلق هذا الاسم عليها، لأنها انطلقت من الجزيرة العربية، والعربية التي ولدت وتطورت داخل حدود تلك الجزيرة كانت قد حافظت على سماتها الرئيسة التي تجعل منها أنموذجا امثل للهجات تلك الشعوب التي تنتمي إلى الأصل اللغوي نفسه.

ـ ولكن، لماذا العربية بالذات؟

ـ إذا هل تريد أن نطلق عليها الآمورية أو الآرامية أو الكنعانية؟ أين هي تلك اللغات الآن؟! أليست العربية هي اللغة الكاملة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة حتى الآن؟. إن الذي يؤلمني حقا يا رمزي ليس هو موقف الغربيين، بل انقياد مثقفينا الأعمى لهم، حتى تجرءوا على استعارة المصطلحات التي فرضوها علينا!!! أنا اعرف بان هناك جهودا محمودة من قبل بعض الشرفاء، وقد لاحظت مثلا تلك المحاولات الخجول لإحلال مصطلح "جزري" نسبة إلى الجزيرة، محل "سامي"، ولكن كم من العرب يدركون مدلول هذا المصطلح؟! يجب أن نعرف بان مصطلح السامية الكريه، بمدلولاته طبعا، لن ينزاح عنا إلا إذا ما اتفق العرب كلهم على مصطلح بديل. أفلا يكفي كل ما ذكرت مبررا لإطلاق ما يتفق عليه العرب أنفسهم على أصلهم؟ أم انك يا رمزي تريد أن تغض النظر عن هذه المغالطة التاريخية الكبرى لمجرد إنها استعيرت من كتاب التاريخ الأكبر، التوراة؟!.

ـ ولكني في الحقيقة لا أريد أن أدافع عن التوراة! فأنا اكره اليهود أيضا،

ـ عجيب!!! تدافع عن أطروحاتهم وأنت تكرههم ! وأنا لا اكرههم، ولكني أتمنى دحض كل ما أدعوه طوال تاريخهم!!! نعم يا رمزي، أنا لا اكرههم، ولكني اكره الصهيونية التي اعتمدت في

قيامها على ما ورد في التوراة من مغالطات وأساطير، وما محاولتي تفنيد معظم ما ورد فيها، إلا لإثبات إن هذه الإيديولوجية العنصرية لا م سوغ لوجودها، لان تعدد الأخطاء المقصودة في فكرة ما أو كتاب، يسقط بالضرورة بقية الاطروحات لان تكون بالقصد قد فقدت مصداقيتها، وبدون مصداقية لا تقوم لإيديولوجيا قائمة، إلا بالكذب والقسر والخداع!. وأنا لا أخفيك بان لدي الكثير مما يمكن أن يقال عن هذا الكتاب، ولكني اشعر باني سأبتعد بانشغالي به، عن التاريخ الذي أردت أن أتحدث معك عنه، ولكني فقط أريدك أن تعرف بان نوحا هو أبو البشر الثاني بعد ادم، فهل تعرف كيف تصوره التوراة؟!.

ـ كلا، لأني لم اقرأها بالتفصيل!

ـ إنها تصوره يعاقر الخمر ويسكر فيتعرى ليكشف عورته أمام ولده!

ـ غير معقول!!!

ـ بل هذا هو ما موجود في سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الآية الحادية والعشرون! ولكن إذا عرف السبب بطل العجب، إن مؤلفي هذا السفر لم يلفقوا هذا، إلا لت سويغ الظلم الذي أنزله أسلافهم بالكنعانيين سكان فلسطين الأص ليين، على أساس إن نوحا قد لعن كنعان، و أمر بان يكون عبدا وذريته، عبدا لأبناء سام ويافث!!! والعجيب في الأمر، إن الذي رأى عورة نوح، هو حام كما تقول التوراة، وليس كنعان، ابنه!!! فنفوا كنعان بذلك من حضيرة الساميين! وهم ينتمون إليهم! في الوقت نفسه الذي سوغوا فيه الظلم الذي حاق بهم!!! فهل رأيت ذرائعية أحقر من هذه؟!!! لا يا صديقي، لن يرض ى عاقل بما تقوله التوراة إذا ما قرأها بعناية، خذ مثلا عمر البشرية، فهو حسب ادعائها لا يتعدى الستة آلاف سنة بكل الأحوال، وذلك من خلال حساب سنوات عمر آدم ونسله من بعده حتى الوقت الحاضر!!! ستة آلاف سنة!!! والآثاريون يتحدثون عن ظهور السيراميك في ذلك الوقت تقريبا!!! فمن الذي كان يصنعه؟ أهم القرود أم الذئاب؟! أما الطوفان فانه حدث في القرن الثالث والعشرين، عجبا!!! أليس صحيحا إن كل البشر قد اجتاحهم ذلك الطوفان ولم ينج منهم سوى ثمانية، هم نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجاتهم؟ فمن أين جاء الأكديون والسومريون المعاصرون لتلك الحقبة؟ ولماذا لم تنقرض سلالة الفراعنة السادسة التي كانت موجودة في ذلك الوقت؟!. وبعيدا عن هذا وذاك، أنا لا اعرف كيف أصبح عدد البشر اكثر من ستة مليارات نسمه هم تعداد العالم الآن تقريبا، بعد ما كانوا قبل أربعة آلاف وخمسمائة سنة، أربعة أزواج فقط؟!!!. إن مغالطات التوراة كثيرة ، ولعل ابسطها هو ذكرها لأور الكلدانيين وهي تتحدث عن إبراهيم الذي عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، والكلدانيون كما هو المعروف لم يكن لهم وجود قبل القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد!!! أنا أعجب لحال هذا الغرب المتبجح بعقلانيته! كيف يسلم قياده لليهود ليجروه في غياهب المكر

والخداع؟ تصور، إن البابا الكاثوليكي الذي احترمه لما يمثله بالنسبة إلى الغالبية من المسيحيين، يتجرأ فيعتذر عن ذنب لم يقترفه هو! باعتذاره لليهود عن المحرقة التي أقيمت لهم في السابق!!! فهل اعتذر اليهود الذين حكموا على السيد المسيح بالموت كما يقول الإنجيل؟! وهل اظهر أحفاد قيافا ندمهم لأنهم بصقوا في وجهه الكريم؟!.

ـ عجبا! ها أنتذا تتحدث عن اليهود بحقد، وأنت تدّعي بأنك لا تكرههم!!!.

ـ لقد قلت باني لا اكرههم ولم اقل باني أحبهم، وليس ذنبي إن كانوا هم الذين سنّوا السنن السيئة طوال تاريخهم، ثم اسلموا قيادتهم لأبشع حركة عنصرية لكي تتحدث باسمهم في عصرنا الراهن! أنا لا أنكر وجود الشرفاء فيهم، ولكن حكماؤهم كانوا طوال حياتهم السوسة التي نخرت في أبدان المدنيات المتتالية، و أزالتها من الوجود! فمتى يقول لهم العالم، كفى؟!

ـ ولكن! لا يمكن أن يكونوا هم السبب الوحيد لانهيار الحضارات!!!

ـ بنتبه يا رمزي لما أقول، و أصغ لكلماتي جيدا، فأنا قلت مدنيات، ولم اقل حضارات!

ـ وهل هناك اختلاف؟!

ـ كل الاختلاف، لان الحضارة هي الصيرورة، والمدنية هي النهاية.

ـ لم افهم؟!

ـ حسنا، دعني اضرب لك مثلا، إن الإنسان حين يولد ويبدأ في النمو جسديا وفكريا، يكون في طور الصيرورة، وهو ما يقابل مرحلة الحضارة من عمر الأمم، ولكنه ما أن ينضج عندما يتجاوز الأربعين، يكتشف بأن جسده قد بدأ مرحلة الشيخوخة والانحدار بعدما كان قد توقف عن النمو منذ زمن بعيد!، وهكذا نرى بأنه كلما ازداد خبرة ونضجا يزداد اقترابا من موته الحتمي، وهذه هي مرحلة المدنية التي هي نتيجة للحضارة ولكنها ليست هي، لأنها نتيجة والنتائج تلد ميتة، أما الحضارة، فهي حية لا تموت، لأنها صيرورة مستمرة. إن بعض المفكرين يتكلمون عن ولادة الحضارات وموتها، وأنا أؤمن بان الحضارة لا تموت، لأنها كالبدوي الذي يتنقل في أنحاء صحراء مجدبة بحثا عن واحات واعدة، فيحلّ فيها، حتى إذا ما انتهى موسم الخير فيها، شدّ الرحال إلى مكان آخر.

ـ ولكني كنت أتصور بان المدنية هي نفسها الحضارة!

ـ بل هي آخر مراحلها التي يكون من بعدها الانحدار. المدنية تموت، والحضارة تنمو لأنها محصلة الفعل الحضاري للإنسانية جمعاء. إن الفنان عندما يرسم فانه يعيش حالة الخلق و الإبداع قبل أن تكتمل اللوحة، أما بعد أن يقرر الفنان أن يتوقف عن إضافة اللمسات إلى لوحته، فانه سيتمعن فيها مدة قبل أن يذهب ليخوض تجربة المعاناة اللذيذة مع لوحة أخرى، إن الحضارة هي عملية الخلق والإبداع، والمدنية هي اكتمال اللوحة، الحضارة هي النزوع إلى أن

نكون، والمدنية هي ما نحن عليه، الحضارة هي النضال من اجل الرقي، والمدنية هي فترة جني بعض الثمار، بل إن الحضارة هي الأخلاق، والمدنية هي مفاهيم الشبع ومحاولات الاكتفاء الفاشلة! إن الحضارة يا رمزي خالدة لا تموت، والمدنية آيلة إلى زوال.

ـ ولكن ماذا عن صراع الحضارات؟

ـ إن الحضارات لا تصطرع، لأنه لا وجود لحضارات بل هي حضارة أرضية واحدة تدلي فيها الشعوب بدلائها بمواقيت معينة، فتسمها بسمتها الخاصة، ثم تكتفي بالمدنية التي تنالها منها وتضيّع بعدها درب الحضارة، وما يسمونه بصراع الحضارات إنما هو صراع المدنيات والحقيقة هي إن المدنية التي تغادرها الحضارة يكون أوان زوالها قد حان على يد مدنية أخرى أحدث. إن هذا الصراع دائمي لان الدول التي هي ابرز سمات المدنية إنما هي من صنع الإنسان، وهو كان عدوانيا دائما! ولهذا تكون هي أيضا عدوانية! إن المجتمعات البشرية هي الأنا العليا الجمعية لأفرادها المكبلين أيضا بأناهم الخاصة، أما الحضارة فإنها أنا إلهية لا وجود فيها للفروقات بين البشر، هي نسغ يتصاعد في عروق شعوب معينة فيجعلها تتسامى إلى ذرى ترفع فيها راية الحضارة عاليا، ولتقود الشعوب الأخرى حتى تصاب بسرطان المدنية وتبدأ بالانحدار. يتحدث الكثيرون عن التاريخ الذي يعيد نفسه، وأنا أرى بان هذا منطق غريب! لأنه ما أعاد نفسه يوما، فكل حادثة فيه أسيرة ظروفها الخاصة، من توقيت وأشخاص ومصادفات لا يمكن أن تتكرر أبدا، بالترتيب نفسه.

ـ ولكن، لك في الشعوب التي زارتها الحضارة كما تقول مثلا، ألا ترى أنها تشترك جميعا في إنها عجزت فيما بعد عن اللحاق بركب الحضارة المتقدم؟ أليس هذا دليلا على أن التاريخ يعيد نفسه؟.

ـ لا تقاطعني يا رمزي، لان الموضوع الذي أتكلم الآن فيه صعب جدا حتى من دون مقاطعات، أما معها فان الاستمرار فيه يمسي مستحيلا، ولكن لا بأس، لأجب عن تساؤلك أولا، لا يا رمزي، فهذا ليس دليلا على إعادة التاريخ لنفسه. لان الذي يحدث في هذه الحالة هو أن الشعوب التي تزورها الحضارة وتسمو بها، تفقد بمرور الزمن المميزات التي جعلتها جديرة بحمل لواء الحضارة، لان أفرادها يتحولون بالمدنية إلى أناس مرفهين يحاولون الحفاظ على مكتسباتهم بعدما كانوا رجالا أشداء يتميزون بجلدهم وقدرتهم على تحمل المصاعب والصبر عليها، والحضارة تعتمد على القوة والذكاء والرغبة في التطور، وهذه الصفات تتآكل مع استمرار تحول الشعب من مرحلة الصيرورة الحضارية إلى المدنية التي تصير، فيحل مع الرفاهية والتمدن، الخواء والضعف، ولاحظ إن موت المدنيات إنما هو سنة كونية. وما يحدث بعد ذلك لتلك الشعوب من تعلق بماض زاهر لا يتلاءم مع واقعهم المزري، إنما هو بسبب إن تلك

الشعوب لم تقرأ التاريخ كما يجب، أو بالأحرى لأنها لم تستشف، بل حاولت أن تستنطق، وهيهات أن تستطيع ذلك. إن الخطأ هنا هو خطأ الإنسان، وليس خطأ التاريخ. ومع ذلك فانك لو كنت قد قرأت التاريخ كما يجب لعرفت بان هناك شعوبا سارت في ركب الحضارة أكثر من مرة ومنها شعبنا الذي ازدهرت الحضارة في مرابعه مرارا، وحتى الغرب فان الثوب الحضاري الذي ارتداه ابتدأ نسجه من فجر عصر نهضته الذي ابتدأ في إيطاليا حيث أشرقت شمس الحضارة بوجهها الروماني قبل ذلك بقرون عدة. إن جذوة الحضارة لا يمكن أن تخمد، والشعوب التي تمتلكها يوما ستبقى محتفظة بها إلى الأبد، ولكنها يجب أن تتبين دروبها جيدا لكي تستطيع إيقادها مرة أخرى.

ـ أيعني هذا بأنك ترى أننا يمكن أن نكون مركز شعاع حضاري مرة أخرى؟!

ـ بكل تأكيد، ولكن بشرط أن نكون مبتكرين لا مقلدين، وقادة لا تابعين، ويجب أن نعرف بأنه دون الحضارة، طريق المصاعب والمشاق، لان دروبها ليست مفروشة بالورد، وهي تهب نفسها لمن يأخذها عنوة، ومن دون حساب لخسائر أو تضحيات، ويجب أن نعرف بان هذا الطريق سيجعلنا نواجه أزمة العصر العظمى، بكل تأكيد.

ـ وما هي هذه الأزمة العظمى؟!!!

ـ أنت تعرف بأننا نعيش في عصر هو غير عصر النهضة أو الثورة الصناعية أو غيرهما من العصور، لأننا نعيش الآن في ظل هيمنة المدنية الغربية التي سادت العالم الذي أمسى دويلة صغيرة، بعدما تضاءلت المسافات فيه بسبب التقدم العلمي، ونحن نعيش على عتبة الألف الثالث للميلاد. إن الحق الذي يجب أن يقال هو أننا مدينون بهذا التقدم، للعلوم التي طورها الغرب، ولكن هذا لن يمنع عن مدنيته مصيرها المحتوم، ومع ذلك فان الغربيين يصرون على فرض أنموذجهم على بقية الشعوب لكي يقطعوا نسغ الحضارة الحقّة عنهم ! حتى باتت مسألة رفع شعب آخر للواء الحضارة، أمرا بالغ الصعوبة، وهذا هو أزمة العصر الصغرى، أما الكبرى

ـ ولكن! كيف تقول بان ولادة حضارة أخرى، أمر مستبعد، وهناك أمثلة حية على إن الحضارة قد بدأت تفعل فعلها في بقاع بعيدة عن عالم الغرب؟

ـ اعطني مثلا لما تقول يا صديقي الذي يأبى إلا أن يقاطعني.

ـ لتكن اليابان هي المثل.

ـ أنا يا رمزي في الحقيقة، واحد من اشد المعجبين بالشعب الياباني ومدنيته، ولكنه لن يستطيع أن يرفع لواء الحضارة لأنه ليس مبتكرا بل هو مقلد، وحتى إن وصل بتقليده إلى حدود الإعجاز فان هذا لا يهم. ثم إن ما موجود في اليابان الآن هو نموذج لمدنية غربية، وان كانت بنكهة يابانية، ومثل هذا لن يولد طريقا حضاريا، لان الحضارة هي التي تولد المدنيات وليس العكس،

ولكن فقط لاحظ بان كلامي هنا هو كلام نظري بحت، لأني لم أزر اليابان يوما، ولا اعرف عنها القدر الكافي من المعلومات، وأنا اشعر، مجرد شعور، بان كلامي صحيح. أما إذا أردت أن تصر على مناقضتي، فتورد الصين مثلا آخر، فسأقول لك بأنها تعتمد على الأنموذج الغربي في نهضتها هي أيضا، ثم من أين للصين الزخم المطلوب؟ فهي كانت لها سمات حضارية في الماضي ولكنها لم تتعدّ الجانب الأخلاقي والتربوي.

ـ ها قد بدأت تتحدث عن الزخم والتعجيل! فهل ستحولها إلى محاضرة في الفيزياء؟

ضحك لممازحتي ولكنه قال بكل جد:

ـ كلا والله، ولكنك يجب أن تعرف بان الحضارة فعل حيوي وهي تتمتع بكافة مواصفات الكائن الحي. وحيوية الشعوب السائرة في دروب الحضارة هي التي تحدد زخم تأثيرها على الفعل الحضاري وإمتداداته قبل أن يختفي في مهاوي المدنية، ولك مثلا في الاختلاف بين الأنموذج الغربي و أنموذج الشعوب العربية، ولا تنس باني استخدم كلمة العربية هنا كبديل للسامية.

فالغرب بدأ نهضته في القرن الثاني عشر للميلاد فيما كانت ثورته الصناعية في القرن التاسع عشر، أما الشعوب العربية سواء كانوا آموريين أو بابليين أو اشوريين أو حتى العرب أنفسهم بعد ظهور الإسلام، فإنهم كانوا يندفعون كالإعصار ليسودوا عصورهم، ولكن نيرانهم المتأججة سرعان ما تخبو.

ـ ولكن! الدولة الإسلامية استمرت قروناً طوالا!

ـ إنها المدنية التي استمرت، ولكن روح الحضارة خبت، لان زخم الاندفاع العربي هائل، ومثل هذا الزخم كفيل بإحراق الوقود المحرك بأسرع زمن، وهذا متأت من طبيعتهم التي اكتسبوها من مقارعتهم أهوال الصحارى التي أتوا منها، وهي طبيعة تناقض طبيعة أهل الشمال الذين سادوا الغرب وبنوا أنموذجه الحضاري.

ـ ولكن الإسلام ما زال موجودا!!!

ـ وسيبقى إلى الأبد أيضا، لأنه عقيدة ودين. يا رمزي، أرجوك لا تتعبني ولا تخلط علي الأمور، فقد قلت لك بأنه موضوع شائك، وأنت أجبرتني على الكلام، ولم يعد بإمكاني أن أتوقف. ثم انك قلت بأنك آت لكي تصغي، فهلاّ سكتّ. لقد جعلتني أنسى بيان أزمة عصرنا العظمى، بعدما ذكرت الصغرى!. إن التطور الهائل وللأسف، يعني فيما يعنيه أسلحة دمار شامل يمكن أن تفني الحياة على الأرض، وهذا يعني بان الغرب يمتلك الآن مصير الحياة على هذا الكوكب، بأسلحته النووية! فإذا ما ظهرت بوادر نموذج حضاري جديد يوما ما، في أية بقعة من بقاع العالم، يمكن أن يهدد بسحب البساط من تحت أقدام المدنية الغربية المسيطرة، فكيف سيكون شكل ردة فعل الغرب؟! أسينسحب كفارس نبيل رأى بان أوان انسحابه من ميادين المبارزة قد أزف؟ والغرب

كما تعرف له قوانين الفروسية الخاصة به! أم انه سيلتزم الأنموذج الشمشوني، التوراتي؟ فيقرر أن ينتحر، ويسحب معه العالم إلى قدر مشؤوم ، لأنه لا يستطيع أن يرى غير نفسه، قائدا للعالم!!! إن البحث عن جواب لهذا التساؤل المرعب، هو أزمة العصر العظمى في نظري، وهي محنة التاريخ أيضا، لأنه سيتغير اعتبارا من الآن بكل تأكيد، بالنسبة للظروف القادمة، هذا إذا كان هناك مزيد منها للبشرية؟!!!. ولكي أكون أكثر صراحة، أعترف لك بأني أشعر بتشاؤم كبير عندما أفكر بمستقبل العالم في ظل إنفراد الغرب، أو بالأحرى أمريكا، بقيادته.

ـ وهل يعني هذا بأنك تقترح ضمنا أن نرضى بقدرنا، ولا نحاول التقدم خوفا من الفناء؟!!!

ـ يا للمسكين! هل تتصور بان الخنوع سوف يفيدنا؟ لا والله، إن المأزق الذي نحن فيه، لن يزداد إلا سوءا ما دمنا لا نمتلك مصائرنا. أنا اعرف بان الغرب، لاحظ باني اقصد بالغرب هنا، سياسييه وحكوماته لان الأمر لو كان منوطا بالشعوب، لما وصل إلى هذا السوء، المهم هو أن الغرب لن يشعر بالتهديد الحقيقي إلا إذا رأى بوادر النهضة الحقيقية تلوح في أفقنا، فهذا هو ما يعتبره خطرا عظيما!!! ولكن الحقيقة هي أني أرى أن الموت والفناء أهون عندي من الذل الذي اشعر به بسبب بؤس الحال الذي وصلنا إليه، لقد فقدنا نحن فرصتنا التي فرّط بها من سبقونا، ولكننا مسؤولون عن فرصة الأجيال القادمة التي يجب أن نرسي دعائمها منذ الآن!

ـ ولكن! ألا تلاحظ بأنك أخذت تبتعد كثيرا بحديثك، عن التاريخ؟!

ـ بل إن ما أقوله الآن هو صلب اهتمام التاريخ الحقيقي، لأنه لا معنى لتاريخ لا يبين لنا سبلنا في الوقت الراهن ويجعلنا نعد قوانا للمستقبل.

وسكت لحظات، ثم قال:

ـ قل لي، هل تعرف لماذا قامت الحرب العالمية الأولى؟ أو بالأحرى، ما هي الشرارة الأولى التي قيل إنها كانت السبب في اندلاعها!.

ـ وأي سؤال هذا؟ بالطبع اعرف، هو مقتل الأرشيدوق النمساوي في سراييفو!.

ـ وتصدق ذلك؟! أهذا معقول؟! هل يفترض بي أن اصدق مثل هذا الادعاء الفارغ؟! مثلما يجب أن اصدق بان الحلفاء أعلنوا الحرب على هتلر لأنه احتل جيكوسلوفاكيا؟! هكذا لمجرد إنهم إنسانيون، ولا يستطيعون ان يقفوا مكتوفي الأيدي عندما يرون ان حرية غيرهم تستلب؟! لا يا صديقي، هذا ليس تاريخا، بل هو بيانات رسمية كاذبة صدرت عن حكومات يهمها أن لا تعرف شعوبها البواعث الحقيقية للحروب التي التهمت نيرانها الظالمة، أبناءهم.

ـ ولكني اعرف هذا جيدا، وما كان جوابي إلا على قدر السؤال!.

باغتته الحدة التي بدت في نبرات صوتي فقال:

ـ عذرا يا رمزي، أنا اشتطّ أحيانا عندما تغمرني الانفعالات عند البوح ببعض ما يعتمل في صدري.

ـ وأنا أيضا، يحدث لي هذا، فلا بأس، ولكن الذي يحيرني فيما قلت، هو الإنسان، لماذا يجب أن يكون على هذا القدر من القسوة وقلة الإنسانية؟!

ـ لأنه أناني، وأنانيته هذه تجعله يتنافس مع الآخرين لأنه لا يتصورهم إلا منافسين، هو خائف طوال الوقت على أناه العزيزة، فتأخذه حمى التنافس حتى يتعدى حدود إنسانيته بدون أن يعي! أنا في الحقيقة لا أريد أن أدينه، ولكني أتمنى لو استطاع أن يتمهل قليلا قبل أن يطغى.

ـ ولكن! لماذا يجب أن يطغى؟!

ـ لأنه خائف.

ـ عجيب! ومم هو خائف؟!

ـ وهل يكون خوفه إلا من الموت؟ فهذا الخوف هو الذي يدفعه إلى الإفراط في الأمل، لكي يتناسى خوفه، فيتصور بان هذا الكون الفسيح لم يخلق إلا من اجله!!! ولكنه لو كان يدرك حقيقة ضآلته لعرف إن غروره هذا فارغ ولا معنى له، ولكنه يأبى إلا أن ينسب نفسه إلى الآلهة، وما هو منها! لأنه فانٍ، فانٍ مهما فعل، ولكنه يرفض هذه الفكرة بإصرار، رغم انه يزداد إحساسا بها كلما تقدمت به السن فيفقده هذا توازنه، ومع وجود الأنانية المتأصلة فيه، يصبح الطريق مفتوحا أمام التطرف والطغيان.

ـ ولكنك أنت إنسان! أفلا تخاف الموت؟!

ـ أخافه، ولكن لجزعي على الآخرين الذين أحبهم، فهو عندما يصيبهم، يعني عندي الفراق، أما عن نفسي، فإني اشعر به وكأنه جزء من الحياة. أو هذا في الأقل ما أحاول أن اقنع نفسي به.

ـ ولكني لا افهم كيف يمكن أن يكون الموت، جزءا من الحياة؟!

ـ هذا لأنك تعتقد بأنه نهاية لها.

ـ أو ليس هو كذلك؟!

ـ كلا، لان الحياة على وجه البسيطة لن تنتهي بموتك.

ـ ولكنها ستكون كذلك بالنسبة لي!!!

ـ يا رمزي، يا رمزي، إن الخالق عندما خلق الجنس البشري لم يفكر بمصير الأفراد فقط، بل اهتم بمصير الجنس كله، فهيأ له دروبه في الحياة، وهذا هو المهم، أما الأفراد فان لهم أدوارا يؤدونها، ولكنها ليست مسرحية، لأننا نمتلك خلالها كل إرادتنا وعقولنا، وإذا ما قدّر الخالق أن تنتهي حياتنا بالموت، فيجب أن نؤمن بان إرادته خير، لأننا نعرف انه رحيم. ولكننا نعرف، ولا

نؤمن، وهذه هي مأساتنا!. مسكين هذا الإنسان فهو ضحية العيش في ظل ثنائية التوق والخوف المضنية.

ـ من أين أتيت الآن بالتوق؟! و ما هو؟!

ـ انه التوق إلى المعرفة، وارتياد المزيد من الآفاق، هو وقود الطموح الذي يولد في داخل الإنسان ويدفعه إلى محاولة بلوغ الخلود المستحيل، هو الشعور بالطاقات الكامنة ومحاولة التعبير عنها من خلال بلورة الأهداف التي يضعها نصب عينه، ويحاول أن يحققها، وعندما يصبح اقرب ما يمكن من ذلك، يفاجأ بالموت يتربص به!. ولكن هذه الأهداف كما تعرف، ليست مثالية، فيحاول هو أن يجعلها تبدو كذلك في عيون الآخرين، فيعاني كثيرا بسبب ذلك، وعندما يخفق في تحقيق جميع أهدافه، تتحول الأهداف المحبطة إلى هواجس تقضّ مضجعه وتحرمه لذيذ العيش.

ـ فهل تريد منه إذا، أن يعيش بلا أهداف؟!

ـ بل يعيشها بأهداف، ولكنها يجب أن لا تكون أكثر من وسيلة لتحقيق إنسانيته، أو حتى أنانيته، إذا ما أراد ذلك، ولكنها يجب أن تبقى وسيلة فقط، أما إذا تحولت إلى غاية، فانه سيضل سبيله بكل تأكيد.

ـ ولكنك تقول أهداف. ثم تقول وسيلة!!! أليست الأهداف غاية؟

ـ نعم، وقد قلت أن يحقق إنسانيته بها، وهذه غاية، ولكن الغاية الحقيقية هي مصلحة الإنسانية، وأنت تعرف إن أنانية الإنسان تجعله يتناقض بأهدافه، معها، ولذلك يجب أن يحول الإنسان العاقل أهدافه إلى وسيلة للوصول إلى الغاية الحقيقية.

سكت فجأة وبدا عليه وجوم التفكير. ثم قال بعد حين:

ـ أتدرى، كان من ابرز مآخذي على الفلاسفة المثاليين، هو خياليتهم، واستحالة تطبيق حلولهم. وها أنا ذا أتكلم أخيرا مثلهم، وهم والله على حق، هم خياليون وحالمون ولكنهم على حق، ولا حلول ناجعة، إلا هذه الحلول الخيالية.

ـ فكيف ترى أن يعيش الإنسان حياته؟!

ـ يا رمزي، أنا لم اقل أني اعرف، بل أنا أحاول، فكيف أدلك على ما أجهله؟! وحتى إذا ما عرفت، فليس من حقي أن افرضه على الآخرين، لان ما اكتشفه هو صالح لي، ولكن هذا لا يجعله كذلك بالنسبة لهم، واه لو تعرف كم احترم عقول الفلاسفة الكبار، ولكني أعجب لوقوعهم في مثل هذا الخطأ، اقصد محاولة فرض ما يرونه على الآخرين! ولا اعرف كيف فاتهم ان يعرفوا بان ما نادى كل واحد منهم به إنما هو جزء من الحقيقة، وليس الحقيقة كلها؟! كيف نسوا

وهم في غمرة التطور الفكري الخلاق، حقيقة إن الأفكار العظيمة لا تتنافس، بل تتكامل، وبتكاملها يقترب الإنسان أكثر من الحقيقة، التي هي في النهاية ليست نتاجات عقل الإنسان فقط.

ـ ولكني أراك تنتقد فلاسفة عظماء استحقوا مكانتهم! فكيف تكون متأكدا من صحة ما تقول؟!

ـ أولا، أنا لست بمتأكد، وثانيا، أنا لا أنكر عبقريتهم وصحة ما استنتجوه، ولكن الأهم من هذا وذاك، الآن، هو إن الإنسان يولد وفيه شيء من اسمه، فأين هو إرثك من اسمك، يا أيها الرجل الطيب؟

ـ ولكنه مجرد اسم! فعن أي ارث تتكلم؟

ـ عن الرموز يا رمزي، الرموز، فهي التي توصلنا إلى الاستنتاجات الصحيحة التي هي درب الحقيقة، هل تصورت بأنك ستعرف االحقيقة بالركض وراء التفاصيل؟ لا يا صديقي والفلاسفة هم خير من أدرك أهمية الرموز، وبها انشغلوا، أما ما لاحظته أنا، فهو أشبه بما يمكن أن يغيب عن بال اللاعبين المنغمسين في توترات اللعبة التي يمارسونها، ويراه المتفرج!، أنا أرى إن الإنسان لا يمكن أن يفسر كل الأشياء، انطلاقا من وجهة نظر تستند إلى فكرة محددة.

ـ ولكني أتصور إن الفلاسفة أرادوا أن يسهلوا الأمر على الناس، عندما فعلوا ذلك!

ـ وأنا لا شك عندي في هذا، ولكنهم فشلوا، لأنه غير ممكن، بل يجب أن يكون هناك أكثر من وجهة نظر تضئ دروب المرء.

ـ عجيب! ألا يبدو ما تقول وكأنه تشجيع للآخرين على الانتقائية الضارة؟!

ـ يا رمزي، أنا أتحدث هنا عن الإنسان عندما يريد أن يعرف الحقيقة، لا عن محاولته تفسير ما يؤمن به للآخرين، فالأمر كله يتعلق بالنية أولا، ومن ثم العقل، ولا تنسى إن المؤمنين يسمعون القول ويتبعون أحسنه.

سكت لوهلة قبل أن يقول:

ـ انظر إلى أين أوصلتنا بمداخلاتك، أتدري؟ نحن نفسح المجال للأحاديث لكي تقودنا إلى حيث تريد هي، والأجدر بنا أن نقودها نحن، إلى حيث نشاء، وهذه واحدة من ابرز نقاط ضعفنا، لان نقاشاتنا لن تثمر يوما ما دامت تجري بهذه الطريقة، فهلا تتركني أكمل ما أريد أن أقول، قبل الانتقال إلى موضوع آخر

فقلت ضاحكا:

ـ ولكنك تبدو ملهوفا للفرص التي أتيحها لك! فما أن افتح بأسئلتي بابا، حتى تندفع كالسهم في الكلام.

ـ ولذلك قلت نحن، ولم اقل أنت.

ـ صحيح، ولكنك في الحقيقة تثير استغرابي، فمرة تقول إننا يمكن أن نكون سادة للحضارة مرة أخرى، وفي أخرى تستخدم "نحن"، كمرادف للتخلف!

ـ والله أنت على حق في هذا، وأنا اعتذر، ولكنها أخطاؤنا كما قلت، لأننا تعودنا أن نمضي وراء انفعالاتنا في نقاشاتنا، التي بدلا من أن نجعلها وسيلتنا للبحث عن الحقيقة، تأخذنا العزة بالإثم خلالها، ونروح نقاتل بكل الوسائل، دفاعا عن آرا ئنا، لمجرد أنها آرا ئنا!!! وعلى كل حال أنا اقصد بنحن، نحن جميعا بدون تحديد، أما عندما أتكلم عن الحضارة، فان المقصود بها هي النخبة بالتحديد، لأنها هي التي تقود الشعوب في دروب الحضارة، فالنخبة هي التي تسم الشعوب بسماتها، فان كانت جديرة، فإنها تصل بها إلى ذرى المجد، أما إذا خذلتها بسبب عدم جدارتها، فإنها تهوي بها إلى الحضيض، لأنه بغياب دورها، يطبع الرعاع الشعب، بطابعهم السوقي، ولكن تنبه، فأنا لا اقصد طبقات بعينها عندما أقول نخبة ورعاع، فكل مثقف واعٍ هو من النخبة، وكل جاهل وسفيه من الرعاع، وللحق أقول إن أزمتنا الحالية هي أزمة نخبتنا التي أضاعت دروبها منذ قرون وتركت المجال للرعاع منا لكي يعيثوا في مجتمعنا فسادا.

ـ ولكن!

قلتها باندفاع ولكني تداركت أمري، وقلت ضاحكا:

ـ عذرا يا حكيم، ولكنه ذنبك، فأنت الذي تجعل الأسئلة تترى في بالي، بحديثك المشوق هذا.

فابتسم لي وقال:

ـ لا بأس، هات ما عندك؟

ـ حسنا، أنا أدرك بأننا نعيش أزمة، واعرف أنها أزمة نخبتنا لأنها هي حادي ركب الحضارة كما تقول، ولكن ألا ترى إن ما يحدث لنا إنما هو بسبب ضغوطات الغرب علينا، أيضا؟.

ـ نعم، يمكن أن يكون الغرب هو أحد الأسباب، ولكن صدقني، أننا لو أردنا أن نتقدم، وامتلكنا الرؤيا والإرادة اللازمتين لذلك، فانه لن يستطيع أن يمنعنا مهما فعل، ولكن العلة في الحقيقة تكمن فينا.

ـ وأنا اشعر بهذا أيضا، ولكن كيف يمكن أن تجزم أنت به، هكذا؟!

ـ لأني آخذ الحس الحضاري كمقياس.

ـ الحس الحضاري؟!

ـ نعم، الحس الحضاري، والرموز التي تعبر عنه، وهي كثيرة جدا، وقبل أن تسألني، سأعطيك مثالا، قل لي أولا، هل تتصور بان اهتمام العرب قبل ظهور الإسلام بلغتهم، كان أمرا اعتباطيا؟

ـ ما الذي تريد أن تصل إليه؟

ـ حتى هذا الذي فعلته أنت للتو، يمكن أن يكون مقياسا للحس الحضاري الذي اختفى، أو يكاد، عندنا!!! فمالكم عندما تُسألون، تجيبون بأسئلة؟! اجب أولا يا أخي، ثم اسأل ما بدا لك.
جعلتني ملاحظته الأخيرة اشعر بالخجل الشديد لأنه كان محقا فيها! ولكنه لم يدعني استسلم لخجلي لأنه تابع قائلا:
ـ إن الإسلام يا رمزي قد فجر طاقات العرب الخلاقة، وجعلهم يرتقون سلم الحضارة باندفاع هائل، ولكن، هل كان هو السبب الوحيد لهذا الاندفاع ؟ كلا بالطبع، لأنهم لو لم يكونوا مهيئين لذلك، لما كان قد أفادهم في هذا المجال كثيرا، وأنا أعجب لمن يهوّن من شأن العرب عندما كانوا في جاهليتهم، ومهما كانت مبرراته!!! لاحظ يا رمزي إنهم انطلقوا من مهد رواد بناء الحضارة في العالم، وهم ورثة الصفات التي جعلت من سبقوهم يعلم العالم كيف يفكر، ويدوّن ويقرأ! وقد شاءت العناية الإلهية أن يتزامن ظهور الإسلام مع نهايات المخاض الحضاري الطويل الذي عاشوه، لكي يحدث بعدها ما حدث، واهتمامهم بلغتهم إلى الحد الذي جعلها الأنموذج الأمثل للعلاقة بين الدال والمدلول في اللغات الحية، لهو اكبر دليل على امتلاكهم الحس الحضاري. لو كنت يا رمزي قد قرأت التاريخ بانتباه، لأدركت إن كل الشعوب التي كانت لها اسهامات في بناء الحضارة الإنسانية، كانت لها لغات تعبر عن مقتضيات التقدم وضروراته بيسر وبشكل يقرب من حدود الكمال، وكان هذا هو حال اللغات السومرية والأكدية والمصرية القديمة والإغريقية واللاتينية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة، إلى جانب اللغة العربية بالطبع، فهل ترى الغربة التي نعيشها اليوم في علاقتنا بهذه اللغة العظيمة؟

ـ أتقصد بأننا إذا أردنا أن نرتاد سبل الحضارة مرة أخرى، يجب علينا العودة إلى لغتنا القديمة؟
ـ وهل يمكننا ذلك؟!!! لا يا صديقي، إن ذلك غير ممكن، لأننا فقدناها عندما ركنّاها جانبا! وهي لم تصل إلى ما وصلت إليه، إلا لأنها كانت مستعملة من قبل الناطقين بها طوال الوقت، لا عند الدرس فقط!!! والأسوأ من ذلك، أننا فقدنا بفقدانها نعمة التواصل فيما بيننا، و أصبحنا غرباء عن بعضنا بسبب اللهجات العجيبة والغريبة التي رحنا نرطن بها!.
ـ ولكننا مع ذلك نستطيع التفاهم بها!
ـ مثلما نستطيع ذلك، باستخدام أية لغة أجنبية! أليس كذلك؟ كلا، أنا لا أريد أن اكذب على نفسي، نحن نعيش في ظل مأزق خطير، وهو سيزداد خطورة ما دامت النخبة ضائعة، وأنصاف المثقفين فينا يلهثون وراء الثقافات الأجنبية!!! فمتى نسترجع لغتنا بكل بريقها، أو في الأقل، نطوّرها، من دون أن نفقد غناها؟ ونعود لاستخدامها في حياتنا اليومية، ومتى تكون لنا ثقافتنا المعاصرة؟ وحتى العلوم.

ـ مهلا يا حكيم! هل تريد أن تقول أن تكون لنا علومنا الخاصة؟ أليست العلوم ملك ا للإنسانية جمعاء؟

ـ هي كذلك بالفعل، ولكن فهم علم ما حق فهمه، والنبوغ فيه، يعتمد على العقل الذي وضع أسسه!. أنا لا يسعني إلا أن اعترف بان العقل الغربي قد أوصل العلم الحديث إلى حدود الإعجاز، ولكن هذا العقل له حدوده أيضا، وهي طريقة تفكيره، وما يمكن أن يدركه بالفعل، وأنت تعرف بان العقل الإنساني بإمكانه أن يصل إلى آفاق قصية، ولكنها ليست أقصى الآفاق، ولذلك لن يصل العقل الغربي بالعلم، إلى أقصى مداه.

ـ لم افهم!

ـ حسنا، ألا يتحدث علماء الغرب عن نظرية موحدة تجمع كل القوانين التي تتحكم بحقائق هذا الكون؟ أنا اشعر بان هذا يمكن أن يكون حقيقة يوما ما، ولكنهم لن يتوصلوا إليها، لأنهم يعتمدون العقل فقط. إن هذه النظرية إذا ما وضعت ستكون هي الأساس لفهم الحقيقة، حقيقة الحياة وحقيقة الكون، وهذه الحقيقة لا تعتمد على العقل الإنساني فقط، لان فيها ما يتجاوز مداركه بكثير، فهناك مثلا إرادة الخالق، فهل استطاعوا يوما أن يتصوروا هذا الخالق؟! وهم الذين لا يؤمنون بوجوده أحيانا!

ـ لا اعرف والله ما يمكن أن أقوله!!!

ـ لا تقل شيئا، بل أنصت، لقد تكلموا أيضا عن الانفجار الكبير الذي كان حدوثه هو بداية تكون هذا الكون الفسيح، وهم يقتربون من اللحظة التي سبقت الانفجار، أو الثانية صفر كما يسمونها، بحدود جزء من ملايين، أو حتى مليارات الأجزاء! ولكنهم لا يجرؤن على التحدث عنها!!! والسبب باعتقادي هو،لأنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا! وتَصور مثل هذه اللحظة، أو في الأقل تصديق وجودها، يحتاج إلى إيمان، وهو ما لا يمتلكونه.

ـ وهل تستطيع أنت، ذلك؟

ـ نعم، وبكل تأكيد، ما دمت أؤمن بوجود الخالق، أتعرف؟ هناك في تاريخ الحضارة الإنسانية تجارب كثيرة، ومنها تجارب الشرق الذي امتلك من الروح ما جعل تجاربه عميقة كل العمق، ولكنها افتقدت إلى العقل المجرد الذي كان يمكن أن يضمن لها جانبها التطبيقي، وعلى النقيض من هذا كانت تجربة الغرب التي اعتمدت على ذلك العقل ففاقت الجميع في التطبيق، ولكنها كانت ما تزال، تفتقد إلى الروح، وقد تنبه الغربيون إلى مأزقهم هذا، حتى قبل نهضتهم الأخيرة، فاستعاروا الروح المسيحية الشرقية رغم ما تعرضت إليه من اضطهاد على أيديهم، قبل ذلك، وبهذا استطاعوا أن يزاوجوا بين تجريدية عقلهم، وعمق تلك الروح وأخلاقياتها العالية، مما

أعطى تجربتهم الحضارية زخما هائلا، ولكنه في النهاية محدود! لأنهم بدلا من أن يصبحوا مسيحيين، جعلوا مسيحيتهم غربية!!!

ـ ولكن عن أي اضطهاد تتكلم؟!

هم بان يقول شيئا على الفور، ولكنه تردد! بدا وكان شيئا قد عنّ لخاطره، فتأنى قليلا قبل أن يقول:

ـ أتدري يا رمزي؟ هذه هي المرة الأولى التي افرح فيها لأنك قاطعتني! لأنك ذكرتني بما أردت قوله قبل هذا، ولكني نسيت! انه ش يء يتعلق بغرابة الإنسان، فالجماهير في كل زمان ومكان كانت تستطيع أن تحب من تشاء، ولكنها لم تحترم أبدا، إلا من تخافه!!! لقد تعرض المسيحيون الأوائل في أوربا إلى ما قد يفوق ما تعرض له المسلمون في إسبانيا بعد سقوط غرناطة!!! ولكن أوربا أصبحت مسيحية بأسرها، بعدما أمر قسطنطين (وبغض النظر عن مراميه الشخصية) ان تكون المسيحية هي ديانة الإمبراطورية الرومانية!!! وبسبب ذلك، أصبحت قارات أمريكا الشمالية والجنوبية واستراليا، كذلك!!! تصور، أربعة قارات من قارات العالم المعاصر السبع اليوم، هي مسيحية بأمر إمبراطور روماني!!! فيما لم يحظ السيد المسيح بعد مكوثه في الأرض، ورغم الآلاف التي كانت تتبعه حيثما ذهب، إلا باثني عشر تلميذا، خانه أحدهم!!!.

بدا وكأنه يبالغ قليلا بما كان يقول، ولكني لم أكن أستطيع أن أناقشه لعدم إطلاعي على الموضوع جيدا! ولكنه قال بعد قليل متابعا:

ـ إن تجربتنا يا رمزي تحتل المنطقة الوسط بين تجربتي الشرق والغرب، ومن يدري؟ لعل موقعنا الوسط بينهم هو الذي جعلها كذلك؟ المهم هو أننا لم نستعر روحا من أحد، لأننا نمتلكها بالفعل، و أرضنا كانت هي مهبط الوحي دائما، وكذلك إن التاريخ يثبت أن سلامة عقلنا، عندما نمتلكه، لا ريب فيها، ولكننا الآن يجب أن نجده أولا!!!

ـ ولكن هناك الكثير من العلماء العرب في عصرنا الحالي!

ـ هذا لأنهم درسوا في الغرب، وتعلموا هناك كيف يفكرون بطريقته! أما العلم الذي أتحدث عنه، فهو الذي ينبع من عقلنا، ويعبر عن روحنا أيضا، وهنا، داخل حدود أراضينا، لان هذا هو الضمان الوحيد لفائدته لنا في ظل الظروف الدولية الراهنة!.

سكت وغاب في نوبة تفكير، فقلت عندما طال سكوته:

ـ أنا والله يا حكيم اشعر بان معظم ما تقوله صحيح، ولكني لم استوعبه كله بعد، ومع ذلك اسمح لي أن أقول باني ما زلت أرى إن رأيك في التاريخ غريب نوعا ما، لأنه ورغم ما تقوله حقق في مجال معرفة أخبار الغابرين، ومآثرهم، الشيء الكثير!.

ـ أنا اعرف هذا، ولكنه يبقى غيضا من فيض ما يجب أن يكتشف، لكي يماط اللثام عن المزيد من الحقيقة، فبغير الحقيقة لن يقوم لعلم مقام. إن التاريخ الحقيقي الذي اعتقده هو نسيج تكون الأحداث فيه هي السداة وتفاصيلها هي اللحمة، فان وافقت اللحمة السداة، بان النسيج محبوكا، وان لم يحصل التوافق، فسيبدو وكأنه قد نسج من خيوط العنكبوت!. إن المؤرخين لم يفوا أحداث التاريخ حقها لأنهم ذكروها من دون اهتمام كبير بالتفاصيل، فبدوا وكأنهم مثمّن يريد أن يعرف قيمة سجادة ثمينة، من خلال فحص خيوطها الممتدة طولا، ومن دون اهتمام بما استعرض من خيوطها!!! إن قراءة التاريخ بهذه الطريقة، هي قراءة قاصرة، ونتائجها بسبب ذلك مضللة بكل تأكيد. كلا لا تحاول أن تقول شيئا، فأنا اعرف بان معظم التفاصيل قد ضاع بعد انتهاء الأحداث التي لم توثق كما يجب، ولكن هذا لا يمنعني من التصريح بان الوصول إلى استنتاجات في ظل غياب نصف الحقيقة أو أكثر، إنما هو أمر غير علمي، لا يليق بغرب قدّس العقل حتى أحاله إلى اله!.

ـ ولكن، ما الذي تريده بالضبط؟!

ـ أنا لا أريد شيئا، بل ارفض فقط ما أراه مضللا، أو غير كامل.

ـ ولكن هذا أفضل من لا شيء بكل تأكيد!

ـ إذا ادرس أنت هذا "العلم" لو شئت، ولكن لا تطلب مني ذلك.

ـ حسنا، حسنا، أنا لن اطلب منك ذلك. ولكن اخبرني، كيف يمكن أن ينسج التاريخ من خيوط العنكبوت؟!

ـ أولا، أنا قلت يبدو انه كذلك ولم اقل ينسج منه، وثانيا هل تعرف كم مضى علينا من وقت ونحن نتحدث؟!

عندها فقط تنبهت على تأخر الوقت، فاعتذرت واستأذنت للذهاب، ولكنه أصر أن يوصلني بسيارته بعد أن عرف بُعد وجهتي.

في البدء ظل صامتا وهو يسوق، فاحترمت صمته لأني تصورت بأنه قد اكتفى بما قاله، أزعجني هذا قليلا، لان عشرات الأسئلة كانت تتقافز في بالي، حاولت أن أتشاغل عنها بمتابعة أضواء السيارات المسرعة، ولكنه قال فجأة:

ـ أتدري ما هو اغرب ما في التاريخ؟ انه إحساسك به وكأن رجلا واحدا يمكن أن يغير وجهته أحيانا!

ـ نعم، فهذا هو قدر الرجال العظماء.

ـ أوه، كلا أنا لم اقصدهم هم، بل قصدت التافهين من الرجال

ـ ماذا؟!
ـ نعم التافهين، لو قلبنا صفحات التاريخ بشكل صحيح، لكان عندنا عشرات الأمثلة، ولكن لا يحضرني منها الآن سوى مثال واحد، فأنت تعرف بان ظهور الإسلام قد غير وجه العالم في حينه والى الأبد، ولكن الموقف العصيب الذي عاناه الإسلام خلال معركة أحد كاد يطوي صفحته في كتاب التاريخ، لولا البسالة المذهلة التي أبداها المسلمون الأوائل دفاعا عن قائدهم. هل تؤمن بهذا؟
ـ بالطبع، ولكن
ـ لا تتعجل واجب فقط عن أسئلتي. إن سبب تحول النصر الذي تحقق في البداية، إلى كابوس كاد يطيح بآمال أولئك الشوس، هو عدم امتثال الرجال الذين كانوا يحمون ظهور المسلمين من على التلة، لأوامر رسولهم، وتركهم لأماكنهم قبل الأوان، الأمر الذي أفسح المجال لخالد وفرسانه أن يلتفوا حول المنتصرين، ومهاجمتهم من الخلف بغتة، فحولوا بذلك نصرهم إلى شبه هزيمة! فهل تتصور بان أولئك الرجال كان قد اتفقوا فيما بينهم على ترك أماكنهم، ونفذوا قرارهم جماعيا؟!
ـ لا اعرف، ولكن ما الذي ترمي إليه؟
ـ لا تسأل، بل اجب، أنا لا ارمي إلى ش يء، بل أحاول أن استثشف الحقائق من خلال التاريخ، وبالمنطق! إنهم لا يمكن أن يكونوا متفقين، ولكن الرجال يختلفون في درجة إيمانهم وبحسب تنزههم عن الأطماع الدنيوية، إن الإيمان يزداد بتناقص الأطماع، والعكس صحيح، هذه قاعدة لا استثناء فيها.
ـ ماذا؟! ولكن لا وجود لمثل هذه القاعدة!!!
ـ ولم لا توجد يا عزيزي ؟
ـ لأن لكل قاعدة شواذا.
ـ حسنا ما دمت مصرا على مقاطعتي وإزعاجي، فدعني أقل لك بان ما قلته أنت للتو هو قاعدة كما تدعي، فان كانت جازمة، تكون هي نفسها البرهان على ما قلته أنا، ولكن القاعدة التي تناقض نفسها لا يمكن أن تكون جازمة! فان كان هناك شواذ لها، فإنها ستكون القواعد التي لا شواذ فيها، وفي الحالتين يكون هناك قاعدة في الأقل، لا استثناء فيها، فهلا أعتقتني لأكمل. المهم إن أولئك الرجال عندما رأوا النصر الذي أحرزه المسلمون، عرفوا بان عملية جمع الغنائم ستبدأ، وهذا يعني بان محنة امتحان النيا ت الحقيقية قد بدأت، الأمر الذي جعلهم في مواقف متباينة، فهم ما بين مبتهج للنصر الذي تحقق، وشاعر بجزع على حصته من الغنائم التي تصور بأنها يمكن أن تضيع لو بقى واقفا على سفح التلة، وبين هذا وذاك بقية القوم على درجات

متفاوتة، فكان لا بد لواحد منهم أن يكون المبادر، فيهرع إلى حيث الغنائم التي سال لها لعابه!!! وهذا هو من كاد أن يغير وجهة التاريخ بتفاهته!!! لان مبادرته كانت هي الفتيل الذي أشعل نار الطمع في أنفس الأقل طمعا منه، وهكذا دواليك حتى اسقط في يد آخر الرجال الذين بقوا في أماكنهم، حتى اختلط الحابل بالنابل، فرأوا أن يهرعوا هم أيضا في النهاية! إن مثل هذا ممكن الحدوث لان بعض الرجال كان إيمانهم لم يكتمل بعد. ألا ترى بان النبي لو كان قد مات في تلك المعركة، لكان أمر الإسلام قد انتهى؟

- ولكن موت النبي كان مستحيلا!

- ولم هو مستحيل؟ وقد كان قاب قوسين أو أدنى، منه!!!

- لان الله كان قد قدر أمرا، ولا راد هناك لأوامره.

- آه، نعم هذا صحيح، وهو ما أردت أن أحدثك به أيضا، إن قارئ التاريخ قد يرى الوهن البادي في نسيجه أحيانا، ولكنه يشعر في أحيان أخرى، وبيقين يكاد يكون راسخا، بان له قوى عظمى تسيّره في الوجهة التي سار بها، وهذا اليقين هو الذي يجعلني اشعر بان ما نحن عليه الآن من وهن وتخاذل، هو الذي أراده الله لنا، لا لكي نرضى به!!! بل لكي نسعى إلى أن نكون أحسن حالا، فهو يقدر الأشياء، ولكنه أعطانا العقل والإرادة التي تجعلنا فاعلين في مسيرة التاريخ، لا مجرد مسيّرين بإرادته الغالبة.

- آه يا حكيم، ما الذي تريد أن تقوله هذه المرة؟

- ولكني لا أريد القول، فقول كل ما أريد، هو أمر صعب جدا، أنا أريد أن أثير الأسئلة لدى من يستمع إلي، لكي نبدأ بالبحث عن الأجوبة.

- آه، أنت تريد نشر ما قلته.

- ولم قد أريد مثل هذا؟

- لكي يستمع الآخرون لك.

- وهل سيصغون؟

- ولم قد لا يفعلون؟

- لان مطربة الحي لا تطرب يا عزيزي.

عندما دخلت البيت في تلك الليلة، كان الوقت متأخرا جدا، ولم أكن قد أخبرت زوجتي باني سأتأخر، ولذلك فرحت جدا لأني ألفيتها نائمة ولم تت ربه لدخولي، وعلى غير عادتها!. فرحت لأني لم اضطر للكذب، وأنا أقدم لها مبررات تأخري المفاجئ!!!. انتم لا تكذبون يا أيها السادة

على زوجاتكم، أليس كذلك؟ لا بأس، ولكن اعذروني لأني لا أستطيع أن ابلغ ما بلغتم من رجولة!!!.

(الهاوية)

تحتدم المشاعر، وتفور الأحاسيس. فتغزوني حيرة، وتمزقني أفكار! يستيقظ بركان خامد في الأعماق، فتلسع حممه الضلوع، التهب ، فأطفئ نيراني، بمياه التأسي، أتداعى، فأحاول أن أتماسك بوحي أسطورة الصبر! ولكن، تعجز كل تعاويذه وطلاسمه، عن مد يد العون لي، فأظل ساعات أسيل مع الأفكار، أعاني من دوامات المشاعر، وتناقضاتها، وانهمر مع شلالات الذكريات، اسقط على صخور الواقع، فتتناثر أحلامي قطرات ضائعة، تسقط على ارض الحقيقة، وتترشح عبر رمال الألم، فتتجمع في أعماقها، أفكارا صافية، رقراقة، ولكنها مليئة بالحزن!.

مرت أيام على آخر حديث بيننا، لم أره خلالها سوى مرتين! لأني كنت أتحاشى لقا ءه قدر الامكان، لم استطع أن استعيد حماستي القديمة، لان الشك في هذه المرة كان يعمل ضده بإصرار، وللحق أقول الآن، بأنه كان يجدر بي أن أكون على يقين من ذنبه، ولكني لم استطع، لان الحيرة كانت تمنعني عن التفكير الصائب!. كان هو قد طلب رؤيتي أكثر من مرة، ولكني كما قلت، كنت أتفادى رؤيته، وساعدني على ذلك انه كان في ذلك الوقت النزيل الوحيد في قسمنا!.

كنت قد خرجت من القسم لتأدية عمل ما في الإدارة، وعندما عدت سمعت صوت صراخ قادم من جهة الزنزانات، تزايدت سرعة نبضاتي، مع تسارع أنفاسي، سألت الحارس الذي صادفته وهو يغادر القسم عما حدث فقال:

ـ انه طموح، فقد رفض التماس الرحمة، وحدد وقت التنفيذ، بعد ثلاثة أيام.

ركضت بدون وعي إلى حيث زنزانته، لم أكن اعرف كيف يمكن أن أتصرف معه، ولكني شعرت فقط باني يجب أن أكون بالقرب منه، عندما وقفت أمام زنزانته، كنت الهث من التعب والانفعال، ولكنه لم يدعني استرد أنفاسي، بل صاح بي حينما رآني قائلا:

ـ هل ارتحت الآن يا وجه النحس؟ سوف أموت بعد ثلاثة أيام، لترتاح أنت.

ارتجّ علي أمري للمفاجأة، ولم اعرف بم أجيبه!!! ولكنه تابع قائلا:

ـ ألا تبا لهذه المأفونة التي أموت أنا فيها، ويبقى أمثالك أحياء.

لم اعلق بشيء! بل تقبلت الإهانة بصمت! ولكني بقيت واقفا في مكاني!!! كنا وحدنا واقفين وجها لوجه، ولا يفصل بيننا إلا القضبان! لان الحراس انسحبوا عندما رأوه يتهجم علي! أدركت

فورا أنهم فعلوا ذلك لكي لا اشعر بالحرج منهم وأنا أواجه بهذا السيل من الشتائم!. أنا لم أكن غاضبا في تلك اللحظات، بل حزينا جدا. كانت كلماته الغاضبة تهدر على لسانه وهو مستمر في هذره الهستيري:

ـ لماذا خذلتني؟ ولماذا توقفت عن تصديقي؟ أكان يجب أن تتذكر حقدك على من هم أفضل منك؟ آه من الحسد وتبا للحقد. وأي غبي كنتُ عندما تصورت بان صعلوك ا مثلك، يمكن أن يحبني، وأنا امثل كل ما لم يحصل عليه طوال حياته الفقيرة؟.

لم أحاول أن أقول شيئا لأني أيقنت بان ذلك لن يزيده إلا إمعانا في مهاجمتي! فبقيت صامتا فيما كان هو يجدّف ويلعن! ويسب ويشتم كل ما قد يخطر له ببال! ولكن حاله تبدل فجأة، وقال ودموعه ما تزال تنهمر:

ـ ولكنك كنت خير صديق لي، فلماذا توقفت عن تصديقي؟ لماذا لم تبذل كل جهودك لمساعدتي؟ فأنا برئ، وسأعدم ظلما.

ثم عاد مرة أخرى إلى حقده المتفجر غضبا:

ـ ألا لعنة الله على كل ش يء، ملعونة هي أمي، فهي كانت السبب، هي، نعم هي، هذه العاهرة التي لم تعرف يوما كيف تكون أما حقيقية. ألا لتحل لعنة الله على ذلك الحقير، أيشنقونني بسببه؟ يشنقوني أنا! بسبب ذلك الطفيلي؟ الحشرة.

صمت فجأة، وراح يدير رأسه من جانب إلى آخر كالمذهول، ولكنه التفت بغتة إلي وقال بتشفٍّ!:

ـ أنا اعرف بم تفكر الآن يا أيها الثعبان، نعم، أنا قتلته، ولكني لم افعل إلا لأنه يستحق ذلك، أنا اكرهه لأنه، لأنه. لم كان يجب أن يكون عنده كل ش يء؟ كان يرافق أحلى الفتيات، ولكنه لم يكتف أبدا، أكان يجب أن،

سكت ولم يكمل جملته الأخيرة! فأدركت بأنه قد أخفى بسكوته المفاجئ، سرا من أسرار بواعثه الحقيقية للقتل! ولكني لم أتفوه بكلمة، بل انتظرت أن يصرح هو بما يريد، بدا بصمته وكأنه قد هدأ قليلا، ولكنه اندفع فجأة إلى الحائط ليضرب جبهته به! لم تكن ضربة قوية، ولكن يبدو إن الألم الذي شعر به، جعله لا يعاود المحاولة! كنت في تلك اللحظات خائفا عليه!!! ولكني لم أشأ أن اتركه وحيدا، وهو على تلك الحالة، واذهب لأطلب المساعدة. فبقيت واقفا في مكاني أتطلع إليه، حتى نظر إلي من خلال دموعه وقال:

ـ يا للأبالسة، ما الذي جعلني أهينك؟ وأنت اعز عندي من عجيل! أنا آسف، آسف جدا.

اندفع نحوي ومد يده من خلال القضبان باتجاهي، كنت بعيدا عن متناول يده، ولكني مددت يدي لألامس أصابع كفه الممدودة، وقلت:

ـ حسنا يا طموح، حاول أن تهدأ لان ما أنت عليه من حال لن يفيدك بشيء.
ـ أهذا يعني بأنك لست غاضبا علي؟ أرجوك لا تغضب، فأنا.
ـ هون عليك يا طموح، فأنا لا أستطيع أن اغضب عليك، اهدأ، وسأستدعى طبيب السجن ليعطيك علاجا يريحك!. وسيكون لنا حديث فيما بعد.
بدا وكأن كلماتي المضطربة هذه كان لها فعل السحر في نفسه، لأنه لم ينبس ببنت شفة بعدها! اغتصبت ابتسامة من بين شفتي المزمومتين، وقدمتها له بخجل! فيما كان هو ما يزال يمسك القضبان بيديه المتشنجتين، وانسحبت.

استدعيت طبيب السجن الذي سارع لتلبية النداء لأنه كان شابا طيبا، وعلاقتي به وثيقة، ولا ادري كيف استطاع أن يقنع طموح بتناول العلاج، لكي ينام بعد ذلك. ولكني عندما ذهبت بعد ساعة للاطمئنان عليه، ألفيته مستيقظا!!! كان جالسا وقد اسند ظهره، يفكر وهو واجم بما لا يعرفه غير الله! وأنا لن أحاول وصف منظره أكثر، لأني لن أستطيع ذلك. عندما وقفت أمامه، أدار وجهه ببطء نحوي، رجفت شفتاه، فاعتقدت بأنها محاولة ابتسام! من قلبه على الأقل! فأومأت له برأسي، ولكني بقيت صامتا. قال بعد قليل بصوت خافت:
ـ الديك لفافة تبغ؟
سحبت لفافة من علبتي، أشعلتها، ورميتها له من بين القضبان، سقطت أمامه بالضبط، فتناولها ووضعها بين شفتيه على الفور، وراح يراقب الدخان المتصاعد، كان خلو وجهه في تلك اللحظات من التعابير! يجعلني اشعر بقسوة، برهبة الموقف، فازددت إصرارا على صمتي، ولكنه بادرني قائلا:
ـ لعلك الآن تتساءل عما حدث في تلك الليلة؟.
لم اعرف عن أي ليلة كان يتحدث بالضبط، فتملكني فضول ولكني قلت:
ـ دعنا من ذلك الآن.
ـ بل دعني أحدثك عن الأمر وانتهي، لعلي ارتاح قبل أن،
وسكت، نظر بعدها باتجاهي، بدا وكأنه ينتظر مني أن أقول شيئا، ولكني لم افعل، لأني كنت منشغلا بدفقات الفضول التي اجتاحتني عندما أدركت انه كان مستعدا للبوح لي، بما لم يبح به لأحد. قال بصوت متمهل ورتيب:
ـ كانت صداقتنا غريبة، فهي من ذلك النوع، أنت تعرف، التي تحتّمها المصلحة! كان هو يمتلك الأموال، وكنت أنا، من يجعل تلك الأموال تتزايد. لقد كنت أجيد الكثير من الأعمال، ولدي اتصالاتي ومعارفي، وكان هو كسولا، لا يجيد غير النوم ومعاقرة الخمر. أنا لا أنكر أنه كان يعطيني أموالا لعقد صفقات لحسابي عندما اطلب منه ذلك، ولكنها كانت مبالغ صغيرة، وانه

كان يسمح لي باستخدام سيارته عندما أريد، ولكن كل هذا لم يكن يوازي ما كنت أقدمه له. كنا قد حولنا بيته الذي كان يسكنه وحده لان أهله متفرقون في بلدان مختلفة، وكانوا هم الذين يرسلون الأموال التي تكدست لديه. حولنا ذلك البيت إلى وكر للقاءاتنا الغرامية، وجلسات السكر، وكل أنواع اللهو التي كانت متيسرة هناك، لعدم وجود الرقيب. كان بخيلا لعينا وطماعا حقيرا، كان متسلطا ويعاملني كتابع له! وكنت أنا احتاج إلى أمواله، ولذلك لم استطع الابتعاد عنه.

كانت ابتسامة يأس ترتسم على شفتيه طوال الوقت الذي تحدث فيه، وكنت أنا اعرف نوبات البوح هذه، لأني كنت قد خبرتها من قبل، ولذلك أيقنت باني بقليل من التنبه أستطيع أن استشفّ الحقيقة كاملة، لأنه سيكون صادقا إلى درجة كبيرة، وسأعرف ما حرص على إخفا ئه في حينه، لان انفعالاته المنفلته تجعل من ذلك أمرا صعبا. سكت هو لحظات وقال:

- بالمصادفة، عرفت المكان الذي كان يخفي أمواله فيه، أمواله التي كانت بالعملة الأجنبية، وبكميات يسيل لها اللعاب، فراودتني فكرة أن أسطو عليها، أنا لم أكن قد فكرت بمثل هذا من قبل، ولكن الأمر بدا فجأة، سهلا بعدما عرفت مكانها، فحلمت بان تكون كل تلك الأموال لي وحدي، بعدما كنت أفكر فقط بكيفية زيادة مكاسبي الجزئية منه على قدر الإمكان، فكان الأمر أكثر من رائع، لأنها ثروة، وهو انتقام منه أيضا،

عندها تنبهت على انه اخذ يتكلم بوضوح يتناقض مع حالته المزرية، فكرت في أن هذه هي صحوة الموت، الذي بات قريبا جدا. تابع هو قائلا:

- لم تفارق تلك الفكرة مخيلتي طوال أسابيع وحرمت عيني من النوم ليالي طوالا، فلم اعرف كيف يمكن أن أنال تلك الأموال، وهو يقفل عليها بمفتاح لا يفارقه لحظة واحدة! أأسرقها عندما نكون وحدنا في البيت في الليالي التي أبيت فيها عنده؟ كان هو قد تعود على وضع المفتاح تحت وسادته عندما ينام، ولكنه كان سيعرف بالتأكيد باني أنا من سرقها!. تتالت الأيام بسرعة، ولم استطع أن أنفذ فكرتي، الأمر الذي أشعرني بضيق شديدة، لأني لم احتمل فكرة أن أرى كل تلك الأموال سهلة المنال، ولا أستطيع أن أنالها!.

اطرق برأسه وهلة قبل أن يتابع:

- وفي يوم كنا فيه نتابع أنا وهو ومجموعة من الأصدقاء، فلما تلفازيا في بيته، كان فلما أجنبيا تدور أحداثه حول جريمة قتل، وأنا جالس بينهم، تبادرت إلى ذهني فكرة القتل! بدت لي الفكرة على الفور في تلك اللحظات، حلا معقولا جدا، ومضمون العواقب، لان الأموات لا يمكن أن يحاسبوا من سرقهم، هكذا بكل بساطة! ومع مرور الأيام تحولت الفكرة إلى خطة بالتدريج، كانت خطة بسيطة لا تستدعي سوى الحصول على مسدس، والبقية ترتبط بالفرصة المناسبة

فقط، لأني كنت انفرد به كثيرا في الليالي التي أب يت فيها عنده، كان له الكثير من الأصدقاء الذين يفعلون ذلك، فمن الذي سيشك بي أنا من دونهم، إذا ما أحكمت خطتي؟ اشتريت مسدسا من صديق، بحجة حاجة أهلي إليه، للحماية، وبعد ذلك كان علي أن انتظر اللحظة المناسبة التي سرعان ما حانت، أو هكذا تصورت أنا على الأقل. فقد اشترى هو جهاز تسلم القنوات الفضائية وطلب مني أن انصبه له، فاتفقنا على ليلة محددة لفعل ذلك، ولاني كنت اعلم بأنه ولأنانيته سيحرص على أن لا يكون هناك أحد معه عندما يبدأ تلفازه باستقبال بث تلك القنوات، كنت شبه متأكد من انه سيكون وحيدا في تلك الليلة. حرصت على أن لا اظهر معه في أي مكان طوال النهار الذي سبق الليلة الموعودة، ورحت أعلن أمام أصدقائنا المشتركين باني سأقضي ليلتي مع فتاة لا يعرفونها!!! وعندما وصلت إلى بيته في ساعة متأخرة، أفرحني اكتشافي بأنه قد حافظ على سر لقائنا كما فعلت، بل وصرح بأنه لن يبيت ليلته في بيته، كما فعلت!!! وهكذا سارت الأمور كما اشتهيت.

توقف فجأة عن الكلام وبدا وكأنه قد تذكر شيئا لتوه فقال:

ـ أو تدري لماذا أحدثك بكل هذا؟

ـ لماذا؟!

ـ لأني سأطلب منك أن تسدي لي خدمة في المقابل، فهل تعدني بان تفعل؟

ـ ولكن ما هي تلك الخدمة؟!

ـ سأقولها لك فيما بعد، أما الآن، فعدني فقط.

أقلقني طلبه هذا، ولكن فضولي كان قد وصل إلى أقصى مداه، فقلت بعد تردد:

ـ أعدك. إذا كان ذلك بإمكاني!.

ـ حسنا، قلت لك بأننا أصبحنا وحدنا، وقد انشغلنا معظم ساعات الليل في أمر نصب الجهاز، حتى نجحنا في إتمامه قبيل الفجر، فجلسنا نتابع المحطات المختلفة، كان يبدو سعيدا جدا، وكنت أنا قلقا، و أحاول أن اخفي توتري الذي كان يزداد كلما مضى الوقت. كنت مجبرا على أن أبدو سعيدا ومرتاحا، وأنا لست كذلك، لكي لا يشعر هو، بشيء مريب، في السادسة صباحا قرر أن ينام أخيرا، لان التعب كان قد اخذ منه كل مأخذ، وبعدما أدارت الخمرة التي تناولها طوال الليل، رأسه، فيما تحججت أنا بوعكة ادعيت أنها ألمّت بمعدتي، لكي لا أجاريه في الكمية التي عبّها في تلك الليلة!. مددنا فراشنا على الأرض واستلقينا، كل على فراشه، وسرعان ما غط هو في نوم عميق، فيما بقيت أنا أراقبه، و أتحين الفرصة المناسبة لتنفيذ خطتي، بعدما تأكدت من انه قد وضع المفتاح مع محفظته تحت الوسادة التي كان ينام عليها.

عندها تملكني عجب وقلت:

ـ ولكنه كان نائما كما تقول! فلماذا لم تطلق عليه النار وتنتهي؟!!!
ـ لأني كنت اعرف باني لن أستطيع أن أطلق النار، ووجهه يواجهني، كان هذا أمرا لن احتمله، ولذلك بقيت ساعات طوالا أراقب، كانت تلك الساعات هي الأطول في حياتي، حتى حانت الفرصة قبيل الظهر، لأنه استدار عندها إلى الجهة البعيدة، أي نحو الجدار، فأدار لي ظهره، عندما عرفت بان الوقت قد حان، بدأت أنفاسي تتسارع، وشعرت وكأني بدأت اسمع وجيب قلبي، أخرجت مسدسي من تحت الفراش، و أمسكت بوسادتي، واقتربت منه ببطء شديد، وأنا أسير على رؤوس أصابعي، وضعت الوسادة على مؤخرة،
سكت وانتابته رعشة واضحة!. وبعد حين، قال ومن دون أن يلتفت إلي:
ـ اعطني لفافة.
أشعلت له لفافة أخرى، ألقيتها له كما فعلت في المرة الأولى، لم ينتبه هو إليها، بل قال:
ـ كانت يدي ترتجف، ولكني سرعان ما ضغطت على الزناد.
سكت مرة أخرى، واخذ يتمايل بجسده يمينا ويسارا، ويهز برأسه حتى بدا وكأن به مسّ ا، نتبه على اللفافة الملقاة أمامه فتناولها بسرعة، وقال بعد أن اخذ منها أنفاسا كثيرة:
ـ تصورت بأنه سيموت على الفور ولكن، يا لهول المفاجأة التي كانت بانتظاري!!! فقد استدار، بعد أن أطلقت النار على رأسه من دبر، واستوى جالسا في مكانه!!! جعلني الرعب المفاجئ اسقط على ظهري، كان هو ينظر إلى الأمام!!! لا ادري كم استغرق ذلك من وقت؟ لا ادري، لعله كان جزءا من ثانية، ولكني كدت خلاله أموت من الخوف!!! ارتدّ بعدها إلى الخلف، وسقط على ظهره، فأجفلت، وتحركت مبتعدا عنه، لأجلس وأراقبه، كان جسد ه ينتفض بعنف، ولكن الذي أرعبني، وجعلني شبه مشلول، هو الحشرجة التي كانت تصدر عنه، كانت رهيبة، بل رهيبة جدا، وزادها رعبا سؤال مرق في خاطري، ماذا لو لم يمت؟!!! كنت على يقين من أني لن أجرؤ على إطلاق النار عليه مرة أخرى! ولذلك كنت مهددا بان أكون في مأزق هائل لو قرر عزرائيل أن لا يقبض روحه، نكاية بي!!! لم اعد اعرف كيف أتصرف! بل عجز عقلي عن التفكير! راقبته وهو ينتفض كالطير الذبيح، فتملكتني فكرة الموت، موتي أنا! أغمضت عيني وهلة، وعندما فتحتها، لاحظت إن انتفاضاته قد أصبحت اقل عنفا، كانت الحياة تتسرب من جسده بالتدريج، شعرت بغبطة! ولكني لم أتحرك من مكاني حتى سكن الجسد نهائيا، وأدركت بان الحياة قد فارقته. نهضت بعدها بتثاقل لكي احمل فراشي والقيه عليه لكي يختفي عن أنظاري، لأني لم أكن لأجرؤ على النظر إليه بعد ذلك! ولكن هذا لم يطمئنني، فجلبت المزيد من الفرش لألقيها عليه، الواحد بعد الآخر! غادرت الغرفة مسرعا لكي ارتاح في الصالون، واستعيد أنفاسي التي كادت تتقطع، لقد خشيت أن افقد وعيي من شدة الرعب! فأبقى هناك إلى أن يكتشف

أحد ما حدث! ولكن رعبي لم يكن يريد أن ينتهي! فقد تذكرت فجأة المفتاح الذي بقى تحت وسادته!!! كان يجب أن احصل عليه بعدما تشربت الوسادة بدمائه!!! والله لم يكن رعب هذه الفكرة يقل عن فكرة الموت نفسها، ولكن هل كان بإمكاني غير تنفيذها بعدما تورطت وأصبح سبيل التراجع مقطوعا؟! لم استطع أن احزم أمري إلا بعد تدخيني ثلاث لفافات على التوالي! وعندما دخلت الغرفة مرة أخرى واقتربت، منه بدأ جسدي بالارتجاف وكدت ارجع أدراجي، والغي كل شيء! ولكن الطمع يا أستاذ تغلب على الخوف في النهاية، جلست على ركبتي بالقرب من رأسه المغطى، أغمضت عيني، ودسست يدي تحت الوسادة بسرعة لأني كنت اشعر وكأني أمد يدي في جحر ثعبان سام مجبرا، ولذلك آثرت أن أقوم به بسرعة لكي أتخلص من كل ذلك العذاب، لامست أصابعي رطوبة ما، فكدت أتقيأ أحشائي، امتلأت عيناي اللتان فتحتهما بالدموع، كدت اصرخ، لو لا إن أصابعي مست المحفظة فسحبتها، ومددت يدي مرة أخرى بحثا عن المفتاح الذي سرعان ما اهتدت إليه، فسحبته لأحمل المحفظة وافر مسرعا من جحيم الغرفة المرعبة، جلست في الصالة مرة أخرى وشعرت وكأني ساجن وأنا أسير لطمعي ورعبي ، المتناقضين، لاحظت الدماء التي لوثت يدي، فسارعت إلى غسلها، ثم عدت إلى المكان الذي كان يخبئ فيه أمواله، صدقني إذا ما قلت باني لم أكن اشعر بأية لهفة إليها في تلك اللحظات، بل كنت أكمل ما بدأت به فقط، فتحت الخزنة بصعوبة لان يدي كانت ما تزال ترتجف، فإذا بها فارغة!!! أذهلتني المفاجأة، ثم رحت اقلب البيت رأسا على عقب في نوبة جنون، بحثت في كل الأماكن والزوايا، المعقول منها وغير المعقول، لم اترك شبرا لم انبشه، ولكن تلك الأموال اللعينة كانت قد اختفت!!!

عندما ضحك وهو يقول هذا، بدت ضحكته وكأنها حشرجة، كنت متسمرا في مكاني وأنا أصغي إليه و أتمعن في وجهه وهو يتكلم، كانت اللفافة التي لم يعدها إلى شفتيه مرة أخرى بعد الأنفاس الأولى، قد خبت جذوتها، فرماها بلا مبالاة واضحة وقال:

ـ عرفت فيما بعد، وقبل أن يلقى القبض علي، بأنه كان قد شارك في مشروع طموح، وبدون علم طموح!

أردف قوله بضربة بيده على صدره عدة مرات ثم تابع:

ـ كان قد سلم الأموال في اليوم الذي سبق موته، إلى شركائه الجدد! كان يريد أن يغدر بي كما تعود، آه لو تدري كم فرحت لأني قتلته عندما عرفت بكل هذا؟! لقد انتقمت لنفسي من دون أن ادري!. المهم أني لم أغادر البيت إلا بعد حوالي الثلاث ساعات من إطلاقي النار عليه، وبعدما أدركت بان البقاء هناك لم يعد مأمونا، لان الوقت كان يجري، ولكن هل كان يمكنني الانسحاب خالي الوفاض بعدما تورطت فيما تورطت فيه؟. كنت قد فتحت محفظته التي جمدت دما ؤه على

غلافها، فوجدت فيها بعض العملة الأجنبية إلى جانب مبلغ بـالعملة المحلية، فوضعت ما وجدت في جيبي، ولكن بيته كان مليئا بالأجهزة الجديدة والمستعملة التي كان يتاجر بها من خلالي، لأني أنا من كان يتكفل بأمر شرائها وبيعها!!! فقررت أن انقل كل ما أستطيع نقله منها إلى سيارته، لكي انقلها إلى مكان آخر، و أتصرف بها فيما بعد، ولكني تذكرت بأنه كان يضع مفاتيح سيارته في جيب سرواله الذي كان يرتديه بالأمس، وهو معلق في الغرفة إياها!!! فأوشك الخوف مرة أخرى أن يجبرني على النكوص، لولا أني كنت متورطا حتى العظم، فقاومت خوفي فدخلت، وجدت بغيتي وعدت مسرعا لكي أنفذ ما قررت، لم انس وأنا في اضطرابي ذاك أن امسح معظم الأماكن التي يمكن أن أكون قد لمستها طوال تلك الليلة المشؤومة! كان عملا غبيا، لان بصمات أصابعي ستظل واضحة في ذلك البيت، حتى لو لم أكن أنا القاتل!!! انطلقت بالسيارة بعد أن تأكدت من خلو الشارع، فقد كان الوقت ظهرا وكانت المنطقة هادئة كشأن المناطق الراقية في المدنية. في بيتنا، أفرغت حمولة السيارة الثمينة بعد أن أقنعت أمي إنها لصديق، طلب مني الاحتفاظ بها بعض الوقت، بعدها قدت السيارة إلى مكان منعزل على شاطئ النهر، لأتركها هناك بعد أن مسحت بصماتي.

كان يتحدث بلا توقف وكأنه يريد أن ينتهي بسرعة ويرتاح! تابع قائلا:

ـ عندما عدت إلى البيت، كنت أمنّي نفسي بالنوم، ولكني سرعان ما أدركت مدى تفاؤلي الزائد، لأني فكرت به، فبقيت في غرفتي حتى المساء من دون أن انعم بالنوم ولو للحظات!!! وعندما حل الظلام أدركت الخطأ الفادح الذي ارتكبته بجلب تلك الأجهزة إلى البيت، فتدبرت أمر نقلها فورا إلى بيت صديق بعيد ولا صلة له بغافل، وأصدقائنا المشتركين.

عندما أشعلت له لفافة أخرى، راح يدخن وهو مستغرق في تأملات صامتة، وكنت أنا الآخر مستغرقا في تأملاتي الخاصة، ولكني لم أفكر أبدا في أن اتركه، استمر هذا الوضع دقائق ثم قال فجأة:

ـ آه لو تدري مدى العذابات التي كنت ضحيتها خلال الأيام الأربعة التي سبقت اكتشاف الجثة، أربعة أيام طوال، كنت خلالها خائفا طوال الوقت، خائفا! بل مرعوبا، انتفض مع كل دقة باب أو رنة جرس! كنت أخاف أن أغادر البيت خوفا من أن يفضح ارتباكي سر جريمتي.

سكت وبدا عليه انه يحاول أن يتذكر شيئا، ثم أضاف:

ـ اللعنة، أنا لا أستطيع أن أتذكر شيئا، ولكنك تعرف ولا شك ذلك البيت من الشعر الذي يتحدث عن المريب وكيف يكاد يقول خذوني، في تلك الأيام أدركت معناه. كنت اعرف باني يجب أن أتصرف بشكل طبيعي لكي لا أثير الشكوك، ولكني لم استطع إلا أن اقبع في البيت لأني أيقنت باني لن أكون طبيعيا إذا ما خرجت! ولكن الذي كان يسحقني بلا رحمة هو إن الوقت قد طال

ولم اسمع شيئا عما حدث بعدما تركت الجثة وحدها! كان يعرف الكثيرين ممن يسألون عنه على مدار الساعة، لأنه ثري كما تعرف. ولا يعقل أن لا يكتشف أحد جثته طوال تلك الأيام! وإذا ما حدث ذلك، فان أصدقائي كانوا سيسارعون لإبلاغي بالنبأ، ولكن هذا لم يحدث، فكرت كثيرا في أن اذهب إلى منطقتهم، ولكني اعرف بديهية أن القاتل يحوم دوما حول مكان جريمته، فلم افعل، كنت اشعر بجفاف في فمي طوال الوقت، و أحس كأن صخرة تضغط على معدتي وتمنع عني شهية الأكل، كنت أرى في المرآة اصفرار وجهي ونحول جسدي ولم أكن أستطيع الابتسام، لا الضحك! أخاف كل هذا، أمي، وراحت تسألني عما حل بي؟ ولكني لم اجب عن أسئلتها اللحوح.

في اليوم الخامس، رن جرس الهاتف فجأة، فقفز قلبي هلعا، لأني حدست بأنني المطلوب!!!

ولكني لم اهرع إليه، بل تركت أمي تفعل ذلك، وسرعان ما التفتت إلي لتقول بان صديقي يطلبني، كنت اعرف جيدا ما سيقوله لي، ولكنه عندما سألني إن كنت قد سمعت بما حدث لغافل، تخاذلت ولم تعد ساقاي تقويان على حملي، جلست على الأرض وأنا أعاني من ألم في

أحشائي!!! لأن الوقت كان قد حان! بذلت جهدا كبيرا لكي أسيطر على صوتي خشية أن تفضحني نبراته، وقلت باني لم أره منذ أيام، وسألته عما حدث؟! فاخبرني بمقتله وكيف إن الجيران شموا رائحة كريهة مصدرها بيته، وتنبهوا على الذباب الذي تكاثر فيه، فاتصلوا بالشرطة التي اقتحمت البيت لتكتشف الجثة المتفسخة. كان يتكلم ببطء ويركز على نهايات الكلمات لكي تكون طريقته في نقل الخبر مناسبة لأهميته، وكنت العنه في سري، مع كل حرف يتأخر في نطقه، لأني كنت انتظر إعلانه لخبر موت غافل بفارغ الصبر، لكي اصرخ قائلا بأنه مخطئ، أو كاذب، واجعله يصدق ادّعائي الذهول، وعندما فعلت، اقسم لي بأنه صادق، فأنهيت المكالمة من دون سلام على الفور، لكي يبدو دوري متقنا!!!. كان الجزء الأصعب قد بدأ، وقررت ان اتخذ للأمر عدته. ذهبت إلى ذلك البيت، فوجدته مزدحما برجال الشرطة في داخله، وقد أحاطت بمدخله مجموعة من الأصدقاء المذهولين، وفي اللحظة التي توقفت فيها بقربهم، اخرجوا الجثة المحمولة على نقالة! ولكي أكمل تمثيل دوري، صرخت، كنت قد تصورت بان الصراخ هو أقصى ما أستطيع فعله، ولكني، ولعظيم دهشتي، وجدت نفسي فجأة ابكي!!! سالت دموعي مدرارا! ولم اعرف إن كان ذلك بسبب خوفي، أم لأني شعرت عندها، بتأنيب ضمير!!! المهم هو أني كنت ابكي أمام كل أولئك الشهود، كنت اعرف باني أستطيع أن اجعلهم يصدقوني أكثر، لو ألقيت بنفسي على جثته، ولكن هذا كان فوق طاقتي بكثير، لأني خفتها حتى الموت، كما إن رائحتها كانت لا تطاق!. وبقيت أبكي حتى نسى الأصدقاء حزنهم، وتجمعوا حولي لتطييب خاطري!. وفي المأتم، أصبحت أنا المسؤول الأول، حتى إن أقرباء الميت كانوا

يستشيروني في كل شاردة أو واردة فيه! أراحني كل ذلك، وتبدلت بسببه حالتي النفسية، تصورت باني قد تجاوزت عنق الزجاجة، ورحت أفكر في كيفية بيع الأجهزة.
سكت وابتسم ابتسامة سخرية وهو يهز برأسه، وقال:
ـ بعد المأتم، بيوم واحد، يوم واحد فقط، وجدت نفسي في مركز الشرطة خاضعا للتحقيق! فقد القي القبض علي مع مجموعة من الأصدقاء! وضعونا في أماكن متفرقة، ولم يسمح لنا بالالتقاء خلال التحقيق، كان وقع الحادث قويا، فكانت إجراءات الشرطة حازمة جدا، كنت خائفا، ولكني اشعر بسعادة، لان العدد كان كبيرا، وهذا يعني بان الشرطة لا تشك بي أنا بالذات، فأقنعت نفسي بان ما يحدث كان مجرد إجراء تقليدي تلجأ إليه الشرطة في كل حادث قتل! كانت مسألة حياة أو موت بالنسبة لي، ولذلك قررت أن اصمد حتى النهاية، ومهما كان الثمن، وان لا اعترف بشيء مهما فعلوا، وقد صمدت، تحملت التعذيب النفسي، وحتى الجسدي، وصدقني بأنه كان رهيبا أحيانا، ولا اعرف كيف تحملته، ولكني صمدت، كانت حياتي في الميزان ويجب ان اصمد. ولكن بمرور الوقت بدأت الحلقات تضيق من حولي شيئا فشيئا،فيما كان الآخرون يخلى سبيلهم الواحد تلو الآخر، كنت اشعر بإحباط شديد كلما سمعت بان أحدهم قد أخلي سبيله، عندها فقط، شعرت باني اكرهه!!! اكرهه جدا، لأنه يتحدث عن شعوره بالإحباط، لان الأبرياء الذين القي القبض عليهم بسبب جريمته هو، قد أخلي سبيلهم!!! فيما كان هو مسترسلا في حديثه قائلا:
ـ كنت ازداد إصرارا على الصمود، كلما ضيّقوا الخناق علي أكثر، ولكن اضعف نقطة في دفاعاتي، كانت عدم وجود من يشهد بوجودي بعيدا عن مسرح الحادث في تلك الليلة، أو بالأحرى النهار الذي تلاها، غير أمي وإخوتي! ولكن شهادتهم لم تؤخذ على محمل الجد، عكس الشهادات التي تهيأت للآخرين، لحسن حظهم.
كان النفور الذي شعرت به قبيل لحظات يزداد سيطرة على مشاعري، فقد بدا لي فجأة، حقيرا، ماديا، لا يقيم وزنا لعلاقات أو صداقات، وتأكدت من خلال كلامه، بأنه من ذلك النوع من البشر الذي يكون هادئا في مظهره، ولكنه يضم في داخله سورة غضب عارمة نتيجة لشعوره المستمر بالضياع والإحباط، غضب كبير يمكن أن يؤججه الحسد في أية لحظة، ولان قدرتي على التركيز تأثرت بسبب مشاعري هذه، فقد فاتني الكثير من حديثه المسترسل! شعرت برغبة في مغادرة المكان والابتعاد عنه ولكني بقيت واقفا لان فضولي القوي منعني من تنفيذ رغبتي! بل أني بذلت جهدا كبيرا لكي لا يبدو تقززي منه، واضحا على وجهي!!! وليلعنني الله إذا لم يكن ذلك بسبب الفضول اللعين أيضا، نبهت بعد حين عليه وهو يقول:

ـ فجأة انهار كل شيء من حولي، فقد تقدمت فتاة للإدلاء بشهادتها وهي مختارة، كانت واحدة من صديقاته، وادّعت بأنها قد اتصلت به في تلك الليلة،، وقال لها باني موجود معه!. أنا أتذكر الآن باني كنت على السطح أحاول أن انصب ذلك الجهاز، عندما سمعت رنين جرس الهاتف، لم يخطر لي ببال في حينها بأنه سيصرح بوجودي معه لأحد، ولذلك لم استفسر منه عن النداء حين نزلت! أتدري؟ عمليا، أنا إن كان يمكنني أن اعترف بوجودي معه في تلك الليلة، لأنه لم يمت إلا حوالي الظهر في اليوم التالي، ولكني كنت قد أنكرت بشدة رؤيتي له في ذلك الوقت، ولذلك بدا أمر تغيير إفادتي أشبه بالانتحار، فلم أغير فيها شيئا. بعد ظهور تلك الشهادة، أصبحت المتهم الأول، بل المتهم الوحيد، لان الآخرين سرعان ما أطلق سراحهم. بعد ذلك أصبح عذابي مستمرا وبلا رحمة، وكنت كمشرف على هاوية سحيقة وهو يقف على حجر صغير ولا يدري متى يسقط فيسقط هو معه!!! حاولت أن اصمد أكثر، وقد أفلحت في البداية، ولكن بعد مضي خمسة اشهر، أصبح هذا مستحيلا! كنت اعرف بعدها باني سأعترف، ولكني كنت أحاول أن أؤجل اعترافي يوما بعد آخر، عسى أن تنقذني معجزة ما من مصيري الذي كان يزداد يقينا كلما بقيت يوما آخر في ذلك الموقف العصيب. كانت أمي خلال تلك الأشهر، تفعل المستحيل من اجلي، تكثف اتصالاتها، وتتابع محاولاتها، وهي تؤملني خيرا في كل مرة تزورني فيها، لكن اليأس تسرب إلى نفسي أخيرا. وفي اليوم الذي قررت أن اعترف خلاله، حدثت المعجزة!!! فقد صدر أمر بنقل التحقيق معي، من مركز الشرطة الذي كنت محتجزا فيه، إلى مركز آخر!!! في البداية لم افهم شيئا، ولكني شعرت بان أمرا ما قد حدث، فعدلت عن قراري، انتظارا لما قد يحصل، نقلت إلى المركز الآخر على الفور، ونقلت معي أوراق التحقيق التي أصبحت ملفا ضخما! وهناك عرفت بان أمي استطاعت أن تدفع رشوة ضخمة، وان نقلي تم تمهيدا لإصدار أمر بإطلاق سراحي لعدم كفاية الأدلة! خاصة وان الشرطة لم تجد المسدس الذي كنت قد ألقيته في النهر بعدما ركنت سيارة غافل بالقرب منه. ولكن الحظ السيئ كان لا يزال يتربص بي، واستمر كذلك حتى النهاية.

سكت ليغيب في لجة من أفكار، فيما خنقت أنا بالكاد ضحكة حانقة! فهو قد تكلم عن الحظ!!! لم اعرف أي حظ يقصد! ولكني أردت أن اسأله عن عدد الحظوظ التي يجب أن يستهلكها، قبل أن يعرف إن ما حدث لم يكن مسألة حظ!!! قال بعد حين:

ـ في المركز الآخر، أرسل ضابط التحقيق الجديد في طلبي، كان هو النقيب حازم، وكان قد بدأ بقراءة أوراق التحقيق فور تسلمه لها، فجذبت انتباهه، وقفت أمامه صامتا، فيما راح هو يتأملني بعين الخبير، بل كانت عين عزرائيل والله! صدقني، فقد ضاع التفاؤل الذي أحيته أمي في نفسي، بإخباري ما استجد من أشياء، ما إن وقفت أمامه، لم يوجه هو لي كلاما طوال الساعات

التي وقفت فيها انتظر إكماله قراءة الأوراق، كان يقرأ بصمت، ثم يحدق بي فجأة، وفي كل مرة يقفز قلبي هلعا، ولكنه يعود للقراءة ويتركني واقفا، لم أجرؤ طوال ذلك الوقت على التفوه بكلمة! و أخيرا تكلم هو ،فقال بأنه متأكد من جرمي، ولا يقبل أي نفي مني، لهذا! و أكد لي بأنه لن تنقذني قوة في هذا العالم، منه، حتى ينال الاعتراف الذي يريده.

فقلت:

ـ هل تتصور بان موقفه هذا كان بسبب الموقف السابق الذي كان بينكما؟

تساءل باستغراب:

ـ أي موقف؟!

ولكنه سرعان ما استدرك قائلا:

ـ لم أكن قد رايته قبل تلك المرة، فأنا لم أكن اعرفه، المهم هو انه قال ما قاله. تهاوت الآمال في نفسي، ولكني تعلقت بأمل المعجزة التي تحدثت عنها أمي، ويبدو انه كان قد شكّ منذ البداية بمسألة نقلي، فمنع الزيارات عني فورا عندما علم بان أمي كانت قد زارتني فور وصولي إلى المركز الجديد، كان يعرف بأنه لا يستطيع أن يمنع عني الزيارات إلى ما لا نهاية، ولكنه كان يريد أن يضغط علي، وبالفعل استطاع خلال أسبوع واحد، أن يسلط علي ضغطا عادل بتأثيره ضغوطات الأشهر الخمسة التي مضت قبله!!! كان يرسل في طلبي فور وصوله إلى المركز في الصباح، ويصر على إبقائي واقفا ساعات طوالا، كانت تمتد أحيانا إلى ما بعد انتهاء دوامه الرسمي بكثير، وهو يحقق معي بلا رحمة، ويفند كل ما أقول! لم يضربني أو يعذبني طوال ذلك الأسبوع الرهيب، ولم يدع أحدا يفعل ذلك. ولكن تصميمه على نيل الاعتراف كان يزداد وضوحا كل يوم. ولاني تصورت بان إطلاق سراحي كان سيتم فور وصولي إلى المركز الجديد، فان عدم حدوث ذلك، رغم مرور الأيام، جعلني افقد الأمل نهائيا! فقررت أن اعترف لارتاح من عذاباتي المستمرة، ولكن، إطلاق سراحي لعدم كفاية الأدلة، سبق تنفيذي لهذا القرار!!!

طلب مني لفافة أخرى وراح يدخن بصمت، بدا وكأنه نسى وجودي معه، ولكنه قال مكملا:

ـ فجأة، وجدت نفسي خارج ذلك الجحيم الذي اكتويت بناره طوال خمسة اشهر، بدا الأمر وكأنه حلم صعب التصديق، لان شيئا ما كان قد كسر في داخلي وجعلني افقد التفاؤل، خرجت من السجن وأنا متأكد من أني عائد إليه لا محالة!!! تخلصت من الموت مؤقتا، ولكني أدرك بأنه متربص بي!!! اقسم لك باني لم أكن اعرف بالذي حدث بعد مغادرتي المركز، ولكني كنت على يقين من أن مصيري كان قد تحدد، و أني عائد إلى ذلك الجحيم. رحت أتصرف بنزق واستهتار طوال الأشهر التسعة التي قضيتها حرا، بعد إطلاق سراحي، تصور! حتى الأجهزة التي أخذتها

في تلك الليلة، لم أكلف نفسي مشقة بيعها في مكان بعيد، بل بعت بعضها إلى أشخاص يعرفون غافل جيدا، ويعرفون الأجهزة التي كان يتعامل بها!!! في حينها لم أكن اعرف بان النقيب حازم كان يحصي علي أنفاسي!!! كان قد زرع رجاله خفية من حولي، يراقبون تحركاتي ويسجلون أقوالي!. خلال تلك الأشهر، حلمت به مرات متعددة! كانت كوابيس، وأنا لا اعرف بأنه قد تقمص دور ملاك الموت الذي يتربص بي، لقد فعل كل ذلك، لأنه بعد أن أيقن باني معترف لا محالة بما فعلت، هاله إطلاق سراحي المفاجئ، ولم يستطع أن يتقبله، فحمل أوراق التحقيق وذهب إلى القاضي الذي أمر بإطلاق سراحي، ووضعها أمامه، لم يكن يعرف بان ذلك القاضي كان هو الذي تقاضى الرشوة الضخمة من أمي! وانه هو الذي تدبر أمر نقلي إلى المركز الجديد، الذي كان ضمن حدود سلطته القضائية، لكي يستطيع إطلاق سراحي!!! طلب منه القاضي بعد أن استمع إليه، أن ينفذ الأمر من دون نقاش، وعندما أصر النقيب على موقفه، غضب القاضي، فحدثت مشادة كلامية، بينهما كتب بسببها القاضي تقريرا إلى الجهات المسؤولة، تسبب بإنزال عقوبة بحازم!!! يا لغباء ذلك القاضي! أما كان بإمكانه أن يطلب منه ما أراد، بالحسنى؟! ولكنه حظي الذي جعله يتصرف هكذا، ويتسبب في أن أصبح أنا، أمرا شخصيا بالنسبة للنقيب عزرائيل!!! الذي راح يتابعني كظلي من خلال رجاله المنتشرين حولي!!!. بعد مرور حوالي الثمانية اشهر أحيل القاضي إياه على التقاعد، بشكل مفاجئ! ولم اعرف لأي سبب، ولكن يبدو إن رائحة الرشاوي التي كان يتلقاها، قد زكمت الأنوف!!!، فلم يضع حازم الفرصة التي سنحت له بذلك، حمل الأوراق مرة أخرى، و أضاف إليها الأدلة التي توافرت لديه من خلال المراقبة اللصيقة، واقصد بالأدلة، تلك الأجهزة التي تعرف عليها بعض المشترين، وشهدوا بأنها كانت ملكا للقتيل. أصدر القاضي الجديد.

سكت فجأة واسند رأسه إلى الجدار الذي كان يسند ظهره إليه، بان وجهه لي بوضوح شديد، فرأيت فيه هول المشاعر التي كانت تنتابه في تلك اللحظات، فرقّ قلبي له!!! أغمض عينيه وقال:

ـ عندما عرفت بان أمر إلقاء القبض علي قد صدر، اختفيت عن الأنظار، أو هكذا تصورت، بقيت طوال شهر أتسلل إلى البيت خفية بعد منتصف الليل بوقت طويل، بعد أن أكون قد قضيت ليالي أخرى بعيدا عن البيت والمنطقة بأسرها، أبيت خلالها عند أصدقاء بعيدين و أقارب غير معروفين، كنت أهيم في نهارات القلق في الشوارع، و أنام أحيانا في دور السينما خلال فترات عرض الأفلام!. لم استطع أن افر إلى خارج البلاد، لان ذلك يحتاج إلى مبالغ طائلة لم تكن أمي تملكها بعدما صرفت كل ما تملك في قضيتي، واستدانت فوق ذلك مبالغ كبيرة جدا!. وفي ليلة تسللت فيها متسترا بالظلام إلى البيت لأغسل جسدي و أبدل ملابسي و أصيب شيئا من النوم

المريح في فراشي، رن الجرس بعد خروجي من الحمام! كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحا، أصخت بسمعي عسى أن أميز اللغط والصياح اللذ ين عليا بعد صوت فتح الباب، لم أميز شيئا، ولكني أيقنت من أن النقيب قد جاء ليأخذني!!! لم اعرف ما الذي افعله، ولم أفكر في الفرار! بل فكرت فقط بالاختفاء في كرتونة فارغة لتلفاز ضخم كنت قد أخذته من بيت غافل! ونفذت ذلك، تكورت على نفسي وقبعت صامتا وأنا اسمع وجيب قلبي! كانت الجلبة تقترب مني، وتقترب، وتقترب، وعندما أصبحت في داخل الغرفة، حبست أنفاسي حتى كادت رئتاي أن تنفجرا!!!.

سكت وراح يدير رأسه في أنحاء زنزانته بحزن، ثم هز برأسه وقال:

ـ كانت جلبة وقع الأقدام في داخل الغرفة، وصوت الأبواب وهي تفتح وتغلق، وتأكيدات أمي المستمرة باني غير موجود، تخترق أذني، وتشعرني برعب لا سبيل إلى وصفه، وفي لحظة تخيلت باني إنما أعاني أضغاث كابوس من الكوابيس التي كنت أعانيها في بعض الليالي! أردت أن اصرخ لكي استيقظ، أعجبتني الفكرة، ولكن، في اللحظة التي كدت اصرخ فيها كشف غطاء العلبة، وطالعني وجه حازم وهو يبتسم ساخرا، تلاشى الأمل بالكابوس فورا!!! لان وجهه كان أكثر واقعية من أن يكون مجرد حلم مزعج!!! طلب مني الخروج، فامتثلت صاغرا، تحول الصلف في صوت أمي، إلى توسلات باكية، ارتمت على قدمي حازم! ولكنه أبعدها بهدوء، وطلب مني السير معه ورجاله بعد أن كبلوني. لم انبس ببنت شفة طوال الطريق إلى المركز، بوابة الجحيم!. صدقني، إن رؤية وجه ملاك الموت نفسه، كانت أهون علي من رؤية وجه ذلك النقيب في اللحظة التي اطل علي فيها!. ولكن نفسي هدأت بعد أن القي القبض علي، لأني كنت أتوقع تلك اللحظة طوال أسابيع وأيام، بل وحتى ساعات الأشهر التسعة الأخيرة.

سكت لحظات مفكرا، أغمض عينيه مرة أخرى وكأنه يريد أن يبعد عن مخيلته الصور التي كانت تترى بلا رحمة على باله، قال:

ـ في المركز، طلبت منه أن لا يجعلني أقف أمامه مرة أخرى، بل طلبت منه لفافة تبغ وكرسي، فلبى طلبي! وضعت اللفافة المشتعلة في فمي، وتربعت على الكرسي، ورحت اسرد عليه كل ما حدث في ذلك اليوم، كان هو يسجل اعترافي بنفسه، استغرق ذلك المتبقي من ساعات الليل، وعندما حان وقت الدوام الرسمي في اليوم التالي، كان كل شيء قد انتهى.

عندما سكت هذه المرة، عرفت أن لم يتبق لديه شيء ليقوله، ولم تكن لدي أي رغبة في سؤال أو استفسار!!! أشعلت لفافة ورميتها له من بين القضبان، استدرت لأذهب، ولكنه قال:

ـ أريد منك أن تكون حاضرا، أثناء

أذهلني طلبه لأني فهمت ما قصده فورا !!! تساءلت بتغاب واضح:

ـ أثناء ماذا؟!

ـ أثناء، أنت تعرف، التنفيذ

عقدت الدهشة لساني هذه المرة فلم اقل شيئا، فقال هو:

ـ لا تنس بأنك وعدتني.

ـ ولكن!!!

ـ أرجوك، حقق لي هذه الرغبة

ـ نعم، ولكن لماذا؟!

ـ أرجو أن تحضر قبل التنفيذ بساعة، لكي أحدثك عن الأشياء التي لم أحدثك بها اليوم.

لاحظت بأنه لم يجبني على سؤالي، ولكن انشغال بالي بما قاله أخيرا، جعلني لا ألح في السؤال، بل أسرعت في الابتعاد عنه!.

(دوامة)

ينفرط عقد يوم آخر، ويتسلل الهدوء إلى الحنايا بعد طول عناء، ولكني أتمعن في الساعات التي تناثرت ورائي، فأحزن! احزن لأنها مضت ما بين تعب غير م سوغ، ومشاغل لا نفع فيها، فتتكاثف الأحزان! أحاول أن اهرب من أحزاني بان اكتب، ولكن، يمنعني عجز لفّ الضلوع وعقل شله دوار المعاناة المستمرة. يجزعني التفكير بأحزاني وحيدا، فابحث عن السلوى بين ركام الذكريات، فلا أرى غير أيام كثيرة تراكمت بلا ترتيب، وأحداثها تنبئني بغربتي وضياع آمالي، وحتى الخيوط التي تربطني بها، اشعر بها مقطعة!. تنعق الغربة في أعماقي، فتردد جنبات النفس أصداءها، أصداء موحشة تبعث القشعريرة فيّ، أنا الذي أردت أن أعيش حياتي بكل عمق، ولكني لا أجد أمامي إلا فضلات الهوامش، مغلفة بتهاويل الغربة العارمة!!! انحدر سريعا في مزالق التشاؤم، وتنتحب النفس، فأتداعى، أتمزق، انصهر، بل أتبخر!!! تضيع روحي بين دوامات الحزن الثقيل. أحاول الانفصال عن الواقع المؤلم، بأفكاري، فتتشرنق العزلة من حولي! وفي أعماق غربتي أعيد حساباتي، أحارب التشاؤم، فتلفني كآبة! ابتعد عنها، استعطف التفاؤل، ولكنه يسخر مني فيسلمني إلى التشاؤم!!! وعندها فقط، أدرك باني أطارد سعادة لا تنال! وما دواماتي إلا بسببه ! فهل اكف عن مطاردتها لكي أريح نفسي؟ ولكن أي حياة ستكون حياتي إذا ما افتقدت الأمل؟! والسعادة من حقي، ويجب أن أنالها! وأنا يا سادة، يا كرام، لا استسلم بسهولة، فكلما فشلت في محاولة، أعيد الكرة، وأنا اعرف بان محاولتي الجديدة يمكن أن تسلمني إلى الدائرة المغلقة التي حاولت الفرار منها، وفشلت! فالمهم هو أني أحاول، والحق أقول لكم، إن عزلتي دوامات من أفكار أضيع فيها وانسلخ عما حولي، ولكني حريص على العودة إليها لأني في خضمها اكتشف أشياء وأشياء، و آمل أن يساعدني هذا في كسر حلقتي المفرغة التي تستنزف قواي. أنا أحب عزلتي، ولأجلها طورت قوة عزل في داخلي استخدمها حيث أريد ومتى أشاء، ولكني لا أطيق المكوث فيها طويلا، فاخرج منها لانخرط في حياة الاخرين، ولكنهم سرعان ما يصدوني عن أنفسهم! فاهرب منهم بعيدا، إلى حيث عزلتي!!!

وحيدا ارقد في فراشي، حائرا، أتقلب ساعات وتفشل عيناي في اقتناص الكرى! اجلس في الظلام، اشرأب بعنقي، فلا أرى غير ظلام! تعاف نفسي الفراش فانهض، أدير مفتاح النور فيطالعني في المرآة وجه متعب! أخاطبه قائلا بصوت مسموع!

(وأنت يا هذا الذي تخنقه سورات الغضب المجهض، مالك نسيت ما تعلمته من الحياة؟! هل عافت نفسك النضال؟ أتريد أن تلقي بسلاحك الآن؟ أشجاع أنت كما تدعي؟ أم جبان؟! دُحرت فتريد أن تتخاذل! أين تبجحك بنظرية أسوأ الاحتمالات التي تحفظ لك تفاؤلك؟! أين قوتك

الروحية التي تدّعي؟! أتستفيد منها الآن؟ أم أنها كانت مجرد هلوسات مريض؟! هيا انفض عن نفسك الأدران، ولا تجزع، فأنت لديك الروح التي لن تدنس إلا بمشيئتك، فتألم يا أيها الإنسان تألم، فمن رحم آلامك سيولد الطريق، طريقك أنت، لا طرق المدنسين الذين ظلموا أنفسهم، كما ظلموا الآخرين! خض المصاعب صابرا وصامتا، بل اجعل من معاناتك إكليلا من غار تتوج به رأسك ليذكرك دوما بدافني التي رفضت أن تصبح ضحية، فصارت أسطورة! فأنت تحتاج ذلك. اقتحم بيقينك معاقل الشك وبدد الحيرة بأنوار عقلك، تألم واصمت، عان واصبر، تحمل جراحك ولا تجزع إذا ما بلغ السيل الزبى، وتشنجت الأمور، فقط افهم أنت ما يدور، واكبح ما يثور، وامنع ما يفور، ثبت أقدامك في الأرض، وداعب بذقنك السماء، ولا تتأثر بالتفاهات، تعلم الحب من خلال سحب الكراهية التي تحيط بك، ليكن ويدنك العطاء والإيثار، في مقابل الشح والإستئثار، أعط وأحب تصبح مشروع اله! إنسان ا وحيدا ستكون، غريبا في زحمة البشر المارقين! وهذا أمر صعب! ولكن، ألا يكفيك أن تكون إنسانا حقيقيا؟!)

كان فجر يوم الخميس قد انبلج وأنا مستيقظ، سويعات قليلة تفصلني عن موعد الذهاب إلى هناك، إلى السجن! ولكني لم أجد في نفسي القدرة على الذهاب، بسبب التعب والنفور من رؤيته!!! فقررت أن أنام، وليذهب السجن ومن فيه إلى الجحيم. نمت ولم استيقظ إلا بعد الظهر لأتناول فطوري! واهرب من أمام زوجتي وأطفالي، فأنا لم استطع أن ادحر شعوري بالحزن والحيرة، ولذلك قررت أن أعفيهم من مهمة رؤية وجهي الكئيب.

بقيت ساعات أسير على غير هدى في الشوارع، فقد كان قلقي يجعلني لا أطيق أن يستقر بي مقام، لم يكن قد بقى على موعد التنفيذ إلا يومان، وأنا كنت عندها مصمما على عدم الذهاب، ولكني كنت وعدته ولذلك يجب أن اذهب! ولكن، لماذا اذهب؟ ولم يجب أن ابر بوعدي له؟ وهو لا يستحق أن يقيم إنسان أي اعتبار له. فقد حدثني بنفسه عما اقترف، فأبان لي مدى حقارته ومدى خلوه من أي اعتبار للقيم المعنوية! لماذا اذهب، وهو لم يقم أي وزن لصداقة أو ارتباط؟ كان يسير في دروب الشيطان، ويريد أن يورط آخرين معه! ألا فلتحل عليه لعنات الله. فهو كذاب أثيم، ولا يستحق شفقة مني، لأخرجنه من رأسي، وليرسله الجلاد إلى حيث يستحق.

عندما وجدت نفسي قرب المقهى كان الغروب يكاد يحل، وكانت المقهى فارغة من روادها، فاتخذت لنفسي مجلسا خارجها، أسرع إلي العامل فطلبت منه كاس شاي سرعان ما أتاني به. لاحظت اللوحة الفائقة الجمال التي كانت السماء ترسمها بسحبها المتناثرة بلا تناسق رائع! وهي مصطبغة بدماء شمس ذلك اليوم التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، تسلل سحر الجمال الخارق إلى نفسي المضطربة فملأها هدوءا ترسخ فيها مع أنفاس اللفافة التي أشعلتها بعد تناولي الشاي اللذيذ. ولكن وجهه اللعين أبى أن يفارق مخيلتي لحظة واحدة!!! كان هذا أثقل من أن أستطيع

تحمله، فقررت أن أحاول تناسيه! ولم يكن هذا ممكنا إلا إذا ما تمكنت من تحويل نفوري منه، إلى كراهية واضحة، أستطيع بها أن القي بوجهه، منبوذا، في إحدى زوايا ذاكرتي!

(ولكن صبرا يا أيها الدعيّ!!! مالك تثقل على الناس بمواعظك عن الحب، وأنت تستخدم الكراهية، سلاحا؟!!! وأي سلاح؟! سلاح ذي حدين، كلاهما مؤذ!!! فما الذي أنت فاعله بنفسك؟!. أتريد أن تضيف إلى جوقة الممثلين، تافها آخرا؟! ويحك! أتحتمي بخبيئة نفسك يا أيها النذل؟ هيا ابحث الآن عن السبب الحقيقي الذي تريد أن تكرهه من اجله، وإياك أن تدعي بان ذلك كان، لقتله إنسانا! فأنت لم تكره قابيل، لأنك لم تعرف هابيل يوما!!! فلم قد تكره طموحا، وأنت لا تعرف غافلا؟!!! هيا، هيا اعترف الآن، بان كل ذلك كان، لأنه كذب عليك!!! نعم، أنت غاضب لأنه كذب عليك، لا لأنه داس على القيم والمبادئ، بفعلته تلك!!! أنت غاضب لأنه مرّغ أسطورة ذكائك، بالتراب، عندما صدقته! لأنه جرح كبرياءك! أليس كذلك؟ كذب عليك! ثم ماذا؟ اهو أول من فعل ذلك؟ أم انه سيكون الأخير؟ هيا، لا تبح بهذا للآخرين، ولكن اعترف به لنفسك، أنت، لم، تغضب، لأنه خاطىء، فأنت الآخر لم تكن مثاليا في حياتك إلى الدرجة التي تخولك حق رجم خاطيء، بحجر! آه، هو ليس بخاطيء، بل قاتل، أزهق روحا بشريا ظلما! نعم هو قاتل، ولكن، هل ستنصب نفسك قاضيا الآن ؟ هل ستبدأ بالكيل، لكي يكال لك؟ هل ستسمح للآخرين أن يحاسبوك على أخطائك الصغيرة، لكي تنال حق محاسبتهم على أخطائهم الكبيرة؟!!! إياك أن تكذب، فأنت كنت وما تزال لا تتقبل نقدا، ولكنك تستطيع أن تنتقد من تريد، وبقدر ما تشاء!!! فأنت الآخر تكيل بمكيالين!. هيا قل الحقيقة، قلها لعنك الله، قل إن غضبك كله إنما كان بسبب شعورك بالاستغفال!!! فقد استغفلك وجعلك تصدقه، أي إن الأمر كله متعلق بكرامتك الشخصية!!! يا للعار يا رمزي، يا ابن الغريب، أمن اجل كرامتك ترتضي بهذا الموت لإنسان؟!!! لا تقل بأنه يستحق، فأنت لم ترتض بهذا لأنه يستحق! بل لأنك غاضب منه!!! هو لم يستغفلك، بل كذب عليك، ولكنك أنت من استغفل نفسه! هو، لا يستطيع ذلك، ولا أحد غيره يستطيع، ولكنك أنت من يمكن أن يسمح للآخرين باستغفاله، فهكذا تجري الأمور دائما، و لأسباب أنانية متنوعة!. هو كذب لان حياته على المحك، ومن كان كذلك، يمكن ان يتعلق بقشة، ولن يقيم اعتبارا لأي شيء آخر غير النجاة من الموت، بل وسيقترف الجرائم لكي يحافظ على حياته، ومن لا يفعل ذلك من الناس، قليلون. هو قاتل، بل وكذاب حقير أيضا، إذا ما أردت، ولكنه نال جزاءه، وها هو ينتظر مصيره، أما أنت فمالك أصبحت مدّعيا؟ أم انك كنت كذلك طوال عمرك؟!!! فهل تستطيع أن تعترف بأنه يستحق القتل، لأنه قتل؟! هيا اعترف بذلك، ولا تذهب إليه بعد غد، ولكن قبل أن تفعل، تذكر بأنك إذا قلت أنه يستحق، تكون قد نصبت نفسك

قاضيا عليه، وأنت تدّعي غير ذلك! أما إذا قلت غير ذلك، فتذكر موقفك الأخلاقي من القتيل! أكان هو الذي يستحق القتل إذا؟!!! رباه.)

وهكذا بدأت الدوامة مرة أخرى، أنا لم استطع أن احدد موقفي منه آنذاك، وهذا هو حالي الآن أيضا!!! كنت في تلك اللحظات في أقصى درجات اضطرابي، ولكني، (بالمناسبة، هل أحصيتم عدد المرات التي استخدمت فيها " لكن " في أوراقي هذه؟! ولكن! لا بأس، لأنه لا إدراك بدون إستدراك) قررت أن اذهب إليه في النهاية! ولم اعرف إن كانت بقايا شعوري بالشفقة هي التي دفعتني إلى ذلك، أم لأني أدركت أخيرا باني لن أستطيع أن أكون قاضيا؟!!!.

عندما بدأ صحبي بالقدوم تباعا إلى المقهى، كان الظلام قد مسح معالم تلك اللوحة الرائعة الجمال، فبدأت الدعوات إلى المبارزات الدومينوية، ولكني لم أجد في نفسي الرغبة في اللعب، ففضلت أن أراقبهم قليلا وهم يلعبون، قبل أن استأذن منهم، و أغادر ، لكي أعود أدراجي أخيرا إلى البيت.

(حقيقة)

وفيما أنا سائر بخطى سريعة، لمحت نبيلا يسير بسرعة هو أيضا، ولكن في الاتجاه المعاكس! لم ينتبه علي، فناديته. ليلتفت وتنفرج أساريره لرؤيتي، قال:

ـ آه، ها أنتذا!

قلت وأنا أتلقى يده الممدودة بكفي:

ـ وهل أتيت بحثا عني؟

ـ نعم، إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى البيت.

ـ إلى البيت! وفي هذا الوقت! يا للعجب!.

ـ أنا تعب قليلا، واشعر بحاجة ماسة إلى النوم.

ـ تنام! أنت تنام في هذا الوقت! ماذا حدث لهذه الدنيا؟!.

كان يبدو مصرا على ممازحتي ولكني لم أكن في مزاج رائق فقلت:

ـ ولكن، ما ألذي تريده مني؟

ـ لا شيء، فأنا مفتقد جلساتنا الحلوة، كما أني أردت أن أسألك عن القضية إياها، وما الذي حدث بشأنها؟

أدركت فورا بان الحديث معه سيكون له تأثير إيجابي على نفسي المبتلاة بتناقضاتها، فقلت:

ـ حسنا، ولكن لا رغبة عندي في تبادل الحديث بالمقهى.

ـ إذا، هيا معي إلى المنزل.

بعد خمس دقائق، كنا جالسين في غرفة الضيوف بمنزلهم، كان مزاجي قد تبدل قليلا، ولكني عرفت بان فنجان القهوة الذي سيجلبه لي بعد قليل، سيكون له اثر أكثر إيجابية في نفسي، فقد كان يجيد تحضير القهوة، لأنه يعشقها مثلي، ولم يمض وقت طويل حتى كانت تلك الرائحة الذكية تداعب انفي، وتطارد بآثارها فلول الكآبة المنهزمة، قال نبيل:

ـ ما هي أخبار صاحبك؟

أوجزت له ما حدث منذ افتراقنا بعد أن زرنا المحامي معا، وحتى تلك اللحظة، فهاله ما سمع من تفاصيل الجريمة رغم اقتضابها الشديد! فقال بعد أن سكتّ:

ـ ولكن، كيف أمكنك أن تكون متيقنا من براءته قبل ذلك؟!.

ـ نبيل، أرجوك، لا رغبة عندي في الخوض بهذا، الآن، بل أنا لا احتمل ذلك، فأرجوك.

ـ حسنا، حسنا، ولكن فقط اخبرني، هل ستذهب إليه يوم السبت؟

ـ وما الذي كنت ستفعله أنت، لو كنت مكاني؟

ـ لا اذهب بكل تأكيد، فهو لا يستحق حتى أن انظر في وجهه، لأنه كفّ عن أن يكون إنسانا منذ اللحظة التي قرر أن يقتل فيها!.

ـ تقصد اللحظة التي قتل فيها؟

ـ وهل هناك فرق؟

ـ كل الفرق، ولكن دعنا من ذلك الآن، المهم هو انك عبرت عن وجهة نظر معقولة فيما قلت، ولكني سأذهب.

ـ ولكن!

ـ بلا ولكن يا نبيل، قلت لك سأذهب، وسأفعل، فهلا تغير الموضوع.

ـ حسنا، ولكن عمّ تريد أن نتحدث؟

ـ عجيب! ألست أنت من أتى سعيا ورائي؟

فقال وهو يضحك:

ـ ها قد بدأت مناكداتك، و أسفرت عن طبعك المشاكس!

ـ أي مناكدات؟! أليس هذا صحيحا؟

ـ بل هو صحيح والله، ولكني لم أسرع إليك إلا لكي ألقاك و أسألك عن الموضوع الذي لا تريد أن تتحدث فيه، أما الآن فأنا لا أفكر في موضوع معين، ولكن هل خلت جعبتك من الأحاديث يا صديقي الثرثار؟.

ـ بل فيها الكثير، ولكني غير مستعد لإفراغ ما فيها الآن، لأنه لا يسر.

ـ ولكن، ما الذي حل بك؟ ولم كل هذه الكآبة؟!.

ـ لا، لا شيء، إنها مجرد أزمة، وستمر.

ـ ولكن ماذا حدث؟ هيا اخبرني الحقيقة الآن!.

ـ الحقيقة! هل تعرف بان الحقيقة كالماس في بريقها وشدة لمعانها، ولكننا لا نراها لأننا نطمسها في تراب عقولنا، وغبار إدراكاتنا الخاطئة؟!.

قال وهو في نقطة ما، بين الجد والهزل:

ـ ها هو رمزي الذي اعرفه، وما دمت أنت تعرف الحقيقة، فحدثني عنها قليلا.

ـ ولكني قلت لا نراها لأننا نطمسها! فمالك تنسب إلي ما لم اقله؟!.

عندها ضحك وقال:

ـ ولكني تصورت بأنك تدّعي معرفتها.

- لا تتصور عندما تتحدث معي، ولا تحاول أن تعرف ما في نفسي، فقط راقب شفتي عندما أتكلم وحاسبني على ما أقول. أما عن الحقيقة، فأنا اشعر باليأس أحيانا من إدراكها، ولكنني في كل مرة افشل فيها، أعود لأحاول.

- يا للتواضع!

- كفّ عن السخرية يا نبيل، واجبني، ألا يعتمد لون الماسة على الزاوية التي ينظر بها الرائي إليها؟

- هذا صحيح.

- ومجموعة الإشعاعات المنعكسة عن الأسطح المتعددة لها، هي التي تكون اللون النهائي لها؟

- وهذا صحيح أيضا، إلى حد ما.

- حسنا أنا أريد أن امسك ماسة الحقيقة يوما في وضع يجعل وهجها يخترق أعماقي، أريد أن انعم ولو للحظة واحدة، برؤية ما لا يراه الآخرون بسهولة. إن البحث عن الحقيقة مهمة صعبة جدا لأنها كامنة في زحمة الأشياء المتراكمة من حولنا، صدقني، هي بهذا القرب، ولكننا لا نراها! أو نراها، ولكننا لا نعرف بأنها هي. إن الحقيقة يا نبيل هي اللغز الذي حير عقل الإنسان منذ بدء الخليقة، وعجزت اكبر العقول عن حله كاملا، وأنا لن ادعي باني سأستطيع ذلك، ولكني اعرف بان الحدس الصحيح إلى جانب العقل والمنطق هي الأسلحة المعول عليها في هذا الميدان الصعب، ولذلك أنا أحاول، ولكن النسبية المحيرة التي تغلف جزيئات الحقيقة تجعلنا مهددين دوما بان لا نرى أمامنا ورغم السنين الطوال التي سرناها في هذا الدرب، غير نهايات خيوط مقطعة، لو عرفنا كيف نربطها ببعضها، لتوصلنا إلى الترابط الجدلي، بل والحقيقي، ما بين الأشياء المختلفة في الحياة.

كنت اعرف وأنا أتكلم، بان ما يدفعني إلى هذا الحديث، كان هو الموضوع الذي أردت تجاهله!!! ولكني شعرت في لحظة ما باني في واحدة من تلك الحالات التي نكون فيها متعبين من جراء معاناة طويلة، فنضطر إلى محاولة البحث عن مخرج مما نحن فيه بكل ما نمتلك من مقدرة على الفهم والتفكير بمنطق، وفجأة نشعر وكأننا قريبون جدا من الحقيقة!. قال هو بعد تفكير:

- وكيف نربط هذه الخيوط برأيك؟

أردف سؤاله بابتسامة فضحت شكه في جدية ما كنت أقول، فقررت ان انتقم منه، قلت:

- بمعرفة الحقيقة!

بدت الدهشة في عينيه، ولكنه قال بصبر:

- وأين هي الحقيقة؟!

ـ بالخيوط المقطعة.

ولكني لم استطع أن اصمد بعد هذا، فضحكت، ليضحك هو معي، ويقول:

ـ كنت اعرف بأنك تمزح، ولكن أسلوبك

فقاطعته قائلا:

ـ لا والله يا نبيل، أنا لم أكن امزح إلا في النهاية، بعد أن ابتسمتَ وأنت تسألني، أن الوصول إلى الحقيقة أمر صعب جدا كما قلت، حتى إنها تبدو كسراب مستحيل المنال أحيانا، ولكنها موجودة، وان عجزت عقولنا عن إدراكها فلمحدوديتها، سنظل نعاني من الآلام ونحن نحاول جاهدين أن نميط اللثام عنها، ولكننا خلال ذلك يجب أن نقدر المسؤولية التي سيلقيها على عواتقنا إدراكها، حقّ قدرها، إن رؤية بريقها الأخاذ، مسؤولية، مثلما هي حلم! ولكن، هل تعرف بأننا نلامسها أحيانا، ولكننا نضيعها بعد ذلك؟.

ـ كيف؟!

ـ لأنها تومض أحيانا كالبرق الذي يكاد يعمي أبصارنا، ويزيل دجى الليل عن وجه العالم، ولكنه بطرفة عين يختفي وتبتلعه الظلمة التي أراد أن يفنيها، في لحظة جموح وغرور!.

ـ ولكن لماذا يجب أن تبدو كذلك؟!

ـ هي ليست كذلك، ولكن عقلنا هو الذي يجعلها كذلك، لان كلا منا هو إنسان محدد بإنسانيته و أغلالها، فنحن نراها دائما، ولكننا ننساها لأننا نريد أن نراها كما نريد نحن، لا كما هي بالفعل!.

ـ ولكنك قلت قبل قليل!

ـ دع عنك ما قلته قبل قليل، فأنا شبهت الحقيقة بالبرق، وهو ش يء حقيقي، وموجود حتى إذا لم يظهر إلا لحظات، ولكن المهم هنا هو كيف نكسب هذا البرق الخاطف صفة الاستمرارية لكي نحيله إلى نور دائم؟

ـ وكيف يمكننا ذلك يا أيها الفيلسوف؟!.

ـ بان تمتلك الإرادة الصلبة التي تجعلك تنبش الأرض من تحتك لتبعد عن صلابتها، هشاشة الرمال، أن تتطاول إلى السماء، سماء الحقيقة لا سماوات الأوهام، أن تمد يدك إلى الغيوم الحبلى بالأسرار، والمتلهفة لجحيم المخاض، أملا في فردوس الخلق والولادة، لكي تجعل تيارها الهائل يسري مع الفجيع في شرايينك، ويكون عقلك هو الموصل بين سلب الأرض وإيجاب السماء، عندما تفعل كل هذا، ستنطلق شرارات من كل ذرة في كيانك، بل ستكون أنت هو البرق الذي ينير العالم من حولك، ويهتك أسراره بضياء الوهاج، لأنك تكتشف بذلك العقل والروح اللذين يمتلكان كل مفاتيح الحقيقة باقترانهما.

أواه يا إخوتي، لكم يكون المستحيل سهل المنال عندما نتحدث عنه بكلماتنا الخاصة! ولكن أين نحن منه؟ كنت إنما أحدث نفسي حينذاك، و أحاول إقناعها بما أقول!!! ولكنني لم استطع، لا لان رمزيته أعجزتني كما فعلت مع نبيل الذي عبّر عن عدم فهمه بتكشيرة مزاح! ولكن لان التجريد فيه بلغ حدا جعله غير قابل للتصديق حتى من قبلي!!! قررت أن أكون أكثر واقعية فقلت متابعا:

ـ أنت تعرف بان دنيانا هذه تخلو من الأبيض الناصع، والأسود الحالك، ولكن العجيب إن الآخرين يعرفون هذه الحقيقة، ومع ذلك ينكرون وجود اللون الرمادي، رغم إن دنيانا كلها مصطبغه به!!! لان الفرق بين الخير والشر فيها، ما هو إلا تفاوت في نسبة اللون الأبيض الذي يدخل في تركيبة اللون الرمادي، غير الأساسي كلون، و الأساسي كحقيقة واضحة للعيان فيها، أنت تعرف باني لا أريد أن القي عليك محاضرة في الألوان الآن، ولكن هذه هي ألوان الحقيقة، ويجب أن نعيها كما هي بالضبط، إذا ما أردنا أن نعرف الحقيقة.

ـ ولكني لم افهم لم تحدثت عن نسبة اللون الأبيض في تركيبة اللون الرمادي، وتناسيت اللون الأسود؟!.

ـ آه، نعم، إن الأبيض هو حقيقة كل إنسان يرى النور، والرمادي هو استحالته، مع نمو الإنسان وتعدد حاجاته، لاختلاطه بالأسود الذي هو حاجة الإنسان إلى استنباط السبل الكفيلة بتحقيق مصالحه الأنانية، وتوفير الراحة و الأمان لنفسه، ولو كان ذلك على حساب الآخرين، فهو يفعل ذلك معظم الوقت، وبعد ذلك يدّعي بأنه مخلوق عاقل ودائم التطور!.

ـ ولكن! أليس هو كذلك؟

ـ في الحقيقة نعم، ولكنه مع ذلك، أناني، وهذه هي مشكلته الرئيسة، لأنها تورده موارد الهلاك أحيانا، أنا وصفت الإنسان وهو طفل، بالأبيض رغم أنانيته، بل هو عند ذاك يكون كتلة من أنانية ولكنها مشروعة لأنها طبيعية، و من ثم فهي منزّهة، ولكن هذه المشروعية نفسها تفرض على الإنسان عندما يكبر، أن يكون خاليا من الأنانية لأنها تخرجه عن إطار المجتمع.

ـ ولكن الإنسان يستطيع أن يكون اجتماعيا، ويحتفظ مع ذلك بأنانيته.

ـ نعم، ولكنه إذا أراد أن يعيش حياته بسلام، يجب أن يطوّع أنانيته لكي تتلاءم مع متطلبات مجتمعه، لان البشرية ومنذ اللحظة التي اختارت فيها أن تعمل مجتمعة، أصبحت ملزمة بإدامة هذه المجتمعات وصيانتها، بل وبتطويرها أيضا.

ـ ولكنها لم تلغ فردية الإنسان!

ـ بل لم تلغها، ما دامت تعمل في حدود الشرعية الاجتماعية.

ـ ولكن تبقى للإنسان شخصيته المميزة!

ـ بل يجب أن يكون له ذلك لكي لا يفقد الرغبة في ممارسة حياته، و من ثم مقدرته على الإبداع والتطور، ولكن عند الاضطرار، فان المجتمع من حقه أن يلغي مصالح الأفراد لصالح مصلحته، لان الإنسانية لم تستطع أن تخلق الحضارة، إلا عندما أبدلت الحياة الفردية لإنسان العصور الحجرية القديمة، بالحياة الأكثر جماعية لإنسان العصر المعدني.

ـ ولكن الإنسان يا رمزي عندما يعطى حرية الاختيار، فانه من الممكن أن يلغي مصلحة المجتمع لصالح مصلحته الشخصية.

ـ نعم، ولذلك يجب أن لا يعطى هذه الحرية.

ـ ما هذا! أأصبحت من دعاة الدكتاتورية فجأة؟!

ـ دع عنك هذه الألفاظ، وحاول أن تفقه ما أقول، إنا لا أدعو إلى ش يء، ولكني أؤمن فقط بان الأداء الجماعي هو الأرقى، وان المجتمعات تتطور بتطور الضمير الاجتماعي لأفرادها، وتتأخر بانشغالهم بأنانيتهم، إن دروب الحضارة عصيّة على القوم المتفرقين يا نبيل، ولكن لنترك التفاصيل الآن، لأنها ترمينا في خضم متلاطم من الأفكار والآراء، ودعنا في حديث الألوان، إن الأبيض الناصع، والسواد الحالك، لا وجود لهما في حياتنا، بل يوجدان في الأفلام العربية فقط!.

ـ أتريد القول باني يمكن أن اقترف الشر مثلا، وأنا أسعى إلى الخير؟ أو أن احتفظ ببذور الخير في أعماقي وأنا شرير؟

ـ بالضبط هكذا، ولكنك تبدو غير مقتنع به!

ـ كلا، بل أنا مثلك أؤمن بهذا، واعرف أن البشر مهما تفننوا في إخفاء لونهم الرمادي تحت غطاء من بياض ناصع، فإنهم لن يصبحوا ملائكة كما يدّعون.

ـ لا فُضّ فوك يا نبيل، ولكن أتعرف ما هي مشكلتنا الحقيقي ة ؟ هي إن الجميع يعرفون هذا الأمر، ولكنهم يتعاملون معه بانتقائية مشينة، فهم يتناسوه عندما ينفعلون، ويتشدقون به عندما يراءون!

عندما كنت أقول كلماتي الأخيرة هذه، كان هو يتمعن في وجهي، وقد بان ظل ابتسامة على شفتيه، قال بعدما سكتّ:

ـ والله يا رمزي، تعجبني أفكارك حتى إذا ناقضت ما أؤمن به، ولكن الذي يحيرني الآن هو، كيف استطعت أن تقتنع ببراءة قاتل اغتسل بدم إنسان؟!!!.

فاجأني ما قال! ولكني قلت بدون تردد:

ـ أمرك عجيب يا نبيل! تتهمني دائما بسوء الظن بالناس، وعندما أحاول أن أساعد شخصا اعتقدت بأنه برئ، تتهمني بالخطأ!.

ـ بل كنت أنت من اعترف بالخطأ، ثم إن هذا لا يغير من الحقيقة شيئا، فأنت بالفعل سيئ الظن بالناس أكثر من اللازم!.

ـ بل أنت حسن الظن بهم، أكثر من اللازم.

ـ بالطبع، لأني يجب أن أكون كذلك، فهذا مبدأ.

ـ بالضبط، هو مثلما تقول، ولكني أتحدث هنا عن الناس، لا عن المبادئ.

ـ لم افهم!

ـ لم تفهم يا عبقري، حسنا، لأقله لك كالآتي، أنت يا نبيل تمتلك من المثالية ما يكاد يثقل كاهلك ويبلبل خطواتك، وأنا امتلك من الواقعية ما يكاد يخزّ الضمير أحيانا! عندما أخشى من أن أدوس على بعض المبادئ عن غير قصد! ولكن قبل أن تظن بي الظنون، أطمئنك باني لست بالشخص الذي يمكن أن يدوس على المبادئ وهو واع. وما أريد قوله هو، إني أحذرك من التطرف والتعنت، مثلما أحذر نفسي من الإسراف والإفراط، فنحن بخير ما دمنا نقف في منطقة الوسط ما بين المثالية المجردة والواقعية المفرطة، ولن نندم إلا إذا وجدنا أنفسنا يوما في خارجها، أنا اعرف بأنك تميل إلى الحدية، ويمكن أن لا يعجبك كلامي، ولكن، لم أكن أنا من قال، "خير الأمور أوسطها"، بل هو واحد من أعظم حكماء التاريخ، ونحن نقف في منطقة الوسط، وهذا ما يجعلنا نلتقي، ولكنك بميلك الفطري إلى المثالية، ترى في الآخرين ما ليس فيهم، أما أنا، فأدعو ما تدعوه أنت بسوء الظن، شكّا مشروعا، أي الشك الذي يوصلنا إلى الحقيقة، حقيقة الناس والأشياء من حولنا، إن الشك المشروع يا نبيل هو الذي يمكن أن يهدينا إلى يقين الإيمان، لأنه الوحيد الذي يعبر بنا برزخه.

ـ أنا اعرف بان الشك هو طريق انتهجه الكثير ون من الفلاسفة، ولكني ما أزال أرى إن موقفك من الآخرين، إنما هو سوء ظن لا يليق بك، وأنا في الحقيقة لم استسغ يوما قولك بان كل إنسان متهم بنظرك حتى تثبت براءته!

عندها ضحكت لأداري شعوري المفاجئ بالحرج! لأني كنت قد قلت مثل هذا يوما! ولا ادري لماذا تبدو حقيقتنا مزعجة عندما نسمعها من لسان الآخرين!! قلت بعد تردد:

ـ دعني أسألك سؤالا، ولكن فكر جيدا قبل أن تجيب، هل تعتقد بان الناس، كل الناس، يتصرفون بشكل مثالي؟

ـ بالطبع لا، هذا لا يحتاج إلى تفكير!

ـ لقد طلبت منك أن تفكر، لان لكلامي بقية، فأنت قد اعترفت بأنهم لا يتصرفون بشكل مثالي، وهذا يعني بان الكثيرين منهم، إن لم يكونوا جميعهم، حاملون لأحد فيروسات الآفات الاجتماعية

التي تصيب البشر في كل حين، فإذا افترضنا بأنك تستطيع أن تسأل كل الناس عن رأيهم في الذي يعمّ مجتمعاتهم، ألا ترى بأنهم سيستنكرونه كلهم، بلا استثناء؟!

ـ بالتأكيد.

ـ فمن الذي يمارس الكذب، ومن الذي يخدع وينافق ويغش، بل من الذي يسرق ويزني ويرتكب الجرائم؟!

ـ بعض الناس بالطبع.

ـ أي بعض الذين استنكروا، ما يمارسوه بالفعل؟!.

ـ حسنا، فهمت قصدك، ولكن هل هذا يعني بأنك تريد من المجرم أن يعترف بجرمه، والكاذب بكذبه، بهذه السهولة؟!

ـ ليتهم يفعلون، ولكني فقط أريد أن احتفظ بحقي في أن لا اصدق من لا اعرفه، حتى أتأكد من صدقه وحسن نيته.

سكتّ وبقى هو، كذلك، وقد بدت على وجهه إمارات التفكير، ولكني تابعت بعد حين قائلا: :

ـ هلا تخبرني يا نبيل بم تعنيه عندما تقول عن شخص ما، بأنه جيد؟

فقال بعد تردد قصير:

ـ اعني مثلا، أنه جيد، لأنه لا يكذب!

ـ وهل كنت معه طوال الوقت، لتتأكد من انه لا يكذب؟!

ـ أو انه طيب وحسن النية!

ـ ومنذ متى بدأت تعرف خفايا النفوس على وجه اليقين؟ أم انك تعني بهذا، المظاهر فقط؟!

فقال وهو يصرّ على تجاهل تعليقاتي:

ـ أو انه لا يؤذي الناس!

ـ وهل سلّطته على رقاب الناس، لكي تتأكد من انه لا يؤذيهم؟!

ـ قل لي فقط، إلى أين تريد أن تصل، لعنك الله؟!

عندها ضحكت وقلت:

ـ أنا لا أنكر وجود مثل هؤلاء الأشخاص، بل أنا أؤمن بوجود أفراد رائعين إلى درجة أن أتمنى لو كنت مثلهم، ولكني كما قلت، لا أريد أن اخدع بمظاهر الآخرين، إن الطيبة يا نبيل تتعارض مع أنانية الإنسان الفطرية، ولذلك تكون فجّة عندما تفتقر إلى العقل، أما الطيبة الحقيقية، فهي الموقف الذي يتخذه الإنسان العاقل، لسبب أو لآخر.

ـ نعم إن ما تقوله صحيح، ولكن ألا يضيّع شكك عليك، فرصة التعرف بأحد هؤلاء الطيبين الحقيقيين، أحيانا؟

ـ هذا احتمال وارد ولكن لكل موقف يمكن أن نتخذه، خسائره، ويجب أن نتحملها.
عندها راودت صورة طموح خيالي، فقلت:
ـ هل تعرف ما هي ابرز نقاط ضعفي؟
فقال بتهكم:
ـ لا تقل لي بأنها حسن نيتك!
فاجأني جوابه، فضحكت من أعماقي وقلت:
ـ أتدري؟ عندما تتقصّد أن تكون سخيفا، فانك يمكن أن تعبّر عن ذكاء كبير!
بانت علامات الدهشة عليه، وقال:
ـ ماذا؟! أتقصد بأنك تعني بهذا، إن حسن نيتك هي نقطة ضعفك؟ هذا غير معقول! أنت،؟ حسن النية! ما الذي حدث لهذا العالم؟!
ـ هيا، دع عنك التهكم واسمعني، ألم تلتق يوما بشخص يدّعي القوة، ثم تكتشف فيما بعد انه واحد من اضعف الناس؟! أو يظهر الصلف، لكي يغطي خجله، الذي يكاد يتعثر في كل حين، بسببه؟ فكيف تعرف باني لست واحدا من هؤلاء؟ نعم يا نبيل، أنا اخدع ببعض الناس أحيانا، وإياك أن تقول بان السبب هو غبائي، فأنا لست بالغبي، ولكن ذلك يكون بسبب حسن نيتي تجاههم، لأنهم لا يستطيعون خداعي، بل أنا خُدعت لأني أردت ذلك، بدون وعي مني، وان كنت لا اعرف السبب بالتحديد، فانه موجود بالتأكيد في أعماق اللاشعور عندي، لا ادري، لعله يكون وجها يعجبني أو لسانا عذبا أو مظهرا خداعا، ولكن المهم هو أني اخدع بسبب حسن نيتي، التي هي اضعف نقاط دفاعاتنا التي نقيمها في وجوه الآخرين.
ـ لا ادري! ولكني اتفق معك في بعض ما ذهبت إليه، ولكن، ألا ترى بان حسن النية يجب أن يتوافر لدى الإنسان الطبيعي، رغم كل ما قلته؟
ـ بالطبع ولكن مع الناس الذين نعرفهم والذين نحن متأكدون من نقاء سريرتهم، وحتى مع الذين لا نعرفهم، يجب أن لا ندع الشك يحدد تصرفاتنا تجاههم، لأنه مجرد شك وليس يقينا.
وقبل أن يرد علي هذه المرة قلت:
ـ ألم يحن وقت القهوة بعد؟
ـ أية قهوة؟! أتعرف كم هو الوقت الآن؟
ـ ليذهب الوقت إلى الجحيم، فأنا أريد أن استمر، هيا قم و آتنا بها، أم انك نعست وتريد أن تأوي إلى الفراش؟
ـ لا والله، ولكن زوجتك، وأطفالك!
ـ هم نيام الآن، ولا يحتاجوني، وان ذهبت، فلن أكون إلا وحيدا.

بعد هذا لم ير بدّا من أن يقوم لإحضار القهوة، وبعدها عاودنا الحديث الذي تشعب، فخضنا في شتّى المو ضوعات، نتفق عندما نلتزم بالعموم، ونختلف عندما نتورط في التفاصيل أحيانا، ويحدث العكس في أحيان أخرى! وكالمعتاد، تخللت أحاديثنا مناوشات ضاحكة.

خلال حديثنا عن شخص نعرفه كان متهما بجريمة قتل هو أيضا! قال نبيل فجأة:

ـ ولكنه لا يمكن أن يكون قاتلا!

ـ ولماذا لا يمكن؟!!!

ـ هكذا، لمجرد إن القتل ليس سهلا ولا يمكن لكل شخص أن يقترفه.

ـ ليس سهلا، نعم، ولكن ما هو تصورك عن القتلة؟ هل تتصور إنهم يبدون وحوش ا كاسرة؟ أم إنهم بشر مثلنا، ولكنهم يحملون لافتات على صدرهم تنبئ الآخرين بحقيقتهم؟ ألم يخطر ببالك يوما ان يكون الشاب اللطيف الذي يسير إلى جانبك، أو يجلس أمامك في المقهى، قاتلا؟! إن لم تكن قد فعلت، فاعرف بان هذا ممكن، بل ما الذي يؤكد لك باني لم اقتل أحدا في حياتي؟ هل تستطيع ان تتصورني قاتلا؟.

ـ لا والله، لا أستطيع.

ـ ولماذا؟!

ـ لأني لا أستطيع احتمال فكرة أن تكون كذلك!

ـ لا تستطيع، نعم ولكن هذا لا ينفي إمكان أن يكون هذا الاحتمال واردا جدا،

ـ لا ادري، لعلك تكون على حق فيما ترمي إليه، ولكني فقط أرى بان شخصا مثلك لا يمكن أن يكون قاتلا!.

ـ أي نبيل، أنا إنما أتحدث هنا عن لحظات غير طبيعية في حياة الإنسان، حالات شاذة، لكنها موجودة، فلا تحاول أن تتعامل معها على وفق أحكام العقل والمنطق لأنها لحظات يكون فيها ضمير المرء اضعف من أن يردعه.

ـ وكيف يكون الضمير ضعيفا في لحظة وقويا في أخرى؟! أنا اعتقد بأنه يجب أن يكون موجودا أو غير موجود!

ـ أما اسود أو ابيض، أليس كذلك؟ لا يا نبيل، إن كل فرد في المجتمع له ضمير ولكنه يكون رهنا بحالة الإنسان النفسية.

وعندها فقط برز وجه في مخيلتي من إحدى زوايا ذاكرتي، ولم اعرف لم تذكرت ذلك السجين الذي كان قد قتل أخته غسلا للعار كما ادّعى، و أطلق سراحه بعد خمس سنوات!!! ولكني أردفت قائلا:

ـ تصور إن إنسانا خائفا، لأنه يعاني من هاجس يثقل على نفسه ويضنيها، فإذا كان يستطيع أن يداري الفضيحة التي يخاف منها، خوفه من الموت نفسه، فهل تتصور بأنه سيتردد حتى إذا كان هذا الإخفاء يعني القتل؟! أنا لا أتصور ذلك، كما لا أتصور إن إنسانا محبطا طفحت ساديته في لحظة غابت فيها عين الرقيب، أو جبان اقترف ما أخافه، والخوف يدفع أحيانا إلى الشطط والتطرف، يمكن أن يعي هول ما هو مقدم عليه، سلفا، أو أن يتوقع مدى تأنيب الضمير الذي سيعانيه فيما بعد، وأنا هنا لا أتحدث عن الجرائم التي يسبقها القصد والتصميم بالطبع.

ـ والله أنا لا اعرف أي شيطان يجعلك تتكلم بهذه الطريقة؟! ولا ادري لم تصر على التحدث في مثل هذه الاستثناءات المقرفة

ـ عجبا! ألا تريد أن تعرف الحقيقة؟! أتتصور أنها ستسلمك زمامها بمجرد معرفتك القواعد؟! أو انك ستعرفها بالاستماع إلى الآخرين، واخذ ادعاءاتهم على علاتها؟ لا يا نبيل، أنت لن تستطيع أن تفهم الكثير بقراءة صفحات الكتاب كما هي، بل يجب أن تتعلم قراءة الأسطر وما بينها، دعني أحدثك عن قصة، لكي أوضح لك ما اقصد.

ـ ولكن، أما كفانا قصصا شاذة؟

ـ كلا، صدقني بان هذه القصة هي اقرب للتصديق، كما أعدك بأنها ستكون الأخيرة.

ـ حسنا، هات ما عندك.

ـ بدأ كل شيء عندما تقدم مليونير عجوز لخطبة فتاة صغيرة ولكنها فائقة الجمال، كانت في السادسة عشرة من عمرها فيما تعدى هو حدود العقد السادس من عمره، ولكن أهلها وافقوا على الزواج فتم.

ـ أوه، إنها القصة الحزينة إياها، ولكنك إذا كنت تختلق ما تقول، فانك لن تأتي بجديد.

ـ ولم قد اختلقه؟! إن ما سأقوله إنما هو قصة حقيقية من الواقع، لقد تزوجها وعاملها العجوز كأميرة فقد كان فاحش الثراء، وكانت هي جوهرته التي طال بحثه عنها، لكن فرحتهما لم تتم، لأنهما سرعان ما اكتشفا إنها لا تستطيع الإنجاب، فقد كانت عاقرا، وذهبت جهود الأطباء لإزالة عقمها أدراج الرياح. وأخيرا بان بصيص من الأمل أمامهما، عندما اخبرهما طبيبها بان هناك طريقة جديدة لمعالجة حالتها في أوربا، ولكنها ما تزال في طور التجارب، ولكنه يستطيع أن يقنع الأطباء هناك بإدراج اسمها في تجاربهم، قرر الزوج أن تسافر إلى هناك على الفور، ولكنه كان مريضا، فاختارت هي أن يكون رفيقها في السفر، طبيب ا شابا ومغمورا يعمل مع الطبيب المشهور الذي كان يعالجها!. وخلال ال مدة التي كانت فيها هناك، توفي زوجها، فرجعت بعد مرور أكثر من شهرين على سفرها، لتستكمل إجراءات انتقال الإرث إليها، وكان ثروة طائلة. وبعد مرور عام على وفاة زوجها، أعلنت فجأة نبأ خطبة الطبيب الشاب لها، واشترت له عيادة

فخمة في وسط العاصمة بدأ بها طريق الشهرة الذي أصبح مفتوحا أمامه، بعد الزواج اختفت الأرملة، أو بالأحرى الزوجة الحسناء، لتظهر بعد اشهر وهي تحمل طفلا في يديها، ولتعلن بان علاجها في أوربا قد نجح، ولكن حظها العاثر شاء أن يموت زوجها الأول قبل أن يجني ثمار الأموال التي أنفقها على علاجها، وبعد زواجها الثاني، اخفت ذلك حتى تتأكد من النتائج، لتتجنب بذلك مشاعر الإحباط في حالة الفشل!.

ـ قصة جميلة، رغم إنها تكاد تكون قصة فلم عربي! ولكن إلى متى تريد مني أن اصبر قبل أن اعرف بيت القصيد؟ ولكي أقول الحق، اعترف باني ما زلت اشك بأنك تختلق ما تقول لغرض ما في نفسك!.

عندها ضحكت وقلت:

ـ لا والله، أنا لا أريد أن اعبث معك، وكل هذه التفاصيل عرفتها من الصحف التي اهتمت بسير القضية في المحكمة.

ـ محكمة! وقضية! أي محكمة؟

ـ المحكمة الشرعية، لأنها وبعد أن كبر الطفل حتى أصبح صبيا، وبعد أن أصبح زوجها، طبيبا مشهورا، قررت أن تطلب منه الطلاق على أساس أنها ضبطته يخونها مع الخادمة!.

ـ الخادمة!!! ولكن زوجته كانت حسناء كما قلت!

ـ بل كانت كما وصفتها الصحف فائقة الجمال، ولكن المهم هو ما حدث في المحكمة، فقد اظهر الزوج هناك وثائق تثبت عقم زوجته الكلي، الأمر الذي يثبت بان الصبي لا يمكن أن يكون ابنها، بل هو ابن حرام أرادت أمه أن تتخلص منه، وهو ما يزال جنينا، إلا انه أقنعها بالاحتفاظ به، وعندما ولدته منحوها مبلغا كبيرا من المال لتختفي، وليسجل الوليد على أساس انه ابنهما.

ـ عجيب! ولكن كيف كانت نهاية المحاكمة؟

ـ صدر الحكم في النهاية لصالح الزوجة بالطلاق، واعتبار الصبي ابنها الشرعي.

ـ ولكن ماذا عن تلك الوثائق؟

ـ أتسألني أنا؟ اسأل القاضي الذي أصدر الحكم. وفي كل الأحوال، لم يهتم أحد بذلك، لان الرأي العام كان مع الزوجة بشكل مطلق ولم يقف مع الطبيب غير محاميه.

ـ وهو يستحق ذلك، لأنه إنسان حقير.

ـ كان هذا رأيي أيضا، ولكني قابلت سجينا قبل فترة، كان عجوزا خبيثا وكانت لي معه أحاديث مطولة عرفت خلالها انه كان يعمل في دار الطبيب وزوجته منذ بدء زواجهما، ويبدو انه كان مطلعا على أسرار ذلك البيت كثيرا، وقد أذهلتني ادعاءاته.

ـ ولكن ألا يمكن أن يكون كاذبا؟!

ـ بالطبع، ولكنه يمكن أن يكون صادقا أيضا، المهم هو، انه قال مثلا إن الصبي إنما هو ابن الطبيب من الخادمة الشابة، ولكن بعلم الزوجة التي أمرت أن تبنى لها غرفة خاصة في حديقة قصرها المنيف، وبعيدا عن جناح الخدم، بل هو أكد لي بان الزوجة هي التي خططت لذلك منذ البداية وذلك لتلهفها الشديد إلى الأمومة التي حرمت منها.

ـ أمر عجيب!!!

ـ هل هذا يعني بأنك صدقت ما قال؟!

ـ يا للشيطان، أتريد القول بأنه كان يكذب؟!

ـ قلت لك لا اعرف، ولكني أذكرك فقط، بان هذا إنما هو ادعاءات شخص يمكن أن يكون حاقدا لسبب أو لآخر، ثم لا تتعجل في التعجب، لان الأعجب هو السبب لطلب الطلاق، وحسب ادعاء هذا الشيطان!

ـ ولكن! يبدو انك لم تكن تحبه!

ـ كلا لم أحبه أبدا لأنه كان أفاقا أثيما.

ـ فلم صدقته إذا؟!

ـ لقد قلت لك، باني لم، أصدقه، ولكني لم أكذبه، وأنا لا افعل شيئا الآن، سوى نقل أقواله كما هي، ولكن لكي لا أطيل عليك، أقول إن السبب الحقيقي لطلب الطلاق كان وجود رجل آخر في حياة الزوجة، أرادت أن تتزوجه بعد حصولها على الطلاق.

أبدى تعجبه الشديد، ولكنه لم يعلق بشيء، ثم جرنا الحديث بعد ذلك إلى مو ضوعات جانبية، أقنعني خلالها أن أصيب شيئا من طعام، وخلال تناولنا إياه لاحظت إن ضوء الشمس يمتزج مع نور المصابيح الكهربائية في الغرفة!!! قلت:

ـ رباه، كم قضينا من وقت في أحاديثنا؟!!!

بعد ذلك حان وقت عودتي إلى البيت، رافقني هو إلى الباب وودعني.

قررت أن أسير إلى البيت رغم شعوري بدوار السهر، كنت اشعر براحة كبيرة كما هو شأني في كل مرة اقضي فيها سهرة حلوة مع صديق.

وصلت بعد حين إلى البيت، فتحت الباب بهدوء وتسللت إلى الداخل، ولجت غرفة النوم محاذرا، ولكن زوجتي النائمة فتحت عينها حال دخولي! ألقت علي نظرة مستفهمة، ثم نظرت إلى الساعة، تحول الاستفهام في عينها إلى غضب، وقالت:

ـ أين كنت؟

ـ مع نبيل، في بيتهم.

كانت تعرف نبيل جيدا وكان رأيها به ممتازا، فقالت:

ـ ولكن ما الذي كنتم تفعلونه حتى الصباح؟!

ـ نتحدث

ـ تتحدثون فقط؟!

ـ نعم، نتحدث فقط.

فلم تعلق بعدها، اقتربت منها لكي اطبع على خدها قبلة الصباح، ولكنها أبعدت وجهها عني بحركة غاضبة! فابتسمت لها خجلا، وبدأت بعدها بتغيير ملابسي وأنا العن نفسي لأني لم اكذب عليها كما كنت قد قررت قبل ليلتين!!! ولكني عندما ألقيت نظرة على طفلتي التي كانت تنام كالملاك في مهدها، شعرت بالبهجة تكتسحني، امتلأت رضى وتسللت إلى الفراش، أسلمت رأسي إلى الوسادة وأنا أتهيأ لنوم عميق.

(سمعان)

عندما خرجت من بيتي فجرا في يوم السبت، إخترقني البرد الذي لم أكن قد حسبت له حسابا، ولكني لم اعد أدراجي لأبدل ملابسي الخفيفة خوفا من ضياع المزيد من الوقت! فقد كنت في عجلة من أمري لكي أتخلص من ذلك الواجب الثقيل جدا، سرت باتجاه الشارع البعيد وأنا مستسلم للشعور بالوحشة وعدم الاطمئنان اللذ ين كان البرد يثيرهما في داخلي دوما. فزاد هذا من ضيقي حتى فكرت في أن أعود، ولكني قررت أن امضي قدما!.

لم اصل إلى السجن، إلا قبل وقت التنفيذ بقليل كما كنت قد قررت، رغم انه طلب من الحضور قبل ذلك لكي يتمكن من الحديث معي!!! لأني لم أكن اعرف كيف يمكن أن أحدث إنسانا متمسكا بالحياة، في الساعة الأخيرة التي سيقضيها فيها!!! ولا أخفيكم باني كنت اشك أصلا في انه سيستطيع أن يحدثني! ولكني ما أزال أتساءل عم كان يريد أن يحدثني؟!!!

فاجأ دخولي الباحة، التي هي موقع التنفيذ، الجمهور الصامت الذي كان حاضرا، وسرت همهمة فيما بينهم، فقد أثار وجودي استغرابهم! وكيف لا يثيره حضور غريب أطوار مثلي، لا يهوى مراقبة الناس وهم يموتون، حفلة إعدام؟!!!. لم يكن هو قد احضر بعد، فاتجهت نحو الدهليز المؤدي إلى الزنزانات الذي كانوا يسمونه رواق الموت! ولكني لم اسر فيه سوى خطوات معدودات حتى رأيت اثنين من الحراس يجر انه جرا بل يكادان يحملانه وهو مكبل بالأغلال، ويتبعهم آخرون، كان يبكي بحرقة وهو يتوسل الحارسين الصامتين اللذين علا وجهيهما العبوس الشديد!، والله لن أنسى يوما ذلك المنظر الوحشي الهائل الذي لم أتصور باني سأراه في عالم البشر المتحضرين! إياكم أن تقولوا بأنه كان وحشا هو أيضا، عندما قتل صاحبه، فأنا اعرف ذلك، ولكني لم استطع إلا أن أتعاطف معه في تلك اللحظات، فهو في الأقل لم يدع القتيل يعرف بأنه سيموت، قبل أن يقتله!!! كان صوته يتحشرج وهو يقسم بأنه برئ، وان ما يحدث، هو ظلم رهيب!!! لم يكن يستطيع السير، وبدت رجلاه وكأنهما صنعتا من قش! ولو أفلته الحارسان، لتهاوى على الأرض كالمشلول! تقدمت بلا شعور باتجاهه، ولكني سرعان ما تسمرت في مكاني! أتقدم إليه!!! لم؟! ألكي أشجعه على التقدم إلى الموت الذي لم يرتضه، بثبات!!! أم لكي اخبره كم أنا آسف، واعبر له عن حزني وحسرتي عليه؟!!! وكيف آسف عليه بعدما دحر النفور المفاجئ منه، شفقتي عليه!!!. وهنا اسمحوا لي أن أتوقف عن الاسترسال لكي أحدثكم عن اكتشافي المذهل بسبب التذبذب العنيف في مشاعري خلال تلك اللحظات!. وأنا في غمرة أدائي المتميز لدوري الإنساني المتعاطف، تبادر إلى ذهني سؤال! ما الذي كان سيحدث

لو كان هذا البائس قد استطاع نيل الأموال التي طمع فيها، وشاء الحظ أن لا يتهم هو بجريمته؟!!! ألن يختال حينها كالطاووس أمام الآخرين الذين سيحترمونه عندها بالتأكيد؟!!! فهو بطبعه فخور! وكنت سأصدق بان نفوري المفاجئ كان ، بسبب حرمانه من محبة الله، لولا أني تمنيت في لحظتها أن يكون عندي من الحظ ما يمكنني من تلقين صحبي المتبجحين بصولاتهم الظافرة في المقهى، دروسا بليغة في لعب الدومينو!!! نعم والله، كان هذا هو ما فكرت به!!! ومضة حقيقة، أزالت كل رياءات الادعاء! فالأمر كله يتعلق بالعقد المتأصلة في نفس كل واحد منا!!!. أنا لا أستطيع أن اشرح لكم ما أريد بالضبط، فقد سبق أن قلت لكم باني افتقد الموهبة أو الاحتراف، ولكن ما حدث، كان أشبه بحال إمرئ فقد عزيزا، تلفت نظره وهو في غمرة الحزن، امرأة جميلة! أو يشتهي أكلة يحبها!!! تنبهوا، أنا لا أتحدث هنا عن الحاجة، بل عن الاشتهاء، وشتان ما بين الاثنين. إن هذا لا يعني بأنه ليس حزينا، بل هو حزين، ولكن ليس إلى الدرجة التي يدعيها، لأنه لو كان كذلك لما اشتهى شيئا!!! وهذا الهامش ما بين الحقيقة والادعاء، هو الذي يجعلنا نعيش في ازدواجية ويضلنا عن دروب الحقيقة المطلقة!!!.

عندما بتهت على نفسي، كان هو قد راني فراح يخاطبني قائلا بتوسل:

ـ ها قد أتيت أخيرا، هيا اخبرهم يا أستاذ، اخبرهم بأني بر، أنت تعرف ذلك، هيا اخبرهم، لا تقف هكذا صامتا، أنا سأموت، سأموت يا أستاذ، ألا يهمك ذلك؟

لم انبس ببنت شفة، ورحت أراقب موكب الموت بصمت، حتى اجتازني، فبقيت أحدق في فراغ لحظات، قبل أن أتدارك نفسي، و أسير خلفهم!.

كان ما اكتشفته قبل قليل قد أذلني كثيرا! ولكني مع ذلك كنت أخاطب طموح المسحوب إلى الموت عنوة، في خاطري، قائلا:

(ألم تفهم ما الذي يحدث، يا أيها المسكين؟ ألم تعرف انه لن ينقذك من مصيرك المحتوم شخص الآن؟! هيا، قف على رجليك وتقدم كالرجال، كن رجلا حقيقيا ولو مرة واحدة في حياتك، كف عن البكاء وآمن بقدرك، بل تقبل مصيرك الذي اخترته بنفسك، ما الذي توقعته يا ترى؟ أتوقعت بأنك ستستولي على تلك الأموال لتحقق بها أحلامك البائسة! ألم تتوقع الاحتمالات السيئة؟! حسنا هذه هي أمامك، فذق مرارتها لأنك لم تلعب جيدا! اللعنة! لماذا تصورت بأنك ستكون رابحا في كل خطوة تخطوها؟! والخسارات؟! هل تصورت أنها قدر غيرك فقط؟!. حلمت أحلاما سعيدة وأنت تفكر بتلك الأموال! حسنا، هذا من حقك ما دمت مفرطا في أنانيتك، ولا تحسب حسابا لغير الجانب المادي من الحياة! ولكن، ألم تقضّ كوابيس مضجعك لتحذرك من الجانب المظلم من الأمر، قبل أن تقدم؟! ها أنتذا تعيش شر تلك الكوابيس رعبا، فلم أغرقت في التفاؤل، ونسيت

أن تحسب حساب الخسارة! راهنت على الحظ، و أهملت عقلك! فهذا ما جنيته، تماسك! لعنك الله)

كان قد وصل وحارساه إلى الباب المفضي إلى الباحة، حين شعرت بالخوف للمرة الأولى! لم اعرف عندها لم يجب أن أخاف؟! ولكني اسرعت خلفهم لكي افر من خوفي! كان ما يزال مستمرا في هذره، فالتفتت إليه وجوه الحاضرين، وقد بانت في عيونهم إمارات فضولهم الشديد! شعرت عندها بتقزز لأنهم سيستلذون بالمنظر الذي يمنون أنفسهم بمرآه!!! هم سيخافون، ولكنهم سيتابعون ما يجري بكل اهتمام! سيخافون مثلما أخاف! ولكن خوفي كان يزداد كلما اقترب هو من منصة الإعدام!!! بل كنت عندها مرعوبا! ولكن لماذا؟ فلست أنا الذي سيشنق! فلماذا الرعب؟! حاولت أن اقنع نفسي بان مدلولات ما كان يجري هي التي تخيفني، لان الإنسان عندما يقتل خوفا من جوع، فانه يمتلك مبررا على الأقل! ولكن أي مبرر يمتلكه هذا الشاب؟! فتصورت بان الإجابة على هذا السؤال هي التي كانت ترعبني، ولكن الغشاوة كانت قد زالت عن عيني! فعرفت أخيرا بان فكرة أن أكون بهذا القرب من ملاك الموت، وهو يؤدي واجبه الرهيب، هي التي تخيفني أيضا!!! أنا مرعوب، لأني خائف من الموت! موتي أنا!!! أذلتني هذه الحقيقة مرة أخرى، فبكيت! بل أجهشت في البكاء، وسالت دموعي مدرارا!!! التفت إلي الحضور! وبدا الارتباك واضحا على مدير السجن الذي كان مشغولا حتى تلك اللحظة بتأكيد مظاهر العظمة التي يتوهمها في نفسه!!! رمقني مسؤولي المباشر السابق شزرا! أومأ لي آخرون برؤوسهم، لينبهوني إلى المأزق الذي كنت انزلق إليه!!! كانت إدارة السجن تمنع أهالي المحكومين من حضور عملية التنفيذ، لأسباب إنسانية، ولكي لا تسبب المشاعر المنفلت ة إرباكا أو اضطرابا! يا للمساكين، أي إحراج سببته لهم في ذلك اليوم الكئيب؟ لقد انتهكت ببكائي، حرمة الطقوس الصامتة التي دأبوا عليها طوال سنين!، سببت الإرباك حتى للجلاد الذي تلقى "الطموح السابق" بكل ثقة، وبدأ يهيئه للحظة المنتظرة بكل هدوء، قبل أن يضطرب وهو يلتفت إلي مع الملتفتين، ليقع من يده الكيس الذي يستخدم لتغطية وجه المعدوم! وللحقيقة أقول، انه كان الوحيد الذي سوغت له اضطرابه فيما بعد، لان علاقة طيبة كانت تربطني به، وكنت متأكدا من انه كان قلقا لأجلي!!!. كانت إيماءاتهم الصامته تتزايد، وأنا لا أتوقف عن البكاء! تحول الارتباك البادي على وجه المدير، إلى غضب، وشت به حمرته القانية! ازدادت حركات مسؤولي السابق حنقا! ولكني كنت اشعر عندها بنفور شديد منهم! كنت أريد تحديهم! بل أن استهين بهم، وبما يمكن أن يفعلوه! ولكني فجأة تركتهم لدهشتهم، و أطلقت لساقي العنان!!!

(راية بيضاء)

عندما خرجت من مبنى السجن كنت اركض كالمجنون! وبقيت كذلك طويلا، حتى أدركني التعب، ولكني لم أتوقف، بل تحول ركضي إلى سير سريع، كنت قد ابتعدت عن السجن كثيرا ، ولكني لم التفت إلى الوراء، عرفت عندها أني لن أعود إليه أبدا! فلم اعر إدراكي بأنهم سيظنون بي الظنون، لأني بكيت، أي اهتمام، ولكن الأزمة في داخلي تفاقمت فازددت توترا ، وتكالبت علي المنغصات بشتى أنواعها، تنتابني اشد الأفكار جنونا! ولكني أدرك أن مصيري ليس ملكا لي! فلأتأسى مرغما!، السأم من كل ش يء يتآكلني، ولكن! لا مفر من المواصلة، القرف من الآخرين يدفعني إلى الهروب إلى الداخل ، ولكن قوى العزل عندي تحبطها ضرورات الحياة! أحتار! يجب أن يكون هناك أمل، والأمل موجود ، لان هناك الكثيرين ممن لم تدنسهم التفاهة و تفسدهم الأطماع، ولكني لم التق بهم، تطمئن نفسي وأحاول أن افرح ، ولكني لا أستطيع شيئا آنذاك، غير البكاء! تكبر العبرات حتى تستحيل بحرا متلاطم الأمواج، تتقاذفني تياراته، امتلئ خوفا من المجهول! إلى أين نسير؟ وما الذي نريده؟ لا جواب!!! استطلع الغيب واستنطق الأقدار، اشحذ كل قابليتي على الحدس والتخمين، ولكني لا ازداد إلا حيرة!!! ألا يا أيها الغد المجهول، ما الذي تحمله لنا في جعبتك؟ أتقطيبة تمحوها فيما بعد ، بسمة حانية؟! أم تكشيرة تفضح الأنياب التي ستمزق بها أجنة أحلامنا ، ومواليد آمالنا؟! أمشروع غدر يقتلع الأزهار القليلة التي تبقت لنا في حدائق تفاؤلنا؟ أم دفق مفاجئ من فرح يمسح كل حزن الأيام السود التي مرّت؟! ولكن! لم يجب أن تكون رحيما بنا ونحن لا نرحم أنفسنا؟! أغوص في لجّة من كآبة وتشاؤم، فلألعن تلك المسكينة التي فقدت ولدها للتو!!! العنها لأنها هي من أسلمته إلى جلاده بنفسها!!! وهل يسقط المرء غير غراس أبويه؟!!! ولكني ارثي لها لأنها حاولت جاهدة أن تنقذه، أما كان الأحرى بها أن تحاول ذلك قبل أن يستفحل الخطأ؟! بل لماذا لم تنقذه من نفسه، ولماذا أسلمته إلى الضياع؟!. رباه، كيف التصرف، وقد تكالبت علينا أوزارنا حتى أخذنا بجريرة قتيلنا! وأحقنا الظلم بقاتلنا!!! أما آن لهذا أن ينتهي؟، والله هو لن ينتهي ، لأنكم لا تهتمون بالغد ، فانتم تعيشون فقط ليومكم، أما أنا فاهتم به لأني أخشى على أولادي، فهم كل مظاهر أنانيتي، فلنا لا مطمح عندي ولا مطمع لنفسي، ولكني لن أثقل عليكم بمزيد من الادعاءات، أنا أريدهم أن يكونوا، لكي أفاخركم بهم! ولكني خائف عليهم من غد يشابه غدي! لقد طال أوان هذا الغد الممتد منذ قرون، وان له أن يختفي، فهل تعتبرون؟! هل تتنبهون للغد المظلم الذي اعد لأبنائكم، أم أنكم لم تفقهوا؟! أنا اعرف بأنكم ستضحكون علي، وتسخرون مني، وانتم تسفهون آرائي! ولكني مبتئس لأني اعرف بأننا سنلاقي في النهاية قدرنا المشؤوم!!! وإذا كنتم في شك مما أقوله؟. إذا

كنتم واثقين من أنفسكم، وصحة اختياراتكم؟ بل إذا كنتم انتم على حق؟ فهلا أخبرتموني لم سلط عليكم سفهاؤكم! وقضى بينكم جهلاؤكم، وسلمت ثرواتكم إلى البخلاء منكم؟!!!

عندما وصلت إلى البيت كنت محموما، امتقعت امرأتي عندما رأتني على ذلك الحال، سألتني عما حل بي، ولكني لم اجب! بل استلقيت على اقرب أريكة ، وطلبت منها أن تدثرني (دثريني يا حظي الطيب، بل احتضنيني، فلنا في حاجة إلى حنان، بل أنا استجدي العواطف الصادقة، فامنحيني إياها كما كنت تفعلين في السابق، ودعيني ابكي كالأطفال في أحضانك قبل أن أنام).

(ملاذ أخير)

ملابسي التي بللها المطر تلتصق بجسدي ، فتستثار خلاياه لملامسة الماء، ذهني يحفره قرع قطرات المطر اللطيفة ، أبواب بشرتي! تغازلني وتثير صبابتي!. زوجتي خائفة علي وتطلب مني أن أبدل ملابسي، تقول لي بأنهم سيتهموني بالجنون! فليفعلوا!!! أنا المجنون الذي يرفض عقلهم! أما أنت يا أيتها القطرات الرائعة ، فاخترقي حدود بشرتي ، وأنفذي ببردك إلى أعماقي الملتهبة، لامسي الروح الظمأى وارو يها، واخمدي براكيني. وأنت يا أيتها الغيوم الطاهرة، جودي بحملك المبارك على الأرض، ابكي ولتتساقط دموعك عليها. مطر يا مطر ، أهطل على الأرض التي شققها الشح ، واغسل أوراق الشجر، داعب العصا فيو، وبلل الثمر، هدئ من روعك الثرى التي أخافها الجفاف ، وأضناها اقتراب الخطر، أهطل يا مطر ، وعلم الناس العطاء، بأريحية القطر.

هناك على حدود الصحراء الممتدة، يجلس الشيخ الجميل ودموعه تبلل لحيته البيضاء، يجلس في حديقة غناء لا اعرف كيف ن بتت أزهارها في هذه البيداء القاحلة، كان بعيدا عني ، ولكني ميزت وجهه بوضوح، مثلما كنت اسمع كلماته:

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا ارحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العقبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)

عندما استدار بوجهه نحوي ، ابتسم لي ، فتوقف المطر، وأشرقت الشمس ، في لحظات! قال لي بلهجة حانية، عذبة:

- أتخاف الموت يا مسكين؟ لا تخف، لأنه لا جدوى من مقاومته، هو آت لا ريب فيه، فتقبله كما هو، هو ليس نقيض الحياة ، بل هو مكملها، وهو ليس الخسارة ، بل هو جزء من اللعبة، ومن يدري، لعله أحلى أجزائها؟! أطلق سراح روحك ، وتعال معي يا بني، أرح عقلك ، فأنت لن تستطيع معرفة كل ش يء، فأرحه وتعال معي لأعلمك العطاء، لأعلمك كيف لا تخاف من الردى، فمن يحب، لا يموت، ومن يعط، لا يموت، ومن يضحي، لا يموت، وأنت لن تموت إذا ما عرفت أسرار الخلود. قل لي أيثير المطر صبابتك كما يفعل معي؟ أتسهر الليل مثلي؟ أتناجي الخيال؟ أنا اعرف بأنك تفعل هذا، ولكن تأوهاتك الليلية تموت عند نوافذ الصباح ، فتحزن! لا تحزن، فهناك الكثير من الليالي الآتية، يحزّ في نفسك أن الآخرين لا يفهمون ما تقول! لا تهتم،

انبذ كل هذا وتعال معي لأعلمك كيف تحب بدون شرح؟ وكيف تضحي بدون تفسير؟ وكيف تعطي بدون أن تنتظر المقابل؟ هب نفسك لتدخل دنيا حقيقية، دنيا الروح حيث يصم لحن الخلود أذنيك، ويمنعهما عن سماع لغط الضالّين. عندما تأتي معي ستصبح محبا ، ومن يتعلم الحب الحقيقي لا يحتاج إلى تعاليم أخرى، امن بنفسك وأقدم، فالله يسكن حناياك، والله ينصر المحبين.

عندما أردت سؤاله عن المكان الذي يريد أن يصطحبني إليه، لاحظت انه كان قد طال كثيرا! لم يكن ينظر باتجاهي، بل كان يرنو بحزن إلى ما كان يحدث خلفي! عندما التفتّ سمعت قرقعة السيوف! كان جمع من الناس يتقاتلون فيما بينهم!!! كان كل واحد منهم يقاتل خصما وعندما يتمكن منه، يلتفت إلى المقاتل الأقرب ليكون خصمه القادم، التفتّ إلى الشيخ الجليل لأطلب منه أن يوقفهم، ولكنه كان قد اختفى! فعدت إلى متابعتهم بهلع وخوف! وفجأة رأيت وجه حكيم بينهم، فكدت أن اصرخ، لولا أني تعرفت على وجه لطيف ، ومن بعده عرفت معظم الآخرين، حتى نبيل، عرفت انه موجود بينهم، ولكني لم أره! تضاعف خوفي. الله اكبر. أردت أن أتقدم لأمنعهم عن قتال أنفسهم، ولكن عجلة إسقاء توقفت بعيدا عنهم، لفتت انتباهي، القوا بسيوفهم ورماحهم وهرعوا إليها، سمعت صهيل خيول، ولكني لم أرها!!! كانت عجلة غريبة، في مقدمتها مقصورة صغيرة جدا للسائق! لم افهم كيف يتمكن من دخولها! ومع ذلك تسحب خزانا هائلا يبدو كأنه قنبيطة كبيرة، تهافتوا على مؤخرتها، ليشربوا منها سائلا ذهبيا يبدو كشهد مخفف، غافلهم واحد منهم، وولج مقصورة السائق ، تنبهوا عليه، فتبعوه، ليدخلوا تباعا إلى تلك المقصورة التي وسعتهم جميعا!. مت يا عدو الله، آخ!!!.

(نكوص)

عندما فتحت عيني ورأيت ولديّ يتابعان فلما تاريخيا في التلفاز بشغف. فرحت كثيرا، ولكني لم استطع أن انهض ، لشعوري بوهن، التفتا إليّ واكتفيا بالابتسام لي ، ثم عادا ليتابعا فلمهما! سمعت صوتي زوجتي وهي تداعب ديمة وتضحكها، بقيت مستلقيا في مكاني وأنا استعيد بذاكرتي أجزاء من الحلم الغريب ، فبدأت، ولكن! أما كفاني هذا اللغو كله؟ الم يحن وقت السكوت؟ ما يزال هناك الكثير مما يجب أن أقوله، ولكني يجب أن أتوقف، وقبل أن أتوقف يجب أن اعترف لكم بان لوحتي قد ترامت أطرافها ، وكثرت فيها التفاصيل، وهو ما لم اخطط له، ولكن شفيعي، إني لم أورد فيها تفاصيل غير مهمة، أوهذا ما اعتقده! لأني أردت الاستفادة من المساحات المتوفرة لدي فيها، أنا اعرف باني لم آتكم بجديد، لأني مجرد مذكّر، عسى أن تنفع الذكرى، فلا تغضبوا مني ، وان كان ما قلته زبدا ، فانه سيذهب جفاء ، ولكنه إن أفاد ، فانه سيمكث طويلا وانتم مرغمون!.

أنا لا أريد أن أثقل عليكم أكثر مما فعلت ، ولكن لا تنتظروا من الله أن يغير حالكم، لأنه لن يفعل حتى تغيروا ما بأنفسكم، فقط تذكروا إذا ما ابتليتم فاستتروا كما أمرتم ، على الأقل، لأنكم إن لم تفعلوا ، فستكونون عندها ليس قوما خاسرين فقط ، بل بُرُما أيضا!!! وعندما يقصم ثقل رزاياكم ظهوركم، تذكروا بأنكم كنتم قوما مكابرين!!!. لقد كانت نيتي أن أحاول مساعدتكم، ولكني اكتشفت أنكم بحاجة إلى نبي ل يفعل ذلك!!! وما أنا بنبي، وزمن الأنبياء قد مضى مثلما تعرفون، فتنبهوا.

عذرا لأني أتعبتكم مثلما أتعبت نفسي ، ولكن لا تحقدوا علي ، لأني في الحقيقة إنما كنت أخاطب نفسي، من خلالكم!!!.

2000-12-12

الثلاثاء

رباه، وأخيرا أكملت قراءة هذه الأوراق! لقد تصورت أحيانا باني لن أستطيع إكمالها! والله لو كنت اعرف أن معرفتي باللغة العربية القديمة بهذه السطحية ، لما كنت قد تورطت في القراءة، ولكني توهمت إن النصوص العربية التي درسناها في الكلية، كافية لهذا!!! ولكنه فضولي اللعين الذي جعلني أتصدى لمهمة الترجمة ، واحتمل بسببها عذاب اليوم، ولكن! ما معنى كل هذا؟! إن قراءتي لها لم تزد ها إلا غموضا! ما الذي حدث للأستاذ واثق؟ وما الذي كان المأفون الآخر يريد قوله؟.

يجب أن أقابل الأستاذ مرة أخرى، ولكن أين هو؟ بل هل كان موجودا بالفعل، أم هو وهم من أوهامي؟!!! و إلا ما الذي قصده ذلك الموظف اللعين في الكلية حين سألته عنه فقال لي:

ـ لم يكن هناك أستاذ بهذا الاسم في هذه الكلية؟!!!.

اللعنة، الم ادرس أنا في هذه الكلية بالذات؟ أولم يكن هو أستاذي؟. حسنا، لقد اخطأ ذلك الموظف، ولكن ما بال حاسوب الاستعلامات الذي أكد إجابته، أيعقل أن يكون مخطئا هو أيضا؟!. يا الهي، لقد تعبت كثيرا ، وتحولت المتعة التي كنت احلم بها ، إلى هم مقيم!، لقد تغيبت عن اللجنة كثيرا بسبب ما أنا فيه، وأغضبت مسؤولي!!! ولكن، يجب أن احل اللغز أولا، أما مسؤولي فسأجد طريقة لترضيته بكل تأكيد.

ولكن، أين أجد الأستاذ واثق؟ واسأل من ، عنه؟ لقد سألت حتى حواسيب المعلومات المدنية المتوافرة في كل أنحاء المدينة عن عنوانه وأرقام هواتفه، ف أنكرت جميعها وجوده يوما في هذه المدينة!!! هل يعقل ما يحدث؟! أم أني فقدت عقلي ، وبدأت أتوهم الأشياء؟!. ما العمل؟ وكيف أتصرف؟ لقد تحوّل الأمر إلى هاجس مضن يكاد يذهب بعقلي! سوف اجن! ولكن! لماذا اجن؟ لأدع الأمر برمته وليذهب الأستاذ إلى الجحيم. ولكن! أنا لن أستطيع أن أتجاوز الأمر بهذه السهولة، فما حدث كان اكبر من أن يُتجاهل، ولكن كيف ستتصرف يا شهيد؟ وكيف ستحل هذا اللغز الشيطاني؟! هل كان يجب أن تكلمه في ذلك اليوم؟ أما كان بإمكانك أن تتصرف وكأنك لم تره ، عندما لاحظت غرابة حاله؟! أما، ولكن! مهلا، مهلا، الم يكن الأستاذ حكيما؟ ألا يعني هذا أن كل المعلومات التي احتاجها ، موجودة الآن في مجلس الحكماء؟! أنا

اعرف مقر المجلس جيدا، لأذهب إليه وازيل كل هذا الغموض الذي لف هذه القضية الغريبة التي ورطت نفسي فيها.

ولكن! أما آن لهذا الكابوس اللعين أن ينتهي؟ أليست هذه هي ضاحية عبد العليم، حيث دواوين الوزارات كلها؟ أليست هذه هي وزارة العدل ، وتلك وزارة الدفاع؟ فأين هي بناية المجلس التي كانت تنتصب شامخة بين الاثنتين؟!!! هل ستخبرني الحواسيب بأنها لم تكن موجودة يوما في هذه المدينة؟!!! والله هو المكان المقصود ولا مجال للخطأ، ولكن أين هو المجلس؟!!! يا لهذا الكابوس الرهيب؟! لكم يبدو واقعيا؟!. ولكني اشعر بالألم في يدي التي قرصتها! وهذا هو مكان المجلس المختفي لم يزل أمامي!، أهذا يعني أن ما أعاني منه ليس كابوسا؟! فما هو إذا؟! آه، ها هو احد المارة يسير لاقترب منه واسأله:

ـ مرحبا يا سيد، هلا تخبرني أين هو مجلس الحكماء؟

ـ أي مجلس؟!

رباه! ما نظرة الاستغراب هذه التي رماني بها؟! هل يعقل أن أكون قد جننت؟! أو أن هذا المجلس لا وجود له إلا في خيالاتي؟! ذلك شخص آخر ، لأسأله هو أيضا، وان كنت مجنونا فلن يهمني ردود أفعال الآخرين بعد الآن؟!

ـ يا سيد، أين مجلس الحكماء؟

ـ أي حكماء؟!

يبدو أن هذا السيد يحب المزاح؟! لقد بدا هذا واضحا عليه من ابتسامته التي حاول أن يحمّلها مغزى واضحا وهو يجيبني!!! ولكن! هل كان يبدو علي أني أريد ممازحته، وأنا على ما أنا عليه من حيرة واضطراب؟! رباه هلا ساعدتني. فانا لم اعد اعرف كيف أتصرف! هل جننت؟ أم أن هذا كله أوهام مريض؟! ولكني يجب أن اعرف، يجب أن أتأكد.

ما هذا؟! كم هي الساعة الآن؟ وما الذي أرجعني إلى غرفتي؟! ترى، كم من الوقت أمضيته راكضا، أتنقل بين المارة، وأنا اسألهم عن مجلس الحكماء؟ وهم بين ممتعض من وقاحتي ، ومبتسم لنكتتي البارعة!!!. ولكن، آخ، ما هذا؟ تعب هائل يعتصر جسدي! وعجز مريب يشلّ تفكيري! اشعر وكأني أكاد افقد وعيي!!! يجب أن آوي إلى الفراش الآن، لأني لن أستطيع وأنا بحالتي هذه ، أن اخترق حجب الغموض الذي يكتم أنفاسي! لأنم الآن، وسنرى ما سيكون من امرنا فيما بعد.

هل أنا مستيقظ الآن؟ أم أني إستيقظت في الحلم فقط؟ كم من الوقت نمت؟ أم أني لم انم؟ إذا فتحت عيني ، فسأعرف ذلك بالتأكيد، ولكني لا أريد أن افتحها ، خوفا من أن أفاجأ بغموض جديد!. وهذا الصداع الرهيب! من أين أتى؟ والله هو يجعل من فكرة أن افتح عيني ، عذابا لا يحتمل!!! ولكني يجب أن انهض، ويجب أن أحاول إيجاد دربي ، بالبقية الباقية من عقلي، إن كان قد تبقى منه شي ء؟! يجب أن افتح عيني، ومهما بدا ذلك صعبا!.

ولكن! ما هذا؟! ما هذا؟! النجـــــــــــــدة!. هل يمكن أن يكون هذا حقيقة؟ لا، لا، لقد عرفت باني لن استيقظ إلا في الحلم! ولكن! كيف السبيل إلى الاستيقاظ؟!. وما جذوع النخيل هذه التي ترفع السقف الذي يظللني؟! أين غرفتي الأنيقة؟ أين أجهزتها المتطورة؟! ما هذا الجو الخانق؟ وما رائحة التراب هذه التي تكاد تزكمني؟ ما هذا الجدار الذي يكاد ينهار أمامي؟ هناك كوة صغيرة فيه! لأنهض واطلّ منها لأرى الغرائب الأخرى الموجودة خارج هذه الجدران الطينية المتداعية، ستكون هناك أعاجيب أخرى بكل تأكيد!!! أي عذاب أنزلت بي يا ربي؟ ولأي سبب؟ ولكن! مهلا. ما هذا؟! أين القدس؟! أين القدس؟! فانا لا أرى غير كثبان ممتدة ، تلتقي في الأفق بزرقة سماء، خلت من أي اثر لغيوم؟!!!